

رسائل الجاحظ

الجزء الثالث

القسَم الأول من
الفصول المُنارة من كُتُب الجاحظ
إختيار الإمام عبيد الله بن حسان

تَحْقِيقٌ وَشَرْحٌ
عَبْدُ السَّلَامِ مُحَمَّدُ هَارُونَ

shwaihy
31-8-2010

دار الجبل
بيروت

THE PRINCE OF THE
FOR QURANIC

رِسَائِلُ الْجَلِيزَاتِ

الجزء الثالث

القسَمُ الأوَّلُ مِنْ
الفُصُولِ المُنخَرَةِ مِنْ كُتُبِ الجَلِيزَاتِ
إِخْتِيَارَ الإِمَامِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ حَسَّانَ

تَحْقِيقَ وَشَرْحَ
عَبْدِ السَّلَامِ مُحَمَّدِ هَارُونَ

وَلَارِ المَجِيزِ
بَيْرُوتَ



جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م



تقديم

أيديك الله ، وأسبغ عليك من عظيم فضله وجميل نعمته ، ماترضى به وتطمئن إليه . وحفظك أخاً كريماً ترعى الود ، وتقيم على العهد .

وكنت قد وعدتك من قبل أن أتبع المجموعة الأولى من الرسائل ، وهي (مجموعة مكتبة داماد) ، بمجموعة أخرى لاتقل عنها قدراً إن لم تفقها ، وهي (مجموعة مختارات عبید الله بن حسان) .

وعدت عواد أن أبادر بإنجاز هذا الوعد ، مع بقائي عليه ، علم الله ، وامتداد بصري إلى صونه ورعايته .

فلما أذن الله ، وله الحمد ، أن أنهض بإتمام تحقيق هذه المختارات ، ضاعفت شكره ، وسعيت إلى نشرها بين يديك ، لتعلم أني على موعدى .

وقد أشرت في مقدمة الجزء الأول من رسائل الجاحظ إلى حصر أبرز المجموعات التي حفظت بها هذه الرسائل ، وهي :

١ - مجموعة مكتبة داماد (وقد نشرتها سنة ١٣٨٤ في جزأين بهما ١٧ كتاباً ورسالة) .

٢ - مجموعة فان فلوتن .

٣ - مجموعة الفصول المختارة لعبید الله بن حسان .

٤ - مجموعة محمد ساسی المغربي .

٥ - مجموعة ريشر .

- ٦ - مجموعة حسن السندوني .
٧ - مجموعة يوشع فنكل .
٨ - مجموعة بول كراوس وطه الحاجري .

ولست أعيد القول فيما اشتملت عليه كل مجموعة من هذه المجموعات الثمانية ، فإنها مسطورة بالتفصيل في مقدمة الجزء الأول من الرسائل .

وإنما يعنى القول في مجموعة واحدة هي المجموعة الثالثة من هذه المجموعات ، وهي (الفصول المختارة من كتب الجاحظ) ، إذ هي الأصل الذى اعتمدت عليه في إخراج الجزأين الثالث والرابع من رسائل الجاحظ .

وقد طبعت هذه المجموعة من قبل محررة مبتورة ، على هامش كامل المبرد بمطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٣ بعناية الشيخ على بن أحمد الهوارى .

وكان الذى حدانى إلى إعادة نشر هذه الفصول المختارة أمور :

أولها : ما لها من القدر الأدبي والتاريخي ، إذ أنها تشتمل على عيون من كتب الجاحظ ، هي في قمة ما أنشأه ، من حيث موضوعاتها المختلفة في الشؤون الإنسانية العامة . فهي دراسات نفسية واجتماعية ، ودينية وكلامية وجدلية ، وأدبية عالية ، وترفيهية سامية ، وإن كانت معظم كتب الجاحظ تلم بأطراف مما ذكرت ، ولكن التناول العميق لهذه الدراسات ، مما اختصت به أفراد هذه المجموعة النادرة .

فلا ريب أن الجاحظ قد تكلم في الحاسد والمحسود في أثناء كتبه كلاماً عابراً ، ولكنه حين يخص هذا الأمر بالدراسة والقول المستفيض ، يضى لنا جميع الجوانب التي يمكن أن تحيط به ، بقدر ما يثير إعجابنا وإمتاعنا .

وهو حين يقدم دراسة عن المعلمين ، يبسطها لنا مستوعباً أقصى ما يمكن كتابته في هذا اللون الأدبي من الكتابة في طائفة عظيمة من طوائف الناس .

وحين يتكلم على النساء والمرأة يجلو صفحة عريضة من نظراته ونظرة

ديناه ، بل ديانا نحن ، إلى نصف هذا البشر الذى يعاملنا وتعامل معه ، في
ثقة العالم وصراحة الدارس الموضوعى .

كما أن الدراسة التاريخية والسياسية في «مناقب الترك» تطلعتنا على جوانب
كانت غامضة على الكثير منا ، إذ فيها تباين نظرة الناس إلى هذا العنصر
البشرى وغيره من عناصر الدولة الإسلامية في ذلك العهد السحيق . وهى
وثائق سياسية لها قدرها السياسى إلى جانب قدرها الاجتماعى والإنسانى .
وهو الأمر الذى دعا أحد الأدباء^(١) إلى أن يضع كتاباً عنوانه : « الترك في
مؤلفات الجاحظ » ، وهو بحث له قدره ووزنه .

وكتابه في « المعلمين » حملنى من قبل أن أكتب في هذا الجانب دراسة
مستفيضة نشرت في مجلة « الكتاب » في عدد أغسطس سنة ١٩٤٦ .

وآراء الجاحظ في « حجج النبوة » ، و « خلق القرآن » جديرة بأن
تلقى دراسة وتمحيصاً .

وكتاب « الرد على النصارى » مظهر مضىء من مظاهر الحركات
الفكرية التى كانت سائدة في أزهى العصور الإسلامية ، ونموذج رائع
للجدال العلمى الرفيق مع أهل الكتاب بالتى هى أحسن .

وفي الحق أن في كل كتاب أو رسالة في هذه المجموعة التى بلغ تعدادها
٢٩ تسعة وعشرين كتاباً أو رسالة ، مثاراً للبحث والتأمل ، والمتعة التى
لا حدود لها .

وإننا لنجد بين القدماء من يغلو في تقدير كتب الجاحظ ، ويتجاوز
حدود الوقار فيقول^(٢) : « رضيت في الجنة بكتب الجاحظ عوضاً عن
نعيمها » .

(١) هو الأديب زكريا الكتانجى . وقد نشر كتابه في دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٧٢ .

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن حمود الزبيدى الأندلسى ، تلميذ السيرافى والفارسى

والقالى . بنية الوعاة ٨٢٢ .

والأمر الثاني : أن النشرة الأولى لهذه المجموعة نشرة غير علمية ، وإن كان لناشرها المغمور فضل السبق في إظهارها ، وتمكين الباحث إلى قدر ما من الاستعانة بها في المجال العلمي .

وثالثها : أن بتلك النسخة المطبوعة سقطاً كبيراً تناول نحو عشر رسائل . وهو قدر كبير كان لا بد من إثباته في نشرة جديدة ، كتب الله لي فضل إخراجها .

وهذا السقط يبدأ من منتصف كتاب النصارى إلى أوائل كتاب « النبل والتنبل وذم الكبر » .

ورابعها : أن أصل النسخة المطبوعة غير معروف ، شأنها في ذلك شأن كثير مما نشر من أفراد التراث العربي وأظهرته المطابع في هذا العهد المتطلع إلى النهوض من عثرات التخلف .

وخامسها : أن مخطوطة التيمورية التي جعلتها أحد أصول التحقيق في نسختي هذه ، تنتمي إلى أصل عتيق ، ففي نهايتها نجد هذا النص :

« انتهاء الفصول التي اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة في يوم الجمعة المبارك الموافق لثلاث خلت من شهر ذي القعدة من شهر سنة ١٣١٥ خمسة عشر وثلاثمائة بعد الألف من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم . وقد تم نسخها بيد العبد الحقير ، المعترف بالعجز والتقصير ، عبد أهل السنة والجماعة ، الخاضع لله بالدعاء والطاعة ، الراجي لطف ربه الغني ، محمد بن عبدالله بن إبراهيم الزمراني ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين بمنه وكرمه ، والصلاة والسلام على خير خلقه ، والحمد لله وحده . تمت بحمد الله وعونه وحسن توفيقه آمين .

وقد نقلت هذه النسخة المباركة من نسخة تاريخها في أوائل شهر رجب الأصم سنة ٤٠٣ ثلاث وأربعائة ، كاتبها أبي القاسم (كذا) عبيد الله بن علي » .

وهذه النسخة التيمورية وقرينتها نسخة الأزهر المودعة برقم [٢٣١] أباطة ٦٨٣٦ كتبها وراق واحد، هو محمد بن عبدالله بن إبراهيم الزمراني ، كتب نسخة التيمورية سنة ١٣١٥ ومن قبلها نسخة الأزهر سنة ١٣١٣ . وفي آخر نسخة الأزهر ما نصه :

« انتهاء الفصول التي اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة خامس يوم شهر محرم الحرام افتتاح سنة ٣١٣ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل السلام وأزكى التحية ، بقلم العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير محمد بن عبدالله بن إبراهيم الزمراني ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين » .

وقد رجح لدى أن هاتين النسختين منقولتان من نسخة واحدة هي التي أشار إليها الناسخ في ختام التيمورية .

لذلك ، ولأن الكاتب للنسختين وراق واحد ، ولأن التحريف والأسقاط والزيادات فيهما واحدة اعتمدت على النسخة التيمورية ، راكتفيت بها عن صنوها نسخة الأزهر .

وهذه النسخة التيمورية تعد من حيث الصحة والكمال فوق نسخة المتحف البريطاني .

وعلى هذا فقد استقرت المقابلة في نشرتي هذه على ثلاثة أصول :

١ - الأصل الأول : نسخة المتحف البريطاني ، وهي أقدم الأصول الثلاثة تاريخياً ، وكتب على صدرها :

« هذا كتاب مختارات فصول الجاحظ عني عنه ، كتب برسم خزانة الأمير الفاضل موسيو كريمير النمساوي^(١) ، بمحروسة مصر سنة ١٨٧٧ م » . وهي تقابل سنة ١٢٩٤ الهجرية .

(١) هو البارون النمساوي فون كريمير (١٨٢٨ - ١٨٨٩) . ولد في فيينا وتخرج في جامعها ، فأرسلته دولته قنصلا لها بمصر ثم بيروت سنة ١٨٧٠ . وكان من أصحاب النشاط =

ومنها نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٦٩ وهي في ٢٩٩
لوحاً في مجلدين ، تشتمل صفحة اللوح على ١٧ سطراً بكل سطر نحو ثمانى
كلمات . وقد التزم فيها علامات الإلحاق في أسفل الصفحات اليمنى .
وقد كتبت النسخة بخط نسخي جيد مجرد من الضبط . وجاء في خاتمتها :

« انتهاء الفصول التي اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبي عثمان
عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله تعالى . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة
يوم الجمعة المبارك الثامن عشر من شهر صفر الخير من سنة ١٢٩٤ بعد
الألف من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية ، على
يد كاتبها الفقير عبد الله المنصوري . اللهم اغفر له ولوالديه . آمين آمين .

وقد رمزت إلى هذه النسخة في التعليقات والمقابلات بالرمز (ب)
إشارة إلى المتحف البريطاني .

٢ - الأصل الثاني : نسخة المكتبة التيمورية ، وهي مودعة بدار الكتب
المصرية برقم ١٩ أدب تيمور . وكتب على صدرها :

« هذا كتاب مختارات فصول الشيخ الهمام ، العالم العلامة والبحر الفهامة ،
أبي عثمان الجاحظ ، تغمده الله برحمته ، وأسكنه فسيح جنته ، بمنه وكرمه .
آمين » .

وهي كذلك مكتوبة بالخط النسخي الجيد ، مجردة من الضبط ، إلا
ما قام به المغفور له أحمد تيمور باشا من بعض الضبط والمقابلات في الرسالة
الأولى منها ، وهي « رسالة الحاسد والمحسود » . وهي مقابلات على مطبوعة
الساسي في مجموع رسائله . وكذلك بعض المقابلات على تلك المطبوعة أيضاً
في رسالة الجاحظ إلى الفتح بن خاقان في « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » .

= السياسى والاستشراقى . وقد ابتاعت مكتبة المتحف البريطانى مكتبته الشرقية ، كما ذكر نجيب
العقيبى فى كتابه المنشور فى ٢ : ٦٣١ . ومن منشوراته : المغازى للواقدى بمقدمة وشروح
انجليزىة (كلكتا وبرلين ١٨٥٥ - ١٨٨٨) ، والقصيدة الحميرية لنشوان بن سعيد الحميرى
(ليزبيج ١٨٦٥) .

وهي في ٢٠٨ ورقة عدد صفحاتها ٤١٧ صفحة ، بكل صفحة ٢١
واحد وعشرون سطراً بكل سطر نحو ١١ كلمة .
وقد أشرت إلى ختام هذه النسخة فيما سبق .

ورمزت لهذه النسخة بالرمز (م) مقتبساً من التيمورية .

٣- الأصل الثالث : أصل استثناسي ، هو النسخة المطبوعة بهامش
كامل المبرد في مطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٣ وعنوانها : « الفصول المختارة
من كتب الإمام أبي عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكنانى البصرى
المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ هجرية ، اختيار الإمام عبيد الله بن حسان رحمه الله
ونفعنا به آمين » .

وخاتمها : « انتهت الفصول التي اختارها عبيد الله بن حسان من كتب
أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله تعالى ، والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله وصحبه أجمعين » .

وهي في جزأين : الأول في ٣٩٦ صفحة ، والثاني في ٣٠١ صفحة .
وهذه النسخة بها كثير من النقص كما أشرت إلى ذلك من قبل ، ولكنها
مصححة محررة بشيء من العناية ، قام على تصحيحها مقرونة بكامل المبرد
« راجى عفو البارى ، على بن أحمد الشهير بالهوارى » .

ولا يعلم الأصل الذى طبعت منه ، ولا ريب أنه غير النسخ التي سبق
الكلام عليها ، أى النسخة الأزهرية ونسخة تيمور ، ونسخة المتحف
البريطاني .

وقد أشرت إليها بالرمز (ط) .

وليك فهرسها مقارناً بفهرس النسخة التيمورية ونسخة المتحف
البريطاني :

فالرقم الأول لصفحات التيمورية ، يليه رقم ألواح مصورة نسخة المتحف
البريطاني ، وبعده أرقام صفحات النسخة المطبوعة على هامش الكامل للمبرد :



مطبوعة هامش الكامل

التحفة البريطاني	التيمورية	الحامد والخمود
١٦-٢ : ١	١٣- ٢	١- الحامد والخمود
٣٠- ١٧	٣٢- ١٣	٢- الملمين
٩٧- ٣٠	٦٩- ٣٢	٣- التزييع والتدوير
١٢٠- ٩٧	٨١- ٧٠	٤- ملح النبيل
١٣٠- ١٢٠	٨٦- ٨١	٥- طبقات المعين
١٦٦- ١٣٠	١٠٤- ٨٦	٦- النساء
٢٧٥- ١٦٦	١٤٣- ١٠٥	٧- مناقب الترك
١١٧:٣- ٢٧٥	١٩٠- ١٤٣	٨- صحيح النبوة
١٤٨- ١١٧	٢٠٢- ١٩٠	٩- خلق القرآن

- (١) نشر أيضاً في صدر مجموعة الساسي ٢- ١٣ بأن قام مستقلة عن المجموعة ، كما ورد في دراسات ريش ١٨٠- ١٨٢ .
- (٢) هو أيضاً في مجموعة ريش ١٠١- ١٠٨ .
- (٣) نشر في مجموعة فان فلتون ٨٦- ١٥٦ والساسي ٨٢- ١٤٧ وريش ٢١٢-٢٥٥ والسنتوني ١٨٧- ٢٤٠ ، ونشر مستقلاً شارل بلا في دمشق سنة ١٩٥٥ .
- (٤) السنوي ٢٥٨- ٢٩١ وريش ١١١- ١١٢ .
- (٥) مجموعة الساسي ١٨٦- ١٩٠ وريش ٢٠٤-٢٠٦ .
- (٦) أو المعنى والنساء . مجموعة الساسي ١٦١- ١٦٩ وريش ١٨٨- ١٩٤ والسنتوني ٢٦٦- ٢٧٦ .
- (٧) سبق نشره من مجموعة داماد في ٨٦: ١ . وهو في مجموعة ريش ٣٠٧-٢١٠ باسم فضائل الأثرak ، ذكر فيها محتوياته .
- (٨) نشر أيضاً في مجموعة ريش ١١٢-١٥٩ والسنتوني ١١٧-١٥٤ . وهو في الجوان ١ : باسم « كتاب الحجة في تثبيت النبوة » . لم ينشر منه شيء إلا في هامش الكامل . وانظر الجوان ١ : ٩٠ إذ أشار إليه .



مطبوعة هامش الكامل	المنصف البريطاني	التيمورية	الرد على النصارى
١٤٨ - ١٨٤	١٢٩ظ - ١٥٥ظ	٢٠٢ - ٢٣٦	١٠ - الرد على النصارى
-	١٥٥ظ - ١٦١ و	٢٣٦ - ٢٤٤	١١ - الرد على المشبهة
-	١٦١ و - ١٧٥ و	٢٤٤ - ٢٦١	١٢ - مقالة الغمائية
-	١٧٥ - ١٨٥ظ	٢٦١ - ٢٧٥	١٣ - المسائل والجوابات في المرفة
-	١٨٥ظ - ١٩٠ظ	٢٧٥ - ٢٨٢	١٤ - المعاد والمعاش
-	١٩٤ظ - ١٩١ظ	٢٨٢ - ٢٨٧	١٥ - الجسد والفرول
-	١٩٩ظ - ١٩٩ و	٢٨٧ - ٢٩٣	١٦ - الركلاء
-	٢١٩ظ - ٢١٩ظ	٢٩٣ - ٣١٩	١٧ - الأوطان والبلدان
-	٢٢٠ظ - ٢١٩ظ	٣١٩ - ٣٢٠	١٨ - البلاغة والإيجاز

(١٠) مجموعة ريشير ٤٠-١٧ ويوشع فنكل ١٠-٣٨ وقد أشار إليه الجاحظ في الحيوان ١ : ٩ بقوله « وكتاب على النصارى واليهود »
والكتاب يتناولها معاً ، ولكن هكذا وردت تسميته مختصرة في العظومات والمطبوعات .

(١١) لم تنشر قبل . ولكن هكذا وردت تسميته مختصرة في العظومات والمطبوعات .

(١٢) نشر السنهوري خلاصتها في مجموعته ص ١ - ١٢ . ونشرت كاملة بتحقيق عبد السلام هارون . دار الكتاب العربي ١٣٧٤ - ١٩٥٥ . وانظر الحيوان ١ : ١١ .

(١٣) لم يسبق نشر شيء منها . وهي وسابقتها مما سقط من النسخة المطبوعة على هامش الكامل . وانظر الحيوان ١ : ٩ .

(١٤) سقط من النسخة المطبوعة على هامش الكامل أيضاً . وسبق نشره من مجموعة داماد في الجزء الأول من الرسائل ١ : ٨٧ - ١٣٣ .

(١٥) سبق في مجموعة داماد بالجزء الأول ص ٢٢٧ - ٢٧٨ . (١٦) مجموعة الساسي ١٧٠ - ١٧٢ وريشير ١٩٤ - ١٩٥ .

(١٧) ويسمى أيضاً « الأعمار وصحائب الابدان » . وهو غير كتاب « الحنين إلى الأوطان » الذي سبق نشره في الرسائل بتحقيقنا ٢ : ٣٧٩ .

(١٨) لم تنشر من قبل .



مطبوعة هامش الكامل

المصحف البريطاني

التيمورية

—	٢٢٠ ظ — ٢٢٧ ظ	٣٢٩ — ٣٢٠	١٩ — تفصيل البطن على الظهر
١٨٤ — ١٩٩	٢٢٧ ظ — ٢٣٨ ظ	٣٤٢ — ٣٢٩	٢٠ — النبل والتبيل وذم الكبر
١٩٩ — ٢١٢	٢٣٨ ظ — ٢٤٥ ظ	٣٥٢ — ٣٤٢	٢١ — المودة والخلافة
٢١٢ — ٢٢٠	٢٤٥ ظ — ٢٥٠ ظ	٣٥٨ — ٣٥٢	٢٢ — استحقاق الإمامة
٢٢٠ — ٢٢٧	٢٥٠ ظ — ٢٥٤ و	٣٦٢ — ٣٥٨	٢٣ — استنجاز الوعد
٢٢٧ — ٢٣٨	٢٥٤ و — ٢٦٠ ظ	٣٧٠ — ٣٦٢	٢٤ — تفصيل النطق على الصمت
٢٣٨ — ٢٤٦	٢٦٠ ظ — ٢٦٥ و	٣٧٦ — ٣٧٠	٢٥ — صناعة الكلام
٢٤٦ — ٢٥١	٢٦٥ و — ٢٦٨ و	٣٧٩ — ٣٧٦	٢٦ — مدح التجارة وذم عمل السلطان
٢٥١ — ٢٦٩	٢٦٨ و — ٢٧٨ ظ	٣٩١ — ٣٧٩	٢٧ — الغارب والمشروبات
٢٦٩ — ٢٩١	٢٧٨ ظ — ٢٩١ و	٤٠٧ — ٣٩١	٢٨ — استحقاق الإمامة
٢٩١ — ٣٠١	٢٩١ و — ٢٩٩ و	٤١٧ — ٤٠٨	٢٩ — مقالة الزيدية والرافضة

(٢٠) لم ينشر منها إلا قطعة على هامش كامل البيرد.

(١٩) لم تنشر من قبل .

(٢١) هي رسالة إلى أبي الفرج السبوي . ٣١٦ — ٣٠٠ . وقد سبق في ١ : ٣٢٢ — ٣٢١ .

(٢٢) ريش ١٦٨ — ١٧٩ و السبوي ٢٤١ — ٢٦٠ .

(٢٣) ريش ١٥٩ — ١٦٣ .

(٢٤) السامي ١٤٨ — ١٥٤ و ريش ١٨٢ — ١٨٦ .

(٢٥) السامي ١٥٥ — ١٦٠ و ريش ١٨٦ — ١٨٨ .

(٢٦) السبوي ٢٤١ — ٢٥٩ .

(٢٧) لم يسبق نشرها إلا في الفصول المتفارة على هامش الكامل . وقد أنزل إليها الجاهل الخبيث : ٧ .

(٢٨) لم يسبق نشرها إلا في الفصول المتفارة على هامش الكامل . وقد أنزل إليها الجاهل الخبيث : ٧ .

أجمعت المخطوطات والمطبوعات أن جامع هذه الفصول ومختارها هو (عبيد الله بن حسان) لم تزد على ذلك شيئاً . فليس هناك ما يدل على بلده ، ولا على نسبته ، أو ما يدل على صفته العلمية بين أهل العلم من الفقهاء ، أو المحدثين أو المؤرخين ، أو المشتغلين بعلوم العربية . وليس هناك أيضاً ما يعين مولده أو ينص على سنة وفاته .

وقد بحثت ما أمكنني البحث ، وتقصيت ما أمكن التقصي ، أن أعثر له على ترجمة أو خبر فيما لدى من المراجع ، وكذا في جميع المطان ، ولا سيما تلك التي تعنى بترجم الرجال من أهل الحديث أو الأدب أو علوم العربية ، وساءلت عنه فلم أجد له ترجمة أو خبراً .

ولكن ما لا ريب فيه أنه أديب قديم جداً ، أمكنه أن يظفر بجمهرة عظيمة من كتب الجاحظ قبل أن تبيد ويعنى عليها الزمان ، فحفظها لنا ، واستحق بذلك أن يخلد اسمه على كتب صانها وانتزعها من أكف البلى والضياع .

وإذا حاولنا أن نعرف زمنه استطعنا أن نقول : إن حياته لم تتجاوز القرن الخامس الهجري ، إن لم نقل الرابع ، أي إنه قريب عهده من عصر الجاحظ نفسه المتوفى سنة ٢٥٥ ، أي في النصف الثاني من القرن الثالث .

وهذا مستفاد مستخلص مما كتبه الوراق محمد بن عبدالله الزمراني في ختام النسخة التيمورية ، إذ نص على أنه نقل نسخته من نسخة تاريخها في أوائل شهر رجب الأصم سنة ٤٠٣ ثلاث وأربعمائة ، كاتبها أبي القاسم (كذا) عبيد الله بن علي (١) .

(١) أمكنني أن أعثر على ترجمة لهذا الفاسخ القديم، فهو أبو القاسم عبيد الله بن علي بن عبدالله الرقي . قال الخطيب : سكن بغداد في درب أبي خلف من قطيعة الربيع . وكان أحد العلماء بالنحو والأدب واللغة ، عارفاً بالفرائض وقسمة الموارث، وحدث شيئاً يسيراً عن أبي أحمد الغرضي كتبت عنه وكان صدوقاً . وسألته عن مولده فقال : ولدت في سنة إحدى وسبعين وثلثمائة . ومات في يوم الخميس الثاني من شهر ربيع الآخر سنة خمسين وأربعمائة . ودفن في يومه في مقبرة باب حرب . تاريخ بغداد ١٠ : ٣٨٧ - ٣٨٨ .



ومما لا ريب فيه أيضاً أن عبید الله بن حسان قد جمع فأحسن التأليف ، واختار فأجاد الاختيار ، وكأنه لم يرتفع إلى القدر الذى يرقى به إلى أن يوضع فى دائرة المترجمين الأعلام .

وأما بعد ، فهذا جهد متواضع أضمه إلى ما سبق لى من جهود . وعسى أن أوفق فيما أستقبل من دهرى إلى أن أقوم بنشر ما لم تمسه يد التحقيق منى من مؤلفات شيخنا الجاحظ وآثاره الحسان ، مما أفلنته عوادي الزمان وصار إلينا كنزاً وذخراً .

والله الموفق والمستعان .

عبد السلام محمد هارون } أول ربيع الثانى سنة ١٤١٩ هـ
مصر الجديدة فى } ٢٨ من فبراير سنة ١٩٧٩ م



١

من كتابه في
الحائِدَ والمَحْسُودَ

وقف الأمير غازي للفكر القرآني
A 1977
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT
Est. 2012 CE





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه تفتي

١ - فصل

من صدر كتابه

في الحاسد والحسود^(١)

وَهَبَ اللَّهُ لَكَ السَّلَامَةَ ، وَأَدَامَ لَكَ الْكِرَامَةَ ، وَرَزَقَكَ الْإِسْتِقَامَةَ ،
وَرَفَعَ عَنْكَ النَّدَامَةَ .

كتبت إلى - أَيْدِكَ اللَّهُ - تسألني عن الحسد ما هو ؟ ومن أين هو ؟
وما دليله وأفعاله ؟ وكيف تُعرف أموره وأحواله^(٢) ، وبم يُعرف ظاهره
ومكتومه ، وكيف يعلم مجهوله ومعلومه ، ولم صار في العلماء^(٣) أكثر منه
في الجهلاء ؟ ولم كثر في الأقرباء وقل في البعداء^(٤) ؟ وكيف دب
في الصالحين أكثر منه في الفاسقين ؟ وكيف خُصَّ به الجيران من بين
جميع أهل الأوطان^(٥) .

والحسد - أبقاك الله - داءٌ يَنهك الجسد ، ويُفسد الوُدَّ^(٦) ، علاجه

(١) نشرت كاملة من قبل في مجموعة رسائل الجاحظ نشرة الساسي ١٣٢٤ . وقد أشرت إليها

بالرمز « مج » .

(٢) مج : « وكيف تفرقت » . وفي ب : « أموره أحواله » ، تحريف .

(٣) ب : « ولم صاروا العلماء » ، صوابه في سائر النسخ .

(٤) مج : « وقل منه في البعداء » .

(٥) مج : « من جميع الأوطان » .

(٦) م : « الرد » تحريف . وفي ط ، مج : « الأود » ، وهي بضم الواو جمع ود بالكسر

وهو الحبيب ، مثل قح وأقح .

عَسِيرٌ (١) ، وصاحبه ضَجِرٌ (٢) . وهو بابٌ غامضٌ وأمرٌ متعذرٌ ، وما ظهر منه فلا يُداوَى ، وما بطن منه فمُداوِيهٌ في عَناءٍ . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « دَبٌّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ (٣) مِنْ قَبْلِكُمْ : الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ » . [وقال بعض الناس لجلسائه : أَى النَّاسِ أَقْلُ غَفْلَةٌ ؟ فقال بعضهم : صاحبُ لَيْلٍ ، إِنَّمَا هُمُ أَنْ يُصْبِحَ . فقال : إِنَّهُ لَكَذَا وَلَيْسَ كَذَا . وقال بعضهم : المسافرُ ، إِنَّمَا هُمُ أَنْ يَقْطَعَ سَفْرَهُ . فقال : إِنَّهُ لَكَذَا وَلَيْسَ كَذَا . فقالوا له : فَأَخْبِرْنَا بِأَقْلِ النَّاسِ غَفْلَةٌ . فقال : الحاسدُ ، إِنَّمَا هُمُ أَنْ يَنْزِعَ اللَّهُ مِنْكَ النِّعْمَةَ الَّتِي أَعْطَاكَهَا ، فَلَا يَغْفُلُ أَبَدًا .

ويروى عن الحسن أنه قال : الحسد أسرع في الدين من النار في الحطب اليابس (٤)] .

وما أتى المحسود من حاسده إلا من قبل فضل الله عنده ونعمه عليه (٥) قال الله عز وجل : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٦) ﴾ .

والحسد عقيد الكفر ، وحليف الباطل ، وضد الحق ، وحرب البيان . فقد ذمَّ الله أهل الكتاب به فقال : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ (٧) ﴾ .

- (١) ب : « وعلاجه عسير » م « علاجه عسير » ، وأثبتت ما في ط ، ومع .
 (٢) م « ضجير » ، تحريف .
 (٣) داء الأمم ، ساقطة من ب . والحديث رواه أحمد والترمذي . الجامع الصغير ١ : ٥٦٣ .
 (٤) هذه التكلفة من ط ، مع .
 (٥) مع : « من قبل فضل الله تعالى إليه ونعمته عليه » .
 (٦) الآية ٥٤ من سورة النساء .
 (٧) من الآية ١٠٩ من سورة البقرة .

منه تتولد العداوة^(١) ، وهو سببُ كلِّ قطيعة، ومُنتجُ كلِّ وحشة ، ومفروق كلِّ جماعة ، وقاطع كلِّ رحمٍ بين الأقرباء^(٢) ، ومُحدث التفرُّق بين القرَّناء ، ومُلتحج الشرِّ بين الخلطاء^(٣) ، يكُمِّن في الصدرِ كموثِّق النَّارِ في الحجر .

ولولم يدخل على الحاسد بعد^(٤) تراكم الغموم على قلبه ، واستمكان^(٥) الحزن في جوفه ، وكثرة مَقْضيه وسواس ضميره ، وتغصُّص^(٦) عمره . وكدرِ نفسه ونكد عيشه^(٧) ، إلا استصغاره^(٨) نعمة الله عليه^(٩) ، وسخطه على سيِّده بما أفاد غيره^(١٠) . وتمنَّيه عليه أن يرجع في هبته إليَّاه ، وأن لا يرزق أحداً سواه ، لكان عند ذوى العقول مرحوماً^(١١) ، وكان لديهم^(١٢) في القياس مظلوماً . [وقد قال بعضُ الأعراب : ما رأيتُ ظالماً أشبه بمظلومٍ من الحاسد : نفسٌ دائمٌ ، وقلبٌ هائمٌ ، وحزنٌ لازمٌ^(١٣)]

(١) مج : « فنه » ، ب فقط : « يتولد » .

(٢) ب : « وسخ » بإهمال الحرف الثاني ، ولعلها « سنخ » بكسر السين ، بمعنى الأصل . وأثبت ما في سائر النسخ .

(٣) ب ، ط : « من الأقرباء » .

(٤) ب ، ط : « بين الخلفاء » .

(٥) م : « غير »

(٦) ب ، ط : « واستمكان » ، تحريف .

(٧) مج : « وتغصص » .

(٨) مج : « ونكد لذادة معاشه » .

(٩) م : « إلى » .

(١٠) ط ، م : « نعمة الله فقط ، وفي مج : « لنعمة الله عنده » ، وأثبت ما في ب .

(١١) مج : « بما أفاده الله عبده » .

(١٢) م ، ط : « مرحوماً » بالجيم . وفي هامش م : « لعله مرحوماً » .

(١٣) مج : « وكان عندهم » وكذا أثبت بخط مخالف فوقها في م .

(١٤) التكلة من ط ، مج .

والحاسد مخذول وموزور^(١) ، والمحسود محبوب ومنصور . والحاسد
مغموم ومهجور ، والمحسود مغمى ومزور^(٢) .

والحسد - رحمك الله - أول خطيئة ظهرت في السموات . وأول
معصية حدثت في الأرض ، خُصَّ به أفضل الملائكة فعصى ربه ،
وقايسه في خلقه^(٣) ، واستكبر عليه فقال : ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ
مِنْ طِينٍ^(٤) ﴾ ، فلعنه وجعله إبليساً ، وأنزله من جواره بعد كان أنيساً ،
وشؤه خلقه تشويهاً ، وموهه على نبيه^(٥) تمويهاً نسي به عزم ربه . فواقع
الخطيئة ، فارتدع المحسود^(٦) وتاب عليه وهدى ، ومضى اللعين الحاسد
في حسده^(٧) فشقى وعوى .

وأما في الأرض فابنا آدم^(٨) حيث قتل^(٩) أحدهما أخاه . فعصى
ربه وأتكل أباه . وبالحسد طوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح
من الخاسرين .

لقد حمله الحسد على غاية القسوة^(١٠) ، وبلغ [به^(١١)] أقصى حدود

-
- (١) موزور ، من الوزر ، وهو الذنب والإثم ، ويقال مأزور ، أيضاً بالإبدال ، ومنه
في الحديث : « ارجعن مأزورات غير مأجورات » . وفي معج : « ومأزور » على الإبدال .
(٢) منشى : يفتش الناس ويوزرونه . م : « مغمور ومسور » ويخط مخالفاً فوقها :
« منشى ومزور » كما في معج . وفي ب : « منشى ومسور » .
(٣) معج وتعليقات م : « وقايسه بخلقه » .
(٤) من الآية ١٢ من الأعراف ، ٧٦ من سورة ص .
(٥) ب ، ط : « على مثله » ، م : « على تمثيله » ، معج : « على أنبيائه » ولعل وجهه ما أثبت .
(٦) ب : « فارتجع » ، وأثبت ما في سائر النسخ .
(٧) معج ويخط مخالفاً في م : « على حسده » .
(٨) ب فقط : « فابناء آدم » ، تحريف .
(٩) ب ، ط : « حسد » موضع « حيث قتل » .
(١٠) ب ، ط : « فقد حمله الحسد إلى غاية القسوة » .
(١١) التكلفة من م ، معج .

اللعقوق ، فأنساه من رَحْمَةِ جَمِيعِ الْحَقُوقِ ^(١) ، إِذْ أَلَى الْحَجْرَ عَلَيْهِ شَادِخًا ^(٢) وَأَصْبَحَ عَلَيْهِ نَادِمًا صَارِخًا .

ومن شأن الحاسد إن كان المحسود غنيًّا أن يوبِّخه على المال فيقول ^(٣) : جَمَعَهُ حَرَامًا وَمَنَعَهُ أَثَامًا ^(٤) . وَالْبُ ^(٥) عَلَيْهِ مَحَاوِيحَ أَقَارِبِهِ فَتَرَكَهُمْ لَهُ خُصْمَاءً ^(٦) ، وَأَعَانَهُمْ فِي الْبَاطِنِ وَحَمَلَ الْمَحْسُودَ عَلَى قَطِيعَتِهِمْ فِي الظَّاهِرِ وَقَالَ لَهُ ^(٧) : لَقَدْ كَفَرُوا بِمَعْرُوفِكَ ، وَأَظْهَرُوا فِي النَّاسِ ذَمَّكَ ، فليس ^(٨) أَمْثَلُكُمْ يُوصِلُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَشْكُرُونَ . وَإِنْ وَجَدَ لَهُ ^(٩) خُصْمًا أَعَانَهُ عَلَيْهِ ^(١٠) ظَلَمًا ، وَإِنْ كَانَ مِنْ يَعاشرِهِ فَاسْتِشَارَهُ غَشَّةً ، أَوْ تَفَضَّلَ عَلَيْهِ مَعْرُوفٍ كَفَرَهُ ^(١١) ، أَوْ دَعَاهُ إِلَى نَصْرِ خِذْلِهِ . وَإِنْ حَضَرَ ^(١٢) مَدَحَهُ ذَمَّهُ وَإِنْ سُئِلَ عَنْهُ هَمَزَهُ ، وَإِنْ كَانَتْ ^(١٣) عِنْدَهُ شَهَادَةٌ كَسَمَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْهُ إِلَيْهِ زَلَّةٌ ^(١٤) عَظَّمَهَا ، [وَقَالَ : إِنَّهُ ^(٥)] يَحِبُّ أَنْ يَعاَدَ وَلَا يَعاوِدَ ، وَيُرِي عَلَيْهِ الْعُقُودَ ^(١٦) .

(١) ب ، ط : « من رحمة » ، وأثبت ما في م ، وهذه العبارة ساقطة من مج .
(٢) الشدخ : الكسر والتشبيم . ماعدا مج : « تفادخا » ، والمعروف الفدخ ، فدخه يفدخه فدخًا : شدخه .

- (٣) م ، مج : « وقال » .
(٤) الأثام ، كسحاب : الإثم والذنب . ماعدا مج : « أيتامًا » .
(٥) ألهم تأليبيًا : جمعهم على عداوته . ماعدا مج : « وغلب » .
(٦) خصماء : جمع خصيم ، وهو الخصام ، كالجلبين بمعنى المجالس . ب ، ط : « خصما » .
(٧) ب ، ط : « فقال » فقط .
(٨) ب ، ط : « ليس » فقط . م : « وليس » ، وأثبت ما في مج .
(٩) ط ، ب : « لهم » ، صوابه في م ، مج .
(١٠) م : عليهم » ، تحريف .
(١١) ب : « أو يفضل عليه معروف كفروه » ، صوابه في سائر النسخ .
(١٢) م ، مج : « أو حضر » .
(١٣) مج : « أو كانت » .
(١٤) الزلة : الخطيئة والسقطة . ب فقط : « ذلة » تحريف .
(١٥) التكلية من مج .

(١٦) هذا ما في مج . وفي سائر النسخ : « القمود » . وكان العرب يقعدون الحزب اترؤسائهم وماوكلهم . انظر ما سياتي في نهاية هذا الفصل ص ١٠ .

وإن كان المحسود عالماً قال : مبتدع ، ولرأيه مُتَّبِعٌ ^(١) ، حاطبٌ ليلٍ ومبتغى نيلٍ ^(٢) ، لا يدري ^(٣) ، ما حمل ، قد ترك العمل ، وأقبل على الحيل ^(٤) . قد أقبل بوجوه النَّاسِ إليه ، وما أَحْمَقَهُمْ إذ انثالوا عليه ^(٥) . فَفَبَّحَهُ اللهُ من عالمٍ ما أعظم بليته ^(٦) ، وأقل رِعته ^(٧) ، وأسوأ طعمته ^(٨) .

وإن كان المحسود ذا دينٍ قال : مُتَّصِعٌ يَغْزُو لِيُوصَى إِلَيْهِ ^(٩) ، ويحجُّ لِيُثْنَى بِشَيْءٍ عَلَيْهِ ^(١٠) ، ويصوم لِتُقْبَلَ شهادته ^(١١) ، ويُظْهِرُ النَّسْكَ لِیُودَعَ المَالُ بَيْتَهُ ، ويقرأ في المسجد لِيزُوِّجَهُ جَارُهُ ابْنَتَهُ ، وَيَحْضُرُ الجَنَائِزَ لِتُعْرَفَ شُهْرَتُهُ .

وما لقيت ^(١٢) حاسداً قطُّ إِلَّا تَبَيَّنَ لَكَ ^(١٣) مكنونه بتغيُّر لونه وتحوُّص عينه ^(١٤) وإخفاء سلامه، والإقبالِ على غيرك والإعراض

- (١) أي إنه يتبع غيره في الرأي ، ليس بنى رأى . ب ، ط : « لرأيه » بسقوط الواو .
 (٢) مع : « ومتبع نيل » .
 (٣) م ، مع : « ما يدري » .
 (٤) ب ، ط : « فأقبل على الحيل » .
 (٥) انثالوا عليه : انصبوا وتناهبوا . ب : « انثالوا » صوابه في سائر النسخ .
 (٦) ب : « باليته » ، صوابه في سائر النسخ .
 (٧) الرعة ، كعدة : الورع والكف عن السوء والقيح . م ، مع : « رعيته » وهي الاسم من الرعي ، كما في اللسان (رعى ٤٢) .
 (٨) الطعمة ، بالضم والكسر : وجه المكسب .
 (٩) ب ، ط : « يتصنع أن يوصى إليه » ، صوابه في م ، مع .
 (١٠) ب « ويحج لثى عليه » م ، مع : « ليثى عليه » ، وأثبت ما في ط . وما بعده من الكلام إلى « بيته » ساقط من مع .
 (١١) ب ، م : « ليقتل شهادته » .
 (١٢) م : « وما رأيت » .
 (١٣) كلمة « لك » ساقطة من ط ، م وبدلها في ب : « لى » .
 (١٤) التحوص ، من الحوص ، وهو ضيق العين وغزورها . والمعروف اختاوصة والتخاوص
 م : « ونغوص » مع : « وتحويص » ، وأثبت ما في ب ، ط .

عنك (١) ، والاستقبال لحديثك (٢) ، والخلاف لرأيك (٣) .
 وكان عبد الله بن أبي (٤) ، قبل نفاقه ، نسيج وحده (٥) لوجوده
 رأيه ويُعد همته ، ونُبِل شيمته ، وانقياد العشيرة له بالسيادة ، وإذعانهم
 له بالرياسة . وما استوجبَ ذلك إلا بعدما استجمع له لُبُه (٦) ، وتبينَ
 لهم عقله ، وافتقدوا منه جهله (٧) ، ورأوه لذلك أهلاً ، لما أُطابق [له (٨)]
 حملاً. فلما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم وقدم المدينة ، ورأى هو عزُّ
 رسول الله صلى الله عليه وسلم (٩) شَمَخَ بأنفه (١٠) فهدم إسلامه
 لحسده (١١) ، وأظهر نفاقه. وما صار منافقاً حتى كان حسوداً ، ولا صار
 حسوداً حتى صار حقوداً . فحُمقَ بعد اللب (١٢) ، وجَهِلَ بعد العقل ،
 وتبوءاً النار بعد الجنة .

(١) مع : « والإعراض عنك والإقبال على غيرك » .

(٢) ب ، ط : « والاستقبال لحديثك » ، تحريف .

(٣) بعده في مع : ولذلك قال القائل :

طال على الحاسد أحزانه	فاصفر من كثرة أحزانه
دعه فقد أشعلت في جوفه	ما هاج منه حر نيرانه
الغيب أذهب عنده لذة	من لذة المال لخزانه
فارم على غاربه حبله	تسلم من كثرة هبتانه

وقد انفردت نسخة ط بهذا الإنشاد في نهاية هذا الفصل ، كما سيأتي .

(٤) عبد الله بن أبي بن سلول ، رأس المنافقين في أول الإسلام . وسلوك جدته نسب إليها .

وجده مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم الجبلي بن غنم بن عوف بن الخزرج . وابنه عبد الله

ابن عبد الله كان من فضلاء الصحابة بدرياً ، قتل يوم اليمامة . جبهة أنساب العرب ٣٥٤-٣٥٥ .

(٥) يقال هو نسيج وحده ، أي لا نظير له ، كما أن الثوب إذا كان كريماً لم ينسج على

منواله غيره لدقته . ط : « يسج وحده » وكذا في أصل م . وأثبت ما في ب ، ومع .

(٦) م : « له إليه » ، ط : « لم له » ، وأثبت ما في ب ، مع .

(٧) ب : « وفقد بينهم جهله » ، والوجه ما أثبت من سائر النسخ .

(٨) التكلمة من م ، مع .

(٩) ب ، م ، ط : « ورأى غيره » وصححت في م : « ورأى عز رسول الله » ،

وأثبت ما في مع .

(١٠) شَمَخَ بأنفه : تكبر . ماعداً مع : « تشمخ بأنفه » ، تحريف .

(١١) مع : « فحسده فهدم إسلامه » .

(١٢) اللب : العقل . ب فقط : « بعد الله » تحريف .

ولقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فشكاه إلى الأنصار .
فقالوا : يا رسول الله لا تلمه (١) ، فإننا كنا عقدنا له الخرز (٢) قبل
قدمك لتتوجه .

ولو سلم المخذول (٣) قلبه من الحسد لكان من الإسلام بمكان .
ومن السؤدد في ارتفاع . فوضعه الله لحسده ، وأظهر نفاقه (٤)
[ولذلك قال القائل :

طال على الحاسد أحزانه فاصفر من كثرة أحزانه
دعه فقد أشعلت في جوفه ما هاج من حر نيرانه
العيب أشهى عنده لذة من لذة المال لأحزانه
فارم على غاربه جبله تسلم من كثرة بهتانه (٥)]

(١) ب فقط : « لا تكلمه » .

(٢) خرزات الملك : جواهر تاجه . ويقال : كان الملك إذا ملك عاما زيدت في تاجه .
خرزة ليعلم عدد سني ملكه .

(٣) يعنى عبد الله بن أبي ، خذله الله . ط ، ب : « للمخذول » . سلم قلبه من الحسد :
وقاه إياد وبرأ منه .

(٤) مع : « بحسده وإظهار نفاقه » .

(٥) التكلة من ط . وقد وردت في مع قبل هذا الموضع كما سبقت الإشارة إليه في ص ٩ .
وأثبتها أحمد تيمور بخطه في هذا الموضع .



في حسد الجيران

وذلك أَنَّ الجيران - يرحمك الله - طلائعُ عليك ، وعيونهم نواظرُ
إليك ، فمتى ^(١) كنتَ بينهم مُعلِّماً ^(٢) فأيسرت ، فبذلت وأعطيت ،
وكسوت وأطعمت ، وكانوا في مثل حالك فأتضعوا ، وسلبوا النعمة
وألبستَهَا [أنت ^(٣)] ، فعظمت عليهم بليَّة الحسد ، وصاروا ^(٤) منه
في تنغيص آخر الأبد ^(٥) . ولولا أَنَّ المحسود بنصر الله إِيَّاه مستور ،
وهو بصنعه محجوب ^(٦) لم يأت عليه يوم إلَّا كان مقهوراً ، ولم
تأت ليلة إلَّا وكان عن منافعه مقصوراً . ولم يُمسِرَ إلَّا وماله مسلوب ،
ودمُه مسفوك ، وعرضه بالضرب منهوك .

(١) ب ، مج : « فمتى » .

(٢) ممدماً ، ساقطة من ب .

(٣) التكلة من مج .

(٤) ب فقط : « وساروا » .

(٥) م : « لآخر الأبد » .

(٦) ما عدا مج : « محجور » بالراء .

وأنا أقول حقاً^(١) : ما خالط الحسد قلباً إلا لم يمكنه ضبطه ،
 ولا قدر على تسجينه^(٢) وكتمانه ، حتى يتمرد عليه بظهوره وإعلانه ،
 فيستعبده^(٣) ويستميله^(٤) ، ويستنطقه لظهوره عليه^(٥) فهو أغلب على
 صاحبه من السيد على عبده ، ومن السلطان على رعيته ، ومن الرجل
 على زوجيته ومن الآسر على أسيره^(٦) .

وكان ابنُ الزُّبير بالصبر موصوفاً ، وبالدهاء معروفاً ، وبالعقل
 موسوماً ، وبالمداراة منهوماً^(٧) ، فأظهر بلسانه حسداً كان أضبَّ
 عليه^(٨) أربعين سنةً لبني هاشم ، فما اتسع قلبه لكتمانه ، ولا صبر على
 اكتنامه ، لما طال^(٩) في قلبه طائلته^(١٠) أظهره وأعلمه ، مع صبره
 على المكارة ، وحمله نفسه على حثفها^(١١) ، وقلة اكترائه والتفاتيه .

(١) مج : « وأقول » .

(٢) التسجين : تفعيل من السجن ، أى الحبس ، والمراد الكتان . وفي اللسان : « ويجزن
 لهم يسجنه ، إذا لم يبيته » . وأنشد :

ولا تسجنن المم إن لسجنه عناه وحمله المهاري التواجيا
 والكلمة محرقة في النسخ ، فهي في ب : « تسخينه » وسائر النسخ : « تشخينه » ، والوجه
 ما أثبت .

(٣) ب ، ط : « فليستعبده » . وفي هامش م : « فيستفيده » ، وما أثبت من مج .

(٤) ما عدا ط : « ويستعمله » .

(٥) ب م : « لتهوره عليه » ، مج : « لتهوره عليه » ، وأثبت ما في ط وهامش م .

(٦) ب : « على الأسيرة » م : « أسيرته » ط : « الأسير » وأثبت ما في مج .

(٧) المنبوم بالشئ : المولج به . وفي الحديث : « منهومان لا يشمان : منهوم بالمال
 ومنهوم بالعلم . ط فقط : « منهوماً » .

(٨) يقال أضب فلان على غل في قلبه ، أى أضمره وأخفاه . م ، ط : « واظب عليه »

محرّيف . والكلام بعده إلى « اكتنامه » ساقط من مج .

(٩) م : « لما طال » .

(١٠) ما عدا مج : « طيلة »

(١١) الحثف : الهلاك . ما عدا مج : « خسفها » .



لأحجار المجانيق التي (١) [كانت (٢)] تمرّ عليه فتذهب بطائفة من قومه (٣) ما يلتفت إليها .

حُدِّثْتُ بذلك عن عليّ بن مُسهر (٤) عن الأعمش، عن صالح بن حَبَّاب (٥) ، عن سعيد بن جُبَيْر قال : قُدْتُ ابنَ عباس (٦) حتّى أدخلته على ابن الزُّبَيْرِ ، قال : أنت الذي تَوَنَّبَنِي ؟ قال : نعم ، لأنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس بمؤمن من بات شبعاناً (٧) وجارهُ طاو (٨) » . فقال له ابن الزُّبَيْرِ : لمن قلت ذلك ؟ إنّي لأَكْتُمُ بُغْضَكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ مُدًّا (٩) أربعين سنة . فحسر ابن عباس عن ذراعيه كأنَّهُما عَسِيبا نخل ، ثم قال لابن الزُّبَيْرِ : نعم فليبلغ ذاك منك ، ما عرفْتُكَ .

ولقد أَجَلْتُ الرأى ظهراً لبطن وفكَّرتُ في جوابه لابن عباس أن أجد له معنى سوى الحسد فلم أجدّه ، وكانت وخزة (١١) في قلبه فلم

(١) ب : « الذي » ، تحريف .

(٢) التكلة من مج .

(٣) ب ، م : « ثوبه » ، وأثبت ما في ط ، مع . وهامش م .

(٤) بضم الميم وسكون المهملة وكسر الهاء ، كما في التفرير . وهو أبو الحسن علي بن مسهر القرشي الكوفي قاضي الموصل . ذكره ابن حبان في الثقات وقال : مات سنة ١٨٩ . تهذيب التهذيب .

(٥) مع : « طلع بن حبان » . ولعله « صالح بن حبان » المترجم في تهذيب التهذيب .

(٦) كان عبد الله بن عباس رضى الله عنه قد عمى في آخر عمره ، كما عمى أبوه وجده . وقال له معاوية يوماً : ما لكم تصابون في أبصاركم يا بني هاشم ؟ فقال له : كما تصابون في بصائركم يا بني أمية ! نكت الهميان ١٨٠ - ١٨٢

(٧) كذا جاء مصروفاً منوناً ، وهذا بالنظر إلى أن مؤنثه شبعانة . وبالنظر إلى أن مؤنثه شبيى يمنع من الصرف ، وكلاهما مسموع . وفي مع : « شبعان » بالمنع من الصرف .

(٨) الطاوى : الجائع الخالي البطن ، كأنه طوى بطنه .

(٩) ب : « لأنى » .

(١٠) م : « مند » .

(١١) الوخزة : الطعنة . ب ، م : « وخزة » بالذال ، تحريف ، وليس لوخذ مادة

في المعاجم المتداولة . وفي مع : « وخزة ثقيلة فلم يدها له » .

يُبْدِهَا . وفروعُ بنى هاشمٍ حول الحرمِ باسقةً ، وعروقُ دَوَاجِمِهِمْ بَيْنَ
أَطْبَاقِهَا رَاسِيَةً ، وَمَجَالِسُهُمْ مِنْ أَعَالِيهَا عَامِرَةٌ^(١) ، وَبِحُورِهَا بَارِزَاقُ
الْعِبَادِ^(٢) زَاخِرَةٌ ، وَأَنْجُمُهَا بِالْهَدَى زَاهِرَةٌ . فَلَمَّا خَلَّتِ الْبَطْحَاءُ مِنْ
صِنَادِيدِهَا اسْتَقْبَلَهُ بِمَا أَكَنَّ فِي نَفْسِهِ^(٣) .

وَالْحَاسِدُ لَا يَغْفُلُ عَنْ فُرْصَتِهِ إِلَى أَنْ يَأْتِيَ الْمَوْتَ عَلَى رِمْتِهِ ،
وَمَا اسْتَقْبَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ بِذَلِكَ إِلَّا لَمَّا رَأَى عَمَرَ قَدَمَهُ^(٤) عَلَى أَهْلِ الْقَدَمِ ،
وَنَظَرَ إِلَيْهِ وَقَدْ أَطَافَ بِهِ أَهْلُ الْحَرَمِ ، فَأَوْسَعَهُمْ حُكْمًا ، وَثَقَّبُوا مِنْهُ
رَأْيًا وَفَهْمًا^(٥) ، وَأَشْبَعَهُمْ^(٦) عِلْمًا وَحِلْمًا .

(١) مج : « عامرة » .

(٢) ب ، ط : « بأوراق العباد » م : « بأوراق العبادة » . والصواب من مج .

(٣) مج : « بما أكنن في نفسه » .

(٤) م ، ط : « لما رأى من تقدمه » .

(٥) ثقب رأيه ثقوباً : نفذ . وفي قول أبي حية النخيري :

ونشرت آيات عليه ولم أقسل من العلم إلا بالذي أنا ثاقبه

ط : « وثقّبوا » . مج : « وتمصّبوا » .

(٦) ب : « وأسبغهم » ط ، م : « وسبغهم » ، وأثبت ما في مج .



وكيف يصبر من استكنَّ الحسدُ في قلبه على أمانيه^(١) . ولقد كان
 إخوة يوسف حُلَماء ، وأجلة علماء ، ولدهم الأنبياء، فلم يَغفلوا عما قَدَحَ
 في قلوبهم من الحسد ليوסף ، حتَّى أعطوا آباهم الموثيقَ المؤكِّدة ،
 والعهودَ المقلَّدة^(٢) . والأيمانَ المغلَّظة ، إنَّهم له لحافظون ، وهو شقيقهم
 وبِضعةٌ منهم . فخالفوا العهود ووثبوا عليه بالظلم والقوة^(٣) . وألقوه
 في غِيَابَةِ الجُبِّ ، وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب ، فبظلمهم يوسفَ
 ظلَّموا آباهم ، طمعاً أن يخلو لهم وجهُ أبيهم ويتفرَّدوا بحبه^(٤) ،
 وظنُّوا أن الأيام تُسليه ، وحبه لهم من بعد غمه^(٥) يُلهيه ، فأسالوا
 عبْرته وأحرقوا قلبه .

وكيف لا تقرُّ أعين المحسودين^(٦) بعد يوسف وقد ملكه الله خزائن
 الأرض ، بصبره على أذى حُسَّاده ومقابلته^(٧) إيَّاهم بالعفو والمكافأة ،
 وحسن العشرة^(٨) والمواخاة ، بعد إمكانه منهم^(٩) لما أتوه ممتارين ،
 ووفدوا عليه خائفين وهم له منكرون ، فأحسنَ رِفدهم ، وأكرمَ قِراهم^(١٠) ،

(١) ب : « أمانته » م : « إمانته » ط : « إمانته » ، وأثبت ما في مج .
 (٢) يقال قلده الأمر : ألزمه إياه . ما عدا مج : « المقبلة » .
 (٣) والقوة ، ساقطة من ط ، م ، مج .
 (٤) م : « وينفردوا بحبه » .
 (٥) في هامش م : « عن بعده عنه » مج : « من بعده عنه » .
 (٦) ب : « لا تقتر » ، م : « وكيف تقتر » ، وأثبت ما في ط ، مج . وفي ط . م :
 « الحاسدين » .
 (٧) مج : « ومقاسته » . وكذلك هامش م .
 (٨) ما عدا مج : « بحسن العشرة » .
 (٩) ب فقط : « منه » تحريف .
 (١٠) ما عدا مج : « وكرم قراهم » .

فأقروا له لما عرفوه بالإذعان ، وسألوه بعد ذلك الغفران ، وخرؤوا له
سُجداً لما وردوا عليه وفداً^(١) .

فإذا أحسست - رحمك الله - من صديقك بالحسد فأقلل ما استطعت
من مخالطته ، فإنه أعون الأشياء لك^(٢) على مسالته . وحصن سرّك
منه تسلم من شرّه وعوائق ضرّه^(٣) . وإيّاك والرغبة في مشاورته ،
ولا يُغرّنك خُدع مَلَقِهِ ، وبيان دَلَقِهِ^(٤) ، فإنّ ذلك من حبائل نفاقه .

فإن أردت أن تعرف آيةً ومِصداقه فأدنين^(٥) إليه من يُهينك عنده ،
ويذمك بحضرته ، فإنه سيظهر^(٦) من شأنه لك ما أنت به جاهل ،
ومن خلاف المودّة ما أنت عنه غافل . وهو ألج^(٧) في حسده لك من
الذُّباب ، وأسرع في تهريقك^(٨) من السيل إلى الحدور^(٩) .

(١) مع : « لما قدموا عليه وفداً » .

(٢) ب فقط : « فإنه أهون » تحريف . وكلمة « لك » من مع وهامش م .

(٣) ط فقط : « ويوائق ضره » .

(٤) الذلق : فصاحة اللسان . ما عدا مع : « زلقه » تحريف .

(٥) ب : « فدينين » تحريف ، وأثبت ما في م ، ط . وفي هامش م : « فدينين » ، وهي

ما جاءت به نسخة مع .

(٦) م فقط : « يظهر » وحورت فيها إلى « سيظهر » .

(٧) « ألج » بالخاء المهملة ، كما في الدرّة الفاخرة للأصبهاني ٣٦٩ . ونظيرها فيما أورده :
ألج من الخفساء ، ومن الكلب ، ومن الحمى . وفي مع : « ألج » بالجم ، وهو المطابق لما في
جمهرة الأمثال للمسكوي ١٨٠ حيث أورد هذه الأمثال كلها بصورة « ألج » بالجم . وكلاهما
اقتصر في التفسير على « ألج من كلب » واتفقا في قولها « لأنه يلج بالحرير على الناس » ،
ولا ريب في أخذ المسكوي المتوفى نحو سنة ٤٠٠ عن حمزة الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥١ .
كما صرح بذلك المسكوي في مقدمة كتابه ص ٦ . وهذا مما يؤيد رواية « ألج » بالمهملة ،
إذ يقال ألج عليه ، ولا يقال ألج عليه .

(٨) ط ، مع : « تمزيقك » .

(٩) الحدور ، بالفتح : الموضع المنحدر . ب : « الحدود » ، تحريف .

وما أحبُّ أن تكون عن حاسدك غيبياً، وعن وهمك ^(١) بما في ضميرك نسبياً ^(٢).
إلا أن تكون للذلِّ مجتملاً، وعلى الدناءة مشتملاً ^(٣)، ولأخلاق الكرام
مجانباً، وعن محمود شيمهم ذاهباً، أو تكون بك إليه حاجة ^(٤) قد
صيرتكَ ^(٥) لسهام الرماة هدفاً، وعرضك لمن أرادك غرضاً ^(٦).
وقد قيل على وجه الدهر ^(٧): «الحرّة تجوع ولا تأكل بشديبيها» ^(٨).
وربّما كان الحسود ^(٩) للمصطنع إليه المعروف أكفّر له وأشدَّ
احتقاراً ^(١٠)، وأكثر تصغيراً له من أعدائه.

٥ - فصل منه ^(١١)

ومتي رأيت حاسداً يصبّ لك رأياً إن كنت ^(١٢) مصيباً، أو يرشدك

- (١) وهم إلى الشيء، وفيه: ذهب وهم إليه. مع: «فهلك».
- (٢) ب: «بما في ضمير نسبياً»، صوابه في سائر النسخ.
- (٣) ب: «مستثلاً»، صوابه في سائر النسخ.
- (٤) ما عدا مع: «أو تكون بك لاجئة».
- (٥) ب: «صيرتها»، صوابه في سائر النسخ.
- (٦) ما عدا مع: «لمن أبادك».
- (٧) أي في قديم الزمان. ب: «الأرض»، م، ط: «العرض»، صوابها في مع.
- (٨) ب: «تأكل ثديها» وهي رواية صحيحة مثلها في المستقصى ٢: ٢٠: «ثديها» بدون باء. قال الزمخشري: معناه جعل ثديها، كقوله:
* يأكلن كل ليلة إكافا *
- أي ثمن إكاف. والجلل، بالضم: أجر العامل ونحوه ويروي: «تجوع الحرّة»، و«قد تجوع الحرّة»: انظر الفاخر ١٠٩ والميداني ١١٠: وجهرة العسكري ٢٦١، ٤٩٤.
- (٩) ب، ط: «الحسد» مع: «الحاسد»، وأثبت ما في م.
- (١٠) احتقد عليه: حقد. ط: «احتقاراً منه». و«منه» مقحمة. وفي مع: «وأشدَّ اجتهداً»، تحريف.
- (١١) منه، ساقطة من ب.
- (١٢) ب، ط، مع: «وإن» في هذا الموضع وتاليه، والصواب ما في م بدون واو.

إلى صواب إن كنت مخطئاً ، أو أفصح ^(١) لك بالخير في غيبته عنك ^(٢) ،
أو قصر من غيبته لك ^(٣) .

فهو الكلب الكلب ، والنمر النمر ^(٤) والسَّم القَيْش ^(٥) ، والفحل
القَطِم ^(٦) ، والسَّيْل العَرم ^(٧) . إن مَلَك قتل وسبى ^(٨) ، وإن مُلِكَ
عَصَى وبَغَى . حياتك موته ، وموتك عرسه وسروره ^(٩) . يصدِّق عليك
كلُّ شاهدٍ زور ، ويكذِّب فيك ^(١٠) كلُّ عدلٍ مرضى . لا يحبُّ من
النَّاس إلَّا مَنْ يُبغضك ، ولا يُبغض إلَّا من يحبُّك . عدوك بطانةٌ
وصديقك علانيةٌ ^(١١) .

وقلتَ : إنَّكَ ربَّما غَلِطت في أمره لما يَظْهَر لَكَ من برِّه . ولو كنت
تعرف الجليل من الرأى ^(١٢) ، والدقيق من المعنى ، وكنت في مذاهيبك
فَطِيناً نِقَاباً ^(١٣) ، ولم تك في عيب من ظهر لك عيبه ^(١٤) مُرتاباً .

- (١) م : « أو أفصح لك بالخير في غيبته لك » مع : « أفصح لك في غيبته عنك » ، ب :
« أو أفصح لك بالخير في غيبته عنك » ، والوجه ما أثبت من ط .
(٢) ب ، م : « من غيبته » ، وأثبت ما في ط .
(٣) يقال نمر ينمر نمرأ ، إذا غضب وساء خلقه . ب : « والنمر والنمر » ، صوابه في
م ، ط . وفي مع : « والنمر الحرب » . وهو الذي قد كلب واشتد غضبه .
(٤) القشب : الخلو ط .
(٥) القطم : الشديد الشهوة إلى الضراب .
(٦) العرم : السيل الذي لا يطاق .
(٧) وسبى ، ساقطة من ب .
(٨) ب فقط : « وسوره » ، تحريف .
(٩) ب فقط : « عليك » .
(١٠) مع : « عدوك بطانة ، وصديقك علوته » .
(١١) م فقط : « الكليل » وصححت فوقها بالجليل .
(١٢) النقاب ، بالكسر : العالم بالأشياء المبحث عنها القطن الشديد الدخول فيها . وفي
قول أوس بن حجر :

نَجَّحَ جِسْوَادَ أَخِي مَقْطُ نِقَابٍ يَحْدُثُ بِالْفِئَابِ
ب ، ط : « نهايا » ، صوابه في م ، مع .
(١٣) مع : « من أوضح لك عيبه » .

لاستغيت بالرمز عن الإشارة ، وبالإشارة عن الكلام ، وبالسرّ عن الجهر ، وبالخفض عن الرفع ^(١) ، وبالاختصار ^(٢) عن التطويل ، وبالجمل عن التفصيل ، وأرحتنا من طلب التحصيل ^(٣) ولكنى أخاف عليك أنّ قلبك لصديقك غير مستقيم ، وأن ضمير قلبك له غير سليم ^(٤) ، وإن رفعت القذى عن لحيته ^(٥) ، وسويت عليه ثوبه فوق مركبه ، وقبّلت صبيّه بحضرتة ، ولبست له ثوب الاستكانة عند رؤيته ، واغفرت له الزلّة ^(٦) ، واستحسنّت كلّ ما يقبّح من جهته ^(٧) ، وصدّقته على كذبه ، وأعنته على فجّرته . فما هذا العناء ^(٨) ! كأنك لم تقرأ المعوذة ، ولم تسمع مخاطبته ^(٩) نبيّه صلى الله عليه وسلم ، في التّقديمة إليه بالاستعاذة من شرّ حاسدٍ إذا حسد .

أَنْظِب ^(١٠) وَيَحْكُ أَثْرًا بَعْدَ عَيْنٍ ، أَوْ عَطْرًا بَعْدَ عُرُوسٍ ^(١١) ، أَوْ تَرِيدُ أَنْ تَجْتَنِيَ عِنْبًا مِنْ شَوْكٍ ، أَوْ تَلْتَمِسَ حَلَبَ لَبِنٍ مِنْ حَائِلٍ ^(١٢) .

(١) ما عدا مج : « وبالجمهر عن الرفع » .

(٢) ب ، ط : « والاختصار » .

(٣) ب : « عن طلب التحصيل » .

(٤) ب : « أن قلبك لصديقك غير سليم له » . وفيه نقص وتحريف .

(٥) في هامش م : « عن عينه » وليست بشيء . وقد تكون : « عن جبهته » .

(٦) الزلّة ، بفتح الزاي : السقطلة والحطيطية . ب فقط : « الذلة » تحريف . وفي مج :

« الزلّة بعد زلته » .

(٧) مج : « من شيمته » .

(٨) ما عدا مج : « فما هذا العناء » ، ولا يقولها الجاحظ . وفي مج : « فما هذا العناء ،

وما هذا الداء العياء » .

(٩) ب ، : « ولم تسمع على مخاطبته » ، مج : « ولم تسمع مخاطبة الله تعالى لنبيه » .

(١٠) ب ، م : « تظلب » .

(١١) ب فقط : « وعطراً بعد عروس » وكذلك فيما بعده « وتريد أن تجتنى .. » .

(١٢) م : « وتلتمس » . والحائل : الناقة انقطع حملها سنة أو سنوات حتى تحمل . ب ،

ط : « من جبل » ، صوابه في م ، مج .

إِنَّكَ إِذْنٌ أَعْيَا مِنْ بَاقِلٍ ، وَأَحْمَقُ مِنَ الضَّبِيعِ ، وَأَغْفَلٌ مِنْ هَرَمٍ (١) .

إِنْ كُنْتَ تَجْهَلُ بَعْدَ مَا عَلِمْنَاكَ ، وَتَعُوجُ بَعْدَ مَا قَوْمْنَاكَ ، وَتَبْلُدُ (٢) بَعْدَ مَا ثَقَّفْنَاكَ (٣) ، وَتَضِلُّ إِذْ هَدَيْنَاكَ ، وَتَنْسَى إِذْ ذَكَّرْنَاكَ (٤) ، فَأَنْتَ كَمَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ فَبَطَلَتْ عِنْدَهُ الْمَوَاعِظُ ، وَعَمِيَ عَنِ الْمَنَافِعِ (٥) ، فَخَتَمَ (٦) عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً . فَتَعُوذُ (٧) بِاللَّهِ مِنَ الْخِذْلَانِ .

إِنَّهُ لَا يَأْتِيكَ وَلَكِنْ يُنَادِيكَ (٨) وَلَا يَحَاكِيكَ وَلَكِنْ يُوَازِيكَ (٩) .
 أَحْسَنُ مَا تَكُونُ عِنْدَهُ حَالًا [أَقْلٌ مَا تَكُونُ مَالًا ، وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ عِيَالًا .
 [وَأَعْظَمُ (١٠)] مَا تَكُونُ (١١) ضَلَالًا . وَأَفْرَحُ (١٢) مَا يَكُونُ بِكَ أَقْرَبَ
 مَا تَكُونُ (١٣) بِالْمُضْيِيبَةِ عَهْدًا ، وَأَبْعَدُ مَا تَكُونُ مِنَ النَّاسِ حَمْدًا (١٤) .

فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا فَمَجَاوِرَةٌ الْمَوْتِ ، وَمَخَالَطَةٌ الزَّمَنِ ،

- (١) الهرم : المسن الذي بلغ أقصى الكبر .
 (٢) تبلى ، أى تتبدل ، يجذف إحدى التامين . م فقط : « وتبلى » .
 (٣) ب فقط : « شغفناك » تحريف .
 (٤) مع وحواشي م : « لما ذكرناك » .
 (٥) ب فقط : « وعز من المنافع » .
 (٦) ب فقط : « وختم » .
 (٧) ب فقط : « ونموذ » .
 (٨) مع : « ولكنه يناديك » .
 (٩) ب : « يوازيك » تحريف ، وفي مع : « ولكنه يوازنك » .
 (١٠) التكلة من مع .
 (١١) ما عدا مع : « ما يكون » .
 (١٢) ب فقط : « وأفرح » بالمعجم ، صوابه في سائر النسخ .
 (١٣) ما عدا مع : « ما يكون » ، تحريف .
 (١٤) ما عدا مع : « وأبعد ما يكون » بالياء ، مع سقوط الكلمات بعدها .



والاجتنان بالجدران^(١) ، ومَصْرُ المِصران^(٢) ، وأَكَلُ القِرْدان^(٣) ،
أهون من معاشرته ، والاتِّصال بحبله .

والغِلِّ نتيج الحسد^(٤) ، وهو رضيعه^(٥) ، وغصنٌ من أغصانه ،
وعَوْنٌ من أعوانه ، وشُعْبَةٌ من شُعبه ، وفِعْلٌ من أفعاله^(٦) ، كما أنه ليس
فرعٌ إلا له أصل ، ولا مولودٌ إلا له مُولِد ، ولا نباتٌ إلا من أرض ،
ولا رضيعٌ إلا من مُرضِع^(٧) ؛ وإن تغيَّر اسمه ؛ فإنه^(٨) صفة من صفاته ،
ونبت من نباته ، ونعتٌ من نعوته .

ورأيتَ الله جل جلاله ذَكَرَ الجَنَّةَ في كتابه فحلَّها بأحسنِ حِلْيَةٍ ،
وزيَّنَها بأحسنِ زِينَةٍ ، وجعلَها دارَ أوليائه ومَحَلَّ أنبيائه ، ففيها ما لا
عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر^(٩) . فذكر في
كتابه ما منَّ به عليهم من السُّرور والكرامة عندما دَخَلوها وبوَّأها لهم
فقال : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ . وَنَزَعْنَا
مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ . لَا يُسْمِعُ فِيهَا نَسَبٌ
وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾^(١٠) .

(١) ب : « والأكل بالجدران » م : « والكسل » وصحها أحد تيمور بلفظ :
« والاجتنان » ، موافقاً ما في ط . والاجتنان : الاستتار . وفي معج : « والاكنتان بالجدران »
وهما بمعنى .

(٢) مصر المصران : استخراج ما فيها . وفي معج : « ومصن المصران » .

(٣) جمع قراد بالضم ، وهو دويبة تغض الإبل .

(٤) ب ، معج : « ينتج الحسد » .

(٥) هذا ما في معج . وفي ب ، ط : « ورضيعه » فقط . وفي م : « ورضيع رضيعه » .

(٦) بعده في معج : « وحدث من أحداثه » .

(٧) معج : « إلا له مرضع » .

(٨) ب فقط : « فهو » .

(٩) ب فقط : « على لب بشر » .

(١٠) الآيات ٤٥ - ٤٨ من سورة الحجر .

فما أنزلهم دارَ كرامته إلا بعد ما نزع الغلَّ والحسدَ من قلوبهم^(١) ، فتهنَّوا بالجنَّة ، وقابلوا إخوانهم على السرِّ ، وتلذَّذوا بالنظر في مقابلة الوجه لسلامة صدورهم ، ونزع الغلِّ من قلوبهم^(٢) . ولو لم ينزع ذلك من صدورهم ويخرجه من قلوبهم ، لافتقدوا لذاتة الجنَّة^(٣) ، وتدابرُوا وتقاضوا وتحاسدوا ، وواقعوا الخطيئة^(٤) ، ولمسَّهم فيها النَّصَب ، وأعقبوا منها الخروجَ ، لأنَّه عزَّ وجلَّ فضَّلَ بينهم في المنازل ، ورفع درجاتٍ بعضهم فوقَ بعض في الكرامات^(٥) ، وسنَّى العطيَّات .

فلما نزع الغلَّ والحسدَ^(٦) من قلوبهم ظنَّ أدناهم منزلةً فيها^(٧) ، وأفرَّبهم بدخول الجنَّة عهداً ، أنَّه أفضلهم منزلةً ، وأكرمهم درجة ، وأوسعهم داراً بسلامة قلبه^(٨) ، ونزع الغلِّ من صدره ، فقررت عينه وطاب أكله . ولو كان غير ذلك لصاروا إلى التغيص^(٩) في النظر بالعيون^(١٠) ، والاهتمام بالقلوب ، ولحدثت^(١١) العيوبُ والذنوبُ .

وما أرى السَّلامةَ إلا في قطع الحاسد ، ولا السُّرورَ إلا في افتقاد

-
- (١) بعده في مج : « فافتقاد الغل والحسد تهنوا بالجنة » .
 (٢) مج : « بسلامة صدورهم ، ونزع الحسد والغل من صدورهم » .
 (٣) م : « لذات الجنَّة » .
 (٤) مج : « وأوقعوا الخطيئة » م : « وواقعوا الخطيئة » .
 (٥) ب فقط : « في الدرجات » .
 (٦) ب ، مج : « الحسد والغل » .
 (٧) م فقط : « فيهم » .
 (٨) م : « لسلامة قلبه » .
 (٩) ب ، ط : « التغيص » .
 (١٠) ب فقط : « بالعيوب » .
 (١١) ب : « ولحدثت فيهم » م : « وحدثت فيهم » ط : « وأثبتت فيهم » .



وجهه ، ولا الراحة إلا في صَرْم مداراته (١) ، ولا الربح إلا في ترك مصافاته (٢) .

فإذا فعلت ذلك فكل جنبياً مريباً (٣) ، [ونم رَضِيماً (٤)] ، وعش في السرور مَلِيماً (٥) .

ونحن نسأل الله الجليل أن يُصَفِّي كدرَ قلوبنا (٦) ، ويجنبنا وإيّاك [دناءة الأخلاق ، ويرزقنا وإيّاك (٧)] حُسْنَ الألفة والاتِّفاق (٨) .
ويُحَسِّن (٩) توفيقك وتسديدك . والسَّلَام .



(١) ب ، م : « مداواته » ، تحريف

(٢) ب ، م ، ط : « مكافأته » ، وأثبت ما في مع وهامش م .

(٣) ب ، م : « فكل هنيئاً مريباً » ، وأثبت ما في ط . وفي مع : « فكل هنيئاً وأشرب

مريباً » .

(٤) هذه من مع .

(٥) مَلِيماً ، أى زماناً طويلاً . ب فقط : « مريباً » ، تحريف .

(٦) ما عدا مع وأسفل م : « كدر صدورنا » .

(٧) التكلة من م ، مع .

(٨) ب ، ط : « سوء الألفة والاتِّفاق » .

(٩) ب ، م : « وحسن » ، وأثبت ما في ط . وفي مع : « أحسن الله » .

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
A 1977
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT
Est. 2012 CE





٢

من كتابه في

المعلمين

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
A 1977
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT
Est. 2012 CE





من صدر كتابه في المعلمين^(١)

أعانك الله على سورة العَصَب^(٢) ، وعصمك من سرفِ اذوى ،
وصرف ما أعارك من القوة إلى حبِّ الإنصاف ، ورجَّح^(٣) في قلبك إيثَارَ
الأناة . فقد استعملتَ في المعلمين نوك السفهاء^(٤) ، وخَطَلَ الجهلاء ،
ومُفاحِشَةَ الأبيدياء ، ومُجانبة سُبُل الحكماء ، وتهكَّم المقتدرين^(٥) ، وأَمَنَ
المعتريين . ومن تعرَّض للعداوة وجدها حاضرة ، ولا حاجة بك إلى
تكلف ما كُفيت^(٦) .

٢ - فصل منه

ولولا الكتابُ لاخْتَلَّت أخبار الماضين ، وانقطعت آثار الغائبين .
وإنما اللسانُ للشاهد لك^(٧) ، والقلمُ للغائبِ عنك ، وللماضى قبلك
والغابرِ بعدك^(٨) . فصار نفعه أعمّ ، والدواوينُ إليه أفقر .

(١) لى بحث عنوانه (الجاحظ والمعلمون) في مجلة الكتاب ، عدد أغسطس ١٩٤٦ .
(٢) سار يسور سوراً : ثار . ب : « صورة » تحريف . م : « ثورة » ، والوجه
ما أثبت من ط . وأنشد في اللسان (عفا ٣٠٦) :
خذى العفو منى تستدبى مودقى ولا تنطق في سورتي حين أغضب
وانظر لنسبة هذا البيت عيون الأخبار ٣ : ١١ / ٤ : ٧٧
(٣) ب : « ورهج » ، والصواب من ط ، م .
(٤) النوك ، بالضم والفتح : الحق . ب ، م : « نوك » ، صوابه في ط .
(٥) التهكم : التكبر ، والتبختر طرباً .
(٦) ب فقط : « ما كُفيت منه » .
(٧) المراد بالشاهد : الحاضر .
(٨) المراد بالغابر هنا الباقي ، والغابر من الأضداد ، يقال للماضى والباقي أيضاً . ب ، م :
« والغابر » بالمهملة ، صوابه في ط .



والمَلِكُ الْمُقِيمُ بِالْوِاسِطَةِ^(١) لَا يَدْرِكُ مِصَالِحَ أَطْرَافِهِ وَسَدًّا تُغَوَّرُهُ ،

وَتَقْوِيمَ سُكَّانِ مَمْلَكَتِهِ ، إِلَّا بِالْكِتَابِ .

ولولا الكتاب ما تمّ تدبير^(٢) ، ولا استقامت الأمور . [وقد^(٣)]
رأينا عمودَ صلاحِ الدِّينِ والدُّنيا إِنَّمَا يَعْتَدِلُ فِي نِصَابِهِ ، وَيَقُومُ عَلَى
أَسَاسِهِ بِالْكِتَابِ وَالْحِسَابِ^(٤) .

وليس علينا لأحدٍ في ذلك من المنّة بعد الله الذي اخترع ذلك لنا
ودلّنا عليه ، وأخذ بنواصينا إليه ، ما للمعلمين الذين سخّروا لنا ،
ووصل حاجتهم إلى ما في أيدينا . وهؤلاء هم الذين هجوتهم وشكوتهم
وحاجبتهم وفحشت عليهم ، وألزمت الأكابرَ ذنبَ الأصاغر ، وحكمت
على المجتهدين بتفريط المقصرين ، ورثيت آباء الصبيان من إبطاء
المعلمين عن تحذيقهم^(٥) ، ولم ترث للمعلمين من إبطاء الصبيان
عمّا يراد بهم ، ويُعاديهم عن صرف القلوب لما يحفظونه ويدرسونه .
والمعلّمون أشقى بالصبيان من رُعاة الضأن وروّاض المهارة^(٦) .

ولو نظرت من جهة النظر علمت أنّ النعمة فيهم عظيمةٌ سابغة ،
والشكرُ عليها لازم واجب .

(١) أي حاضرة الملك ، وهي في وسط البلاد غالباً .

(٢) م : « لم يتم » ط : « لما تم » .

(٣) التكلفة من م ، ط .

(٤) ب ، ط : « في الكتاب والحساب » ، وأثبت ما في م .

(٥) ط فقط : « عن إبطاء » تحريف . والتحذيق : إكساب المهارة والإتقان في العلم والعمل

وفي جميع النسخ : « تحذيقهم » بالدال المهملة ، والوجه ما أثبت .

(٦) المهارة والمهارة ، بكسر الميم فيهما : جمع مهر ، بالضم ، وهو ولد الرمكة والفرس .



٣ - فصلل منه^(١)

وأجمعوا على أنهم لم يجدوا كلمةً أقلَّ حرفاً ولا أكثرَ ريباً ،
 ولا أعمَّ نفعاً ، ولا أحدثَّ على بيان^(٢) ، ولا أدعى إلى تبيين ، ولا أهجى
 لمن ترك التفهيمَ وقصّر في الإفهام ، من قول أمير المؤمنين على بن أبي طالب
 رضوان الله عليه : « قيمة كلِّ امرئٍ ما يحسن » .

وقد أحسنَ من قال : « مذاكرة الرجال تليقُ لألبابها » .

وكرهت الحكماء الرؤساء ، أصحابُ الاستنباط والتفكير^(٣) ، جودةَ
 الحفظ^(٤) : لمكان الاتكال عليه^(٥) ، وإغفال العقل من التمييز ،
 حتى قالوا : « الحِفظُ عِنقُ الذَّنِّ » . ولأنَّ مستعملِ الحفظ لا يكون
 إلاً مقلداً ، والاستنباط هو الذي يفرض بصاحبه إلى برد اليقين ، وعزَّ
 الثقة .

والقضية الصحيحة والحكم المحدود : أنه متى أدام الحفظَ أضرَّ
 ذلك بالاستنباط ، ومتى أدام الاستنباط أضرَّ ذلك بالحِفظ ، وإن كان
 الحفظُ^(٦) أشرفَ منزلةً منه .

ومتى أهملَ النظرَ لم تسرع إليه المعاني^(٧) ، ومتى أهملَ الحفظَ^(٨)

(١) منه ، هنا ساقطة من ب .

(٢) الحث : الحظ . ب فقط : « ولا أحس » ، تحريف .

(٣) م : « والتفكر » .

(٤) الكلام بعده إلى كلمة : « الحفظ » التالية ساقط من م .

(٥) ب : « لمكان اتكال عليه » .

(٦) ب ، م : « التحفظ » .

(٧) ب : « لم يسرع إليه المعاني » .

(٨) ب فقط : « التحفظ » .



لم تَعَلَّقْ بِقَلْبِهِ ^(١) ، وَقَلَّ مَكْنُهَا فِي صَدْرِهِ .

وطبيعة الحفظ غير طبيعة الاستنباط . والذي ^(٢) يُعَالِجَانِ بِهِ
 وَيَسْتَعِينَانِ مَتَّفِقٌ عَلَيْهِ ^(٣) ، [أَلَا ^(٤)] وهو فراغ القلب للشيء ، والشهوة
 له ، وبها يكون التأم ، وتظهر الفضيلة ^(٥) .

ولصاحب الحفظ ^(٦) سببٌ آخر يتَّفَقَانِ عَلَيْهِ ، وهو الموضوعُ والوقت .

فَأَمَّا الْمَوْضِعُ فَإِيَّاهُمَا يَخْتَارَانِ ^(٧) إِذَا أَرَادَا ^(٨) ذَلِكَ الْفَوْقَ ^(٩) دُونَ
 السُّفْلِ ^(١٠) .

وَأَمَّا السَّاعَاتُ فَالْأَسْحَارُ دُونَ سَائِرِ الْأَوْقَاتِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ الْوَقْتَ قَبْلَ
 وَقْتِ الْأَشْتِعَالِ ، وَيَعْقِبُ تَمَامَ الرَّاحَةِ وَالْجَمَامِ ^(١١) ، لِأَنَّ الْجَمَامَ ^(١٢)
 مَقْدَاراً هُوَ الْمَصْلُحَةُ ، كَمَا أَنَّ لِلْكَدِّ مَقْدَاراً هُوَ الْمَصْلُحَةُ .

٤ - فِصْلٌ مِنْهُ

وَيُسْتَدَلُّ أَيْضاً بِوَصَايَا الْمُلُوكِ لِلْمُؤَدِّبِينَ فِي أَبْنَائِهِمْ ، وَفِي تَقْوِيمِ

(١) في جميع النسخ : « لم يعلق بقلبه » ، والضمير راجع إلى المعاني .

(٢) م ، ب « واللذين » ط : « واللذان » ، والوجه ، ما أثبت .

(٣) ب : « متفق عليه متفق عليه » .

(٤) التكلفة من ط .

(٥) ب فقط : « ويظهر الفضيلة » .

(٦) ب فقط : « التحفظ » .

(٧) م ، ط : « يختار » .

(٨) م : « أراد »

(٩) ب : « الفرق » م ، ط : « الفرق » ، وأرى الوجه فيما أثبت .

(١٠) ط فقط : « الشغل » . والسفل ، بضم السين وكسرهما : مقابل الفوق .

(١١) الجمام كسحاب : الراحة . م ، ط : « والحمام » بالخاء المهملة ، تحريف . وفي

جميع النسخ : « وتمتعب تمام » ، وأثبت ما رأته الصواب ، كما يصح أن تكون : « ويعقب » .

(١٢) م ، ط : « للحمام » ، تحريف

أحدائهم ، على أنهم قد ^(١) قلدوهم أمورهم وضميرهم بلوغ التمام ^(٢) في تأديبهم . وما قلدوهم ذلك إلا بعد أن ارتفع إليهم في الحنو حالهم ^(٣) في الأدب ، وبعد أن كشفهم الامتحان وقاموا على الخلاص .

وأنت - حفظك الله - لو استقصيت عددَ النحويين والعروضيين والفرسيين ، والحُساب ، والخطّاطين ، لوجدت أكثرهم مُؤدّبَ كبارٍ ومعلّمَ صغار ، فكم تظنُّ ^(٤) أنا وجدنا منهم ، من الرواة والقضاة والحكماء ، والولاة من المناكير والدهاة ، ومن الحماة والكفّاة ، ومن القادة والذّادة ^(٥) ، ومن الرؤساء والسادة ، ومن كبار الكتاب والشعراء ، والوزراء والأدباء ، ومن أصحاب الرسائل والخطابة . والمدكورين بجميع أصناف البلاغة ، ومن الفرسان وأصحاب الطعان . ومن نديمٍ كريم . وعالمٍ حكيم ، ومن مليحٍ ظريف ، ومن شابٍ عفيف . ولا تعجلْ بالقضية حتى تستوفى آخر الكتاب ^(٦) ، وتبلغ أقصى العذر ، فإنك إن كنت تعمّدت تدمّمت ^(٧) ، وإن كنت جهلت تعلّمت ، وما أظن من أحسن بك الظنَّ إلا وقد خالف الحزم .

٥ - فصل منه

قال المعلّم : وجدنا لكل ^(٨) صنّفٍ من جميع ما بالناس إلى تعلّمه

(١) قد ، ساقطة من ب .

(٢) في جميع النسخ : « بلوغ » .

(٣) ب : « حالهم » .

(٤) م : « فلم يظن » تحريف . ب : « فكم نظن » ، وأثبت ما في ط .

(٥) جمع ذاته ، وهو المدافع والرجل الحامى الحقيقة . م : « والزيادة » تحريف .

(٦) م : « حتى تستو آخر الكتاب » ، تحريف .

(٧) تدمم : استكتف . يقال : لو لم أترك الكذب تأمناً لتركته تدمماً . ب : « تزمت

صوابه بالذال كما في ط ، م .

(٨) ب ، ط : « كل » ، والوجه ما أثبت من م .

حاجة ، معلمين ^(١) ، كـمـعـلـمـي ^(٢) الكِتَابِ والحساب ، والفرائض
والقرآن ، والنحو والعروض والأشعار ، والأخبار والآثار ، ووجدنا
الأوائل كانوا يتخذون لأبنائهم من يعلمهم الكتابة ^(٣) والحساب ، ثم
لعب الصَّوَالِجِ ، والرَّمْيِ فِي التَّنْبُوكِ ^(٤) ، والمجتمعة ^(٥) ، والطَّيْرِ الخاطف ،
ورمى البنجكاز ^(٦) . وقبل ذلك الدَّبُوقُ ^(٧) والنَّفْخِ فِي السَّبْطَانَةِ ^(٨) .
وبعد ذلك الفُروسِيَّةُ ، واللَّعْبُ بِالرَّمَّاحِ والسُّيُوفِ ، والمشاوِلة ^(٩) والمنازلة
والمطاردة ، ثم النُّجُومِ واللُّحُونِ ، والطَّبِّ والهندسة ، وتعلم النُّرْدِ
والشُّطْرَجِ ، وضرب الدُّفُوفِ وضرب الأوتار ، والوَقْعِ والنَّفْخِ فِي أَصْنَافِ المِزَامِيرِ .
ويأمرُون بتعليم أبناء الرعيَّةِ الفِلاحةَ والنَّجَّارَةَ ^(١٠) ، والبُنْيَانَ
والصَّيَاغَةَ والخياطة ، والسُّرْدِ والصَّبْغِ ^(١١) ، وأنواع الحياكة . نَعَمْ حَتَّى
عَلِّمُوا البِلاِبِلَ وَأَصْنَافِ الطَّيْرِ الأَلْحَانَ .

(١) ط : « المعلمين » .

(٢) ب فقط : « كعلم » .

(٣) الكتاب : الكتابة . م فقط : « الكتابة »

(٤) هي كذلك في الفارسية . انظر استينجاس ٣٢٧ وقد فسرها بالقوس الخفيفة : **Weak bow**
ولعل ما يقابلها بالعربية « المقتدرة » . وفي المخصص ٦ : ٣٩ عن ثعلب : قوس مقتدرة : خفيفة
متوسطة . ب : « التنبوك » صوابه ف م ، ط .

(٥) المجتمعة : كل حيوان ينصب ويرى ويقتل . وفي الحديث أنه نهي عن المصبورة والمجتمعة
(٦) م : البنجكار « بالراء المهمله ، تحريف . وهي لفظة فارسية مكونة من كلمتين
بنج بمعنى خمسة . وكاز بمعنى الفصن ولعلها خمس خشبات تنصب هدفاً .

(٧) في القاموس والتاج أن الدبوق كنتور : لعبة يلعب بها الصبيان . ب : « الدبوق »
وأثبت ما في ط ، م .

(٨) السبطانة محرّكة ، كما في القاموس : قناة جوفاء يرمى بها الطير . وفي اللسان : قناة
جوفاء مفروية بالعقب يرمى بها الطير ، وقيل يرمى فيها بسهام صغار ينفخ فيها نفعاً ، فلا تكاد
تخطئ . وفي جميع الأصول : « الشيطار » ، صوابه ما أثبت .

(٩) يراد به حمل الأثقال ، من قولهم شاول الحجر : رفعه ، فانشال . والمشوال :
حجر يشال . يقال شال به وأشاله وشاوله .

(١٠) آ ب ، ط : « والتجارة » ، والوجه ما أثبت من م .

(١١) السرد : الخرز في الأديم ، وهو أيضاً نسج الدروع . ب : « والصبيغ » بالعين المهمله
صوابه في ط ، م .

وناساً^(١) يعلمون القرود والدببة والكلاب والظباء المكية^(٢) والببغاء، والسقر^(٣) وغرباب البين، ويعلمون الإبل، والحيثل، والبغال، والحمير، والفيلة، أصناف المشى، وأجناس الحضر^(٤)، ويعلمون الشواهد والصقور والبوازي^(٥)، والفهود، والكلاب، وعنقاص الأَرْض، الصيّد.

ويعلمون الدوابّ الطّحن، والبخانيّ الجمز^(٦) حتى يروضوا الهِملاج والمعناق^(٧)، بالتخلّيع وغير التخلّيع^(٨)، وبالموضوع والأوسط والمرفوع.

ووجدنا للأشياء كلّها معلمين.

وإنّما قيل للإنسان العالم الصّغير، سليل العالم الكبير^(٩)، لأنّ في الإنسان من جميع طبائع^(١٠) الحيوان أشكالا، من ختل الذئب^(١١)

- (١) كذا بالنصب في جميع النسخ، بإضمار «وجدنا». وانظر ما سبق في أول هذا الفصل.
 (٢) الذي ذكره الجاحظ في الحيوان هو الغمّ المكية. انظر ٢ : ١٧٩ / ٦ : ٣١٦ : ٧ : ١٠٤ ومثلها في ذلك الغمّ الحبشية. انظر الحيوان ٦ : ٣١٦ عند تفسير الجاحظ لقصيدة بشر بن المعتز :
 والذب والقرد إذا علما والقيسل والكلبسة واليعر
 (٣) السقر : الصقر. وانظر لتعليقه ما جاء في الحيوان ٤ : ٤٧ . ب : « والسقل » م ، ط : « والسعل » ، صوابهما ما أثبت .
 (٤) ط : « الخطو » .
 (٥) البوازي : جمع البازي . وفي جميع النسخ : « البوازين » . وانظر لتعليم البوازي ما جاء في الحيوان ٤ : ٤٧ .
 (٦) الجمز : الوثب . م ، ط : « الهمز » تحريف .
 (٧) الهملجة : حسن سير الدابة في سرعة . والمعناق : السريع ، أعنت الدابة فهي معنق وعتيق ومعناق . في الأصول : « والمعناق » .
 (٨) في القاموس : الخلع الأليتين ، كمعظم : المنفكهما ، والتخلّيع مشيه ، أي مشى الخلع .
 (٩) ب فقط : « وليل العالم الكبير » . وما أثبت من م ، ط يطابق ما في الحيوان ١ : ٢١٢ .
 (١٠) ب ، م : « طبائع » بالتسهيل .
 (١١) الختل : الخداع . وختل الذئب الصيّد : تنخوله . م ، ب : « حيل الذئب » . وفي الحيوان : « غدر الذئب » .

وروغان الثعلب (١) ، ووثوب الأسد ، وحقد البعير ، وهداية القطاة . وهذا كثير ، وهذا بابة (٢)

ولأنه يحكى كل صوت بفيه ، ويصور كل صورة بيده . ثم فضله الله تعالى بالمنطق والروية (٣) وإمكان التصرف .

وعلى أنا لا نعلم أن لأحد من جميع أصناف المعلمين لجميع هذه الأصناف - كفضيلة المعلم من الناس الأحداث المنطق المنشور (٤) ، ككلام الاحتجاج والصفات ، والمناقلات من المسائل والجوابات في جميع العلامات ، بين الموزون من القصائد (٥) والأرجاز ، ومن المزدوج والأسجاع (٦) ، مع الكتاب والحساب ، وما شاكل ذلك وواقفه وأنصل به ، وذهب مذهبه .

وقالوا : إنما اشتق اسم المعلم من العلم ، واسم المؤدب من الأدب . وقد علمنا أن العلم هو الأصل ، والأدب هو الفرع .

والأدب إما خلق وإما رواية ، وقد أطلقوا له اسم المؤدب على العموم .

(١) ب : « وزوغان » تحريف ، وإنما يقال راغ الثعلب روغاناً . وفي أمثالهم : « أروغ من ثعلب » ، « و أروغ من ثعالة » . وانظر الدررة الفاخرة ٢٠٩ وجمهرة السكري ١ : ٥٠٠ والمستقصى ١ : ١٤٥ والميداني ١ : ٢٩٠ . والروغان : المخادعة .

(٢) البابة : الوجه . والبايات : الوجوه ، وفي الأصول : « وهذا بابة » .

(٣) الروية : التفكير في الأمر ، والتبهل في الفكر . وفي جميع النسخ : « الروية » والوجه ما أثبت . وإلا فالروية مشتركة بين جميع ضروب الحيوان .

(٤) م ، ب : « الأحداث هي من المنطق المنشور » ، وعبارة « هي من » مقحمة لم ترد في ط .

(٥) ب : « عن القصائد » ، صوابه في م ، ط .

(٦) في جميع النسخ : « من المزدوج » بدون واو . والمزدوج ضرب غير الرجز ، مثل له الجاحظ في البيان ٢ : ١١٦ - ١١٧ . كما أورد نماذج للأصباح في ١ : ٢٨٤ - ٢٩٠ ، وفي السبع يغلب التزام التقفية . وفي الازدواج مراعاة للتزواج في المعاني ، وقد يصحب بالتزام الغافية . وفي جميع النسخ : « والأصماع » والوجه ما أثبت .



والعلم أصلٌ لكلِّ خيرٍ ، وبه ينفصل الكرم من اللؤم ، والحلال من الحرام . والفضل من الموازنة بين أفضل الخيرين ، والمقابلة بين أنقص الشرين .

فلم يعرضوا لأحدٍ من هذه الأصناف التي ^(١) اتَّخذ النَّاس لها المعلمين من جميع أنواع الحق والباطل ، والسرف والاقتصاد ، والجِدِّ والهزل ، إلَّا هؤلاء الذين لا يعلمون إلَّا الكتاب ^(٢) والحساب ، والشعر ، والنحو ، والفرائض ، والعروض . وما بالسما ^(٣) من نجوم الاهتداء والأنواء والسُّعود ، وأسماء الأيام والشُّهور ، والمناقلات ^(٤) .

ويعنهم العرّامة ^(٥) ، ويأخذهم بالصلاة في الجماعة ، ويُدْرِسُهُم القرآن ^(٦) ، ويهدن ^(٧) ألسنتهم برواية القصيد والأرجاز ، ويُعاقب على التهاون ، ويضرب على الفرار ^(٨) ، ويأخذهم بالمناقلة ^(٩) ، والمناقلة ^(١٠) [أسباب المنافسة .

لحقير ^(١١) بخلاف هذه السيرة ، وبضد هذه المعاملة

(١) ب ، م : « الذي » ، صوابه في ط .
 (٢) الكتاب : الكتابة . ط فقط : « الكتابة » .
 (٣) ب : « وما السما » ، صوابه في م ، ط .
 (٤) في القاموس : « المناقلة في المنطق : أن تحدّثه ويحدّثك » . وفي أساس البلاغة : « وناقل الحديث ، إذا حدّثه وحدّثك . وناقل الشاعر الشاعر : ناقضه » .
 (٥) العرّامة ، بالمهملة : الشراة والأذى . م : « الغرّامة » . تحريف .
 (٦) يقال درسته الكتاب درساً ، وأدرسته إدراًساً ، ودرسته إياه تدريساً . وأصل المدرس التذليل ، يقال درست الكتاب أدرسه درساً ودراسة ، أي ذلته بكثرة القراءة حتى خف حفظه .
 (٧) يقال هدنوه بالقول حتى رضى وسكن . وتهدين المرأة ولدعا : تسكينها له بكلام إذا أرادت إنامته . ط فقط : « ويهدبون ألسنتهم » .
 (٨) ب فقط : « على الفرار » .
 (٩) انظر ما سبق في الحاشية الرابعة .
 (١٠) تكلة يلتئم بها الكلام .
 (١١) يبدو أن الكلام بترأ . كما يبدو أن هذه الكلمة محرقة عن « لحقيق » . وهذا في كله نطاق الدفاع عن المعلم .



وقد ذهب قوم^(١) إلى أن الأدب حُرْفٌ^(٢) ، وطلبه شُومٌ . وأنشد

قول الشاعر :

ما ازددت في أدبي حرفاً أُسرُّ به
إلَّا تزيَّدتُ حُرْفاً تحته شُومٌ^(٣)
إنَّ المَقْدَمَ في حِذْقِ بصنعتِه
أنتى توجَّهَ فيها فهو محرومٌ^(٤)

ولم نر شاعراً نال بشعره الرغائب ، ولا أديباً بلغ بأدبه المراتب ،
ذَكَرَ يُعْنِ الأَدبَ ، ولا بركة قول الشعر^(٥) . فإذا حُرِمَ الواحدُ منهم ،
والرجل الشاذُّ ذَكَرَ حُرْفَ الأَدبِ^(٦) وشُومَ الشعر . وإن كان عدُّدٌ من
نال الرغائب أكثرَ من عدد من أخفق .

ومهما عَيَّرنا مَنْ كان في هذه الصِّفة^(٧) فإننا غير مُعاريين^(٨) لأبي
يعقوب الخَرَمِيّ^(٩) ؛ لأنَّه نال بالشعر وأدرك بالأدب .

(١) الحرف ، بالضم ، الحرمان ، من قولهم : رجل محارف ، أى منقوص الحفظ
لا ينسوله . ومثله « الحرفة » بالكسر : اسم كذلك ، يقال : أدركته حرفة الأدب . ط
فقط : « خرق » ، وهو الحق .

(٢) في البيت مجانسة بين الحرف والحرف بالضم .

(٣) ب فقط : « في حرق بصنعتِه » ، تحريف .

(٤) الكلام بعده إلى كلمة « الشعر » التالية ساقط من م :

(٥) في الأصول : « فإنما حرم » . والوجه ما أثبت . وفي ط فقط : « خرق الأدب » .

(٦) ط : « الصنعة » . والتعبير هنا بمعنى الموازنة .

(٧) المعارفة ، من قولهم : عاير بينهما : قدرهما ونظر ما بينهما . وفي الأصول :

« غير عايرين » .

(٨) الخرمي بالراء المهمله : نسبة إلى خريم بن عامر المرى، وكان لأبي يعقوب اتصال به
وبآله فنتسب إليه . وفي جميع الأصول : « الخرمي » ، تحريف . واسمه إسحاق بن حسان بن قوهي ،
وقد ذكره البهتادى في التاريخ ٣٣٦٩ وقال : أصله من خراسان من بلاد السغد ، وقال :
« وله مدائح في حمد بن منصور بن زياد ، ويحيى بن خالد وغيرهما . وقال أبو حاتم السجستاني :
الخرمى أشعر المولدين ، وروى عنه شيئاً يسيراً من شعره أبو عثمان الجاحظ ، وأحمد بن عبيد
ابن ناصح » وانظر تحريم الناعم قاموس الزركلى وأمثال الميبدانى ٢ : ٢٨١ . وكان إسحاق هذا
من العميان روى له الجاحظ شعراً يذكر فيه عماء في الحيوان ٣ : ١١٣ . وانظر نكت العميان ٧١
وعيون الأخبار ٤ : ٥٧ .

وليس الذى يحمل^(١) أكثر الناس على هذا القول إلا وجدان المعاني والألفاظ ، فإنهم يكرهون أن يُضيعوا باباً من إظهار الظرف وفضل اللسان^(٢) وهم عليه قادرون .

٧ - فصل

وقد قالوا : الصبىُّ عن الصبىِّ أفهمُّ ، وبه أشكل . وكذلك الغافل والغافل^(٣) ، والأحمق والأحمق ، والغبىُّ والغبىُّ ، والمرأة والمرأة . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾^(٤) . لأنَّ الناس عن النَّاس أفهم ، وإليهم^(٥) أسكن . فمما أعان الله تعالى به الصَّبيان ، أنْ قَرَّبَ طبائعهم ومقادير عقولهم من مقادير عقول المعلمين^(٦) .

وسمع الحجَّاجُ - وهو يسيرٌ - كلامَ امرأةٍ من دار قومٍ ، فيه تخلیطٌ وهذيان ، فقال : مجنونة ، أو ترقَّص صبياً !

ألا ترى أنْ أبلغ الناس لساناً ، وأجودهم بياناً وأدقهم فطنةً ، وأبعدهم رويةً^(٧) ، لو ناظق طفلاً أو ناغى صبياً ، لتوخى حكاية مقادير عقول الصَّبيان ، والشَّبهَ لمخارج كلامهم ، وكان لا يجد بداً من أن ينصرف^(٨) عن كلِّ ما فضله الله به بالمعرفة الشريفة ، والألفاظ الكريمة . وكذلك تكون المشاكلة^(٩) بين المتفقيين^(١٠) في الصناعات .

(١) م : « وأليس » ، تحريف . ب ، م : « يجعل » ، صوابه في ط .

(٢) م ، ط : « الشأن » .

(٣) م : « العاقل والعاقل »

(٤) الآية ٩ من سورة الأنعام .

(٥) ب ، م : « وإليه » تحريف .

(٦) ب ، ط : « العالمين » .

(٧) ب ، م : « روية » ، صوابه في ط . وانظر ما سبق في حواشى ص ٣٤ .

(٨) ب ، م : « يصرف » ، وأثبت ما في ط .

(٩) ب ، م : « يكون مشاكلة » ، صوابه في ط .

(١٠) م : « المتقين » ، صوابه في ب ، ط .



في رياضة الصبي

وأما النحو فلا تشغل قلبه ^(١) منه إلا بقدر ما يؤدّيه إلى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه ^(٢) ، وشعر إن أنشده ، وشيء إن وصفه . وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ، ومذهل عما هو أردُّ عليه ^(٣) منه من رواية المثل والشاهد ^(٤) ، والخبر الصادق ، والتعبير البارع ^(٥) .

ولئنما يرغب في بلوغ غايته ومجاورة الاقتصار فيه ، من ^(٦) لا يحتاج إلى تعرف جسيات الأمور ، والاستنباط لغوامض التدبر ، ولمصالح العباد والبلاد ، والعلم بالأركان ^(٧) والقُطب الذي تدور عليه الرّحى ؛ ومن ليس له حظُّ غيره ، ولا معاش سواه .

وعويص النحو ^(٨) لا يجري في المعاملات ولا يُضطرُّ إليه شيء .

(١) م ، ب : « قلبهم » ، صوابه في ط .

(٢) ط : « في كتاب كتبه » .

(٣) أرد عليه : أنفع له . وهذا الأمر لا رادة له ، أي لا فائدة له .

(٤) هذا ما في ط . وفي م ، ب : « المثل الشاهد » .

(٥) ب ، م : « والفقر البارع » ، صوابه في ط .

(٦) م : « عن » ، تحريف .

(٧) ب ، ط : « والعلم بالأركان » ، صوابه في م .

(٨) ب ، م : « وعويص النحو » ، صوابه في ط .

فمن الرأي أن يُعتمد به ^(١) في حساب العَقْد ^(٢) دون حساب الهِنْد ، ودون الهندسة ^(٣) وِعَوِيص ^(٤) ما يدخل في المساحة . وعليك في ذلك بما يحتاج إليه كُفَاة السُّلْطَان وكُتَاب الدواوين .

وأنا أقول : إن البلوغ في معرفة الحساب الذي يدور عليه العمل ، والتَّرْقَى فيه ^(٥) والسبب إليه ، أَرْدُ عليه من البلوغ في صناعة المحرِّرين ورؤوس الخطَّاطين ؛ لِأَنَّ في أدنى طبقات الخطِّ مع صحَّة الهجاء بلاغاً . وليس كذلك حالُ الحساب .

ثمَّ خذْه ^(٦) بتعريف حجج الكتاب وتخلُّصهم باللفظ السَّهْل القريب المأخوذ إلى المعنى الغامض ^(٧) . وأذِقْهُ حلاوة الاختصار ، وراحة الكفاية ، وحذِّره التكلُّف واستكراهة العبارة ^(٨) ؛ فَإِنَّ أَكْرَمَ ذلك كُلِّه ما كان إفهاماً للسامع ، ولا يُحَوِّج إلى التأويل والتعقُّب ، ويكون مقصوراً على معناه لا مقصراً عنه ، ولا فاضلاً عليه .

فاختر من المعاني ما لم يكن مستوراً باللفظ المتعقِّد ^(٩) ، مُغرِفاً في الإكثار والتكلُّف ^(١٠) . فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع

(١) ب : « أن يصمد به » ، وأثبت ما في م ، ط .

(٢) حساب العقد : ضرب منه يكون بأصابع اليدين . وفي الحديث أنه « عقد عقد تسعين » وقد ألفت فيه كتب وأراجيز . انظر الخزانة ٣ : ١٤٧ بولاق والحيوان ١ : ٣٣ والبيان ١ : ٧٦ وفتح الباري ١٣ : ٩٥ - ٩٦ والألف المختارة من صحيح البخاري ٨٩٦ ، ٩٢٥ .

(٣) م : « ودون حساب الهندسة » .

(٤) ب ، م : « وغويص » ، تحريف .

(٥) ب ، م : « والتوقى » ط : « والتوقى » ، والوجه ما أثبت .

(٦) ط فقط : « ثم خذ » .

(٧) ب : « الغامض » ، صوابه في م ، ط .

(٨) ب : « واستكراهة العبارة » ، صوابه في م ، ط .

(٩) ب ، ط : « المتعقد » ، وأثبت ما في م .

(١٠) في جميع الأصول : « مفرفاً » بالفاء ، والوجه ما أثبت .

بَرَاعَةِ اللَّفْظِ وَغَمُوضِهِ عَلَى السَّماعِ بَعْدَ أَنْ يَتَسَقَّ لَهُ الْقَوْلُ ^(١) ، وَمَا زَالَ الْمَعْنَى مَحْجُوباً لَمْ تَكشِفْ عَنْهُ الْعِبَارَةُ . فَلَمَعْنَى بَعْدُ مَقِيمٌ عَلَى اسْتِخْفَائِهِ وَصَارَتِ الْعِبَارَةُ لِعَواً وَظَرْفاً خَالِياً .

وَشَرُّ الْبَلغَاءِ مِنْ هِياً رَسْمِ الْمَعْنَى قَبْلَ أَنْ يَهَيَّءَ ^(٢) الْمَعْنَى ، عَشَقاً لِلذِّكِّ اللَّفْظِ ، وَشَغَفاً بِذَلِكَ الْأَسْمِ ، حَتَّى صَارَ يَجُرُّ إِلَيْهِ الْمَعْنَى جَرّاً ، وَيُلْزِقُهُ بِهِ الْإِرْزاقاً . حَتَّى كَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ^(٣) لَمْ يَخْلُقْ لِلذِّكِّ الْمَعْنَى اسْماً غَيْرَهُ ، وَمَنْعَهُ الْإِفْصاحَ عَنْهُ إِلَّا بِهِ .

وَالآفَةُ الْكَبيرَى أَنْ يَكُونَ رَدِىءَ الطَّبِيعِ ^(٤) بَطِئاً اللَّفْظِ ، كَلِيلَ الْحَدِّ ، شَدِيدَ الْعُجْبِ ، وَيَكُونَ مَعَ ذَلِكَ حَرِيصاً عَلَى أَنْ يُعَدَّ فِي الْبَلغَاءِ ، شَدِيدَ الْكَلْفِ بَانْتِحالِ اسْمِ الْأَدْبَاءِ ^(٥) . فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ خَفِيَ عَلَيْهِ فَرْقُ مَا بَيْنَ إِجَابَةِ الْأَلْفاظِ وَاسْتِكْرَاهِهَا لَهَا .

وَبِالْجُمْلَةِ ^(٦) إِنَّ لِكُلِّ مَعْنَى شَرِيفٍ أَوْ وَضِيعٍ ، هَزْلاً أَوْ جِدّاً ^(٧) ، وَحَزْماً أَوْ إِضَاعَةً ^(٨) ، ضَرْباً ^(٩) مِنَ اللَّفْظِ هُوَ حَقُّهُ وَحِظُّهُ ، وَنَصِيبُهُ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يَجَاوِزَهُ أَوْ يَقْصُرَ دُونَهُ ^(١٠) .

وَمَنْ قَرَأَ كَتَبَ الْبَلغَاءِ ، وَتَصَفَّحَ دَوَاوِينَ الْحِكْمَاءِ ، لَيْسْتَ فَيَدُ

(١) م : « يتسوله القول » ط : « يتبين له القول » . وأثبت ما في ب .

(٢) ب فقط : « هيبا » .

(٣) ب ، م : « كأن الله مراده تعالى ! »

(٤) ب : « ردى الطبع » بالنسبيل .

(٥) ط فقط : « الأدب » .

(٦) ب : « والجمله »

(٧) ط : « هزلاً أو جدياً » .

(٨) ب ، م : « أو حزم » ، ط : « وحزم أو ضاعه » ، والوجه ما أثبت .

(٩) ط : « ضرب » ، تحريف .

(١٠) ب : « ويقصر دونه » .



المعاني، فهو على سبيل صواب. ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ فهو على سبيل الخطأ. والخسرانُ هنا في وزن الرِّيح هناك؛ لأنَّ من كانت غايته انتزاع الألفاظ^(١) حملهُ الحرصُ عليها، والاستهتارُ بها إلى أن يستعملها قبلَ وقتها، ويضعها في غير مكانها. ولذلك قال بعض الشعراء^(٢) لصاحبه: أنا أشعر منك! قال صاحبه: ولمَ ذلك؟ قال: لأني أقول البيتَ وأخاه، وأنت تقول البيتَ وابن عمِّه.

وإنما هي رياضةٌ وسياسة^(٣)، والرفيق: مصلحٌ وآخرٌ مفسد^(٤). ولا بدُّ من هِدَانٍ وطبيعةٍ مناسبة^(٥). وسماع الألفاظ ضارٌّ ونافع^(٦).

فالوجه النافع: أن يدور في مسامعه، ويغبُّ في قلبه^(٧)، ويختمر^(٨) في صدره، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقت فكانت^(٩) نتيجةها أكرمَ نتيجة، وثمرتها أطيبَ ثمرة؛ لأنها حينئذ تخرج غير مُسترففة ولا مختلصة^(١٠)، ولا معتصبة، ولا دالةً على فقر؛ إذ لم يكن القصد إلى شيء بعينه، والاعتماد عليه دون غيره. ويبيِّن الشيء إذا عَشَّش في

(١) ب: «أنواع» م: «انتواع»؛ صوابهما في ط.

(٢) هو عمر بن لجأ، كما في مقدمة الشعر والشعراء ٩٠.

(٣) م، ط: «وسياحة».

(٤) ط، ب: «والآخر مفسد».

(٥) الهدان: المهادة. م، ط: «هذان» مع سقوط واو «وطبيعة» من ط.

(٦) ب، م: «ضارة ونافعة».

(٧) يغب: يمحى، ومنه قولهم: «رويد الشعر يغب»، أي دعه يمحى يوماً أو يومين.

م، ط: «ويغيب في قلبه».

(٨) هذا الصواب من ب: وفي م، ط: «ويخيم».

(٩) ط: «وكانت».

(١٠) هذا الصواب من م، ط، وفي ب: «ولا محترسه».

الصَّدر ثم باض ، ثم فرَّخ ثم نهض ، وبين أن يكون الخاطر مختاراً ، واللفظ اعتسافاً واغتصاباً ، فرق بين .

ومنى اتَّكَلَّ صاحبُ البلاغة على الهوينى والوكال ، وعلى السَّرِقة والاحتيال ، لم ينل طائلاً ، وشقَّ عليه النزوع ، واستولى عليه الهوان ، واستهلكه سوء العادة .

والوجه الضار : أن يتحفَّظ ألفاظاً بعينها^(١) من كتاب بعينه ، أو من لفظ رجل ، ثم يريد^(٢) أن يعدَّ لتلك الألفاظ قسمها من المعاني ، فهذا لا يكون إلا بخيلاً فقيراً ، وحائفاً^(٣) سروقاً ، ولا يكون إلا مستكرباً لألفاظه ، متكلفاً لمعانيه ، مضطرب التأليف منقطع النظام . فإذا مرَّ كلامه بنقَّاد الألفاظ وجهابذة المعاني استخفوا عقله ، وبهرجوا علمه .

ثم اعلم أنَّ الاستكراه في كل شيء سَمِج ، وحيث ما وقع فهو مذموم ، وهو في الطُّرْفِ أَسْمَج ، وفي البلاغة أقبِح . وما أحسن حاله ما دامت الألفاظ مسموعة من فيه^(٤) ، مسرودة في نفسه^(٥) ، ولم تكن مخلَّدة في كتبه .

وخير الكتب ما إذا أعدتَ النظر فيه زادك في حسنه ، وأوقفك على

حدّه^(٦) .

(١) تحفظ الكتاب : استظهره شيئاً بعد شيء . م ، ط : « أن يحفظ » .

(٢) م فقط : « أن يؤيد » .

(٣) من الخيف والجور . ب : « وحائفاً » بالنسبيل .

(٤) ب : « من فهمه » ، صوابه في م ، ط .

(٥) مسرودة : منتظمة متتابعة . ب : « مسرورة » .

(٦) م : « أوقف » ب : « وأوقف » ، والوجه ما أثبت من ط .



في ذم اللواط

والذي يدلُّ على أنَّ هذه الشَّهْوَةَ معيِّبَةٌ في نفسها^(١) ، قبيحة في
 عينها ، أنَّ الله تعالى وعزَّ لم يعوِّض في الآخرة بشهوة الولدان من ترك
 لوجهِه في الدنيا شهوة الغلمان ، كما سقى في الآخرة الخمر من تركها له
 في الدنيا ، ثمَّ مدَّح خمر الجنَّةِ بأقصر الكلام ، فنظَّم به جميع المعاني
 المكروهة في خمر الدنيا فقال : ﴿ لا يُصَدِّعُونَ عَنْهَا ولا يُنزِفُونَ^(٢) ﴾ .
 كأنه تبارك وتعالى قال : لا سُكر فيها ولا خُمار^(٣) .

وفي اكتفاء الرُّجال بالرُّجال والنِّساء بالنِّساء انقطاع النِّسل ، وفي
 انقطاع النِّسل بطلانُ جميع الدِّين والدنيا . وعشيانُ الرَّجُلِ الرَّجُلِ
 والمرأةُ المرأةَ من المنكوس المعكوس^(٤) ، ومن المُبدلِ المقلوب ؛ لأنَّ الله
 جلَّ ذكره إنَّما خلق الذَّكَرَ للأُنثى ، وجعل بينهما أسباب التحابِّ
 وعلائق الشُّرْكةِ ، وعلل المشاكلة^(٥) وجعل الذَّكَرَ طَيْقاً للأُنثى . وجعل
 الأُنثى سكناً للرجل . فقلب هؤلاء الأمرَ وعكَّسوه ، واستقبلوا من اختار
 الله لهم بالردِّ والزُّهدِ فيه .

(١) م ، ب : « معيبة نفسها » .

(٢) الآية ١٩ من سورة الواقعة .

(٣) الخمار ، بالضم ؛ ما أصاب من ألم الخمر وصداها وأذاها .

(٤) ب فقط : « من المنكوس والمعكوس » .

(٥) ب فقط : « المشاركة » .



ومن المعلمين ثم من البلغاء المتأدبين^(١) : عبد الله بن المقفع ، ويكنى أبا عمرو ، وكان يتولى لآل الأهم^(٢) ، وكان مقدماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة ، واختراع المعاني وابتداع السبب . وكان جواداً فارساً جميلاً ، وكان إذا شاء أن يقول الشعرَ قاله ، وكان يتعاطى الكلام . ولم يكن يُحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً . وكان ضابطاً لحكايات المقالات ، ولا يعرف من أين غرُّ المغترِّ ووَرِقَ الواثق . وإذا أردت أن تعتبر ذلك ، إن كنتَ من خُلص المتكلمين ومن النظَّارين ، فاعتبر ذلك بأنَّ تنظرَ في آخر رسالته (الهاشمية) ، فإنك تجده جيدَ الحكاية لدعوى القوم ، ردى المدخل في مواضع الطعن عليهم .

وقد يكون الرجل يُحسن الصنف والصنفين من العلم ، فيظنُّ بنفسه عند ذلك أنه لا يحمل عقله على شيءٍ إلا نَفَذَ به فيه^(٣) ، كالذي اعترى الخليل بن أحمدَ بعد إحسانه في النحو والعروض ، أن ادعى العلم بالكلام وبأوزان الأغاني^(٤) ، فخرج من الجهل إلى مقدارٍ لا يبلغه أحدٌ إلا بخذلان الله تعالى . فلا حرمننا الله تعالى عصمته ، ولا ابتلانا بخذلانه .

١٠ - فصل (٥)

وهذان الشاعران جاهليان^(٦) ، بعيدان من التوليد ، وبنجوة من التكليف .

(١) ب : « ثم البلغاء المتأدبين » ، بإسقاط « من » .

(٢) انظر طرفاً من أخبارهم في الأغاني ١٣ : ٥٨ .

(٣) م : « إلا تعدته فيه » ، ط : « إلا بعد به فيه » . والوجه ما أثبت من ب .

(٤) م : « المغاني » .

(٥) لم ترد هذه الكلمة في ب . والاختيار التالي مقتضب لا يمت إلى ما قبله ولا إلى ما بعده بصلة .

(٦) ب : « جاهلان » ، تحريف .



ومن خصال العبادة وإن كانت كلُّها راجحة فليس فيها شيءٌ أردُّ في عاجلٍ^(١) ، ولا أفضلَ في آجلٍ من حُسْنِ الظَّنِّ بالله تعالى وعزِّ^(٢) .

ثم اعلم أنَّ أَعْقَلَ النَّاسِ السُّلْطَانَ وَمَنْ احتاج إلى معاملته ، وعلى قدر الحاجة إليه يفتح له باب الحيلة ، والاهتداء إلى مواضع الحجَّة . وما أقربَ فضل الرَّاعِي على الرعيَّة من فضل السائس على الدابَّة . ولولا السُّلْطَانُ لَأَكَلَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، كما أنَّه لولا المُسَيِّمُ لَوُتِبَ السَّبَاعُ عَلَى السَّوَامِ^(٣) .

ودَعَى من تدرسه كتب أبي حنيفة^(٤) ، ودَعَى من قوِّله : اصرفه إلى الصَّيَارِفَةِ ؛ فَإِنَّ صِنَاعَةَ الصَّرْفِ تَجْمَعُ^(٥) مع الكِتَابِ والحساب المعرفة بأصناف الأموال ، ولا تجد بُدًّا^(٦) من جِلَّةِ السُّلْطَانِ^(٧) .

ودَعَى من قول من يقول : قد كانت قريش تجاراً ؛ فإن هذا بابٌ لا ينقاس ولا يطرد . ومَنْ قاس تُجَارَ الكَرْخِ وِبَاعَتِهِ ، وتُجَارَ الأَهْوَاذِ والبصرة ، على تُجَارِ قريش ، فقد أخطأ مواضع القياس ، وجَهَل أقدارَ العلل .

(١) أرد ، أى أنفع .

(٢) وأعز ، ساقطة من م .

(٣) المسمي : الراعي ، أسامها إسامة : خلاها ترعى ، ومثله سامها سوماً ، والسوام : الإبل الراعية تسوم حيث شاءت ، وهو اسم جمع للسائم والسائمة ، وميها مخففة ، وضبطت في طبعة القاموس بالتشديد خطأ . وفي ب ، م : « لأثب السباع » ، صوابه في ط .

(٤) ب ، م : « من تدرسه » ط : « من تدريس » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما أسلفت من حاشية على « ويدرسه القرآن » في أواخر الفصل الخامس ص ٣٥ . والضمير عائد إلى العصبى .

(٥) ب ، م : « يجمع » ، صوابه في ط .

(٦) ب فقط : « يدان بالياء » ، تحريف .

(٧) ب ، م : من جلة السلطان « بالجم . والمراد أنها لها علاقة بالسلطان .

قريش^(١) قومٌ لم يزل الله تعالى يقلّبهم في الأرحام البريئة من الآفات^(٢) ، وينقلهم من الأصلاب السليمة من العاهات ، ويعيّبهم لكل جسم^(٣) ، ويربّيهم لكل عظيم .

ولو علم هذا القائل ما كانت قريش عليه في التجارة لعرف اختلاف السبل ، وتفاوت ما بين الطرق . ولو كانت علتهم في ذلك كعلّة تجار الأبلّة^(٤) ، ومحتكرى أهل الحيرة ، لثلمت دقّة التجارة في أغراضهم^(٥) ولنهك سخف التريخ^(٦) من مروءاتهم ، ولصغر ذلك من أقدارهم في صدور العرب ، ولو وضع من علوهم عند أدل الشرف . وكيف وقد ارتحلت إليهم الشعراء كما ارتحلت إلى الملوك العظماء . فأسنوا لهم العطيّة ، ولم يقصّروا عن غاية ، فسقوا الحجيج وأقاموا القرى لزوار الله تعالى ، وهم بوادٍ غير ذى زرع . فلو أنّه كان معهم من الفضل ما يبهر العقول ، ومن المجدي ما تخرج فيه العيون^(٧) ، لما أصلح طبائعهم الشيء الذي يفسد جميع الأمة^(٨) . ولقد أورث ذلك صدورهم من السعة بقدر ما أورث

(١) م فقط : « وقريش » .

(٢) ب ، م : « البرية » بالتسهيل .

(٣) عباة تميمية وتعبئة : هياه وأصلحه . م ، ط : « ويقيمهم » . وأثبت ما في ب .

(٤) الأبلّة : بلدة على شاطئ دجلة البصرة ، وهى أقدم منها ، لأن البصرة مصرت في أيام عمر ، وكانت الأبلّة حينئذ مدينة فيها مسلخ وقائد من قبل كسرى .

(٥) في جميع الأصول : « أغراضهم » بالفتن المعجمة ، وإنما يثلم العرض ، بالعين المهملة أى يعطن فيه ، وفي أساس البلاغة : « هذا ما يكلم الدين ويثلم اليقين » .

(٦) ب ، م : « التريخ » ط : « الرّيح » ، والوجه ما أثبت من الجمع بينهما . والترج : طلب الرّيح والمكسب .

(٧) خرجت عينه حرجاً : حارت ، قال ذو الرمة :

ترداد للعين إبهاجاً إذا سفرت . وتخرج العين فيها حين تنتقب

وقيل معناه أنها لا تنصرف ولا تطرف من شدة النظر . وفي جميع الأصول : « ما يخرج

فيه العيون » وهو من ملح التصحيف .

(٨) ب ، م : « لما صلح » ، صوابه في ط .

غيرهم من الضيق . ولو كانت سبلهم ^(١) عند الملوك إذا وفدوا عليهم ،
 أو وردوا ^(٢) بلادهم بالتجارات ، سبل ^(٣) غيرهم من التجار لما أوجهوهم
 وقربوهم ^(٤) ، ولما أقاموا لهم قري الملوك وحبوهم بكرامة الخاص .
 وإذا كانت قريش حُمساً تنسكُ في دينها ، وتساله في عبادتها ^(٥)
 وكان مانعاً لهم من الغارات والسبأ ، ومن وطء النساء من جهة المغم ،
 ولذلك لم يتدوا البنات ولا ولدت منهم امرأة غيرهم من جهة السبأ ^(٦) ،
 ولا زوجوا أحداً من العرب حتى يتحمس ويدين بدينهم . ولذلك لما
 صاروا إلى بناء الكعبة لم يُخرجوا في بنائها من أموالهم إلا موارث
 آبائهم ونسائهم ^(٧) ، خوفاً من أن يخالطه شيء من حرام ، إذ كانت ^(٨)
 أرباح التجارات مخوفاً عليها ذلك . فلما كانوا بوادٍ غير ذى زرع
 ويحتاجون إلى الأقوات ^(٩) ، وإقامة القري ، لم يجدوا بداً من أن
 يتكلفوا ما يعيشهم ويصلح شأنهم ، فأخذوا الإيلاف ^(١٠) ، ورحلوا
 إلى الملوك بالتجارات . فهذا هو السبب .

(١) ب : « سبلهم » . تحريف .

(٢) ب : « وأوردوا » .

(٣) ب ، م : « سبيل » .

(٤) وجهه السلطان توجيهاً ، وأوجهه إيجاهاً : شرفه ، وأوجهته : صادفته وجيهاً .

(٥) تناله : تنسك وتتمتع . ط : « وتناله في عبادتها » ، تحريف .

(٦) ب ، م : « وغيرهم من جهة السبأ » . والمراد لم يعتدوا على نساء غيرهم من القبائل

الأخرى فيلدن لهم .

(٧) من أموالهم ، ساقطة من ب .

(٨) ب ، م : « إذا كانت » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٩) ب ، م : « إلى الأوقات » ، والصواب في ط .

(١٠) الإيلاف : العهد والذمام والإجارة . وكان الإخوة الأربعة : هاشم ، وعبد شمس ،

والمطلب ، ونوفل ، بنو عبد مناف ، يجيرون قريشاً بحيرهم ، وكانوا يسمون المخبيرين . فأما

هاشم فإنه أخذ حبلاً من ملك الروم ، وأخذ نوفل حبلاً من كسرى ، وأخذ عبد شمس حبلاً من

التجاشي ، وأخذ المطلب حبلاً من ملوك حير ، فكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار

بحبال هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم .

فانظر كم بين علَّتْهم وعلَّةٍ غيرهم! فيسركُ بعد هذا أن يتحوَّلَ ابنُك في مسلاخِ صالح الزَّراريثي^(١)، أو في طباعِ ابنِ بادام^(٢)، أو في عقلِ ابنِ سامري^(٣).

فإنَّ زعموا أنَّ أصحابَ السلطانِ يَعرِّضُ مكرُوهُ فيلعلُّوا أنَّ كلَّ مسافرٍ فيَعرِّضُ مكرُوهُ^(٤)، وقد قال بعضُ الحكماءِ: «المسافرُ ومَتاعُه على قَلتٍ إلا من حفظَ اللهُ»^(٥)، يعني على هلاكِ.

وراكبِ البحرِ أشدُّ خطراً، ومشتري طعامِ الأهوازِ أشدُّ تهوراً^(٦)، ورافعِ الشَّراعِ بَعرَضِ هَلَكَةٍ. والمتعرِّضُ للمِلاحَةِ^(٧) والمعرِّضُ نفسَه للسَّباعِ أقلُّ شفقَةً^(٨). وسكانِ الجزائرِ والسواحلِ أحقُّ بالتعرُّضِ، وأولى بالخوفِ. والمنهومُ بالطعامِ الرديِّ^(٩)، والمدمنُ للشَّرابِ أشبهُ بأصحابِ التغريرِ^(١٠)، والتباري في ذلك والمتزيِّدُ منه أحقُّ بتوقُّعِ الجِدْثانِ وحوادثِ الأزمانِ، قد جرت عليه عادةُ الدهرِ^(١١) وسيرةُ الأيامِ. وهذا كلُّه أحقُّ بالاهتمامِ.

(١) ب: «الذَّراريثي» ط: «الذَّراليثي»، وأثبت ما في م. وأصل معنى السلاخ الجلد، والمراد أن يكون مثله.

(٢) ط، ب: «ابن آدم»، وأثبت ما في م. وبإدغام، من الأعلام الفارسية، ويقال أيضاً بإدغام. وانظر حواشي رسائل الجاحظ ٢: ٢٩٢.

(٣) ب، ط: «وقى عقل».

(٤) ط: «بعرض مكرُوهُ».

(٥) الذي في البيان ٢: ١٠٥ واللسان (قلت): «وقال أعرابي: إن المسافر ومَتاعُه لعل قلت إلا ما وقى الله». وقى جميع الأصول: «على قلة» تحريف.

(٦) التهور: السقوط، والمراد التعرض للخطر.

(٧) في جميع النسخ: «للملام» والوجه ما أثبت.

(٨) الشفقة: الخوف من وقوع مكرُوهُ. ولعله يعني أنها أكثر أمتاً من التاجر الذي يستعمل السفر.

(٩) ب، م: «الردي» بالتسهيل.

(١٠) ب: «التغزير». والتغزير: حمل النفس على الغزير، وهو الخطر والهلكة.

(١١) سقطت كلمة «قد» من ط. وبدلها في ب: «حتى».

وإن كنت إلى الإشفاق تذهب ، وإلى إعطاء الحزم أكثر من نصيبه ، وكيف دار الأمر فإن التاجر قد استشعر الذل ، وتغشى ثوب المذلة .

وصاحب السلطان قد تجاوز حدَّ العزِّ والهيبة . وإنما عيبه سُكر السلطان^(١) ، وإفراط التعظيم . قد استبطن بالعزِّ ، وظاهر بالبشر واستحكمت تجربته ، وبعُدت بصيرته حتى عرف مصلحة كلِّ مضر^(٢) ، وإصلاح كلِّ فاسد ، وإقامة كلِّ معوج ، وعمارة كلِّ خرب .

ولا أعلم في الأرض أعمَّ إفلاساً ولا أشدَّ نكبةً ، ولا أكثر تحوُّلاً^(٣) من يُسر إلى عسر ، ولا رأينا الجوائح^(٤) إلى أحدٍ أهدى منها إلى أموال الصيارفة . فكيف يُفاس شأن قومٍ تعمُّهم المعاطب^(٥) بشأن قوم أهل السلامة فيهم أكثر ، والنكبات فيهم أقل .

وبعد هذا فإني أرى ألا تستكرهه فتبغض إليه الأدب ، ولا تهمله فيعتاد اللهو .

على أنني لا أعلم في جميع الأرض شيئاً أجلب لجميع الفساد من قرناء السوء ، والفراغِ الفاضل عن الجمام^(٦) .

(١) هو ما يسمونه المدح بما يشبه الذم . وسكر السلطان : نشوته والشعور بالزهو . وفي اللسان : « السكر ثلاثة : سكر الشباب ، وسكر المال ، وسكر السلطان » . ط ، م ، « شكر » بالشين المعجمة ، تحريف .

(٢) المضر : واحد الأمصار ، للمدينة الكبيرة . ط فقط : « كل مضر » ، تحريف .

(٣) ب : « تجولا » بالجم .

(٤) الجوائح : جمع جائحة ، وهي الشدة والنازلة العظيمة التي تحتاج المال ، أي تذهب به وفي جميع النسخ : « الحوائج » ، صوابه ما أثبت .

(٥) المعاطب : المهالك ، واحدها معطب . ب ، م : « المعاطر » بالراء ، صوابه في ط .

(٦) الجمام ، كسحاب ؛ الراحة . ط فقط : « الجهاد » محرف .



دَرَّسَهُ الْعِلْمَ (١) مَا كَانَ فَارِعًا مِنْ أَشْغَالِ الرِّجَالِ ، وَمَطَالِبِ دَوَى الْمِهْمَمِ . وَاحْتَلَّ فِي أَنْ تَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أُمِّهِ . وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ يَمَحُضَكَ الْيَقِيَّةَ ، وَيُصْفِيَ لَكَ الْمُوَدَّةَ مَعَ كِرَاهَتِهِ لِمَا تَحْمَلُ إِلَيْهِ مِنْ ثِقَلِ التَّأْدِيبِ عِنْدَ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ (٢) حَالَ الْعَارِفِ بِفَضْلِهِ (٣) .

فَاسْتَخْرَجُ مَكُونَ مَجِبَّتِهِ بَبْرِ اللِّسَانِ ، وَيَذَلِّ الْمَالَ . وَلِهَذَا مَقْدَارٌ مِنْ جَازِهِ أَفْرَطُ (٤) . وَالْإِفْرَاطُ سَرْفٌ . وَمَنْ قَصَرَ عَنْهُ فَرَطٌ ، وَالْمَفْرُطُ مِضْيَاعٌ (٥) .

وَلَا تَسْتَكْتَرَنَّ هَذَا كُلَّهُ فَإِنَّ بَعْضَ النُّعْمَةِ فِيهِ تَأْتِي عَلَى أَعْصَافِ النُّعَامَةِ (٦) ، وَالَّذِي تَحَاوَلَ مِنْ صِلَاحٍ (٧) أَمْرٌ مِنْ تَوْمُلٍ فِيهِ أَنْ يَقُومَ فِي أَهْلِكَ مَقَامَكَ ، وَإِصْلَاحٌ مَا خَلَّفْتَ كَقِيَامِكَ ، لِحَقِيقٍ بِالْحَيْطَةِ عَلَيْهِ ، وَيَاعْطَائِهِ (٨) الْمَجْهُودِ مِنْ نَفْسِكَ .

وَقَالَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٩) . فَعَلِمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فَوَهَبَ لَهُ غُلَامًا ، وَقَالَ اللَّهُ

(١) انظر للتدريس ماضى فى حواشى ص ٣٥ ط: « فى دراسة العلم » كأن الكلام متصل بما قبله .
وهو تحريف .

(٢) ب ، م : « التأديب عنه من يبلغ » ، صوابه فى ط .

(٣) أى الدارف بفضل التأديب . وفى جميع الأصول : « بفضل » .

(٤) جازه : تجاوزه . وفى جميع الأصول : « من حازه » بالخاء المهملة ، تحريف .

(٥) م : « مضاع » .

(٦) كذا فى جميع الأصول .

(٧) ط : « إصلاح » .

(٨) م ، ب : « ويعطاء » .

(٩) الآية ٨٩ من سورة الأنبياء .



عز وجل: ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ (١)
اعلم أنه أعطاك ولدًا عبْرَةَ عَيْنِ العدو (٢) ، وقُرَّةَ عَيْنِ الصديق
الولي. فاحمدِ الله وأخْلِصْ في الدعاء ، وأكثِرْ من الخَيْرِ إن شاء الله تعالى .

(١) الآية ٣٦ من سورة آل عمران .

(٢) العبْرَة ، بالفتح : الدمعة ، وفي أساس البلاغة : يقال أراه عبر عينيه ، وإنه لينظر
إلى عبر عينيه ، أي ما يكرهه ويبكى منه . ومنه قوله يصف رجلاً قبيحاً له امرأة حسناء :
إذا ابتز عن أوصاله الثوب عندها رأت عبر عينها وما عنه مخنس
وفي جميع الأصول : « غيرة عين العدو » ، تحريف .

وقف أمير غازي للفكر القرآني
A 1977
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT
Est. 2012 CE





٣

من كتابه في
التَّرْبِيعِ وَالتَّدْوِيرِ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
A 1977
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT
Est. 2012 CE





١ - فصل

من كتاب الترييح والتدوير^(١)

فانظر في مسألة النفوس^(٢) مع تقارب منازلها ، ولم تجاذبت عند تقارب مراتبها ، ولم تختلف الكثير واتَّفَق القليل ؟ ولم كانت الكثرة علةً للتخاذل ، والقلة سبباً للتناصر ؟ وما فرق ما بين المجارة^(٣) والتحاسد ، وبين المنافسة والتغالب ، فإنك متى عرفت ذلك استرحت منّا ورجّونا أن نستريحَ منك .

وكيف يعرف السبب من يجهل المسبب ، وكيف يعرف الوصل من يجهل الفصل ، وكيف يعرف الحدود من لم يسمع الفصول . بل كيف يعرف الحجّة من الشبهة ، والغدر^(٤) من الحيلة^(٥) ، والواجب

(١) هذه الرسالة التي وجهها الجاحظ إلى أحد بن عبد الوهاب ، نشرها كاملة فان فلورن في ليدن سنة ١٩٠٣ . وتابعه محمد السامى فنشرها في مجموعة رسائل سنة ١٣٢٤ هـ = ١٩٠٧ م . ثم السندوبي في رسائل الجاحظ سنة ١٩٣٣ . ثم نشرها محققة شارل بلا في دمشق سنة ١٩٥٥ . وقد رمزت لنسخته بالرمز (ش) .

وقد أشار إليها الحصرى في بجمع الجواهر ٢٦٠ . حيث أورد فقرات من رسالة لأبي بكر الخوارزمي ، وجهها إلى بديع الزمان الهمذاني ، وقال الحصرى في أعقابها : « وهي طويلة جداً مر له فيها إحسان كثير . وإنما احتذى في أثرها مثال رسالة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ لأحمد بن عبد الوهاب ، المعروفة برسالة الطول والغرض ، وتعرف برسالة التوسع (الترييح) والتدوير ، ورسالة المفاكهات . واتبع أيضاً طريق أبي الفضل بن العميد في رسالة لابن سمكة النحوي . ورسالة الخوارزمي نشرت كاملة في مجموعة رسائله المطبوعة بالقاهرة سنة ١٣١٢ . وفي ديباجتها : « وكتبها إلى أبي الحسن البديهي الشاعر يعيث به » . والوجه ما ذكره الحصرى . وقد عثرت على بعض ردود لأحمد بن عبد الوهاب فيما يتعلق بالرسالة ، وذلك في الهوامل والشوامل لأبي حيان التوحيدي ومسكويه ، في الصفحات ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧ .

(٢) مع ، ش : « لم تسلمت النفوس » .

(٣) ب : « المجازات » م ، ط : « المجازة » ، صوابها في مع .

(٤) هذا ما في ب ومع . وفي سائر النسخ : « والغدر » .

(٥) ب فقط : « من الجيلة » .

من الممكن ، والغفل من الموسوم ، والمُحال من الصَّحيح ، والأسرار من المجهول ومن كبار الدلائل الخفية^(١) وما يُعلم مما لا يُعلم ، وما يُعلم باللفظ دون الإشارة مما لا يعلم إلا بالإشارة دون اللفظ ، وما يعلم معتقداً ولا يعلم مكيئفاً ولا يعلم معتقداً^(٢) . وما المستغلق الذي يجوز أن يفارقه استغلاقه ، والمستبهم الذي لا يفارقه استبهامه ، ومن هو طائرٌ مع العوامة حيث طارت ، وساقطٌ معها حيث سقطت ، مع الزرابة والرغبة عنها^(٣) . قد طلبها بفضل طلبه لنفسه^(٤) ، وجرى معها بقدر مناسبتها القدره .

فاعرف الجنس من الصنف ، والقسم من النصف ، وفرق ما بين الذم واللوم ، وفصل ما بين الحمد والشكر ، وحد الاختيار من الإمكان ، والاضطرار من الإيجاب . وسنعرّفك من جملة ما ذكرنا باباً باباً أنت إليه أحوج ، وهو علينا أَرَدَ .

٢ - فصل

وما في الأرض^(٥) إقرارٌ أثبت ، ودليلٌ أوضح ، وشاهدٌ أصدق ، من شاهدي عليك على ما ادّعتِ لنفسك من الرّفة مع ما ظهر من حسدك لأهل الصّنع^(٦) . وهل يكون كذلك^(٧) إلا فاسدُ الحسّ ظاهرُ العنود^(٨) ، أو جاهلٌ بالمحال .

- (١) مع ، ش : « والأسرار المجهولة من ذوات الدلائل الخفية » .
 (٢) كذا في ب ، م ، ط . وفي مع : « وما يعلم معتقداً ولا يعلم مكيئفاً ، مما يعلم مكيئفاً ولا يعلم معتقداً » . وفي ش : « وما يعلم معتقداً ولا يعلم يقيناً ولا يعلم معتقداً » .
 (٣) ب ، م : « ورغبة عنها » .
 (٤) مع : « قد ظلّمها بفضل ظلّمه لنفسه » .
 (٥) مع ، ش : « وهل في الأرض » .
 (٦) مع ، ش : « لأهل الصّنع » .
 (٧) مع ، ش : « وهل تكون بعد ذلك » .
 (٨) م : « العنود » بالناء ، تحريف ، ط : « العناد » والعنود والعتاد بمعنى ، وهما الميل عن الحق مع العلم به .

وبعد فأنت - أبقاك الله^(١) - في يدك قياس لا يكسر^(٢) ، وجواب^(٣)
 لا ينقطع^(٣) ، ولك حد لا يُغَلَّ وغرب لا يَنْثِنِي^(٤) ، وهو قياسك
 الذى إليه تنسب ، ومذهبك الذى إليه تذهب : أن تقول^(٥) : وما على
 أن يرانى الناس عريضاً وأكون فى حكمهم غليظاً وأنا عند الله^(٦) تعالى
 طويلٌ جميل ، وفى الحقيقة مقدودٌ رشيق . وقد علما - حفظك الله -
 أن لك مع طول الباد^(٧) ركباً ، طولَ الظهر جالساً^(٨) ، ولكن بينهم
 فيك إذا قمتَ اختلاف ، وعليك لهم إذا اضطجعت مسائل .

ومن غريب ما أعطيت ، ومن بديع ما أوتيتَ أنا لم نر مقدوداً
 واسع الجفرة غيرك^(٩) ، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك . فأنت
 المديد وأنت البسيط ، وأنت الطويل وأنت المتقارب .

فيا شعراً جمع الأعرىض ، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول .

بل مايمك^(١٠) من أقاويلهم ، ويتعاضمك من اختلافهم ، والراسخون
 فى العلم ، والناطقون بالفهم ، يعلمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت

(١) مع : « وبعد أبقاك الله فأنت » .

(٢) مع ، ش : « لا يتكسر » .

(٣) م ، ط ، ب : « وجواز لا يقطع » . صوابه فى مع ، ش .

(٤) ب : « لا يثني » م : « لا يثني » تحريف . ط : « لا يثني » ، وأثبت ما فى مع ، ش .

(٥) هذا ما فى مع ، ش . وفى سائر النسخ : « أو تقول » .

(٦) ب ، م ، ط : « وأنا عبد الله » .

(٧) الباد : « باطن الفخذ » وما يلى السرج من فخذ الفارس . ب ، م ، ط : « البال »

صوابه فى سائر النسخ . وفى م : « أن ذلك » ، تحريف .

(٨) كلمة « طول » الأخيرة من مع ، ش .

(٩) الجفرة ، بالضم : الجوف ، وجفرة كل شيء : وسطه ومعظمه . ط فقط :

« أوسع الجفرة » ، تحريف .

(١٠) ب ، م : « بل مايمها » ، صوابه فى سائر النسخ .

الضَّمِيمَ على ارتفاع سَمَكٌ (١) ، وَأَنَّ ما (٢) ذهب منك عرضاً قد استعرق ما ذهب منك طولاً. ولئن (٣) اختلفوا في طولك لقد اتَّفَقُوا في عرضك (٤) . وإن كانوا قد سلموا لك بالرَّغْمِ (٥) شرطاً، فقد حَصَلَتْ (٦) ما سلموا وأنت على دعواك فيما لم يُسَلِّمُوا .

ولعمري إنَّ العيون تُخطئُ ، وإن الحواسَّ لَتَكْذِبُ ، وما الحكمُ القاطعُ إلَّا للذهن ، وما الاستبانةُ الصَّحيحةُ إلَّا للعقل ؛ إذ كان زاماً على الأعضاء (٧) ، وعياراً على الحواسَّ .

وما يُثبِتُ أيضاً أنَّ ظاهرَ عَرْضِكَ مانعٌ من إدراك حقيقة طولك قولُ (٨) أَبِي دُوَادٍ الإيَادِيُّ في إِبْلِهِ :

سَمِنَتْ فَاسْتَحَشَّ أَكْرَعُهَا لَا إِلَهَ سِنِي نَيْيٌ وَلَا السَّنَامُ سَنَامٌ (٩)

ولو لم يكن فيك من العَجَبِ إلَّا أَنْكَ أَوَّلُ من عَوَدَهُ اللهُ تعالى بالصَّبْرِ (١٠) على خِطَاءِ الحَسِّ (١١) وبالشُّكْرِ على صوابِ الذهن ، لقد

(١) الضميم : الظلم وانتقاص الحق . ما عدا مج ، ش : « قد أدخلت الميم في ارتفاع سمكك » ، تحريف .

(٢) ب فقط : « وإنما » ، تحريف .

(٣) ما عدا مج ، ش : « وإن » .

(٤) ما عدا مج ، ش : « لقد اختلفوا » تحريف . ب : « على رضك » م ، ط :

« على عرضك » ، وأثبت ما في مج ، ش .

(٥) ما عدا مج ، ش : « بالرغم » .

(٦) ب فقط : « فقد حصلك » تحريف .

(٧) ب فقط : « إذ كانا ذاماً » ، صوابه في سائر النسخ .

(٨) ب ، م : « وقول » ، تحريف .

(٩) ديوان أبي دواد ٣٣٩ والأصمعيات ١٨٨ واللسان (حشش) . استحشش : استدق .

والتي ، بالفتح : الشحم . ط : « لا التيم في » ، تحريف .

(١٠) ب ، م ، ط : « بالصبر » ، صوابه في مج ، ش .

(١١) ب ، م : « على خطأ الحس » ، والخطاء والخطأ بمعنى ، وكثيراً ما يستعمل الجاحظ

« الخطاء » بالمد . انظر الحيوان ١ : ٢١٣ / ٣ : ٢٥٨ ، ٥٠٠ والبيان ٤ : ١٦ ، ٦٧

ورسائل الجاحظ : ١ : ٣٥٣ .



كنت في طَوْلِكَ غايةً للعالمين ^(١) ، وفي عرضك مناراً للمُحْصَلِينَ .
 وقد تَطَلَّمَ ^(٢) المربوع مثلي من الطويل مثل عُمر ، ومن القصير مثل
 عمرو ^(٣) إذ زعم ^(٤) أنه أفرط في الرِّشَاقَةِ ونُسب إلى القضاة ، لأنَّ
 إفراط عرضهُ عَمَر ^(٥) الاعتدالَ [من طوله ، وكلاهما يحتاج إلى
 الاعتذار ، ويفتقر إلى الاعتدال ^(٦)] .

والمربوع بحمد الله تعالى قد اعتدلت أجزاءه في الحقيقة ، كما
 اعتدلت في المنظر ^(٧) ، فقد استغنى بعزِّ الحقيقة ^(٨) عن الاعتذار ،
 وبحكم الظاهر عن الاعتلال ^(٩) .

وقد سمعنا من يذمُّ الطَّوَالَ كما سمعنا من يُزري على القصار ،
 ولم نَسْمَعْ أحداً ^(١٠) ذمَّ مربوعاً ولا أزرى عليه ، ولا وقف عنده ولا شكَّ
 فيه . ومن ^(١١) يذمُّه إلَّا من ذمَّ الاعتدال ، ومن يُزري عليه إلَّا من
 أزرى على الاقتصاد ، ومن يَنْصِب للصَّواب الظاهر ^(١٢) إلَّا المعاند ، ومن
 يُعاري في العيان إلَّا الجاهل ؛ بل من يُزري على أحد بتفانم التركيب ^(١٣) ،

(١) مع ، ش : « آية للسابلين » والمراد بالسابل هنا : السالك في الطريق .

(٢) ما عدا مع ، ش : « وقد تكلم » ، تحريف .

(٣) مع ، ش : « من الطويل مثل محمد ومن القصير مثل أحمد » .

(٤) مع ، ش : « إذ زعم أحمد » .

(٥) ب ، م : « عمر » بالعين المهملة ، تحريف .

(٦) ما بين الحاصرتين ساقط من ب ، لكن في ط : « ويفتقر إلى الاعتدال » .

(٧) ب فقط : « في المنظرة » .

(٨) ب ، م : « بعد الحقيقة » ، ط : « بعدل الحقيقة » ، وأثبت ما في مع ، ش .

(٩) الاعتلال : بيان العلة . ما عدا مع ، ش : « الاعتدال » .

(١٠) ب ، ط : « ولم يسمع أحد » م : « ولم يسمع أحداً » ، والوجه ما أثبت من مع ، ش .

(١١) الكلام بعده إلى « أزرى على الاقتصاد ومن » ، ساقط من م .

(١٢) نصب له : عاداه وتجرده له . ط : « ومن يعيب الصواب الظاهر » ، صوابه في سائر

النسخ .

(١٣) تفانم التركيب : أن يجري على غير استواء ، وأصله من تفانم الأمور وتراكبها .

وبسوء التضديد^(١) مع قول الله عز وجل: ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾^(٢).

وبعد فأى قد أردأ^(٣) ، وأى نظام أفسد من عرض مجاوز للقدّر^(٤) ، أو طول مجاوز للقصد . ومتى يضرب العرض بسهمه على قدر حقه ، وبأخذ الطول من نصيبه على مثل وزنه ، خرج الجسم من التقدير ، وجاوز التعديل . فإذا خرج من التقدير تفسد ، وإذا تفسد وجاوز التعديل تباين .

ولو جاز هذا الوصف ، وحسن هذا النعت^(٥) ، كان لإبراهيم ابن السندي^(٦) [من الفضيلة^(٧)] ما ليس لأحمد بن عبد الوهاب .

وهذا كله بعد أن يصدّقوك^(٨) على ما ادّعت لظولك في الحقيقة ، واحتججت^(٩) [به^(٩)] ليعرضك في الحكومة . كما أنك بإعمالك لما ينفيه

(١) ب فقط : « التضديد » ، تحريف .

(٢) الآية ٣ من سورة الملك أو تبارك .

(٣) كلمة « فأى » ساقطة من ب .

(٤) ط فقط : « للقد » .

(٥) ب ، م : « حسن هذا النعت » بلا واو قبله . ط : « من حسن النعت هذا » . تحريف

(٦) مع ، ش : « كان لقاسم التمار » . وإبراهيم بن السندي بن شاهك ، يروى عنه

الجاحظ كثيراً . وأبوه السندي بن شاهك كان يلي الجسرين ببغداد للرشد : انظر الجهشياري

٢٣٦ - ٢٣٧ . وقد تمت الجاحظ إبراهيم هذا بأنه « مولى أمير المؤمنين » . الرسائل ٧ ص ٥٧ ، ماسى ،

وكذلك قاسم التمار ، كان من الرجال الذين يروى عنهم الجاحظ كثيراً . انظر فهارس

الحيوان والبيان .

(٧) التكلمة من مع ، ش .

(٨) ط فقط : « صدقوك » .

(٩) التكلمة من مع ، ش .



البيان^(١) ، واستشهادك^(٢) لما تنكره الأذهان^(٣) ، معترض^(٤) للصدق من المتكرم ، ومتحكك بالجلم من المتغافل . وأى صامت لا يُنطقه هذا المذهب ، وأى ناطق لا يُغريه هذا القول^(٥) .

وإذا كان هذا ناقضاً لعزم المتسلم^(٦) فما ظنك بعادة المتكلف^(٧) .
 فأنشدك الله أن تغري بك السفهاء ، وتنقض عزائم الحكماء^(٨) .
 وما أدري - حفظك الله - بأى الأمرين أنت أعظم إثماً ، وفي أيهما أنت أفحش ظلماً : أبتعرضك للعوام ، أم بإفسادك حكم الخواص^(٩) .
 وبعد فما يحوجك إلى هذا ، وما يدعوك إليه وأشباهك من القصار كثير ، ومن ينصرك منهم غير قليل^(١٠) .

٣ - فصل

وقلت : ولولا فضيلة العرض على الطول لما وصف الله تعالى وعز ، الجنة بالعرض دون الطول ، حيث يقول : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾^(١١) . فهذا برهانك الواضح^(١٢) .

(١) ب : « يتقنه البيان » م ، ط : « يتقنه البيان » ، صوابه من مج ، ش .

(٢) ب ، م : « واستشهادك » ، صوابه في ط ، مج ، ش .

(٣) ما عدا مج ، ش : « لما تذكره الأذهان » ، تحريف .

(٤) مج ، ش : « معترض » ، والوجه ما في سائر النسخ ، والمراد لا يمكن تصديقه .

(٥) ما عدا مج ، ش : « لا ينويه هذا القول » .

(٦) ب ، م : « قضاء لعزم » ط . : « قضاء العزم » ، والوجه ما أثبت من مج ، ش .

(٧) مج ، ش : « بعداوة المتكلف » .

(٨) ش : « الخلاء » .

(٩) ما عدا مج ، ش : « بتعرضك للعوام أو بإفسادك حكم الخواص » .

(١٠) ما عدا مج ، ش : « غير دذليل » .

(١١) من الآية ٢١ من سورة الحديد ، وأولها : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم » . وفي ب فقط : « عرضها السموات والأرض » وهي من الآية ١٣٣ من آل عمران ، وأولها : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » .

(١٢) مج ، ش : « فهذه براهينك الواضحة ، ودلائلك الظاهرة » .

ولو لم يكن فيك من الرضا والتسليم ، ومن القناعة والإخلاص
إلا أنك ترى^(١) ما عند الله خيراً لك مما عند الناس ، وأن الطول
الحنفي أحب إليك من الطول الظاهر ، لكان^(٢) في ذلك ما يقضى لك
بالإنصاف ، ويحكمُ لك بالتوفيق .

وأننا - أبقاك الله - أعشقُ إنصافك كما تُعشقُ المرأةَ الحسنة^(٣) ،
وأتعلمُ خضوعك للحقِّ كما أتعلمُ التفقه في الدين^(٤) . ولربما ظننتُ
أنَّ جوركَ إنصافُ قومٍ آخريين ، وأنَّ تعفدك سماعُ رجالٍ منصفين^(٥) .

وما أظنك صرت إلى معارضة الحجَّة بالشبهة ، ومقابلة الاختيار
بالاضطرار ، واليقين بالشكِّ ، واليقظة بالحلم إلا للذي^(٦) خصصتَ
به من إيثار الحقِّ ، وألمته من فضيلة الإنصاف ، حتى صرت أحوجَّ
ما تكون إلى الإنكار أذعن ما تكون بالإقرار ؛ وأشدَّ ما تكون إلى الحيلة
فقرراً أشدَّ ما تكون للحجَّة طلباً . غير أنَّ ذلك بطرفٍ ساكن ، وصوتٍ
خاضع ، وقلبٍ جامع ، وجأشٍ رابطٍ^(٧) ، ونيةٍ جسور ، وإرادة تامَّة ،
مع غفلةٍ كريم ، وفطنةٍ عليم . إن انقطع خصمك تغافل ، وإن خرق^(٨)

(١) ب ، م : « أنك ترى » بإسقاط « إلا » .

(٢) ب ، م ، ط : « لكن » ، تحريف .

(٣) مع ، ش : « أتمشقُ إنصافك كما أتمشقُ المرأةَ الحسنة » .

(٤) ب فقط : « الفقه في الدين » .

(٥) ب ، م : « وأن يعفدك سماع رجال منصفين » ط : « وأنت يقنعك سماع رجال

منصفين » ، والوجه ما أثبت من مع ، ش .

(٦) ب ، م : « إلا الذي » .

(٧) ب فقط : « رابط » . والجأش : النفس أو القلب ، والرابط : الثابت الذي

لا يرتاع .

(٨) خرق يخرق خرقاً : حق ولم يرفق . مع ، ش : « وإن خرق » . تحريف .



ولا ناقص النَّفس ، ولا واهن العزم ، ولا حסودٍ ولا منافس ، ولا مُغالِبٍ
 ولا مُعاقِبٍ (٣) . تَفَلُّ الحَزْر (٤) وتُصِيب المَفْصِل ، وتُقَرِّب البعيدَ وتُظهِر الخفي ،
 وتُمَيِّز الملتبس (٥) وتلخِّص المشكل ، وتعطي المعنى حقَّه من اللفظ كما
 تُعطي اللفظَ حظَّه من المعنى (٦) . وتُجِبُّ المعنى إذا كان حياً يلوحي ،
 وظاهراً يَصيح (٧) ، وتُبغِضه مستهلكاً بالتعقيد ، ومستوراً بالتغريب (٨) .

رتزعم أن شر الألفاظ ما غرَّق (٩) المعاني وأخفاها ، وسترها (١٠)
 وعمَّأها ، وإن راقت سَمِع العُمر ، واستمالت قلبَ الرِيض (١١) .

أعجب الألفاظ عندك مارقٌ وعذَّب ، وخفَّ وسهَّل ، وكان موقوفاً
 على معناه ، ومقصوراً عليه دون ما سواه . لا فاضلٌ ولا مقصّر ، ولا مشتركٌ
 ولا مستغلقٌ ، قد جمع خِصال البلاغة (١٢) ، واستوفى خلال المعرفة (١٣) .

(١) ما عدا معج ، ش : « توفقت » ، تحريف .

(٢) معج ، ش : « ولا متشعب » بالعين المعجمة .

(٣) ب ، م : « ولا متغالِب ولا معاقِب » ، ط : « ولا متغالِب ولا متعاقِب » ، وصوابهما

في معج ، ش .

(٤) الحز : « أراد به موضع الحز ، أي القطع . الفل : الكسر والضرب . ط : « يغل
 الحد » ، معج ، ش : « تقل الحز » ، والوجه ما أثبت . وانظر البيان ١ : ١٤٧ . وقد ورد
 هذا الفعل « تغل » وما يمهده من الأفعال في ب ، م ، ط بياض الغائب : والوجه أن تكون كلها
 بناء انخراط كما أثبت من معج ، ش .

(٥) ب ، ق فقط : « الملبس » .

(٦) معج ، ش : « حقه من المعنى » .

(٧) م : « يَصيح » ، صوابه في سائر النسخ .

(٨) ب : « بالتعريب » ط : « بالتقريب » ، صوابه من سائر النسخ .

(٩) ط فقط : « ما أغرق » .

(١٠) ط فقط : « وأسرها » .

(١١) الرِيض : الذي بدأ في رياضته . وانظر البيان ١ : ٢٠٣ . ط : « المريض » تحريف .

(١٢) ما عدا معج ، ش : « وقد جمع خصباؤك البلاغة » ، والوجه ما أثبت منهما .

(١٣) ب فقط : « خلاك المعرفة » .



فإذا كان الكلام على هذه الصفة ، وألّف على هذه الشريطة ، لم يكن اللفظ أسرع إلى السمع من المعنى إلى القلب ، وصار السامع كالمقاتل ، والمتعلم كالمعلم ، وخفت المؤنة واستغنى عن الفكرة ، وماتت الشبهة وظهرت الحجّة ، واستبدلوا بالخلاف فاقاً ، وبالمجازبة موادعة ، وتمنّثوا بالعلم^(١) ، وتقنّعوا ببررّ اليقين ، واطمأنّوا بثلج الصدور ، وبأنّ المنصف من المعانيد ، وتميّز الناقص من الوافر ، وذُلّ الخطل^(٢) وعزّ المحصل ، وبدت عورة المَبطل ، وظهرت براءة المُحقّق .

وقلت : والنّاس وإنّ قالوا في الحسّن : كأنّه طاقة ربحان ، أو خوط آس^(٣) ؛ وكأنّه قَصيب خيزران ، وكأنّه عُصن بان ، وكأنّه رمح رُدَيْني ، وكأنّه صفيحة يمان^(٤) ، وكأنّه سيف هندواني ، وكأنّه جان ، وكأنّه جدل عنان^(٥) ؛ فقد قالوا : كأنّه المُشترى ، وكانّ وجهه دينار هرقل . وما هو إلّا البحر ، وما هو إلّا الغيث . وكأنّه الشمس ، وكأنّها دارة القمر^(٦) ، وكأنّها الزهرة ، وكأنّها ذرة ، وكأنّها غمامة ، وكأنّها مهة^(٧) .

(١) ما عدا مع ، ش : « ورهبوا بالعلم » .

(٢) الخطل : العجل الأحمق . ب ، م : « ودل الخطل » بالبدال المهملة ، صوابه سائر

النسخ .

(٣) الخوط ، بالضم : الفصن الناعم ، أو الفصن لسنة . والآس : ضرب من الرياحين ، وخضرته دائمة أبداً ويسمو حتى يكون شجراً عظيماً ، الواحدة آسة .. مع ، ش ، : « وكأنّه خوط بان » .

(٤) الصفيحة : وجه كل شئ عريض ، كوجه السيف أو اللوح أو الحجر . واليماني : السيف المنسوب إلى اليمن . ب ، م ، ط : « صفيحة يمان » تحريف . وفي مع ، ش : « صفيحة يمانية » .

(٥) يعنى ما جدل من الأعتة ، سماه بالمصدر . وانظر الحيوان ٦ : ٢٦٢ ورسائل الجاحظ

٢ : ١٢١ . ما عدا مع ، ش : « جدل عيان » تحريف .

(٦) ب ، م : « وكأنّه دارة القمر » .

(٧) ط فقط : « وكأنّه الزهرة » ، « وكأنّه غمامة » ، « وكأنّه مهة » .



وقد نراهم^(١) وصفوا المستدير والعريض بأكثر مما وصفوا القضيْفَ الطَّويلَ^(٢).

وقلت : ووجدنا الأفلاكَ وما فيها ، والأرضَ وما عليها ، على التدوير دون التطويل ، كذلك^(٣) الورق والحَبُّ ، والتمرُّ والشجر .

وقلت : والرَّمح وإن طال^(٤) فإنَّ التدوير عليه أغلب^(٥) ؛ لأنَّ التدوير قائم فيه مُوصَّلاً ومُفصَّلاً^(٦) ، والطَّوْل لا يوجد فيه إلاَّ مُوصَّلاً^(٧) . وكذلك الإنسان وجميع الحيوان .

وقلت : ولا يوجد التربيع إلاَّ في المصنوع دون المخلوق ، وفما أكره على تركيبه دون ما خُلِّيَّ وسَوِّمَ طبيعته^(٨) .

وعلى أنَّ كلَّ مُرَبَّعٍ^(٩) ففي جوفه مدورٌ ، فقد بان المدورُ بفضلِه^(١٠) ، وشارك المطوَّلُ في حصَّته .

ومن العجب أنَّك تزعمُ أنَّك طويلٌ في الحقيقة ثمَّ تحتجُّ للعرض والاستدارة ، وقد أضربتَ عمَّا عند الله صفحاً^(١١) ، ولهجتَ بما عند النَّاسِ .

-
- (١) ب فقط : « وقد نراه » .
 (٢) القضاة : قلة اللحم ودقة العظم . م ، ط : « القضيْب » ، صوابه في سائر النسخ .
 (٣) ط فقط : « وكذلك » .
 (٤) ما عدا مِج ، ش : « والريخ وإن طالت » ، تحريف .
 (٥) ما عدا مِج ، ش : « عليها أغلب » .
 (٦) ما عدا مِج ، ش : « فيها » في هذا الموضع وتاليه ، تحريف . وفي مِج ، ش : « موصولا ومفصلا » .
 (٧) مِج ، ش : « إلا موصولا » .
 (٨) سوم طبيعته ، بالفتح ، أى وفق طبيعته وهواها . ط فقط : « رسوم طبيعته » ، تحريف . وقد ضبطت « سوم » في ش بضم السين وتشديد الواو المكسورة سهواً .
 (٩) ما عدا مِج ، ش : « كل مرتفع » ، تحريف .
 (١٠) م فقط : « بفصله » بالصاد المهملة .
 (١١) يقال ضرب عنه صفحاً ، إذا عرض ، كأنه ولاءه صفحة وجهه . ب : « وقد اضطربت » ، م ، ط : « وقد أضربت » ، صوابه في مِج ، ش .

فَأَمَّا حَوْرَ العَيْنِ فقد انفردت بحسنه ، وذهبت ببهجته وملحه ،
إِلَّا ما أَبَانَكَ اللهُ تعالى به من الشُّكْلَة (١) فَإِنَّهَا لا تكون في اللثام ،
ولا تُفَارِقُ الكرام (٢) .

وَأَمَّا سواد الناظر وحُسن المحاجر ، وهَدَبُ الأَشْفَار (٣) ، وِرْقَة
حواشي الأَجْفَانِ ، فعلى أصلِ عُنْصُرِكَ ومجاري أعراقك (٤) .

وَأَمَّا إدراكك الشخصَ البَعِيدَ ، وقراءتك الكتابَ الدَّقِيقَ ونَقْشَ
الخاتمِ قبل الطَّاعِ ، وفهم المُشْكِلِ قبل التأمُّلِ ، مع وَهْنِ الكَبْرَةِ
وتقادُّمِ الميَلاَدِ ، ومع تحوُّنِ الأَيَّامِ وتنقُّصِ الأزمانِ ، فمن توتياً الهندِ ،
ولترك الجماع (٥) ، ومن الحِمِيَةِ الشَّدِيدَةِ وطول استقبال الخُضْرَةِ (٦) ،
فَأَنْتَ يا عمٌّ حين تُصَلِّحُ ما أفسده الدهرُ ، وتسترجع ما أَخَذَتْه الأَيَّامُ ،
لكما قال الشاعر :

عجوزٌ تُرْجَى أَنْ تكونَ فَتِيَّةً

(٧)

وقد لَجِبَ الجَنبَانِ واحِدوَدَبَ الظَّهْرِ

تُدَسُّ إلى العَطَّارِ سِلْعَةً أَهْلُهَا
ولن يُصَلِّحَ العَطَّارُ ما أفسدَ الدهرُ (٨)

(١) الشُّكْلَة ، بالضم : كهَيئَةِ الحَمْرَةِ تكون في بياض العين . ب ، م : « المشكلة » ط :
« المشكلة » ، صوابهما في مع ، ش .

(٢) أنشد الجاحظ لهذا شاهداً في الترييح والتدوير ٢٢ والحيوان ٣ : ٢٣٠ / ٥ : ٣٣٠ :

ولا عيب فيها غير شكلة عينها كذلك عناق الطير شكل عيونها

(٣) الهدب في أشفار العين : طول الشعر الثابت على حروفها .

(٤) ما عدا مع ، ش : « وجائز أعراقك » .

(٥) ما عدا مع ، ش : « فن توتياء الهند وترك الجماع » .

(٦) م ، ط : « الخضرة » بالحاء المهملة ، تحريف .

(٧) إنسهما المبرد في الكامل ١٧٦ إلى شيخ من الأعراب . وذكر أبو الحسن الأفش في
حواشيه على الكامل بعدهما بيتين من القصيدة نسباً في ديوان جران العود « إلى الرحال بن عزرة
ابن المختار . وفي عيون الأخبار ٤ : ٤٤ : « كانت لرجل من الأعراب امرأة عجوزة ،
وكانت تشتري العطر بالخبز ، فقال » . وأنشد البيهقي . وانظر رسائل الجاحظ ٢ : ١٢٢ .

والتبثيل والمخاضرة ٢١٩ . ط : « وقد يبس الجنبان » .

(٨) الكلام بعده إلى « مريضاً موثقاً » ساقط من ب .

وكيف أطمع^(١) في نزوعك^(٢) عن اللجاج وقد منعتني به قبله^(٣) ،
وكيف أرجو إقرارك جهراً وقد أبيته سرا^(٤) ، وكيف تجود^(٥) به
صحيحاً مطمعاً وقد بخلت به مريضاً مؤيساً .

وكيف يرجو خيبرك من رآك تطاول أبا جعفر^(٦) وتحاسن^(٧)ه ، وتنافره
وتراهنه ، ثم لاتفعل^(٨) ذلك^(٩) إلا في المحافل العظام ، وبحضرة كبار
الحكام ، ثم تستغرب^(١٠) ضحكاً من طمعه فيك^(١١) ، وتعجب^(١٢) الناس من
مجاراته لك^(١٣) .

وأشهد لك بعد هذا أنك ستحاسن^(١٤) عمراً الجاحظ وتعاقله^(١٥) ،
ثم تظارفه وتطاوله^(١٦) ، وتتغنى^(١٧) مع مخارق ، وتنكر فضل
زرزب^(١٨) ، وتستجهل النظام ، وتستغبي^(١٩) قيس بن زهير ، وتستخف^(٢٠)

(١) م ، ط : « يطمع » .

(٢) م : « تروعك » ، صوابه في سائر النسخ .

(٣) كذا في م ، ش . وفي م : « وقد سمعته قبل اللجاج » وفي ط : « وقد سقيته قبل

المجاج » .

(٤) م ، ب : « وقد أبيته سرا » ، صوابه في م ، ش .

(٥) م فقط : « يجود » تحريف .

(٦) ب ، م : « وتحاسن » ، وفي سائر النسخ : « تحاشته » ، والوجه ما أثبت ، وهو مفاعلة

من الحسن .

(٧) كلمة « ثم » من م ، ش فقط . ب : « لا تعقل » م : « لا يعقل » ، صوابهما

في سائر النسخ .

(٨) ب فقط : « من طعمه فيك » .

(٩) ما عدا م ، ش : « من محاولته لك » ، تحريف .

(١٠) ب ، م : « ستحاشن » ، وفي سائر النسخ : « ستحاشن » ، والوجه ما أثبت .

(١١) أراد تباريه في العقل . ما عدا م ، ش : « وتعاقله » .

(١٢) مفاعلة من الظرف والطول . ما عدا م ، ش : « ثم تطارقه » وفي م : « ثم تطارقه

وتتطاوله » .

(١٣) م ، ش : « وتغنى » .

(١٤) ذكره الجاحظ في رسالة الجد والهزل ، مقروناً بالمهارة في الشطرنج . رسائل الجاحظ

١ : ٢٦٦ . وفي م ، ش : « فضل زرزور »

(١٥) ب ، م : « وتستغبي » ، صوابه في سائر النسخ .

الأحنف بن قيس (١) وتبارز علي بن أبي طالب ، ثم تخرج من حدّ الغلّبة إلى حدّ المرء (٢) ، ومن حدّ الأحياء (٣) إلى حدود الموتى .

هذا وليس لك مساعدٌ ، ولا معك شاهدٌ واحد ، ولا رأيت أحداً يقفُ في الحكم عليك (٤) ، أو ينتظر تحقيقَ دعواك ؛ ولا رأيتُ منكراً يُخْلِكُ من التائب ، ولا مؤنباً يُخْلِكُ من الوعيد ، ولا مؤعداً يُخْلِكُ من الإيقاع ، ولا مؤقعاً يَرْتِي لك ، ولا شافعاً يشفع فيك .

يا عمّ ، لمَ تحمّلنا على الصدق ؟ ولمَ تجرّعنا مرارة الحق ؟ ولمَ تُعرضنا لأداء الواجب ؟ ولمَ تستكثر من الشهود عليك ؟ ولمَ تحمل الإيخوان على خلاف محبتهم فيك ؟

اجعلْ بدلَ ما تجنّى على نفسك أن تجنّى على عدوك ، وبدلَ ما يضطرُّ الناس أن يصدقوا فيك أن تضطرّهم إلى أن يُمسكوا عنك .

ولا بدّ - يرحمك الله - لمن فاتته الطول من أن يلقبَ بيده (٥) ، وإنما يقول (٦) : « خلاف ما يجده في نفسه . فوالله إنك لجيدّ الهامة (٧) ، وفي ذلك خلفٌ لحسن القامة (٨) . »

وإنك لحسن الخطّ ، وفي ذلك عوض (٩) من حُسن اللَّفظ . وإنك

(١) وكان الأحنف معروفاً بالعلم .

(٢) المرء والمهارة : المخالفة والجدال .

(٣) ب ، م ، « العنك » ، ط : « الفتك » ، وأثبت ما في مع ، ش .

(٤) ما عدا مع ، ش : « اتفق في الحكم عليك » .

(٥) مع ، ش : « من أن يلقب بيده إلى التهلكة » .

(٦) مع ، ش : « أو أن يقول » .

(٧) ب فقط : « لجيد الهامة » ، تحريف .

(٨) مع ، ش : « خلف من حسن القامة » .

(٩) ب ، م ، « وإنك لعوض » ، تحريف . ط : « وذلك عوض » . وأثبت ما في مع ،

لَتَجِدُ مَقَالاً^(١) ، وَإِنَّكَ لَتَعُدُّ خِصَالًا . فَقُلْ مَعْرُوفًا فَإِنَّا مِنْ أَعْوَانِكَ ،
وَأَقْتَصِدْ فَإِنَّا مِنْ أَنْصَارِكَ . وَهَاتِ فَإِنَّكَ لَوْ أَسْرَفْتَ لَقَلْنَا قَدْ اِقْتَصَدْتَ ،
وَلَوْ جُرْتَ لَقَلْنَا قَدْ اهْتَدَيْتَ^(٢) ، وَلَكِنَّكَ تَحِيُّ بَشِيءٌ ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ
يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا^(٣) ﴾ .
لَوْ غَشَشْنَاكَ لَسَاعَدْنَاكَ ، وَلَوْ نَافَقْنَاكَ لِأَغْرَيْنَاكَ .

٣ - فِصْل

وَقَدْ كُنْتُ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ - فِي الطُّوْلِ زَاهِدًا ، وَعَنِ الْقَصْرِ
رَاغِبًا^(٤) ، وَكُنْتُ أَمْدَحُ الْمَرْبُوعَ وَأَحْمَدُ الْاِعْتِدَالَ . وَلَا وَاللَّهِ لَنْ يَقُومَ خَيْرُ
الْاِعْتِدَالِ بِشَرِّ قِصْرِ الْعُمُرِ ، وَلَا جَمَالَ الْمَرْبُوعِ بِمَا يَقُوتُ مِنْ مَنَفَعَةِ الْعِلْمِ .
فَأَمَّا الْيَوْمَ فَيَا لَيْتَنِي^(٥) كُنْتُ أَفْصَرَ مِنْكَ وَأَضْوَى ، وَأَقْلَ مِنْكَ
وَأَقْمًا^(٦) .

وَلَيْسَ دُعَائِي لَكَ بِطُولِ الْبِقَاءِ طَلِبًا لِلزِّيَادَةِ^(٧) ، لَكِنْ^(٨) عَلَيَّ
جِهَةٌ التَّعَبُّدِ وَالِاسْتِكَانَةِ ، فَإِذَا سَمِعْتَنِي أَقُولُ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ فَهَذَا الْمَعْنَى
أُرِيدُ ، وَإِذَا رَأَيْتَنِي أَقُولُ لَا أُحِلِّي اللَّهُ مَكَانَكَ فِإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَذْهَبُ .

(١) ما عدا مع ، ش : « وإنا لتجد مقالا » .
(٢) جار عن الطريق بجمور ، إذا مال وذل . ب ، م : « حرت » بالخاء المهملة ، صوابه
في سائر النسخ .
(٣) الآية ٩٢ من سورة مريم .
(٤) ب ، م : « وعن القصور راغباً » .
(٥) ب ، م : « فبالشيء » ط : « بما فليتني » ، صوابهما في مع ، ش .
(٦) أفا : تسهيل أفا من القهامة ، وهي صغر الجسم . وكتبت في م ، ط : « أقي » ،
وهو مذهب جازر في الرسم . وفي مع ، ش : « وأوهي » .
(٧) م فقط : « للزيارة » . وكلمة « طلباً » ساقطة بما عدا مع ، ش .
(٨) ب : « لا لكن » م ، ط : « لكن » ، وأثبت ما في مع ، ش .

وقد زعموا ، جعلت فداءك ، أن كل ما طال عمره من الحيوان زائد في شدة الأركان ، وفي طول العمر وصحة الأبدان ، كالورشان والضباب وحمر الوحش ، وكلحم النسر لمن أكله ، ولحم الحية لمن استحلّه فإذا كان هذا حقاً^(١) وكان نافعاً ، وكنت له مستعملاً وفيه متقدماً ، وتراه رأياً ، أخذنا منه بنصيب ، وتعلقنا منه بسبب .

وفيك أمران غريبان ، وشاهدان بديعان : جواز الكون والفساد عليك ، وتعاون النقصان والزيادة إياك . وجوهرك فلکی وتركيبك أَرْضِي . فمك طول البقاء ، ومعك دليلُ الفناء . وأنت علةٌ للمتضاد^(٢) وسببٌ للمتنافي . وما ظنك بخلقٍ لا تضره الإحالة ، ولا يُفسده التناقض .

٤ - فصل

جعلت فداك ، قد شاهدتَ الإنس منذ خلقوا ، ورأيتَ الجنَّ قبل أن يُحجَبوا ، ووجدتَ الأشياءَ بنفسك خالصةً وممزوجةً ، وأغفلاً وموسومةً^(٣) ، وسالمةً ومدخولةً ، فما يخفى^(٤) عليك الحجّةُ من الشبهة ، ولا السقمُ من الصحة ، ولا الممكنُ من الممتنع ، ولا المستغلقُ من المبهم ، ولا النادرُ من البديع ، ولا شبهُ الدليلِ من الدليلِ .

وعرّفتَ علامةَ الثقة من علامةِ الريبة ، حتّى صارت الأقسامُ عندك محصورةً ، والحدودُ محفوظةً ، والطبقاتُ معلومةً ، والدنيا بحذافيرها

(١) مع ، ش : « هذا الأمر حقاً » .

(٢) م فقط : « للمتضارب » .

(٣) ما عدا مع ، ش : « وأغفلاً موسومةً » ، تحريف . فإن الأغفال ملامسة عليها ، والموسومة : ذوات النبات ، وهي العلامات .

(٤) ط فقط : « فما تخفى » بالتاء .

مصورة . ووجدت السبب كما وجدت المسبب ، وعرفت الاعتلال كما عرفت الاحتجاج ، وشاهدت العلل وهي تولد ، والأسباب وهي تُصنع ، فعرفت المصنوع من المخلوق ، والحقيقة من التَّمويه .

٥ - فصل

إِنَّكَ^(١) - جُعِلْتُ فِدَاكَ - كما أَنَّكَ لم تكن فكنت ، فكذا لا تكون^(٢) بعد أن كنت . وكما زدت في الدَّهر الطويل فكذا تنقص في الدَّهر الطويل . وكلُّ طويل فهو قصير ، وكل متناهٍ فهو قليل . فإيَّاكَ أَنْ تَظَنَّ أَنَّكَ قديمٌ فتكفُرْ ، وإيَّاكَ أَنْ تنكرَ أَنَّكَ مُحدثٌ فتشركَ ؛ فَإِنَّ للشَّيْطَانَ في مثلكَ أطماعاً لا يصيبُها في سِوَاكَ ، ويجد فيكَ عِللاً لا يجدُها في غيرِكَ^(٣) .

٦ - فصل

وقد علمتَ . أَنَّ الخَبَرَ إِذَا صحَّ أصلُهُ وكان للنَّاسِ عِلَّةٌ في نَشْهِهِ ، كان في الدلالة على الحقِّ كالعيان ، وفي الشِّفَاءِ^(٤) كالسَّمَاعِ .

على أَنَّ الخَبَرَ لا يُعْرَفُ به تَكْيِيفُ الأُمُورِ^(٥) ولكن تُعْرَفُ به جُمْلُ الأَشْيَاءِ ، إِلَّا خَبَرَكَ فَإِنَّكَ لا تحتاج إلى إشارة ولا إلى عِلَّةٍ ، ولا إلى

(١) ما عدا مع ، ش : « أنا » ، تحريف .

(٢) ب فقط : « لا يكون » ، تحريف .

(٣) ما عدا مع ، ش : « غليلاً لا يجدها في غيرك » ، تحريف .

(٤) ب : « في الشفاء » ط : « في الشفاء » ، وأثبت ما في سائر النسخ .

(٥) ب ، م : « فكيف » ، صوابه في ط ، مع ، ش وهامش م .

تفسير (١) حتى يقوم خبيرك في الشفاء (٢) وفي كيفية الشيء (٣) مقام العيان .

وقد كنت أتعجب من محمد بن عبد الملك (٤) وأقول : ما يقولون في رجل لم يقل قط بعد انقضاء خصومته وذهاب خصمه : لو كنت قلت كذا (٥) كان أفضل ، أو كنت لم أقل كذا كان أمثل ! فما بال عفو أكثر من جهدكم ، وبديته أبعد من أفصى فكرتكم ؟ !
فلما رأيتك علمت أنك عذاب صبه الله تعالى على كل ربيع ، ورحمة أنشأها الله لكل وضع .

فخبرني عما جرى (٦) بينك وبين هرْمَس في طبيعة الفلّك ، وعن سماعك من أفلاطون ، ومادار بينك وبين أرسطاطليس (٧) ، وأى نوع اعتقدت وأى شيء اخترت ؟ فقد آبت نفسي غيرك ، وآبت أن تتشقى (٨) إلا بخبرك .

ولولا أنني كلفت برواية الأفاويل ، ومُغرم بمعرفة الاختلاف وأنى لا أستجيز (٩) مسألتك عن كل شيء ، وابتدألك في كل أمر ، لما سمعت من أحد سواك ، ولما انقطعت إلى أحد غيرك .

(١) ما عدا مع ، ش : « إلى نفس » .

(٢) ب : « في الشفاء » ، ط : « في الشفاء » ، وأثبت ما في سائر النسخ .

(٣) م فقط : « وفي كيفية إقامة الشيء » .

(٤) ما عدا مع ، ش : « من عبد الملك » .

(٥) ما عدا مع ، ش : « لو قلت كذا » .

(٦) ما عدا مع ، ش : « فخبرني ما جرى » .

(٧) ب فقط : « أرسطوطليس » .

(٨) ب : « وأنت أن تشقى » م : « وآبت أن تشقى » ، صوابها في ط ، مع ، ش .

(٩) ب : « وأنى لأستجيز » ط : « وأنى أستجيز » ، صوابها في م ، مع ، ش .



اعلمُ ، جُعِلْتُ فِدَاكَ ، أَنِّي لَمْ أُرِدْ بِمِزَاحِكَ إِلَّا أَنْ أُضْحِكَ سِنِّكَ ،
 وَلَا كَانَتْ غَايَتِي فَيْكَ إِلَّا لِأَنْفُقَ عِنْدَكَ . وَقَدْ كُنْتُ خَفْتُ أَنْ لَا أَكُونَ
 وَقَفْتُ عَلَى حَدِّهِ ^(١) ، وَأَشْفَقْتُ مِنَ الْمَجَاوِزَةِ لِقَدْرِهِ .

والمزاح بابٌ ليس المخوفُ فيه التَّقْصِيرُ ، وَلَا يَكُونُ الْخَطَأُ فِيهِ مِنْ
 جِهَةِ النُّقْصَانِ . وَهُوَ بَابٌ مَثِي فَتَحَهُ فَاتِحٌ ، وَطَرَّقَ لَهُ مَطْرَقٌ ^(٢) ، وَلَمْ
 يَمْلِكْ مِنْ سَدِّهِ [مِثْلُ ^(٣)] الَّذِي يَمْلِكُ مِنْ فَتْحِهِ ، وَلَمْ يَخْرُجْ بِقَدْرِ مَا كَانَ
 قَدَّمَ مِنْ نَفْسِهِ ^(٤) ، لِأَنَّهُ بَابٌ أَصْلُ بِنَائِهِ عَلَى الْخَطَأِ ، وَلَا يَخَالِطُهُ مِنَ
 الْأَخْلَاقِ إِلَّا مَا سَخَفَ . وَمِنْ شَأْنِهِ التَّزْيِيدُ ، وَأَنْ يَكُونَ صَاحِبُهُ قَلِيلَ
 التَّحَفُّظِ .

وَلَمْ نَرِ شَيْئًا أَبْعَدَ مِنْ شَيْءٍ ^(٥) وَلَا أَطْوَلَ لَهُ صُحْبَةٌ ^(٦) وَلَا أَشَدَّ خِلَافًا
 وَلَا أَكْثَرَ لَهُ خُلُطَةً ، مِنَ الْجِدِّ وَالْمُزَاحِ ، وَالْمَنَاظَرَةِ [وَالْمِرَاءِ] ^(٧) .

فَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَقْصُرْ عَنِ الْغَايَةِ ، وَلَمْ أَتَجَاوِزْ حَدَّ النِّهَايَةِ فَبِمَا أَعْرَفُ
 مِنْ يُعْنِ مَكَامَتِكَ ، وَبِرِّكَةِ مُكَاتَبَتِكَ ، وَمِنْ حَسَنِ تَقْوِيمِكَ ^(٨) وَجُودَةِ
 تَثْقِيفِكَ . وَإِنْ كُنْتُ أَخْطَأْتُ الطَّرِيقَ ، وَجَاوَزْتُ الْمَقْدَارَ ، فَمَا كَانَ
 ذَلِكَ عَنِ جَهْلٍ بِفَضْلِكَ ، وَلَا إِنْكَارٍ لِحَقِّكَ ، وَلَكِنَّ حُدُودَ الْأَشْيَاءِ
 إِذَا خَفِيَتْ ، وَمَقَادِيرُهَا إِذَا أَشْكَلَتْ ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَ النَّظَرِ فِيهَا مِثْلُ

(١) ما عدا مع ، ش : « وقعت على حده » .

(٢) م : « أو طرق له مطرق » .

(٣) التكلمة من مع ، ش .

(٤) مع ، ش : « في نفسه » .

(٥) ما عدا مع ، ش : « من شر » ، تحريف .

(٦) ما عدا مع ، ش : « ولا أبعد له صحبة » ، ولكن في م : « صحبة » .

(٧) التكلمة من مع ، ش .

(٨) ب ، ط : « تقويتك » ، صوابه في سائر النسخ .

تمامك ، ولا مع المتكئف لها (١) مثل كمالك ، دخل عليه من الخلل بقدر عجزه ، وسلم منه بقدر نفاذه . نعم ولو كان من العلماء الموصوفين ، ومن الأدباء المذكورين .

[ومن (٢) المزاح - جعلت فداك - باب مكر وجنس خدع (٣) يتكل المرء (٤) في إساءته إلى جليسه ، واستأعاه لصديقه على أن يقول « مزحْتُ » ، وعلى أن يقول عند المحاكمة : « عَيْثْتُ (٥) » ، وعلى أن يقول : مَنْ يَغْضَبُ مِنَ الْمَزَاحِ إِلَّا كَرَّ الْخَلْقُ ؟ ! ومن يَرِغِبُ عَنِ الْمَفَاكِهِ إِلَّا ضَيَّقَ الْعَطْنَ ؟ !

وبعد فمتى أعدت النفس عن ذراً كانت إلى القبيح أسرع ، ومتى لم تُعده (٦) كانت عنه أبطأ .

ومن أسباب الغلط فيه ومن دواعي الخطأ إليه أن كثيراً من تُمازحه (٧) يضحك وإن كنت أغضبتَه ، ولا يقطع مزاحك وإن كنت قد أوجعته . فإن حقدَ في الحقد الداء ، وإن عجلَ فذلك البلاء . فإن قلت : فما أدخلك في شيء هذه سبيله (٨) ، وهكذا جوهره وطريقه ؟ قلت : لأنني حين أمنتُ عقابَ الإساءة ، ووثقت بثوابِ

(١) ط فقط : « بها » .

(٢) التكلة من م ، مج ، ش .

(٣) ب : « باب مكدر جنس خدع » م ، ط : « نكد وجنس خدع » ، صوابها في

مج ، ش .

(٤) ب فقط : « للمرء » ، تحريف .

(٥) مج ، ش : « لعبت » .

(٦) ما عدا مج ، ش : « ومتى لم تجده » .

(٧) ب : « يمازحه » ، تحريف .

(٨) السبيل : الطريق ، مذكر ويؤنث . وفي الكتاب العزيز : « قل هذه سبيل أدعو إلى

الله على بصيرة » . م فقط : « هذا سبيله » .



الإحسان ، وعلمت أنك لا تقضي إلا على العمد^(١) ، ولا تعذب^(٢) إلى على
القصْد ، صار^(٣) الأمن سائقاً ، والأملُ قائداً .
وأىُّ عملٍ أَرُدُّ ، وأىُّ مُتَجَرِّ أَرَبِحُ مَّا جَمَعَ السَّلَامَةَ وَالغَنِيْمَةَ ،
وَالأَمْنَ وَالْمَثْبُوبَةَ .

ولو كان هذا ذنباً كنت شريكى فيه ، ولو كان تقصيراً لكنت
سببى إليه ، لأنَّ دوام التَّعَاوُلِ شبيهٌ بالإهمال ، وتَرَكَ التعريف يورث
الإغفال ، والعَفْوُ الشَّائِعَ والبِشْرَ الدَّائِمَ يُؤْمِنَانِ مِنَ الْمَكَافَأَةِ^(٤) ، وَيَذْهَبَانِ
بِالتَّحْفُظِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ لِعُمَانَ بْنِ عَفَّانَ : «عُمَرُ كَانَ
خَيْرًا لِي مِنْكَ ، أَرْهَبُنِي^(٥) فَاتَّقَانِي ، وَأَعْطَانِي فَأَغْنَانِي» .

فإن كنت اجترأت عليك فلم أجترىء^(٦) عليك إلا بك^(٧) ؛
وإن كنت أخطأت فلم أخطيء عليك^(٨) إلا لك ؛ لأنَّ حُسْنَ الظَّنِّ
بِكَ وَالثَّقَّةَ بِعَفْوِكَ^(٩) سَبَبٌ إِلَى قَلَةِ التَّحْفُظِ^(١٠) ، وداعيةٌ إلى ترك
التحرز^(١١) .

(١) م ، ط : « لا تقتص » ب : « لا يقص » صوابهما في معج ، ش . وفي ط : « إلا على
المعهد » ، تحريف .

(٢) ما عدا معج ، ش : « ولا تقرب » ، تحريف .

(٣) ب : « سار » ط : « ترى » ، صوابهما في سائر النسخ .

(٤) ب : « المكافات » ، تحريف .

(٥) ب : « رهى » م ، ط : « رهنى » ، صوابهما في معج ، ش . وفي المعارف
لابن قتيبة ١٣٢ : « فإنه أعطانا فأغنانا ، وأخشاننا فاتقانا » . وفي أسد الغابة ٢٠٥٥ في ترجمة
عينية : « ونزوح عثمان بن عفان ابنته ، فدخل عليه يوماً فأغلظ له ، فقال له عثمان : لو كان
عمر ما أقدمت عليه بهذا . فقال : إن عمر أعطانا فأغنانا ، وأخشاننا فاتقانا » .

(٦) ب فقط : « فلم أجتر » .

(٧) ما عدا معج ، ش : « إلا به » .

(٨) عليك ، ليست في معج ، ش . وفي م : « فلم أخط » وفي ط : « فلم أخطأ » وكلاهما
صحيح . يقال عطى ، يخطأ ، يخطئ ، وأخطأ يخطئ ، ويسهل المضارع منها فيجزم بحذف الألف أو الياء .

(٩) ب فقط : « والشفقة » ، تحريف .

(١٠) ط فقط : « قلة في التحفظ » .

(١١) م ، ط : « التجوز » .

وبعدُ فَمَنْ وَهَبَ الكَبِيرَ كَيْفَ يَقِفُ عِنْدَ الصَّغِيرِ ^(١) ، وَمَنْ لَمْ يَزَلْ يَعْفُو عَنِ الْعَمَدِ ^(٢) كَيْفَ يِعَاقِبُ عَلَى السَّهْوِ ؟ !

ولو كان عِظْمٌ قَدْرِي هو الذى عِظَّمُ ذَنْبِي لكان عِظْمٌ قَدْرِي هو الذى شَفَعَ لِي . ولو استَحَقَّقْتُ عِقَابَكَ بِإِقْدَامِي عَلَيْكَ مع خَوْفِي لَكَ ^(٣) لاسْتَوْجِبْتُ ^(٤) عَفْوَكَ عن إِقْدَامِي عَلَيْكَ بحسْنِ ظَنِّي بِكَ ^(٥) .

على أَنِّي متى أَوْجِبْتُ لَكَ العَفْوَ فقد ^(٦) أَوْجِبْتُ لَكَ الفضلَ ، ومتى أَصَفْتُ إِلَيْكَ العِقَابَ فقد وَصَفْتُكَ بِالْإِنْصَافِ . ولا أَعْلَمُ حالَ الفَضْلِ إِلَّا أَشْرَفَ من حالِ العَدْلِ ؛ والحالَ التى توجب لَكَ الشُّكْرَ إِلَّا أَرْفَعَ من الحالِ التى توجب لَكَ الصَّبْرَ ^(٧) .

وإن كُنْتَ لا تَهَبُ عِقَابِي لِحُرْمَتِي فِيهِه لِأَيَادِيكَ عِنْدِي ؛ فَإِنَّ النِّعْمَةَ تَشْفَعُ فِي النِّعْمَةِ ^(٨) .

فإن لم تَفْعَلْ ذلكَ لِلحُرْمَةِ فافْعَلْهُ لِحُسْنِ الأَحْدُوْثَةِ ^(٩) ، وَعُدْ إِلَى حُسْنِ العَادَةِ . وَإِنْ لم تَفْعَلْ ذلكَ لِحُسْنِ العَادَةِ فَانْتَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ .

واعلم أَنِّي وَإِيَّاكَ متى تَحَاكَمْنَا إِلَى كَرَمِكَ قُضِيَ لِي عَلَيْكَ ، ومتى ارْتَفَعْنَا إِلَى عَدْلِكَ حَسُنَ العَفْوَ عَنِّي عِنْدَكَ .

(١) م : « يعف عن الصغير » ب ، ط : « يعف عند الصغير » ، صوابها في مع ، ش .

(٢) م ، ب : « ولمن لم يزل يعفو العمد » ، صوابه في سائر النسخ .

(٣) ش فقط : « منك » .

(٤) م : « لاستجبت » ، تحريف .

(٥) ما عدا م ، ط : « لحسن ظني بك » .

(٦) التكلفة من مع ، ش .

(٧) بعده في بعض نسخ ش : « ولا الحال التي توجب لك الصبر إلا أرفع من الحال التي

توجب العذر » .

(٨) ش فقط : « في النعمة » .

(٩) م ، ط : « لحب الأحذوثه » .

وَفَضَّلُ^(١) مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، وَفَرَّقُ مَا بَيْنَ أَقْدَارِنَا وَقَدْرِكَ^(٢) ،
أَنَا نُسِيءُ وَتَغْفِرُ ، وَنُذْنِبُ وَتَسْتُرُ ، وَنَعْوَجُ وَتُقَوِّمُ ، وَنَجْهَلُ وَتُعَلِّمُ ؛
وَأَنَّ عَلَيْكَ الْإِنْعَامَ وَعَلَيْنَا الشُّكْرَ . وَمِنْ صِفَاتِكَ أَنْ تَفْعَلَ^(٣) وَمِنْ
صِفَاتِنَا أَنْ نَصِفَ .

وإذا فعلت ما تقدر عليه من العقاب كنت كمن فعل ما يقدر عليه
من التعرض ، وصرت ترغب عن الشكر كما رغبنا عن السلم^(٤) ، وصار
التعرض لعفوك بالأمن باطلاً ، والتعرض لعقابك بالخوف حقاً ،
ورغبت عن النبيل والبهاء ، وعن السؤدد والسناء ، وصرت كمن يشقى
غيظاً أو يُداوى حقداً . أو يظهر القدرة أو يحب أن يُذكر بالصولة .

ولم نجدهم - أبقاك الله - يحمّدون القدرة إلا عند استعمالها في
الخير ، ويذمّون العجز إلا لما يفتوّت به من إتيان الجميل .

وأنتى لك بالعقاب وأنت خيرٌ كلُّك ، ومن أين اعتراض المنع وأنت
أنهجت الجود لأهله^(٥) . وهل عندك^(٦) إلا ما في طبعك ، وكيف لك
بخلاف عادتك ؟ فلم تستكره نفسك على المكافأة وطباعها الصفح^(٧) ؟
ولم تكدها بالمناقشة ومذهبها المسامحة^(٨) ؟

(١) ب ، م : « وفضل » بالضاد المعجمة .

(٢) م ، ط : « قدرنا وقدرك » .

(٣) ب فقط : « تفعل » ، تحريف .

(٤) ش : « التسليم »

(٥) أراد بين طريقه ومنهاجه . والفعل بهذا المعنى لم يرد في المعاجم المتداولة .

(٦) ما عدا م ، ش : « وهل عنك » ، تحريف .

(٧) م : « وطباع الصفح » ، تحريف . وفي م ، ش : « وطباعك الصفح » . وأثبت

ما في ب ، ط .

(٨) بالمناقشة ، من إحدى نسخ ش . وفي سائر النسخ : « المنافسة » . والمناقشة :

استقصاء الحساب . ما عدا م ، ش : « زومذهبها السباحة » .

سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ أَحْخَاقَكَ وَفَقَّ أَعْرَاقَكَ ، وَفَعَلَكَ وَفَقَّ عَمَلَكَ ،
وَمَنْ جَعَلَ ظَنِّكَ أَكْثَرَ مِنْ يَقِينِنَا ^(١) ، وَفِرَاسَتَكَ أَثْقَبَ مِنْ عِيَانِنَا ^(٢) ،
وَعَوَّوْكَ أَرْجَحَ مِنْ جُهْدِنَا ، وَبَدَأَتْكَ أَجْوَدَ مِنْ تَفَكُّرِنَا ، وَفَعَلَكَ أَرْفَعَ مِنْ
وَصَفِنَا ، وَغَيَّبَتْكَ أَهْيَبَ مِنْ حُضُورِ السَّادَةِ ^(٣) ، وَعَتَبَتْكَ ^(٤) أَشَدَّ مِنْ
عِقَابِ الظَّلْمَةِ .

وَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَكَ تَعْفُوَ عَنِ التَّمَعُّدِ ، وَتَتَجَافَى عَنِ عِقَابِ الْمُصِيرِ ^(٥) ،
وَتَتَغَافَلُ عَنِ الْمُنَاوِي ^(٦) وَتَصْفَحُ عَنِ الْمُتَهَاوِنِ ^(٧) حَتَّى إِذَا صَرَتْ
إِلَى مَنْ ذَنْبُهُ نَسِيَانٌ ^(٨) وَتَوْبَتُهُ إِخْلَاصٌ ، وَهَفْوَتُهُ بِكْرٌ ، وَشِفَاعَتُهُ
الْحُرْمَةُ ^(٩) وَمَنْ لَا يَعْرِفُ الشُّكْرَ إِلَّا لَكَ ، وَالْإِنْعَامَ إِلَّا مِنْكَ ، وَلَا الْعِلْمَ ^(١٠)
إِلَّا مِنْ تَأْدِيبِكَ ، وَلَا الْأَخْلَاقَ إِلَّا مِنْ تَقْوِيمِكَ ، وَلَا يَقْصُرُ ^(١١) فِي بَعْضِ
طَاعَتِكَ إِلَّا لَمَّا رَأَى مِنْ احْتِمَالِكَ ، وَلَا نَسِيَ بَعْضَ مَا يَجِبُ لَكَ إِلَّا لَمَّا
دَاخَلَهُ مِنْ تَعْظِيمِكَ - صِرَتْ تَتَوَعَّدُهُ بِالصَّرْمِ ^(١٢) وَهُوَ دَلِيلُ كُلِّ بَلِيَّةٍ ،
وَتَسْتَعْمَلُ الْإِعْرَاضَ وَهُوَ قَائِدُ كُلِّ هَلَكَةٍ .

وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ عِتَابَكَ أَشَدُّ مِنَ الصَّرِيمَةِ ، وَأَنَّ تَأْنِيبَكَ أَغْلَظُ مِنَ

(١) ش : « أقوى من يقيننا » .

(٢) أثقب : أضوأ وأنفذ . وهذا ما في م ، وفي سائر النسخ : « أقوى من عياننا » .

(٣) ما عدا ميج ، ش : « الشاكة » . والسادة : جمع سيد .

(٤) ما عدا ميج ، ش : « وعينك » ، تحريف .

(٥) ط فقط : « عذاب المصير » .

(٦) من المناواة ، وهي المعاداة . م ، ط : « المنادي » تحريف . ميج ، ش : « المبادى » ،

وأثبت ما في ب .

(٧) م ، ب : « التهادن » ، صوابه في سائر النسخ .

(٨) ما عدا ميج ، ش : « شيان » .

(٩) م ، ط : « وشفته الحرمة » ميج ، ش : « وشفيه حرمة » ، وأثبت ما في ب .

(١٠) ب : « والعلم » بإسقاط « لا » .

(١١) ميج ، ش : « ومن لا يقصر » .

(١٢) ما عدا ميج ، ش : « صرت تتعود » . ط فقط : « بالصد » .

العقوبة ، وَأَنْ مَنَعَكَ إِذَا مَنَعْتَ فِي وَزْنِ إِعْطَانِكَ إِذَا أُعْطِيتَ ، وَأَنْ عِقَابَكَ عَلَى حَسَبِ ثَوَابِكَ ، وَأَنْ جَزَعِي مِنْ حَرَامَانِكَ فِي وَزْنِ سُرُورِي بِفَوَائِدِكَ ، وَأَنْ شَيْنَ غَضَبِكَ كَزَيْنِ رِضَاكَ^(١) ، وَأَنْ مَوْتَ ذِكْرِي بِانْقِطَاعِ سَبَبِي مِنْكَ كَحَيَاةِ ذِكْرِي مَعَ اتِّصَالِ سَبَبِي بِكَ .

وما لي^(٢) [اليوم عملٌ أنا إليه أسكنُ ، ولا شفيعٌ أنا به أوثقُ ، مِنْ شِدَّةِ جَزَعِي مِنْ عَتَبِكَ ، وَإِفْرَاطِ هَلَمَعِي مِنْ خَوْفِكَ . وَلَسْتُ مِمَّنْ إِذَا جَادَ بِالصَّفْحِ وَمَنْ بِالغَفْوِ لَمْ يَكُنْ لِصَاحِبِهِ مِنْهُ إِلَّا السَّلَامَةَ وَالنَّجَاةَ مِنْ الْهَلَكَةِ . بَلْ تَشْفَعُ ذَلِكَ بِالْمَرَاتِبِ الرَّفِيعَةِ ، وَالْعَطَايَا الْجَزِيلَةِ ، وَالْعِزِّ فِي الْعَشِيرَةِ ، وَالْهَيْبَةِ فِي الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ ، مَعَ طَيْبِ الذِّكْرِ وَشَرَفِ الْعُقْبِ^(٣) ، وَمُحَبَّةِ النَّاسِ^(٤) .

وأما ذِكْرِي الْقَدَّ وَالْحَرْطَ ، وَالطُّوْلَ وَالْعَرَضَ ، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ فِي ذَلِكَ^(٥) مِنَ التَّنَازُعِ ، وَالتَّشَاجُرِ وَالتَّنَافُرِ^(٦) ، فَإِنَّ الْكَلَامَ قَدْ يَكُونُ فِي لَفْظِ الْجِدِّ وَهُوَ مِزَاحٌ^(٧) .

ولو استعمل الناس الدِّمَاءَةَ فِي كُلِّ حَالٍ ، وَالْجِدَّ فِي كُلِّ مَقَالٍ ، وَتَرَكَوْا التَّسْمُحَ وَالتَّسْهِيلَ وَعَقَّدُوا فِي كُلِّ دَقِيقٍ وَجَلِيلٍ^(٨) ، لَكَانَ

(١) الزين : الحسن . ما عدا مج ، ش : « كذم رضاك » .

(٢) التكلة من ط ، مج ، ش .

(٣) العقب ، بالضم : الماقبة . وفي كتاب الله : « هو خير ثواباً وخير عقباً » .

(٤) مج ، ش : « ومحبة النفس » .

(٥) ب ، م : « وبيننا وبينك في ذلك » يسقوط « ما » .

(٦) مج ، ش : « والتحاكم والتنافر » .

(٧) مج ، ش : « في لفظ الجدد ومعناه معنى الهزل ، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه معنى

الجد » .

(٨) مج ، ش : « وعقدوا أعناقهم في كل دقيق وجليل » .

الشرَّ صُراحاً خيراً لهم ، والباطلُ محضاً أَرَدَّ عليهم . ولكنَّ لكلِّ شيءٍ قَدْرٌ ، ولكلِّ حالٍ شِكْلٌ . فالضَّحِكُ في موضعه كالْبُكَاءِ في موضعه ، والتبسُّمُ في موضِعِهِ كالقُطُوبِ في موضعه . وكذلك المنعُ والبَدَلُ ، والعقابُ والعَفْوُ ، وجميعُ القبضِ والبسطِ .

فإنَّ ذَمَّنَا المِزاحَ ففيه لعمري ما يُدَمُّ ، وإنَّ حَمِدْنَاهُ ففيه ما يُحْمَدُ . وفضلُ (١) ما بينه وبين الجِدِّ أنَّ الخطأَ إلى المِزاحِ أسرع ، وحالُه بحالِ السُّخْفِ أشبه . فأمَّا أن يُدَمَّ حتَّى يكونَ كالظُّلمِ ، ويُنفَى (٢) حتَّى يصيرَ كالغَدْرِ فَلَا (٣) ؛ لأنَّ المِزاحَ مما يكونُ مرَّةً حسناً ومرَّةً قبيحاً . فإذا صرنا إلى الجِدِّ (٤) ، ورغِبْنَا عن الهَزْلِ وتركنا المِزاحَ ، وجلسنا للحُكْمِ (٥) ، فقد أغناكَ اللهُ تعالى عن الحُجَّةِ ، كما سلَّمكَ من الشبهة ، ولم نكلِّفَكَ الاحتِجَاجَ كما نرغبُ بك عن الاعتِلالِ (٦) ، فأصبحتَ لا محتِجاً ولا مَحجوجاً ، ولا غُفلاً ولا موسوماً ، ولا مَلُوماً ولا معذوراً (٧) ، ولا فيكَ اختلافٌ ولا بك حاجةٌ إلى الائتلافِ .

وليس مع العِيانِ وَخْشَةٌ ، ولا مع الضَّرورةِ وَجَمَةٌ (٨) ، ولا دون اليقينِ وقفةٌ .

(١) ب فقط : « وفضل » .

(٢) ما عدا مج ، ش : « ويبق » .

(٣) ب ، م : « كلا » ، صوابه في سائر النسخ .

(٤) مج ، ش : « فإذا ملنا إلى الجِدِّ » .

(٥) مج ، ش : « للحكمة » .

(٦) مج ، ش : « ولم يكلِّفَكَ الاحتِجَاجَ كما رغبُ بك عن الاعتِلالِ » .

(٧) ب : « ومَلُوماً » بإسقاط « لا » . وفي م : « ولا مَلُوماً ولا معذولا » .

(٨) الوجه من الوجوم ، وهو السكوت على غيظ أو هم أو كآبة . ب فقط : « وجهة » .



وهل في تمامك ريب (١) حتى يُعالج بالحجة؟ وهل يردُّ فصلك
جاحدٌ (٢) حتى يُدبَّت بالبينة (٣) .

وهل لك خصمٌ في العلم أو نِدٌّ في الفهم (٤) ، أو مُجَارٍ في الحليم ،
أو ضدٌّ في العزم (٥) ؟

وهل يبلُغك الحسد أو تضرك العين (٦) ، أو تسمو إليك المنى أو
يطعمُ فيك طامع (٧) ، أو يتعاطى شأوك باغ ؟

وهل غاية الجميلِ إلّا وضفك ، وهل زينُ البليغِ إلّا مدحك ، وهل
يأملُ الشريف (٨) إلّا اصطناعك ؟ وهل يقدرُ الملهوفُ إلّا غيائك (٩) ؟
وهل للطلابِ غايةٌ سيواك ؟ وهل للغواني مثلٌ غيرك ؟ وهل للماتح (١٠)
رجزٌ إلّا فيك ، وهل يحلُّو الحادى إلّا بك (١١) ؟

ولولا أن يأخذ الواصف لك بنصيبه منك، وبحصته من الصدق (١٢) ،

(١) ما عدا مع ، ش : « وهل فيك ريب » .

(٢) ب : « ماد » ، م ، ط : « حاد » ، صوابهما في مع ، ش .

(٣) ب ، م : « حتى تثبت بالصيغة » ط : « حتى تثبت بالصيغة » صوابهما في مع ، ش .

(٤) ما عدا مع ، ش : « أو يدي في الفهم » تحريف . والند ، بالكسر : النظر والمثيل .

(٥) الهجاري : الشبيه ، وأصله من يجرى مع غيره . ما عدا مع ، ش : « أو مجاز »

تحريف .

(٦) مع ، ش : « وهل يتبلُغك الحسد » . ب ، م : « أو يضرك العين » .

(٧) ما عدا مع ، ش : « طامع » ، تحريف .

(٨) ب ، م : « يؤمل » .

(٩) مع ، ش : « وهل يرجو الملهوفُ إلّا غيائك » .

(١٠) كانوا يرجزون عند المتح ، وهو الاستقاء من أهل البئر . ما عدا مع ، ش : « وهل

للماح » ، تحريف .

(١١) ش : « أو هل » ، مع ش : « إلا بذكرك » .

(١٢) ش : « من الصدق فيك » .

وبسببه من الشكر^(١) لك، لكان الإطناب عندهم في وصفك لغواً، ولكان تكلفه فضلاً .

ومن هذا الذي يَضَعُه^(٢) أن يكون دونك ، أو يُهَجَى بالتسليم^(٣) . ولم نعد^(٤) إقراره إحساناً ، وخضوعه إنصافاً ؟

وهل تقع الأبصار إلا عليك ، وهل تُصَرِّفُ الإشارة إلا إليك^(٥) ؟

وأى أمرِك ليس بغاية ، وأى شئٍ منك ليس في النهاية ؟ وهل فيك شئٌ يفوق شيئاً أو يفوقه شئٌ ؟ أو يقال : لو لم يكن كذا لكان [أحسن^(٦)] ، أو لو كان كذا لكان أتم^(٧) ؟

وأين الحُسْنُ الخالصُ والجمالُ الفائقُ ، والليحُ المحضُ والحلاوةُ التي لا تستحيل ، والتَّمَامُ الذي لا يُحِيلُ^(٧) ، إلا فيك ، أو عندك . أو لك أو معك ؟

لا بل أينَ الحُسْنُ المُضَمَّتُ والجمالُ المفردُ . والقَدُّ العجيبُ ، والليحُ المنشور والفضلُ المشهور ، إلا لك وفيك ؟
وهل على ظهرها جميلٌ حسيبٌ أو عالمٌ أديب^(٨) إلا وظلُّك أكبر

(١) ما عدا مع ، ش : « وشيمته من الشكر » .

(٢) ط : « نصفه » .

(٣) ب : « أو تهجى بالتسليم » ، تحريف صوابه في م ، ط . وفي مع ، ش : « ويمتحن بالتسليم لك » .

(٤) ما عدا مع : « أو تعد » .

(٥) ب ، م : « وهي تعرف الإشارة إلا إليك » ، وأثبت ما في ط . عل أن هذه الفقرة بتمامها لم ترد في نسخ التريب والتدوير .

(٦) التكلمة من مع ، ش .

(٧) ط فقط : « لا يحيل » .

(٨) مع : « أو عالمٌ أديب » ب ، ط ، م : « وعالمٌ أديب » . وأثبت ما في ش .

والأريب : العاقل ذو الدهاء .

من شخصه ، وظنك أكثر من علمه ، واسمك أفضل من معناه ، وحلمك أثبت من نجواه ؟

ولربما رأيت الرجل حسناً جميلاً ، وحلواً مليحاً ، وعتيقاً رشيقاً ، وفخماً نبيلاً^(١) ، ثم لا يكون موزون الأعضاء ولا معتدل الأجزاء .

وقد تكون^(٢) أيضاً الأقدار متساوية غير متقاربة ولا متفاوتة^(٣) ويكون قصداً ، ومقداراً عدلاً ، وإن كانت هناك دقائق خفية لا يراها الغي^(٤) ، ولطائف غامضة لا يعرفها إلا الذكي .

فأما الوزن المتحقق^(٥) ، والتعديل الصحيح ، والتركيب الذي لا يفضحه التفرس ، ولا يحضره التعنت^(٦) ، ولا يتعلل جاديه^(٧) ، ولا يطعم في التمويه ناعته^(٨) ، فهو الذي خصصت به دون الأنام ، ودام لك على الأيام .

وكذا الحُسن إذا كان حراً مُرسلاً ، وعتيقاً مُطلقاً^(٩) ، لا يتحكم

(١) الفخم : العظيم القدر . وفي حديث أبي هالة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان «فخماً مفخماً» ، أي عظيماً مطلقاً في الصدور والعيون . ما عدا مج ، ش : « وفخياً نبيلاً » ، ولم تعرف المعاجم الفخيم .

(٢) ب فقط : « وعاد يكون » .

(٣) التكلة من مج ، ش .

(٤) مج ، ش : « إلا الأملى » .

(٥) ب : « التحقيق » م : « التحقق » مج ، ش : « المحقق » ، وأثبت ما في ط .

(٦) ما عدا مج ، ش : « التنيب » .

(٧) الجادب : العائب . قال ذو الرمة :

فياك من خسد أسيل ومنطق رخم ومن خلق تبعلل جادبه

يقول : لا يجد فيه مقالا ولا عيباً يبيبه به ، فيتعلل بالباطل وبالشيء يقوله وليس بعيب .

ما عدا مج : « جادبه » بالذال المعجمة ، تحريف .

(٨) ما عدا مج ، ش : « غايته » ، تحريف .

(٩) ب فقط : « وعتقاً مطلقاً » ، تحريف .

عليه الدهر^(١) ، ولا يُدْبِلُهُ الزمان^(٢) ، ولا يحتاج إلى تعليق التمام ،
ولا إلى الصون والكن ، ولا إلى المنقاش والكحل^(٣) .

ولو لم يكن لحسن وجهك إلا أنه قد سهل في العيون تسهياً ،
وحبب إلى القلوب تحبيباً ، وقرب إلى النفوس تقريباً ، حتى امتزج
بالأرواح وخالط الدماء ، وجرى في العروق وتمشى في العظم بحيث
لا يبلغه السم ولا الوهم^(٤) ، ولا السرور الشديد ، ولا الشراب
الرقيق ، لكان في ذلك الزينة الظاهرة ، والفضيلة البينة .

ولو لم يكن لك إلا أننا لا نستطيع أن نقول في الجملة ، وعند
الوصف والمِدْحَة : هو أحسن من القمر^(٥) ، وأضوأ من الشمس ،
وأبهى من الفَيْث ، وأحسن من يومِ الحِلْيَةِ^(٦) ؛ وأنا لا نستطيع أن
نقول في التفاريق : كأنَّ عنقه إبريقُ فِضَّة ، وكأنَّ قدمه لسانُ حَيَّة ،
وكأنَّ وجهه ماوية^(٧) ، وكأنَّ بطنه قُبْطِيَّة^(٨) ، وكأنَّ ساقه بَرْدِيَّة^(٩) ،
وكأنَّ لسانه ورقة ، وكأنَّ أنفه حدسيف ، وكأنَّ حاجبه خطُّ بقلم^(١٠) ،
وكأنَّ لونه الذهب ، وكأنَّ عوارضه البرد ، وكأنَّ فاه خاتم ، وكانَّ

(١) ما عدا مج ، ش : « الدهن » .

(٢) ما عدا مج ، ش : « ولا يدبيله الزمان » .

(٣) المنقاش : آلة النقش ، والمراد به ما ينتفج به الشعر ، مج ، ش : « المناقش » .

(٤) مج ، ش : « السم ولا الوهم » . والسر : الحكايات التي يسمر بها ليلاً .

(٥) ط ، مج ، ش : « هو أحسن من القمر » .

(٦) يوم الحلية : يوم الزينة في الأعياد ونحوها . مج ، ش : « يوم الحلية » بالباء
الموحدة .

(٧) الماوية : المرآة . مج ، ش : « وكأن عينه » .

(٨) القبطية ، بالضم : ثياب من كتان مصر بيض رفاق . ط : « قبطية » تحريف .

(٩) البردية ، بالفتح : واحدة البردى ، وهو نبت مائي معروف يضرب به المثل في
في الفضاضة واللين .

(١٠) ب ، م : « تعلم » تحريف . في ط : « قلم » وأثبت ما في مج ، ش .

جبيته هلال . وهو أظهر من الماء ، وأرق طباعاً من الهواء ، وهو أمضى من السيل ، وأهدى من النجم - لكان في ذلك البرهان النير ، والدليل البين .

وكيف لا تكون كذلك وأنت الغاية في كل فضل ، والمثل في كل شكّل . وأما قول الشاعر^(١) :

يزيدك وجهه حُناً إذا مازدته نظراً

وقول اللّمشقيين : ما تأملنا قطُّ تأليف مسجداً ، وتركيب محرابنا وقبة مصلانا إلا أثار لنا التأمل ، واستخرج لنا التفرس ، غرائب حسن لم نعرفها^(٢) ، وعجائب صنعة لم نقيت عليها . وما ندرى أجواهر مقطعاته أكرم في الجواهر ، أم تنضيد أجزائه في تنضيد الأجزاء^(٣) ؟ فإن ذلك معنى مسروق منى في وصفك ، ومأخوذ من كتبى في مدحك .

والجملة التي تننى الجدال ، وتقطع القيل والقال ، أنى لم أرك قط إلا ذكرت الجنة ، ولا رأيت أجمل الناس في عقب رؤيتك ! إلا ذكرت النار !

ولا تعجب أيها السامع واعلم أنى مقصر . وإذا رأيت علمت أنى مقصر . وإذا رأيت علمت أنى فيما يجب له مفرط .

هو رجل طينته حرة ، وعرقه كريم ، ومفرسه طيب ، ومنشؤه

(١) هر أبو نواس . ديوانه ١٢٥ ودلائل الإعجاز ١٩٤ ومعاهد التنصيص ١ : ٢٨ وديوان الماعنى ١ : ٣٣١ .

(٢) ط فقط : « التفرس بين غرائب حسن لم نعرفها » ، تحريف .

(٣) ب فقط : « تنضيب » ، محرفة . وفي ش : « في تنضيدات الأجزاء » ، وفي مع : « أم جواهر تنضيدات أجزائه في تنضيدات الأجزاء » .

محمود ، غُدِيَّ في النِّعْمَةِ^(١) ، وعاش في العُبْطَةِ ، وأزَهَقَهُ التَّأْدِيبُ ،
 وبلَّغَهُ طول التَّفْكِيرِ^(٢) ، وخامَرَهُ الأَدَبُ ، وجرى فيه ماءُ الحِياءِ .
 فأَعَالَهُ كَأَخْلَاقِهِ ، وَأَخْلَافَهُ كَأَعْرَاقِهِ . وَعَادَتُهُ كطَبِيعَتِهِ ، وَآخِرُهُ كَأَوَّلِهِ ،
 تحكى اختياراتُهُ التَّوْفِيقَ ، ومذاهبُهُ التَّسْلِيدَ . لا يَعْرِفُ التَّكْلُفَ ،
 ويرَغَبُ عن التَّجَوُّزِ^(٣) ، وينبُئُ عن ترك الإنصافِ^(٤) . لا تمنع عليه
 معرفة المُبْهَمِ^(٥) ، ولا يُلْحَجُّ باستبانة المُشْكَلِ^(٦) . ولا يَعْرِفُ الشُّكَّ
 إلَّا في غيره ، ولا العِيَّ^(٧) إلَّا سماعاً .

فمن يطعم في عَيْبِكَ^(٨) . بل من يطعم في قدرك . وكيف وقد
 أصبحتَ وما على ظهرها خَوْذُ^(٩) إلَّا تعثرُ باسمك^(١٠) ، ولا قَيْنَةُ إلَّا وهى
 تَغْنَى مَدْحِكَ^(١١) ، ولا فتاةٌ إلَّا تشكو تباريحَ حَبِّكَ^(١٢) ، ولا محجوبةٌ

- (١) ب فقط : « غدى » ، تعريف . مع ، ش : « بالنعمة » .
 (٢) مع : « وألطفه طول التفكير » ش . : « وألطفه طول الفكرة » .
 (٣) ما عدا مع ، ش : « التجرد » .
 (٤) كلمة « ترك » من مع ، ش فقط ، وق ب : « عن الأوصاف » . م ، ط : « عن الإنصاف » .
 (٥) ب ، م : « لا يمنع عليه معرفة المبهم » صوابه في سائر النسخ .
 (٦) يقال حج عليه الخبر تلحيجاً ، إذا خلطه عليه وأظهر غير ما في نفسه . ب ، م ، ط :
 « ينحج باستبانته المشكل » ، تحريف . وق مع « ولا يلتحج باستبانة المشكل » .
 (٧) ما عدا مع ، ش : « ولا ألغى » بالعين المعجمة ، تحريف .
 (٨) ما عدا مع ، ش : « في عينك » ، بالنون .
 (٩) الخوذ ، بفتح الخاء : الشابة الناعمة الحسنة الخلق . ب ، م : « جود » . ط :
 « جواد » ، صوابهما في مع ، ش .
 (١٠) مع ، ش : « إلَّا وهى تعثر باسمك » ، أراد يعثرها الاضطراب لتقع في العثار .
 (١١) ما عدا مع ، ش : « إلَّا وهى تبغى » ، وق ط أيضاً : « تمدحك » .
 (١٢) ب : « إلَّا وتشكو » م : « ولا فتاة تشكو إلَّا تباريح حبك » ، وأثبت ما في ط .
 وق في مع ، ش : « إلَّا وهى تشكو تباريح حبك » .

إِلَّا وَهِيَ تَنْقُبُ الخُرُوقَ لِمَرْكٍ (١) ، وَلَا عَجُوزًا إِلَّا وَهِيَ تَدْعُو لَكَ ،
وَلَا غَيُورًا إِلَّا وَقَدْ شَقِيَّ بِكَ (٢) .

فَكَمَ مِنْ كَبِدِ حَرَى (٣) مُنْضَجَةٍ ، وَمَصْدُوعَةٍ مَفْرُتَةٍ (٤) ، وَكَمْ
حِشًا (٥) خَافِيٍّ وَقَلْبٍ هَائِمٍ ، وَكَمْ عَيْنٍ سَاهِرَةٍ (٦) وَأُخْرَى جَامِدَةٍ (٧)
وَأُخْرَى بَاكِيَةٍ ؟ وَكَمْ عَبْرَى مَوْلَهَةٍ وَفَتَاةٍ مَعْدَبَةٍ ، قَدْ أَفْرَحَ قَلْبُهَا الحُزْنَ ،
وَأَجَمَدَ عَيْنَهَا الكَمَدَ ، وَاسْتَبَدَلَتْ بِالحَلَى العُطْلَةَ (٨) وَبِالْأُنْسِ الوَحْشَةَ ،
وَبِالتَّكْحِيلِ المَرَهَ (٩) ، فَأَصْبَحَتْ وَاظَةً مَبْهُوتَةٍ (١٠) ، وَهَائِمَةٌ مَجْهُودَةٌ ،
بَعْدَ ظَرْفٍ نَاصِعٍ (١١) ، وَسِنَّ ضَاحِكٍ ؛ وَبَعْدَ أَنْ كَانَتْ نَارًا تَتَوَقَّدُ
وَشُعْلَةً تَتَوَهَّجُ .

وَلَيْسَ حُسْنُكَ - أَبْنِقَاكَ اللهُ - الحُسْنَ الَّذِي تَبْقَى مَعَهُ تَوْبَةٌ ، أَوْ
تَصِحُّ مَعَهُ عَقِيدَةٌ (١٢) ، أَوْ يَدُومُ مَعَهُ عَهْدٌ (١٣) ، أَوْ يَثْبُتَ مَعَهُ عَزْمٌ .

(١) ط فقط : « تنقب » بالثاء المثناة .

(٢) ب ، ط : « شق » بالفاء ، صوابه في سائر النسخ .

(٣) ب ، م : « حسوى » ، والصواب في سائر النسخ .

(٤) مفترئة : مفتتة . ب : « ومعربة » م : « ومعربة » ط : « ومعذبة » ، صوابها

في مج ، ش .

(٥) ش فقط : « وكم من حشا خافي » :

(٦) ش فقط : « وكم من عين ساهرة » .

(٧) الجامدة : التي لا تدغم . مج فقط : « جاهدة » .

(٨) كذا في جميع النسخ . وفي المعاجم أن « العطلة » بالضم : اسم للتعطل ، وهو خلو

المرأة من الخلق ، وخلو العامل من العمل .

(٩) المره : خلو العين من الكحل ، أو فسادها لتركة . والتت أمره ومرهاه .

(١٠) المبهوت : المتحير ، والذي اعترته الدهشة .

(١١) الناصع : الخالص الظاهر . في الأصول : « طرف » بالهملة ، صوابه بالظاء المعجمة .

(١٢) ب ، م : « أو يصح معه عقدة » ، صوابه في سائر النسخ .

(١٣) ب ، م : « عهدة » .

أَوْ يُمَهِّلُ صَاحِبَهُ لِلتَّثْبِتِ^(١) ، أَوْ يُتَّسَعُ لِلتَّحْيِيرِ^(٢) ، أَوْ يُنْهِنُهُ زَجْرُ^(٣) ،
أَوْ يَفِيدُهُ خَوْفُ^(٤) . هُوَ - أَبْقَاكَ اللَّهُ - شَيْءٌ يَنْقُصُ الْعَادَةَ^(٥) ،
وَيَفْسَخُ الْمُنَّةَ ، وَيُعْجِلُ عَنِ الرَّوْيَةِ^(٦) ، وَيَطْوَحُ بِالْعَزَاءِ^(٧) ، وَيُنْسَى مَعَهُ
الْعَوَاقِبُ .

ولو أدركك^(٨) عمر بن الخطاب لصنع بك أعظم^(٩) مما صنع بنصر
ابن الحجاج^(١٠) ، ولوركبك بأعظم مما ركب جعدة السلمي^(١١) . بل
لدعاه الشغل بك إلى ترك التشاغل بهما ، والغيط عليك إلى الرحمة لهما .

(١) مع ، ش : « التثبت » .

(٢) ب ، م : « أو تتسع » .

(٣) نهيه عن الأمر فضته : كفه وزجره فكف ، وأصلها نهيه ، بالتضعيف ، فأبدلت
الهاء الثانية نوناً . ما عدا مع ، ش : « أو يهنيه » ، تحريف .

(٤) ب : « خوفاً » ، تحريف . ومع ، ش : « أو يهذه خوف » .

(٥) ط فقط : « ينقص المادة » ، تحريف .

(٦) المنة ، بالضم : القوة . روى في الأمر تروية : نظر وفكر ، والاسم التروية .

ب ، م : « عن الروية » ، صوابه في سائر النسخ .

(٧) مع ، ش : « ويطرح » ب فقط : « بالمرى » .

(٨) ب ، م : « أدرك » .

(٩) ط فقط : « أحسن » ، ووجهها « أعشن » .

(١٠) ط فقط : « حجاج » . وهو نصر بن الحجاج بن علاط السلمي . وكان قد عشقته

فريعة بنت همام ، أم الحجاج بن يوسف ، وهي إذ ذاك تحت المغيرة بن شعبة ، فرمر
ابن الخطاب ذات ليلة فسمها تقول :

ألا سبيل إلى خسر فأشربها
أولا سبيل إلى نصر بن حجاج

فغير عمر نصرأ إلى البصرة ، فزول على مجاشع بن مسعود فمشق امرأته شيلة وعشقتة ،
وعرف مجاشع ذلك فأخرج من منزله ، فزول على بعض السلميين ففرض من حيا مرضاً شديداً
فتشلت به أهل البصرة فقالوا : « أدنف من المنى » . كما قيل « أصب من المنية » ، وهي فريعة
بنت همام . جمهرة الأشمال ١ : ٥٨٨ والميداني ١ : ٣٧٩ والمستقصى ١١٩ .

(١١) أدرك جمدة هذا زمان الجاهلية ، وكان غزلاً صاحب نساء مجذبتين وبمازجهن ،
فكن يجتمعن عنده ، فيأخذ المرأة فيمقلها ثم يأمرها بأن تمشي ، فتتمرتفتع فتتكشف ، فيضاحكن
من ذلك ، فنفاه عمر من المدينة إلى عمان . الإصابة ١٢٨٥ .

فمن كان عيب حُسْنِهِ (١) الإفراط، [والطمع (٢)] عليه من جهة الزيادة، كيف يرومه عاقلٌ أو يَنْتَقِضُهُ عالم .

وما نَدَرِي (٣) في أيِّ الحالين أنت أجمل ، وفي أيِّ المنزلتين أنت أكمل ، إذا فرقتك أو إذا جمعناك (٤) ، وإذا ذكرنا كلُّك (٥) أم إذا تأملنا بعضك ؟

فأما كلُّك فهي التي لم تُخَلَقْ إلا للتقبيل والتوقيع ، وهي التي يَحْسُنُ بِحُسْنِهَا كُلُّ ما أتصل بها ، ويختال بها كلُّ ما صار فيها (٦) .

وكما أصبَحْنَا وما ندرى: الكأس التي (٧) في يدك أجملُ أم القلمُ ، أم الرُمح الذي تحمله أم المِخْصَرة ، أم العِنانُ الذي تمسكه ، أم السُّوطُ الذي تعلقه ؟

وكما أصبَحْنَا وما ندرى أيُّ الأمور المتصلة برأسك أحسنُ ، أم أيُّها أجمل وأشكل : اللَّمَّةُ أم مَحَطُّ اللَّحْيَةِ (٨) ، أم الإكليلُ أم العِصَابَةُ ، أم العِمامَةُ أم القِنَاعُ أم القَلَنْسُوءَةُ ؟

وأما قدمك فهي التي يَعْلَمُ الجاهلُ كما يعلمُ العالمُ ، ويعلمُ البعيدُ

(١) ب ، م : « حبه » بالياء .

(٢) التكلة من مع ، ش .

(٣) ب ، م : « وما يدري » .

(٤) هذا ما في مع . وفي ب ، م ، ط : « وإذا جمعناك » . والذي في ش : « إذا فرقتك

أم إذا تأملنا بعضك » . بهذا التقص .

(٥) م ، ط : « ذكرناك كلُّك » . ويعله في مع : « أو إذا تأملنا بعضك » .

(٦) ب ، م : « ويختال » بالمهملة ، صوابه في سائر النسخ . وفي ب ، م : « كل من

صار فيها » ، تحريف .

(٧) م ، ط : « الذي » ، صوابه في ب فإن الكأس مؤنثة . وفي مع ، ش : « الكأس

في يدك » .

(٨) محط الحية : غلوطها وهيئة غرطها . م ، ط : « محط الحية » ، تحريف .

الأقصى كما يعلم القريب الأذنى، ^(١) أنها لم تخلق إلا لمنير عظيم،
أو ركاب طيرف كريم .

وأما فوك ^(٢) فهو الذي لا ندرى : أى الذى تنفوه ^(٣) به أحسن ،
وأى الذى يبدو منه أجمل ^(٤) : الحديث أم الشعر . أم الاحتجاج ، أم
الأمر والنهى . أم التعليم والوصف ؟

وعلى أننا لا ندرى أى السننك أبلغ . وأى بيانك أشق . أقلمك
أبلغ أم خطك ، أم ^(٥) لفظك ؟ أم إشارتك أم عقبك ^(٦) ؟ وأنت فى ذلك
فوقهم - والحمد لله - وواحدهم : وأعيدك بالله تعالى ^(٧) .

وقد علمنا أن القمر ، وهو ^(٨) الذى يضرب به الأمثال ، ويُسبّه به
أهل الجمال ، يبدو مع ذلك ضئيلاً ونضواً ، ويظهر معوجاً شخناً ^(٩)
وأنت أبدأ قمر بدر . وفخم غمر ^(١٠)

ثم مع ذلك يحترق فى السّرار ^(١١) ، ويُتشاءمُ به فى المحاق ، ويكون
نحساً كما يكون سعداً . ويكون ضراً كما يكون نفعاً ، ويُقرض

(١) ب ، م : « إلا بها » ، صوابها فى سائر النسخ .

(٢) ما عدا ميج ، ش : « فوك » .

(٣) ب فقط : « تنفوه » ، تحريف .

(٤) ط : « تبدأ به » ب : « تبدو به » م : « تبلو به » صوابه فى ميج ، ش .

(٥) التكلة من ميج ، ش .

(٦) العقد : ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين ، ويقال له حساب اليد أيضاً .
وفى الحديث أنه : « عقد عقد تسعين » . وقد ألفت فيه كتب وأراجيز . انظر الخرافة ٣ : ١٤٧
والحيوان ١ : ٣٣ والبيان ١ : ٧٦ .

(٧) بعنه فى ميج ، ش : « وأنت تجوز الغاية وتفوق النهاية » .

(٨) وهو : ساقطة من ب ، وبدلها فى ميج ، ش : « هو » بدون واو .

(٩) ويظهر ، ساقطة من ب ، م . والشخت : الدقيق الضئيل .

(١٠) ش : « ويجر غمر » . ط : « وفخم ذمر » : والذمر ، بالكسر : الشجاع ، والظروف

الليب المعوان . وأما الغمر : بالفتح ، فهو الواسع الخلق الكثير المعروف .

(١١) السرار : بكسر السين وفتحها : آخر ليلة فى الشهر ، وفيها يستتر القمر .

الكَتَّانُ ، وَيُشَجَّبُ الْأَلْوَانُ (١) . وَنِيحٌ فِيهِ اللَّحْمُ (٢) . وَأَنْتَ دَائِمٌ
الْيُمْنُ . ظَاهِرُ السَّعَادَةِ ، ثَابِتُ الْكَمَالِ ، شَائِعُ النَّفْعِ ، تَكْسُو مَنْ أَعْرَاهُ .
وَتُكَنَّ مِنْ أَشْجَبِهِ (٣) .

وَعَلَى أَنَّهُ مَحَقٌّ حُسْنَهُ الْمَحَاقِ (٤) . وَشَانَهُ الْكَلْفُ . وَلَيْسَ بِذِي
تَوْقُدٍ وَاشْتِعَالٍ ، وَلَا خَالِصٍ وَلَا مُتَلَأُّ ، وَيَعْلُوهُ بَرْدٌ (٥) وَيَكْسِفُهُ ظِلٌّ (٦) .
ثُمَّ لَا يُعْتَبَرُ ذَلِكَ إِلَّا عِنْدَ كَمَالِهِ . وَلَيْلَةٌ فَخْرُهُ وَاحْتِفَالُهُ .

وَكَثِيرًا مَا يَعْتَرِيهِ الضُّفَارُ (٧) مِنْ بُخَارِ الْبِحَارِ . وَأَنْتَ ظَاهِرُ
النَّمَامِ ، دَائِمُ الْكَمَالِ ، سَلِيمُ الْجَوْهَرِ ، كَرِيمُ الْعُنْصُرِ ، نَارِيُ التَّوَقُّدِ .
هُوَائِيُ الدَّهْنِ (٨) بَرِيُ اللَّوْنِ (٩) . رُوحَانِيُ الْبَدَنِ .

وَإِنْ احْتَجَبُوا عَلَيْكَ لَهُ بِالْجَزْرِ وَالْمُدِّ ، احْتَجَجْتَ عَلَيْهِمْ بِالْحِلْمِ
وَالْعِلْمِ ، وَبِأَنَّ طَاعَتَكَ اخْتِيَارٌ . وَطَاعَتُهُ طَبَاعٌ وَاضْطِرَارٌ (١٠) ، وَبِأَنَّ لَهُ سِيرَةَ

(١) لم أجد في المعاجم إلا: « شجب » اللازم . والشجوب : تغير اللون ، والمهزال .
(٢) نيم نيح بكسر عين المضارع وفتحها ، خأ وخوماً : أنتن . ط ، م : « ويختار » ، ووجه
هذه « يختار » بالنون والزاي ، خبز اللحم أيضاً : فسد وأنتن .
(٣) ما عدا مع ، ش : « شجبة » .
(٤) المحاق بفتح المير ومعناها : ليال ثلاث في آخر الشهر . ب ، م : « المحوق » ،
تحريف .

(٥) ش فقط : « يعلوه الغيم » .
(٦) ب ، م : « وتكسفه ظل » . وفي مع ، ش : « ويكسوه ظل الأرض » . والكسوف
والخسوف مشتركان بين الشمس والقمر ، وإن كان الخسوف في القمر أكثر والكسوف في
الشمس أغلب .

(٧) الصفار : بالضر : صفرة تعلو اللون والبشرة . اللسان (صفر ١٣٤) .
(٨) ما عدا مع ، ش : « هوأى الدهر » .
(٩) برى : مسهل برى ، وبرأة اللون : صفاؤه ونقاؤه . مع ، ش : « درى اللون »
(١٠) الطباع ، ككتاب ، والطبيع والطبيعة ، كلها بمعنى السجية يجبل عليها الإنسان وغيره
ط فقط : « طبع » . وانظر الحيوان ٢ : ١٣١ / ٤ : ٤٥٢ / ٥ : ٤٨ ورسائل الجاحظ

قد قُصِرَ عليها ، وَمَنَازِلٌ لَا يُجَاوِزُهَا ، وَلَا يُمَكِّنُهُ الْبَدَوَاتُ (١) ، وليس في قُوَاهُ فَضْلٌ لِلتَّصْرِفِ (٢)

على أَنَّ ضِيَاءَهُ مُسْتَعَارٌ مِنَ الشَّمْسِ ، وَضِيَاؤُكَ عَارِيَةٌ عِنْدَ جَمِيعِ الْخَلْقِ (٣) . وَكَمَ بَيْنَ الْمُعِيرِ وَالْمُسْتَعِيرِ ، وَالتَّبَيُّنِ وَالتَّحْيِيرِ ، وَبَيْنَ الْعَالَمِ وَمَا خَيْرَ فِيهِ .

تُعِيرُ نَسِيمَ الْهَوَاءِ طَيْباً (٤) ، وَتُرَابَ الْأَرْضِ عَبَقاً .

إِنْ تَفْتَيْتَ فَالرَّشَاقَةَ وَالْمِلْحَ (٥) ، وَإِنْ تَنْسَكْتَ فَالرَّهْبَانِيَةَ وَالْإِخْلَاصَ (٦) ، وَإِنْ تَرَزَنْتَ فَتَهْلَانُ ذُو الْهَضْبَاتِ مَا يَتَحَلَّلُ (٧) .

وَطِبَاعُكَ (٨) - جُعِلَتْ فِدَاكَ - طِبَاعُ الْخَمْرِ ، إِلَّا أَنْكَ حَلَالٌ كُلُّكَ . وَجَوْهْرُكَ جَوْهْرُ الذَّهَبِ إِلَّا أَنْكَ رُوحٌ كَمَا أَنْتَ . وَقَدْ حَوَيْتَ خِصَالَ الْبَاقِوتِ إِلَّا مَا زَادَكَ اللَّهُ ، وَأَخَذْتَ خِصَالَ الْمُشْتَرِي (٩) إِلَّا مَا فَضَّلَكَ اللَّهُ بِهِ ، وَجَمَعْتَ خِلَالَ الدَّرِّ إِلَّا مَا خُصِّصَتْ بِهِ دُونَهُ . فَلَمْ يَكُنْ مِنْ كُلِّ

(١) البدوات : جمع بداءة ، كما يقال قطة وقطوات . والبدوات : الآراء تظهر للمرء فيختار بعضاً ويسقط بعضاً . ط فقط : « البدار » . مع ، ش : « لا تمكنه » بالباء .

(٢) ما عدا مع ، ش : « وليس في قوله » ، تحريف . وفي ط أيضاً : « فضل لتعرف » .

(٣) أى يستعيره جميع الخلق ، لا ضياء لهم إلا منه .

(٤) ب ، م : « يعير » ط : « يعيره » ، وفيها جيماً : « الهوى » ، والوجه ما أثبت . والذي في مع ، ش : « فلا زالت الأرض بك مشرقة » ، والدنيا معمورة ، ومجالس الخير مأهولة ونسيم الهواء طيباً ، وتراب الأرض عباقاً .

(٥) ما عدا مع ، ش : « إن هبت » ، وفي ط فقط أيضاً : « فطرشاقة » .

(٦) ما عدا مع ، ش : « وإن تمكنت » .

(٧) ب : « يتحلل » ط : « يتخلخل » ، صوابه في سائر النسخ . يتحلل : يتحرك ويبرح مكانه . وهو ناظر إلى قول الفرزدق في ديوانه ٧١٧ :

فادفع بكفك إن أردت بنا منسا هُلان ذا الهضبات ، هل يتحلل

(٨) يعنى طبعك ، انظر ما سبق في حواشئ ص ٩١ .

(٩) يسميه النجمون السعد الأكبر ، لأنه فوق الزهرة في السعادة . وأضافوا إليه المعيرات الكثيرة والسعادة العظيمة . عجائب المخلوقات . ٢٥ .



شيء (١) صفوته وشرّفه ، ولبأبه وبهاؤه . وهل يصير القمر (٢) نباح

الكلب (٣) ، وهل يززع النحلة سقوط البعوضة ؟ ١

فأما القول في المزاح فقد بقي أكثره ومضى أقله .

وقد ذهب الناس في المزاح في مذاهب متضادة ، وسلّكوا منه في طرق مختلفة ، فزعم بعضهم أنّ جميع المزاح خيرٌ من جميع الجدّ ، وزعم آخرون أنّ الخير والشرّ عليهما مقسومان ، وأنّ الحمد والذمّ بينهما نصفان (٤) .

وسنأتي على جمل هذه الأقاويل ، ثم نذكر جملة ما نقول إن شاء الله .

فأما المحامي عن الهزل والمفضل للمزح فإنه قال :

أول ما أذكر من خصال الهزل ، ومن فضائل المزح ، أنه دليل على حسن الحال وفراغ البال ، وأنّ الجدّ لا يكون إلّا من فضل الحاجة ، والمزح لا يكون إلّا من فضل الغنى ، وأنّ الجدّ نصب (٥) ، والمزح جَمَام (٦) ، والجدّ مَبَغْضَةٌ والمزح محبة . وصاحب الجدّ (٧) في بلاه ما كان فيه ، وصاحب المزح في رخاؤه إلى أن يخرج منه .

(١) ب فقط : « في كل شيء » .

(٢) ب : « ينير القمر » م : « ينير القمر » ط : « ينير الفهد » صوابه في مع ، ش

والحيوان ١ : ١٣ .

(٣) مع ، ش والحيوان : « نباح الكلاب » .

(٤) م فقط : « نصفاً » .

(٥) ب : « وأن الغضب جد » م ، ط : « وأن النصب جد » ، صوابهما في مع ، ش .

(٦) الجمام ، كسحاب : الراحة .

(٧) ب ، م : « صاحب الجد » ، بدون واو .



والجدُّ مؤلمٌ وربما عرَّضَكَ لأشدَّ منه ، والمزح مُلذِّمٌ (١) وربما عرَّضَكَ
لألذَّ منه . فقد شاركه في التعريض للخير والشرِّ ، وبإيَّنه بتعجيل
الخير دون الشرِّ

ولمَّا تشاغَلَ الناسَ ليفرُّعوا (٢) ، وجدُّوا ليهزِّلوا ، كما تدلُّوا
ليعزُّوا ، وكذَّوا ليستريحوا ، وإنَّ كان المزاح إنَّما صار معيباً ، والهزلُ
مذموماً ، لأنَّ صاحبه لا يكون إلَّا معرضاً لمجاوزة الحدِّ ، ومُخاطراً عمدة
الصديق .

فالجدُّ داعيةٌ إلى الإفراط ، كما أنَّ المزاح داعيةٌ إلى مجاوزة القدر
والتجاوز للجدِّ (٣) قاطع (٤) بين الفريقين في جميع النوعين .

فقد ساواه المزح فيما هو له (٥) وبإيَّنه فيما ليس له . وإنَّ كان المزح
إنَّما صار قبيحاً لأنَّ الذي يكون بعده جدُّ ، [ولم يصِر الجِدُّ قبيحاً لأنَّ
الذي يكون بعده مزح (٦)] ، وكان (٧) الجِدُّ في هذا الوزن أقبح ،
وكان المزح (٨) على هذا التقدير أحسن ، لأنَّ ما جعل الشيء قبيحاً أقبحُ
من الشيء ، كما أنَّ ما جعل الشيء حسناً أحسنُ من الشيء .

فأمَّا الذي عدلَ بينهما فإنه زعمَ أنَّ المزاحَ في موضعه ، كالجدِّ في
موضعه ، كما أنَّ المنعَ في حقِّه كالبدلِّ في حقِّه .

(١) ط فقط : « مله » .

(٢) ط فقط : « ليفزعوا » .

(٣) ب ، م ، « والتجاوز للجدِّ » ط : « والتجاوز للجدِّ » ، صوابها في مج ، ش .

(٤) ما عدا مج ، ش : « قاطع » .

(٥) ب فقط : « فيما له » .

(٦) ما بين المقتفين ساقط من بيروني في مج ، ش : « لأنَّ الذي بعده المزح » .

(٧) ب ، م ، ط : « كان » بدون واو .

(٨) ما عدا مج ، ش : « وكان الوزن » ، تحريف .



قال^(١) : ولكلّ شيءٍ موضعٌ ، وليس شيءٌ يصلح في كلِّ موضعٍ .
وقد قسمَ الله تعالى الخيرةَ^(٢) على المعدلة ، وأجرى جميعَ الأمور إلى
غايةِ المصلحة ، وقسّط أجزاءَ الثوبة على العزيمة والرخصة^(٣) ، وعلى
الإعلان والتقية ، وأمر بالمداواة كما أمر بالمبادأة^(٤) . وجوزَ المعارضَ
كما أمر بالإفصاح ، وسوّغَ المُباحَ كما شدّدَ أمرَ المفروض^(٥) . وجعل
المُباحَ جَماماً للقلوب^(٦) ، وراحةً للأبدان ، وعوناً على معاودة الأعمال ،
فصار الإطلاَقُ كالْحَظْر ، والصَّبْرُ كالشُّكْر .

فليس للإنسان من الخيرة في الذكر شيءٌ إلا وله في النسيان مثله ،
ولا في الفطنة شيءٌ إلا وله في الغفلة مثله . ولا في السراء إلا وله في
الصَّراء مثله .

ولو لم يرزُقِ الله تعالى العبادَ إلا بالصَّوابِ محضاً ، وبالصدقِ
بَحْتاً^(٧) ، وبمِرِّ الحقِّ صفحاً^(٨) ، هلكتِ العوالمُ . ولانتقض^(٩) أمرُ
الخاصِّ .

(١) مع فقط : « فقال » .

(٢) مع فقط : « الخير » . والخيرة : الاختيار .

(٣) ط فقط : « وعلى الرخصة » .

(٤) المبادأة : المجاهرة . ط فقط : « بالمبادأة » بالهمزة ، تحريف

(٥) مع ، ش : « في المفروض » .

(٦) ما عدا مع ، فن : « وجعل الحمام » تحريف : والحمام ، كسحاب : الراحة . ب :

جماماً « م : « حمام » ، صوابه في سائر النسخ .

(٧) مع ، ش : « وبالصدق صرفاً » .

(٨) الصفح : البسط .

(٩) انتقض : انتكث . ب ، م : « ولا ينتقض » ط : « ولم ينتقض » ، ووجهها ما أثبت .

في مع ، ش : « وانقض » .



ولو ذَكَرَ الإنسانُ كُلَّ ما أنسيه^(١) ، ولو جَدَّ في كُلِّ شيءٍ
لانتكث^(٢) .

وقد يكون الذكر إلى الهلكة سلماً كما يكون النسيان للسلامة
سبباً . وسبيلُ المزاح والجِدُّ كسبيل المنع والبذل . وعلى ذلك يجري
جميعُ القَبْضِ والبسط .

فهذا وما قبله جُمْلُ أقاويلِ القوم .

ونحنُ نعوذ بالله أن نجعل المزاح في الجملة كالجدِّ في الجملة ،
بل نزعُم أن بعضَ المَزْحِ خيرٌ من بعضِ الجِدِّ ، وعامةُ الجِدِّ خيرٌ من
عامةِ الهزل . والحقُّ أن يُنْضَحَ^(٣) عن بعضِ المزح ، ويُحتَجُّ لجمهور
الجِدِّ^(٤) . وكيف لنا بدم^(٥) جميعِ المزح مع ما نحن ذاكرون .

وقد مَزَحَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم^(٦) . ولا يقال : كان فيه
مُزَاحٌ ، ولا يقال مَزَاحٌ^(٧) . وكذا الأثمةُ ومن تبدَّل^(٨) في بعضِ الحالاتِ
من أهلِ الجِلْمِ والوقار .

وقال عمر رضوان الله تعالى عليه : « إنا إذا خَلَوْنَا كُنْنَا كَأَحَدِكُمْ » .

وقد كان عمرُ عبوساً قطوباً .

(١) ط فقط : « أتيتيه » ، تحريف .

(٢) ما عدا مع ، ش : « ما لا تنكث » ، تحريف .

(٣) النضج : الدفاع والذب بالحجة . م : « ينضج » ط : « ينصح » ، محرفتان .

(٤) ط : « ويجنح » .

(٥) ط : « وكيف يتم لنا بدم م » : « وكيف لنا بدم » ، صوابها في سائر النسخ .

(٦) بعده ف ب ، ط : « وعط آله » .

(٧) ط فقط : « مزح » ، تحريف .

(٨) م ، ب ، م : « ومن تبدل لي » ، صوابه في ط . وفي مع ، ش : « ومن هزل » .



وكان زياد مع كلوحه وقطوبه^(١) ، يمازح أهله في الخلاء كما يجده

في الملا .

وكان الحجاج مع عتوه وطغيانه ، وتمرده وشدة سلطانه ، يمازح أزواجه ويرقص صبيانه . وقال له قائل^(٢) : أيمازح الأمير أهله ؟ قال : « والله إن تروني^(٣) إلا شيطاناً ؟ والله لربما رأيته رأيتني وإني لأقبل رجلاً لحداهن ! » .

فقد ذكرنا خير العالمين ، وجلّة من خيار المسلمين ، وجباراً عنيداً ، وكافراً لعيناً .

وبعد فمن حرم الميزاح وهو شعبة من شعب السهولة ، وفرغ من فروع الطلاقة . وقد أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة ، ولم يأتنا بالانقباض والقسوة ، وأمرنا بإفشاء السلام ، والبشر عند الملاقاة ، وأمرنا بالتواؤد^(٤) والتصافح والتهادي .

٧ - فصل

قد اعتذرتنا^(٥) في معصيتك والخلاف على محبتك مرةً بالميزاح ، ومرةً بالنسيان ، ومرةً بالاتكال على عفوك وعلى ما هو أولى بك .

(١) الكلوح : التكسر وبدو الأسنان في العبوس . والقطوب : تروى ما بين العينين عند العبوس . ب ، م : « وكان زياد معه كلوحه وقطوبه » ، ط : « وكان معه زيادة كلوحه وقطوبه » ، صوابهما في مع ، ش .

(٢) ب : « قايده » م ، ط : « قائد » ، صوابهما في مع ، ش . والقائل هذا هو عتية ابن سعيد ، كما سيأتي في الفصل الرابع من كتاب النساء .

(٣) كذا في جميع النسخ بخلاف إحدى النونين ، وهو جائز في العربية . وفي المعنى في باب النون : « ونحو تأمروني يجوز فيه الفك ، والإدغام ، والنطق بنون واحدة . وقد قرئ بهن في السبعة . وهى الأخريرة قبل النون الباقية نون الرفع ، وقيل نون الوقاية . وهو الصحيح » .

(٤) كذا بالفك في جميع النسخ ، و في مع فقط : « بالتزاور » .

(٥) ما عدا مع ، ش : « قد اعتدنا » .

والجملة^(١) أنا لو تعملنا ثم أصررنا ثم أنكرنا ، لكان في فضلك ما يتعمدنا^(٢) ، وفي كرمك ما يوجب التغافل عنا^(٣) . فكيف وإنما سهوونا ثم تذكرونا ، واعتذرنا ثم أطينبنا .

فإن تقبل^(٤) ، فحظك أصبت ، ولنفسك نظرت . وإن لم تقبل فاجهد جهدك^(٥) ، ولا أبقى الله عليك إن أبقيت ، ولا عفا عنك إن عفوت . وأقول كما قال أخو بني منقر^(٦) :

فما بقياً على تركتُماني ولكن خفتما صرد النبال^(٧)

والله لئن رميتني ببجيلة لأرمينك بكينانة ، ولئن نهضت بصالح بن علي لأنهضن بإسماعيل بن علي^(٨) ، ولئن ضللت علي بسليمان بن وهب^(٩) لأدمغتك بالحسن بن وهب ، ولئن تهت^(١٠) علي بمنادمة جعفر الخياط^(١١)

(١) مج ، ش : « وفي الجملة » .

(٢) ما عدا مج ، ش : « ما يتعمده » .

(٣) ما عدا مج ش : « التغافل عنه » .

(٤) ب ، م : « فلم تقبل » ، صوابه في سائر النسخ .

(٥) مج ، ش : « فاجهد جهدك ثم اجهد جهدك » .

(٦) هو العين المنقرى . الحيوان ١ : ٢٥٦ واللسان (صرد ٢٣٦ ، بقى ٨٦) .

(٧) البيت من أبيات يخاطب بها جريراً والفرزدق . والصرد : الإصابة ، والخطأ ، فهو من الأضداد . فعل الأول يراد : خفتما أن تصيب نبالى ، وعلى الثاني يراد : خفتما أن تخطفني نبالكما . والبقيا : الاسم من قولهم : أبقيت على فلان ، : إذا أزعجت عليه ورحته .

(٨) مج ، ش : « بأحمد بن خلف وإسماعيل بن علي . وإسماعيل هو ابن علي بن عبد الله ابن العباس . وهو عم السفاح والمنصور . ولأبي جعفر فارس والبصرة . المعارف ١٦٣ والطبرى ٨ : ٨٥ .

(٩) ابن وهب ساقطة من ب .

(١٠) ب ، م : « هت » ، صوابه في سائر النسخ .

(١١) هو جعفر بن دينار الخياط ، أحد قواد المأمون والمتصم والمستعين والواثق والمتوكل . وجهه المأمون سنة ٢١٥ إلى صاحب حصن سنان في حرب الروم . كما وجهه المتصم سنة ٢٢٢ إلى الأفضين مدداً له . الطبرى ٨ : ٦٢٣ و ٩ : ٢٩ .



لَأَيِّهِنَّ (١) عليك بحسبة (٢) وهب الدلال (٣) .
وأنا أرى لك أن تقبل العافية ، وترغب إلى الله تعالى في السلامة .
واحذر البغي فإن مصرعَه وخيم ، واتقِ الظلم فإن مرعاه وبيل .
وياك أن تتعرض لجريز إذا هجا ، وللفرزدق إذا فخر ، ولهرقمة
إذا دبّر (٤) ، ولقيس بن زهير إذا مكر (٥) ، وللأغلب إذا كر (٦) ،
ولطاهر إذا صال (٧) . ومن عرف قدره عرف قدر خصمه ، ومن جهل
نفسه لم يعرف قدر غيره .
وعليك بالجادّة ودع البنيات (٨) فإن ذلك أمثل لك .

- (١) ما عدا مع ، ش : « لأيهن » .
(٢) ب : « بحسبة » . تحريف ما أثبت من م ، ط . والحسبة : الاكتفاء ، والمراد بكفائته لى . وفي مع مع تصحيح : « بمجالسة » ، وفي ش : « بحسبة » .
(٣) في البيان ٤ : ١٣ من يدعى وهبا المحتسب .
(٤) هرثمة بن أعين : قائد عباسي ، ولاء الرشيد مصر ثم أفريقية ، ثم عقد له على خراسان ثم قاد الجيوش المأمون أيام الفتنة ، تم حبسه حتى مات سنة ٢٠٠ . النجوم الزاهرة والطبري في حوادث سنة ٢٠٠ .
(٥) قيس بن زهير سيد بني عيس ، وكان يقال فيه « أدهى من قيس بن زهير » . جهمرة العسكري ١ : ٥٤٧ والميداني ١ : ٢٥٠ والمستقصى ١ : ١٢١ .
(٦) الأغلب بن جشم بن سعد بن عجل بن لجم ، العجلي ، وهو أحد المعمرين ، عمر في الجاهلية عمراً طويلاً ، وأدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه وهاجر ، ثم كان فيمن توجه إلى الكوفة مع سعد بن أبي وقاص ، فنزلها واستشهد في وقعة نهاوند ، فقبره هناك في قبور الشهداء . وانظر أخباره في الأغاني ١٨ : ١٦٤ - ١٦٧٩ والشعراء ٥٩٥ .
(٧) طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن حنزة الرستمي ، من ولد رسم بن دستان وهم موالى خزاعة في الإسلام وإليهم ينتمون ، وقد نديه المأمون اللقاء على بن عيسى بن ماهان قائد الأمين ، فهزم جيشه وفض جموعه سنة ١٩٥ فحينئذ سلم على المأمون بإمرة المؤمنين ، وسمى طاهر ذا اليمينين ، لأن المأمون كتب إليه لما فرغ من أمر الخلويع : يا أبا الطيب ، يمينك يمين أمير المؤمنين ، وشمالك يمين فبايع بيمينك يمين أمير المؤمنين . التنبيه والإشراف ٣٠٠ - ٣٠١ وثمار القلوب ٢٩١ .
(٨) البنيات : جمع بنية ، تصغير ابنة . وبنيات الطريق ، هي الصعاب والمعاسف . يقال للرجل في الوعظ : الزم الجادة ودع بنيات الطريق . وقال محمود الوراق :
تنكب بنيات الطريق وجورها فانك في الدنيا غريب مسافر
ثمار القلوب ٢٧٨ . وفي اللسان (بنى ٩٨) أن بنيات الطريق هي الطرق الضعيفات تشعب من الجادة ، وتسمى أيضاً الترهات .

وأنت - والله يا أختي - تعلم علم الاضطراب وعلم الاختيار وعلم الأخبار ،
 أنتي (١) أظهرُ منك حرباً ، وأطف كيداً ، وأكثر علماً ، وأوزن جليماً ،
 وأخف روحاً ، وأكرم عيناً ، وأقل غشاً (٢) وأحسن قداً وأبعد غوراً ،
 وأجمل وجهاً ، وأنصح ظرفاً (٣) . وأكثر ملحاً (٤) ، وأنطق لساناً
 وأحسن بياناً ، وأجهر جَهارةً ، وأحسن شارةً (٥) .

وأنت رجل تشدو من العلم ، وتنف من الأخبار (٦) ، وتموه نفسك (٧) ،
 وتيز من قدرك ، وتهيم بالثياب ، وتتنبل بالمراكب ، وتتحبب بحسن
 اللقاء (٨) ، ليس عندك إلا ذاك . فلم تزاجم البحر بالجدول (٩) ،
 والأجسام بالأعراض ، وما لا يتناهى بالجزء الذى لا يتجزأ .

فأما الباد والقامة (١٠) ، فمن يعدل بين القناة والكرة ، ومن يميل
 بين النحلة والدقل (١١) ، وبين رحي الطحان وبين سيف يمان . وإنما
 يكون التمثيل (١٢) بين أتم الخيرين وأنقص الشرين ، وبين المتقاربين

(١) ب ، م : « أى » ، صوابه في سائر النسخ .

(٢) الغث : الردىء من كل شيء . ب : « غشا » ش : « عيبا » ، وأثبت ما في سائر النسخ .

(٣) الناصع : الخالص الواضح . ط فقط : « طرفا » .

(٤) الملع ، بالكسر : الحسن . يقال ملح يملح ملحوة وملاحة وملحاً ، أى حسن .

(٥) الشارة : الحسن والهينة واللباس . ط ، م ، ش : « إشارة » .

(٦) التنف : الانتزاع . ويقال رجل تنف ، يقسم فتحة ، ينتف من العلم شيئاً ولا يستقصيه .

(٧) أصل التمويه الطلاء بالذهب أو بالفضة .

(٨) ما عدا م ، ش : « لحسن القا » .

(٩) ما عدا م : « البحر بالجدول » . والجدول بفتح الجيم وكسرهما : النهر الصغير ،

(١٠) الباد : أصل الفخذ . ب ، م : « فامك الباد والعامه » ط : « فإنك الباد والعامه »

صوابها في م ، ش .

(١١) ما عدا ب : « يثل » . والتمثيل بين الشيتين : الموازنة بينهما . وانظر الحيوان ٢ : ٩٨ ،

١٥١ واللسان (ميل ١٦٠) . ب ، م : « النحلة » ، صوابه في سائر النسخ . والدقل : ضرب

من النخل ردىء اتمر . ب ، م : « والدكل » ط : « والدكل » ، صوابها في م ، ش .

(١٢) في جميع النسخ : « التمثيل » ، والوجه ما أثبت .

دونَ المتفاوتين . فإمَّا الحَلُّ والعَسَلُ ، والحَصَاةُ والجَبَلُ ، والسَّمُّ والغِذَاءُ ، والفقرُ والغنى ^(١) ، فهذا مما لا يَحْطَأُ فيه الذَّهْنُ ^(٢) ولا يَكْذِبُ فيه الحِجْسُ .

والخطأُ ثلاث : خطأ الحِجْسِ ، وخطأ الوَهْمِ ، وخطأ الرأى . كل ذلك سبيله التنبيه والتذكير ^(٣) ، والتقويم والتأنيب ^(٤) .

والعمدُ نوعٌ واحد ، وسبيلُه القَمْعُ والحَظْرُ ، والضَّرْبُ والقتل . وأوَّلُ ذلك أن يهجره صاحبُ الحكمة ^(٥) ، ولا يُطمعه في وعظٍ ولا مجالسة .

وقد رأيتُ مَنْ يعاند الحقَّ إذا كانت المعرفة عياناً . وأنت لا ترضى بجحد العيان ^(٦) حتى تدعوَ إليه ، ولا ترضى بالدُّعاءِ إليه حتى تعادى فيه ، ولا ترضى بالعداوة حتى يكون لك في ذلك الرياسة ^(٧) ، ولا ترضى بالرياسة دون السابقة ^(٨) ، ولا بالطَّارف دون التَّالِد ، ولا بالتَّالِد دون الأعراف التي تسرى ، والمواليد التي تنمي . ولا ترضى بأن يكون أوَّلًا حتى تكون آخرًا ^(٩) ، ولا بالمدارة دون المباداة ^(١٠) ،

(١) ب فقط : « والغنا » .

(٢) هذا ما في ب . يقال خطيُّ يخطأ خطأ ، من باب فرح . م ، ط : « يخطى » سهل

أخطأ يخطئ . وفي مج ، ش : « يخطئ » .

(٣) م فقط : « التثنية » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « والتأنيث » ، صوابه في سائر النسخ .

(٥) ش فقط : « أن يهجره صاحب الحكمة » .

(٦) ما عدا مج ، ش : « بحجة العيان » .

(٧) مج ، ش : « لك فيه الرياسة » ، وأثبت ما في م ، ب . وفي ط : « لك الرسالة »

وهذه محرفة .

(٨) كلمة « دون » ساقطة من ط . والسابقة : السبق والتقدم .

(٩) ب : « ولا يرضى بأن يكون أوَّلًا حتى يكون آخرًا » . ومثله في م مع البدء بقوله : « ولا يرضى » . مج ، ش ، ط : « ولا ترضى بأن تكون أوَّلًا حتى تكون آخرًا » . ولعل الوجه ما أثبت .

(١٠) المباداة : المجاهرة كما سبق في

ولا بالجدال دون القتال . وحتّى ترى أنّ التقيّة حرام^(١) وأنّ التقصير كُفْر .

وحتّى لو كنت إمامَ الرافضة لقتلتَ في طرفه^(٢) ولو قُتلتَ في طرفه^(٣) هلكت الأُمة، لأنك رجلٌ لا عقيبَ لك . والإمامة^(٤) لا تصلح اليوم^(٥) في الإخوة، ولو صلحت في الإخوة^(٦) كانت تصلحُ في ابن العمّ، ثمّ دنت من الأرحام شيئاً^(٧) فصارت لا تصلحُ إلّا في الولد . وفي هذا القياسِ أنّها بعد أعوامٍ لا تصلحُ^(٨) إلّا ببقاء الإمام نفسه إلى آخر الأبد . وهذا هو علّة أصحاب التناسخ^(٩) . وأنت رافضىٌ ولم يكن هذا عندك .

فأهدِ إلى الآن من خالص التوتيا^(١٠) كما أهديت إليك باب التناسخ .

وأنت ترى القتلَ في حقّ المعاندة شهادةً ، وترى أنّ مُباينةً

-
- (١) التقيّة : أن يظهر أمراً وباطنه بخلاف الظاهر ، يفعل ذلك اتقاء .
 (٢) ب : « لو قُلت في طرفه » م : « لو قُلت في طرفه » ط : « وكنت في طرف »
 والصواب من مع ، ش . والمراد طرفه عين .
 (٣) التكلّة من مع ، ش .
 (٤) ب : « والإمامة » م : « والإمامة » ، والصواب في سائر النسخ .
 (٥) التكلّة من مع ، ش .
 (٦) مع ، ش : « ثمّ إنها دنت من الأرحام بعد ذلك » .
 (٧) ب ، م فقط : « لا يصلح » ، تحريف .
 (٨) مع ، ش : « المناسخة » .
 (٩) ب ، م : « فاهد الآن الآن من خالبن التوتيا » ط : « فاهد الآن من لبن التوتيا » صوابهما في مع ، ش . وفي اللسان : « التوتيا » معروف حجر يكتحل به . وهو باللاتينية : (Tutia) وبالإنجليزية : (Tutty) . وقد عرفها الطبيب محمد شرف بأنها أكسيد الزنك غير النقي . قال داود : « وأصل التوتيا إما معدني يوجد فوق الأقليميا ... وإما مصنوع من الأقليميا المسحوقه » .

المنصفين في تعظيم العُتود سعادة ^(١) ، وأنَّ الرِّياسة في دَفْعِ الحَقائِقِ
مُرْتَبية ، وأنَّ الإِقْرار بما يَظْهَرُ لِلعيون لِيُصْعَقَ ^(٢) ، وأنَّ الشُّهرة ^(٣) بالمغالبة
رِفعة .

أَظْهَرُ القومِ عِنْدَكَ حِجَّةً أَرْفَعُهُمْ صَوْتاً ، [وَأَخْلَقُهُمْ ^(٤)] لِلتَّوْبَةِ
أَصْلِبُهُمْ وَجْهاً ، وَأَحْسَنُهُمْ تَقِيَّةً أَقْلُهُمْ تَحَرُّجاً ^(٥) ، وَأَحْسَنُهُمْ إِنْصَافاً
أَشَدَّهُمْ شَغْباً .

تَعَشَّقُ المَتهوِّرُ ^(٦) ، وَتَكْلُفُ بِالْجَمُوحِ ، وَتُصَافِي الرِّوَاحَ . وَالْأَدِيبُ
عِنْدَكَ مَن يَعيِبُ أَحاديثَ الجِلساءِ ، وَاعْتَرَضَ ^(٧) عَلَى نَوادرِ الإِخْوانِ ،
وَغَمَزَ فِي قِفا النَّدِيمِ ^(٨) ، وَنَصَبَ لِلعالِمِ ، وَأَبْغَضَ العَاقِلِ ^(٩) ، وَاسْتَثْقَلَ
الظَّرِيفِ ، وَحَسَدَ عَلَى كُلِّ نِعمَةٍ ، وَأَنْكَرَ كُلَّ حَقِيقَةٍ .

جُعِلَتْ فِداكَ . إِنَّمَا أُخْرِجُكَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ ^(١٠) ، وَأُورِدُ عَلَيْكَ
البابَ بَعْدَ البابِ ، [لِأَنَّ ^(١١)] مِنْ شَأْنِ النَّاسِ مَلالَةٌ الكَثيرِ ، وَاسْتِثْقَالَ
الطَّويلِ وَإِنْ كَثُرَتْ مَحاسِنُهُ وَجَمَّتْ فَوائِدُهُ . وَإِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ
اسْتِطْرافُكَ لِلآتِي ^(١٢) قَبْلَ أَنْ يَنْقُضِيَ اسْتِطْرافُكَ لِلماضِي ؛ وَلِأَنَّكَ مَتَى

(١) العتود ، بالضم : الميل والجور عن القصد . ما عدا مع ، ش : « العمود » .

(٢) ما عدا مع ، ش : « بما يظهر العيون » وفي م أيضاً : « صفة » ، تحريف .

(٣) ما عدا مع ، ش : « الشهوة » ، تحريف .

(٤) التكلة من مع ، ش .

(٥) ما عدا مع ، ش : « وأحسنهم بنية أقلهم خرجاً » ، تحريف .

(٦) مع : « المتهود » ، تحريف .

(٧) ب ، م : « وأعرض » ، صوابه في سائر النسخ .

(٨) كناية عن الغيبة . والغمز : الغيب .

(٩) ب ، م : « للمائل » ، صوابه في سائر النسخ .

(١٠) م ، ط : « من موسى إلى شيء » ، تحريف .

(١١) التكلة من مع ، ش .

(١٢) مع ، ش : « التالى » .

كنت للشئ متوقّعا ، وله منتظرا^(١) ، كان أخطى^(٢) لما يَرُدُّ عليك ،
وأشهى لما يَهْدَى إليك . وكلُّ منتظرٍ معظّم ، وكلُّ مأمولٍ مكرّم .

كلُّ ذلك^(٣) رغبةٌ في الفائدة ، وصِبايةٌ بالعلم ، وكلّفًا بالاقتباس ،
وشحًا على نصيبى منك ، وضنًا بما أوّملهُ عندك ، ومدارةٌ لطباعك ،
واستزادةٌ من نشاطك . ولأنّك على كلِّ حالٍ بشرٌ ، ولأنّك مُتناهى
القوّة مدبّر .

٨ - فصل

والعقل - حفظك الله - أطولُ رقدة من العين^(٤) ، وأحوج إلى
الشحذ من السيف^(٥) ، وأفقر إلى التعاهد ، وأسرع إلى التغير ،
وأدواؤه أقتل ، وأطبأؤه أقل . فمن تداركه قبل التّفاقم أدرك أكثر
حاجته ، ومن رامه بعد التّفاقم لم يدرك^(٦) شيئا من حاجته .

ومن أكبر أسباب العلم كثرةُ الخواطر ، ثمّ معرفةُ وجوه المطالب .
[ثم^(٧) في الخواطر الغثّ والسّمين ، والفاسدُ والصّحيح ، والمسرّعُ
إليك والبطيءُ عنك ، والدّقيق الذى لا يكاد يُفهم ، والجليل الذى
لا يلقى الفهم . ثم هي على طبقاتها فى التقديم والتأخير ، وعلى منازلها
فى التّباین [والتمييز^(٨)] .

(١) مع ، ش : « منتظرا وله متوقّعا » .

(٢) م فقط : « أخطأ » ، بحرف .

(٣) ط : « وذلك » .

(٤) ب فقط : « رقدة من العين » .

(٥) ما عدا مع ، ش : « من الشيب » ، تحريف .

(٦) ب ، م : « ولم يدرك » . والواو مقحمة .

(٧) التكلّة من مع ، ش .

(٨) التكلّة من مع ، ش .

وللمطالِب طُرُق ، ولدَرَكَ الحقائق أبواب ؛ فَمَنْ أخطأها وانتظر^(١) كان أسوأ حالاً مَنْ لم يخطئها ولم ينتظر^(٢) . وعلى قدر صحّة العقل يصحُّ الخاطر ، وعلى قدر التفرُّغ يكون التنبُّه .

هذا^(٣) جماعُ هذا الكتابِ وجمهرته ، وأقسامه وجملته .

ثمَّ من أنفع أسبابه الحِفظُ لما قد حُصِّل ، والتقييد لما وُرد ، والانتظار لما لم يرد^(٤) ، وأن لا تُخَلِّيَ نفسك من الفِكرةِ إلاَّ بقدر جَمَامِ الطَّبِيعَةِ ، وأن تعلم أن مكان الدُّرس من الحِفظ كمكان الحِفظ من العلم ، وأن تعرفَ فضل^(٥) ما بين طَلَبِ العلم للمناقسةِ والشُّهرة^(٦) ، وبين طلبه للرغبة والرَّهبة ، وتعلم أن العلم لا يوجد بمكنونه ، ولا يسمح بسرِّه ومخزونه ، إلاَّ لمن رَغِبَ فيه لكرم عُنُصُرِهِ ، وفضَّله لحقيقتِهِ جوهره ، ورَفَعَهُ عن التكبُّبِ ، وصانَهُ عن التبدُّلِ . وأنه لا يُعطيك خالصَ الحِكمةِ حتَّى تُعطيَهُ خالصَ المحبَّةِ . كان يُقال : « مَنْ شابَّ شيبَ له^(٧) » .

وخَصَلَةُ يَنْبَغِي أَنْ تَعْرِفَهَا وَتَقِفَ عِنْدَهَا^(٨) ، وهو أن تبدأ من العلم

(١) ما عدا مج ، ش : « ونظر » .

(٢) ما عدا مج ، ش : « ولم ينظر » .

(٣) مج ، ش : « هذه » . وجماع كل شيء : مجتمع أصله ، والجامع للأشياء الشامل ما فيها

(٤) ب : « وانتظار كما لم يرد » ، صوابه في م ، ط . وفي مج ، ش : « والانتظار

لما يرد » .

(٥) الفصل : الفرق . ما عدا مج ، ش : « فضل » .

(٦) ما عدا مج ، ش : « للمناسبة والشُّهرة » . وفي مج ، ش : « للمنافسة والشُّهرة »

والوجه ما أثبت .

(٧) الشوب : الخللط .

(٨) م : « وخصلة ينبغي أن يعرفها ويقف عندها وهو أن يبدأ من العلم بالمهم ويختار

.. إلخ ، تحريف . وفي مج ، ش : « وخصلة ينبغي أن تعرفها وتصطنعها وتذكروها وتقف

عندها » .

بالمهم ، وتختار من صنوفه ما أنت أنشط له ^(١) ، والطبيعة به أعنى ؛ فإنَّ القبول ^(٢) على قدر النشاط ، والبلوغ فيه على قدر العناية .

ثمَّ من أفضل أسبابه تخليص أخلاقه ^(٣) ، وتمييز أجناسه ، والمعرفة بأقذاره ، حتى تُعطى كلَّ معنى حقّه من التقريب والرِّفعة ^(٤) ، وقسطه من الإبعاد والضَّعة ، حتى لا يتشاغل ^(٥) إلاَّ بالسَّمين الثمين ، وبالخطير النفيس ، ولا تُلقي إلاَّ اللَّغث الخسيس ، والحقير السخيف . فإنك متى كنت كذلك لم تعبيرَ فضل ^(٦) ما بين النظَّرين ، ولا صرَّف ما بين النُّعتين ^(٧) .

الكيسُ كلُّ الكيس ، والحذقُ كلُّ الحذق : أن لا تعجَلَ ولا تبطئ ، وأن تعلم أنَّ السرعة غير العجَلة ، وأنَّ الأناةَ خلاف الإبطاء . وأن تكون على يقين من دَرَكَ الحقِّ إذا وقَّيته شرطه ^(٨) ، وعلى ثقةٍ من فَوَابِ النَّظَرِ إذا أعطيته حقّه .

هذا ^(٩) جملةٌ ما للُغْذَرِ في هذه المسألة ، وجملةُ الحُجَّةِ فيما قدَّمنا من الافتنان والإطالة . فإنَّ كُنَّا أصبنا فالصَّوابُ أردنا ، وإنَّ كُنَّا أخطأنا فما ذاك عن فسادٍ من الضمير ، ولا قِلَّةِ احتفالٍ بالتقصير . ولعلَّ طبيعةً

(١) ما عدا مج ، ش : « ما أنت أبسط له » .

(٢) ما عدا مج ، ش : « فإنَّ القول » ، تحريف .

(٣) ما عدا مج ، ش : « تلخيص » . والتلخيص : التبيين والشرح .

(٤) ما عدا مج ، ش : « حتى يعطى كل معنى حقّه من التقرب والرِّفعة » .

(٥) ما عدا مج ، ش : « حتى لا يتشاغل » .

(٦) ش : « لم تميز فضل » ، مج : « لم تميز فضل » .

(٧) ط ، مج ، ش : « ولا فرق ما بين النعتين » . والصرف : الزيادة والفضل .

(٨) ب فقط : « أوفيته » .

(٩) مج ، ش : « هذه » .



خانث ، أو لعلَّ عادةً جذبت^(١) ، أو لعلَّ سهواً اعتراض ، أو لعلَّ شُغلاً منَع .

خفَّضَ عليك أيُّها السامع ، فإنَّ الخطأَ كثيرَ عام^(٢) ، وغالبٌ مُستَوَلٍ ، والصَّوابُ قليلٌ خاصٌّ ، ومقموعٌ مُستخفٍ .

فوجَّه اللائمةَ إلى أهلها ، وألزمها مَنْ هو أحقُّ بها ، فإنَّهُم كثيرٌ ومكانهم مشهور^(٣) .

اعجبُ من الصَّوابِ لا تعجبُ من الخطأِ . اعجبُ من أنَّ العجبَ قد ذهب . اعجبُ ممن تعجبَ وفيه العَجَبُ أعجب . وكيف التعجبُ والأُمور كُلُّها عَجَبٌ^(٤) !؟

كنت^(٥) أتعجبُ من كلِّ فعلٍ خرج من العادة ، فلما^(٦) خرجت الأفعالُ بأسرها من العادة صارت^(٧) بأسرها عجباً ، فبدخولِ كُلِّها في باب العَجَبِ خرجتُ بأجملها من باب العَجَبِ .

وقد ذكر^(٨) اللهُ تعالى ذكره العَجَبَ في كتابه جلَّ جلاله . وقد تعجبَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وعلى آله في زمانه ، وفي الناس

(١) مع ، ش : « أو لعلَّ علة حدثت » .

(٢) ما عدا مع ، ش : « كبير عام » ، تحريف .

(٣) ما عدا مع ، ش : « ومكانك مشهور » .

(٤) هذه الفقرة كلها ليست في مع ، ش . وهي نص ما في م ، ط . لكن في ب : « أعجب

الصواب لا تعجب وفيه العجب أعجب . وكيف التعجب والأُمور كلها عجب » .

(٥) ما عدا مع ، ش : « كيف » .

(٦) ما عدا مع ، ش : « كما » .

(٧) من العادة ، ساقتة من ط . وفي ب ، م : « سارت » ، وفي ط : « وسارت » ،

تحريف .

(٨) ما عدا مع ، ش : « وقد ذكرنا » ، تحريف .

يومئذ الناقص والوافر، والشوب والخالص، والمستقيم والمعوج. وقال الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾^(١)، وقال له^(٢): ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾^(٣).

واعلم أنه لم يبق من المتعجب الفاتك^(٤) إلا نصيب اللسان، ولا من المستمع الفاتك^(٥) إلا حصة السمع. فأما القلوب فخاوية قاسية، وراكدة خامدة، لا تسمع داعياً ولا تجيب سائلاً، قد أغفلها سوء العادة^(٦)، واستولى عليها سلطان السكر^(٧).

فدع عنك ما لست مثله^(٨)، فإن فيما أورده عليك شغلاً شاغلاً^(٩)، وهماً داخلاً.

اعلم أن الله تعالى قد مسخ الدنيا بحذاقها، وسكخها من جميع معانيها. ولو مسخها كما مسخ بعض المشركين قردة، أو كما مسخ بعض الأمم خنزير، لكان قد بقى بعض أمورها، وحبس عليها بعض أعراضها، كبقية ما مع القرد في ظاهره^(١٠) من شبه الآدمي، وبقية ما مع الخنزير

(١) الآية ٥ من سورة الرعد.

(٢) له، ساقطة من مع، ش، ط.

(٣) الآية ١٢ من سورة الصافات.

(٤) الفاتك: كل من يهجم على الأمور العظام غير مبال بما يفعل، وأصل الفتك القتل

مجاهرة. ما عدا مع، ش: «القاتل».

(٥) ما عدا مع، ش: «القاتل».

(٦) أغفلها: جعلها غافلة.

(٧) السكر: حالة بين العقل وعدمه، وغلبة اللذة على الشباب. ما عدا مع، ش

«السكر».

(٨) مع، ش: «ما لست منه».

(٩) ما عدا مع، ش: «وعليك شغلاً شاغلاً»، تحريف.

(١٠) ب، م: «في ظاهره»، تحريف.



في باطنه من شبه البشري^(١) . لكنه جل ذكره مسح الدنيا مسحاً
متبَعاً ، ومُستقصى مستفراً ، فَبَيَّنَ حَالِهَا^(٢) جميع التضاد ، وبين
مَعْنِيَّهَا^(٣) غاية الخلاف .

فالصوابُ اليومَ غريب ، وصاحبه مجهول . والعجب ممن^(٤)
يصبب وهو مغمور ، ويقول وهو ممنوع ، فإن صرتَ عليه عوناً مع
الزَّمان قتلته ، وإن أمسكت عنه فقد وفرته^(٥) .

ولسنا نريد منك النصرة ولا المعونة ، ولا التأنيس ولا التعزية^(٦) .
وكيف أطلب منك ما قد انقطع سببه ، واجتث أصله . وقد كان يقال :
« مَنْ طلب عيباً وجدَه » .

هذا في الدهر الصالح دون الفاسد . فإن أنصفتَ فقد أغربت ،
وإن جرتَ فلم تعد ما عليه الزَّمان .

وهبَ الله لنا ولك الإيناص ، وأعادنا وإياك من الظلم . والحمد لله
كما هو أهله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(٧) .

وصلى الله على سيدنا محمد خاصة ، وعلى أنبيائه عامة ، وسلّم .

(١) م ، ط : « الهشر » .

(٢) ما عدا مج ، ش : « حالهما » .

(٣) ما عدا مج ، ش : « معنيهما » .

(٤) ما عدا مج ، ش : « من » .

(٥) مج ، ش : « رفته » .

(٦) م : « ولا التأنيث ولا التفرية » ، تحريف .

(٧) العلي العظيم ، من ب فقط . وبدل هذا في كل من مج ، ش : « وهو حسبنا ونعم

الوكيل والمعين » ، كما أن هبارة الصلاة والتسليم التالية ليست فيها .

وقف الأمير غازي للفكر القرآني
A 1977
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT
Est. 2012 CE





٤

من رسالة
مدح النبيذ وصفة أصحابه
إلى الحسن بن وهب

وقف أمير غازي للفكر القرآني
A 1977
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT
Est. 2012 CE





من صدر رسالته إلى الحسن بن وهب (١)

في مدح التبيذ وصفة أصحابه

أنا - أبقاك الله - الطالبُ المشغول ، والقائلُ المعذور ، فإن رأيتَ خطأً فلا تنكر فإنِّي بصدده وبعرضٍ منه ، بل في الحال التي تُوجبه (٢) ، والسببُ الذي يؤدِّي إليه . وإن سمعتَ تسديداً فهو الغريب الذي لا نجاهه (٣) . اللهم إلا أن يكون من بركة مكاتبتك ، ويمن مطالبتك . ولأنَّ ذكرك يشحذُ الذهن ، ويصورُك في الوهم ، ويجلو العقل ؛ وتأميلك ينفي الشغل .

ولا يُعجبني ما رأيتُ من قلة إطنابك (٤) في هذا التبيذ ، وقلة تلهيكَ بهذا الشرابِ وأنت تجد من فضل القول وحسن الوصف مالا يُصاب عند خطيبٍ ، ولا يُوجدُ عند بليغ . وأنت ولو مشيتَ الخيلاء ، وحقرت العظماء ، وأرغبت الشعراء ، وأعطيت الخطباء ، ليكون القولُ منهم موصولاً غير مقطوع ، ومبسوطاً غير مقصور ، لكنك بعدُ مقصراً في أمره ، مفرطاً في واجبِ حقِّه . فلا تأديبَ اللهُ قبيلتَ ، ولا قولَ الناصح سَمِعَت .

(١) الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين ، كاتب شاعر ، كان معاصراً لأبي تمام والبحتري ، ومحمد بن عبد الملك الزيات . وقد رثاه البحتري بعد وفاته ، فوات الوفيات ١ : ٢٦٧-٢٦٩ . وفي سنة ٢٢٩ يذكر الطبري أن الخليفة الواثق ألزمه فيمن ألزمهم من الكتاب أن يؤدي أربعة عشر ألف دينار ، كما ألزم أخاه سليمان بن وهب كاتب إيتاخ أن يؤدي أربعمئة ألف دينار .

(٢) ب : « يوجبه » ، صوابه في م ، ط .

(٣) ط : « لا تجده » بالناء .

(٤) الإطناب : المبالغة في المدح أو الذم . والمطنب : المداح لكل أحد . ب : « أظناك »

تحريف ، وفيها أيضاً : « ولم يعجبني » .

قال الله تبارك وتعالى (١) : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (٢) . وقال الأول : « استديم النعمة بإظهارها ، واستزِد الواهب بإدامة شكره (٣) » .

بل كيف أنست بالجلساء (٤) ، وأرسلت إلى الأطباء ولم يكن في قربك [منه] (٥) ما يغنيك ، وفي النظر إليه ما يشفيك ؟ ولم ملكت نفسك دون أن تهدي (٦) ، ولم رأيت الوقار مروءة قبل أن تستخف (٧) ولم كان الهذيان هو الهذيان ، والسُخف هو المروءة ، والتناقض هو الصِّحة وإلا بأي شيء خصصت (٨) ، وبأي معنى أتيت ، (٩) ولم لم تخلع فيه العذار ، ولم تخرج فيه عن كل مقدار (١٠) .

وأى شيء أجرب جلدك وأمات حالك ، وأضعف مسرتك (١١) ، وأوحش منك رفيقك ، إلا العقوبة المحضنة ، وإلا الغضب والعقاب ، وحرمك الثواب إلا التهاون في أمره ، وقلة الرعاية لحقه .

وكيف صارت أمراض الأغنياء وأمراضك أمراض الفقراء إلا لمعرفة بفضله ، واستخفافك بقدره . ألا ترى أنني منقرس مفلوج ، وأنت أجرب مبسور (١٢) .

(١) بدله في ط : « سمعت قول الله تبارك وتعالى » بتكرار « سمعت » .

(٢) الآية ١١ من سورة الفصحى .

(٣) ط : « المواهب بإدامة شكرها » .

(٤) ب ، م : « أنست بالجلساء » ، تحريف .

(٥) التكلة من م .

(٦) ب ، م : « أن تهدي » بالبدال المهمله .

(٧) ب : « تستخف » .

(٨) ب ، م : « خصصته » .

(٩) ب ، م : « أتيت » .

(١٠) ب ، م : « من كل مقدار » .

(١١) ب ، م : « وضعف مسرتك » .

(١٢) المبسور : من به البواسير . والباسور : علة تحدث في الممتدة . وفي جميع النسخ :

« مبسور » ، ولا وجه له .

فَإِنْ تَبَيَّنَ فَمَا أَقْرَبَ الْفَرَجَ ، وَأَسْرَعَ الْإِجَابَةَ . وَسَفَرُكَ لَكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَرِيباً ، وَتَفْلِحَ سَرِيعاً .

وإن أصررتَ وتتابعتِ وتماديتِ^(١) أتاكِ اللهُ من سَفِلةِ الأدواءِ ، وَزُوِيَ عَنْكَ من عِلِيَّةِ الأمراضِ ، ما يَضَعُكَ موضِعاً لا ارتِفَاعَ معه ، وَيُلْزِقُ بِعَقَبِكَ عاراً لا زوالَ له . ثم تَتَّبِعُ أشياخَكَ السَّبَّةَ ، وتُتَّبِعُهُم المَذْمَةَ . عَلِمَ اللهُ أَنَّهُ اسْتَظَرَّفَكَ واستمَلَحَكَ ، واستَحَسَّنَ قَدَّكَ ، واستَرَجَحَ عَقْلَكَ ، وَأَحَسَّنَ بِكَ ظَنّاً ، وِرَاكاً^(٢) لِنَفْسِهِ أَهْلاً ، ولا تَتَّخِذَهُ موضِعاً ، ولِلْأُنْسِ به مَكَاناً ، وَأَنْتِ لِإِيهِ عَنْهُ زَارٍ عَلَيْهِ ، مَتَهَاوُنُ بِهِ ، قد أَقْبَلْتَ على دِيوانِكَ تُشغَلُ بِمَلازِمَتِهِ ، وتَدَعُ ما يَجِبُ عَلَيْكَ من صِفاتِهِ ، والدُّعَاءِ إلى تَعظيمِهِ . بلْ هَلْ كُنْتَ من شِيعَتِهِ والذَّابِّينَ عَن دَوْلَتِهِ ، والمعروفينَ بِالانقِطاعِ إِلَيْهِ ، والانبِتاتِ في حِبلِهِ^(٣) ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ التَّقْصِيرُ لِحَقِّهِ ، والتَّهَافُوتُ بِأَمْرِهِ اللّازِمِ ، ونَهَى النَّاسَ عَنْهُ .

ولو خَرَجْتَ إلى هَذَا لَخَرَجْتَ من جَمِيعِ الأَخلاقِ المَحمودَةِ ، والأَفْعالِ المرضِيَةِ . وَأَحَسَبَ أَنَّكَ لا تَعظُمُهُ ولا تَرْتَقِي لَهُ . ولو لم تَتعَصَّبْ إِلَّا لِجَمالِهِ وحِسنِهِ ، ولو لم تُحافِظِ على نِقاائِهِ وَعِيقِهِ لَكَانَ ذَلِكَ واجباً ، وأَمراً معروفاً . فكيف مع المَناسِبَةِ الَّتِي بَيْنَكِما ، والشَّكْلِ الَّذِي يَجْمَعُكِما . فَإِنْ كانَ بَعْضُكَ لا يَصونُ بَعْضاً وَأَنْتِ لا تَعظُمُ شَقِيقاً ، فَأَنْتِ اللهُ من حِفْظِ العَشيرةِ أَبْعَدُ ، ولمعرفةِ الصِّديقِ أَنْكَرُ .

ولقد نَعَيْتِ إلى لُبِّكَ ، وَأَثَكَلْتِنِي حِفاظَكَ^(٤) ، وَأَفْسَدْتَ عِنْدِي كُلَّ

(١) التتابع : التهافت في الشر ، والوقوع فيه . ب ، م : « تتابعت » ، صوابه في ط .

(٢) ب ، م : « وزادك » ، صوابه في ط .

(٣) الانبتات : الانقطاع . والمراد به الملازمة وتوثيق الصلة .

(٤) أتكله الأمر : جملة يفقده ، يقال أتكلها الله ولدها ، وأتكله الله أمه ، إذا أصابها

بفقدتها . ب : « أتكلتني » صوابه في ط ، م .

صحيح . وقد كان يقال : « لا يزال النَّاسُ بخيرٍ ما تعجبوا من العَجَبِ »
قال الشاعر (٢) :

وهلِكَ الفتى أن لا يَرَا حَ إلى النَّدى وأن لا يرى شيئاً عجيباً فيعجب
قال بكر بن عبد الله المُرزِي (٣) : « كنا نتعجب من دهرٍ لا يتعجب
أهله من العجب فقد صرنا في دهرٍ لا يستحسِنُ أهله الحَسَن . ومن
لا يستحسِن الحَسَن لم يستقيح القبيح » .

وقال بعضهم : « العَجَب تَرُكُ التعجب من العَجَب » .
ولم أقل ذلك إلا لأن تكون به ضنيناً (٤) ، وبما يجب له عارفاً .
ولكنك لم توفّر حقّه ولم توفّر نصيبه (٤) .

فإن قلت : ومن يقضي واجب حقّه ، وينتهض بجميع شكره ؟
قلنا : فهل أعدرت في الاجتهاد حتى لا يُدَمَّ إلا تعجبك ، وهل
استغرقت الاعتذار حتى لا تعاب إلا بما زاد على قوتك . ولولا أنك عين
الجواد (٥) لم نطلبه منك . ولولا ظنك (٦) لم نحمدك عليه . ولولا معرفتك

(١) هو حارثة بن بدر الغداني ، كما في الحيوان ٣ : ٨٠ والبيان ٣ : ٢١٩ والأغانى
٢١ : ٣١ وأمالى المرتضى ١ : ٣٨٨ ويقال إن حارثة قد تمثل به . ونسب في معجم البلدان
٢ : ٢٥٤ إلى عمرو بن النعمان البياضى . وانظر أمالى الزجاجى ٣٠ .

(٢) بكر بن عبد الله المزني : نسبة إلى مزينة ، أبو عبد الله البصرى ، ثقة ثبت . مات
سنة ست ومائة . تقريب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ١٧١ . وفي جميع النسخ : « المرى » ،
صوابه ما أثبت . وانظر الحيوان ٦ : ٥٠٨ - ٧ : ٢٠٢ ، ٢٥٤ . وبكر هذا أقوال مأثورة
في مواضع كثيرة من البيان والتبيين . وكان من النساك والزهاد من أهل البيان .

(٣) ب : « ظنيناً » ، صوابه في م ، ط .

(٤) ط : « ولم تعرف نصيبه » .

(٥) عين الجواد ، أى نفسه ، والمراد الجواد الكامل ، الجامع لأسباب السخاء ، وفي
المهاسة ١٦٩١ يشرح المرزوق ، قول عبد العزيز بن زرارة الكلابي :

فإلا أكن عين الجواد فإني على الزاد في الظلماء غير شتم
وإلا أكن عين الشجاع فإني أرد سنان الرمح غير سليم

ب : « عين الجوار » ط : « عين الجواد » . والضمير في « لم نطلبه » عائد إلى النبيذ المفهوم
من الكلام .

م : « ضنك » .

بِفَضْلِهِ لَمْ نَعْجَبْ مِنْ تَقْصِيرِكَ فِي حَقِّهِ ، وَلَوْلَا أَنَّ الْخَطَأَ فِيكَ أَقْبَحَ ،
وَالْقَبِيحَ مِنْكَ أَسْمَحَ ، وَهُوَ فِيكَ أَبْيَنُ وَالنَّاسُ بِهِ أَكْلَفُ (١) ، وَالْعَيُونُ
إِلَيْهِ أَسْرَعُ - لَكَانَ كِتَابُنَا كِتَابَ مُطَالِبَةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ كِتَابَ مَعَاتِبَةٍ ،
وَلَشَغَلْنَا الْحِلْمُ لَكَ عَنِ الْحَمِّ عَلَيْكَ ، وَالْقَوْلُ لَكَ عَنِ الْقَوْلِ فِيكَ .

وَقَدْ كُنْتُ أَهَابُكَ بِفَضْلِ هَيْبَتِي لَكَ ، وَأَجْتَرِيُّ عَلَيْكَ بِفَضْلِ
بَسْطِكَ لِي ، فَمَنْعَنِي جِرْصُ الْمُنْعَوِّ ، وَخَوْفُ الْمَشْفُقِ ، وَأَمْنُ الْوَاتِقِ ،
وَقِنَاعَةُ الرَّاضِي .

وَبَعْدَ فَمَنْ طَلَبَ مَا لَا يُجَادُ بِهِ ، وَسَأَلَ مَا لَا يُؤَهَّبُ مِثْلَهُ مِمَّنْ يَجُودُ
بِكُلِّ ثَمِينٍ ، وَيَهَبُ كُلَّ خَطِيرٍ ، فَوَاجِبٌ أَنْ يَكُونَ مِنَ الرَّدِّ مَشْفِقًا ،
وَبِالنَّجْحِ مُوقِنًا .

وَإِنْ كَانَ ، أَبَقَاكَ اللَّهُ (٢) ، أَهْلًا لِأَنْ يُمْنَعَ ، وَكُنْتَ حَفِظَكَ اللَّهُ أَهْلًا
أَنْ تَبْدُلَ ، وَجِبَ أَنْ تَكُونَ (٣) بِأَذَلًا مَانِعًا ، وَسَاكِنًا مَطْمَئِنًّا ، إِلَّا أَنْ
يَكُونَ الْحَرْبُ سَلِيمًا سِجَالًا ، وَالْحَالَاتُ دُؤْلًا .

وَلِهَذِهِ الْخِصَالِ مَا وَقَعَ الطَّلَبُ ، وَشَاعَ الطَّمَعُ .

فَإِنْ مَنَعْتَ فَعَدْرَكَ مَبْسُوطٌ عِنْدَ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ (٤) ، وَإِنْ بَدَلْتَ فَلَمْ
تَعُدِّ الذِّي أَنْتَ أَهْلُهُ عِنْدَ مَنْ عَرَفَ قَدْرَكَ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَجُودُ بِمِثْلِهِ إِلَّا
غَنِيٌّ عِنْدَ جَمِيعِ النَّاسِ ، أَوْ عَاقِلٌ فَوْقَ جَمِيعِ النَّاسِ .

وَكَيفَ لَا أَطْلُبُ طَلَبَ الْجَرِيِّ الْمَتَهَوَّرِ ، وَأُمْسِكُ إِمْسَاكَ الْهَائِبِ

(١) م ، ط : « فِيهِ أَكْلَفُ » .

(٢) فِي جَمِيعِ النُّسخِ : « أَبَقَاكَ اللَّهُ » ، وَالْوَجْهَ مَا أَثْبَتَ .

(٣) ب ، ط : « يَكُونُ » .

(٤) ط : « قَدْرَكَ » . وَالْمُرَادُ قَدْرَ التَّبِيئَةِ .

الموقر. وليس في الأرض خلقٌ يُعْتَفَرُ^(١) في وصفه المحالُّ ولا يُسْتَحْسَنُ الهدْيَانُ سواه ؟ !

على أنَّ مِنَ الهدْيَانِ ما يكون مفهوماً، ومن المحال ما يكون مسموعاً^(٢).

فمن جهل ذلك ولم يعرفه، وقصر ولم يبلغه^(٣)، فليسمع كلامَ اللُّهْفَانِ والثُّكْلَانِ، والغَضْبَانِ والغَيْرَانِ، ومرْقُصَةِ الصُّبْيَانِ، والمُنْعِظِ^(٤) إذا دنا منه الحَلْقِي.

حتى إذا استوهبتك لم تهب له منه^(٥) حتى تقفَ وقفة، وتطرق ساعة^(٦)، ثم تستحسن وتستشير، ثم تشفع^(٧) على مُستوهبه، وتعجب من شاربه، ثم تطيل الكتاب بالامتنان، وتسطر فيه بتعظيم الإنعام مع ذكر مناقبه، ونشر محاسنه^(٨) بقدر الطاقة. وإن لم تبلغ الغاية فاعرف وزنه، واشهد بطيبه، وأرخ ساعته^(٩)، واشهر في الناس يومه^(١٠).

وما ظنك بشيء لا تقدر أن تشرّد في ذكره^(١١) وتفطرط في مدحه،

(١) ب، م : «يفتقر».

(٢) ما يكون، ساقطة من ب، م.

(٣) ب فقط : «لم يبلغه».

(٤) ب : «المنظف» م : «المنفط» ط : «المتعظ» صوابها ما أثبت. والحلق :

الذي فسد عضوه فانعكس ميل شهوته. وهو من ألفاظ المولدين. وانظر شفاء الغليل ص ٧٠ والحويان ١ : ٢٢٥ - ٣ - ١٦٦. وفي جميع النسخ : «والحلق»، والوارو مقحمة.

(٥) ب، م : «وحى وأتاك أن يهب لي منه» وليس له وجه. وأثبت ما في ط.

(٦) ط : «وتطرقه ساعة».

(٧) في جميع النسخ : «تشفع».

(٨) ب، م : «وبشر محاسنه».

(٩) في جميع النسخ : «وأرح» بالحاء المهملة.

(١٠) في جميع النسخ : «وأشهد» بالذال.

(١١) الشرود : الذهاب والهرب. م، ط : «تشرّد في ذكره».

وتفصيرك واضح في لونه^(١)، مكتوب في طعمه^(٢)، موجود في رائحته^(٣)،
إذ كان كل ممدوح يقصّر عن مدحه وقدره، ويصغر في جنبه.

ولو لم يستدل على سعادة جدك، وإقبال أمرك، وأن لك زياً
صدق في^(٤) المعلوم، وخطأ^(٥) في الرزق المقسوم، وأنك ممن تبقى نعمه،
ويدوم شكره، ويفهم النعمة ويربها^(٦)، ويدبر عنها ويستديمها^(٧)،
إلا أنه وقع في قسمك، وكان في نصيبك - لكان ذلك أعظم البرهان،
وأوضح الدلالة.

بل لا نقول: إنه وقع اتفاقاً وغرساً نادراً، حتى يكون التوفيق
هو الذي قصد به، والصنع هو الذي دل عليه.

ولو لم تملك غيره لكنت غنياً، ولو ملكت كل شيء سواه لكنت
فقيراً. وكيف لا يكون كذلك وهو مستراح قلبك، ومجال عقلك،
ومرتع عينك^(٨)، وموضع أنسك، ومستنبط لذتك، وينبوع سرورك،
ومصباحك في الظلام، وشعارك من جميع الأقسام.

وكيف وقد جمع أهبة الجلال، ورشاقة الخلال، ووقار البهاء.

(١) في الأصول: «في كونه».

(٢) ب: «مكتوب في طعمه» م: «مكتوب في طعمه» ط: «مكتوباً في طعمه» ،
ولعل الوجه ما أثبت.

(٣) ط فقط: «موجوداً» بالنصب.

(٤) ب، م: «ذي صدق»، تحريف. والزي: اللباس والهبة والمنظر، وأصله
زوى، تقول منه زويته، والقياس زويته.

(٥) ب: «وخطأ» م: «وخطأ»، صوابهما في ط.

(٦) رب النعمة: حفظها ورعاها. وفي الحديث: «لك نعمة تربها». ط فقط: «تربها»

(٧) ب، م: «ويدبر عنها»، صوابه في ط.

(٨) يرتع: يلهو ويلعب وينعم. وفي الأصول: «ومربع عينك»، والوجه ما أثبت.

ومنه قول المتنبي:

حشأى على جمر ذكي من الهوى وعيناي في روض من الحسن ترتع

وسأصف لك شرف^(٤) النبيذ في نفسه، وفضيلته على غيره ، ثم أصِفْ
 فَضْلُ شَرَابِكَ عَلَى سَائِرِ الْأَشْرِبَةِ ، كَمَا أَصِفُ فَضْلَ النَّبِيذِ عَلَى سَائِرِ
 الْأَنْبِذَةِ؛ لِأَنَّ النَّبِيذَ إِذَا تَمَشَّى فِي عِظَامِكَ ، وَالتَّبَسَّ بِأَجْزَائِكَ ،
 وَدَبَّ فِي جَنَانِكَ ، مَنَحَكَ صِدْقَ الْحَسِّ ، وَفَرَاغَ النَّفْسِ ، وَجَعَلَكَ رَخِيًّا
 الْبَالِ ، خَلَّى الذَّرْعَ^(٥) ، قَلِيلِ الشَّوَاغِلِ ، قَرِيرِ الْعَيْنِ ، وَاسِعَ الصَّدْرِ ،
 فَسِيحِ الْهِمَمِ^(٦) حَسَنَ الظَّنِّ . ثُمَّ سَدَّ عَلَيْكَ أَبْوَابَ التُّهْمِ ، وَحَسَّنَ دُونَكَ
 الظَّنَّ وَخَوَاطِرَ الْفَهْمِ^(٧) ، وَكَفَاكَ مَثُونَةَ الْحِرَاسَةِ ، وَالْأَمَّ الشُّفْقَةَ ،
 وَخَوْفَ الْحَدَثَانِ ، وَذُلَّ الطَّمَعِ وَكَدَّ الْطَلْبِ^(٨) ، وَكَلَّ مَا اعْتَرَضَ عَلَى
 السُّرُورِ وَأَفْسَدَ اللَّذَّةَ ، وَقَاسَمَ الشَّهْوَةَ ، وَأَخْلَّ بِالنِّعْمَةِ^(٩) .

وهو الذي يردُّ الشيوخ في طبائع الشبان ، ويردُّ الشبان في نشاط
 الصبيان ، وليس يخاف شاربه^(١٠) إلا مجاوزة السرور إلى الأشر ،
 ومجاوزة الأشر إلى البطر .

(١) م فقط : « الخليل » ، تحريف .
 (٢) ط فقط : « المجاهدة » ، والوجه في ب ، م .
 (٣) أصل الدبيب المشى على هيئة ، واستعمل مع الاختلاس في معاني التوصل إلى المشوق
 في خفية . وفي جميع الأصول : « التزييب » .
 (٤) ب : « شرب » ، تحريف .
 (٥) الذرع : الطاعة والوسع . م : « على الذراع » تحريف ، وفي ب : « خالي الذرع » ،
 وأثبت ما في ط .
 (٦) ب ، م : « الهمة » .
 (٧) ب ، م : « الظن خواطر الفقه » .
 (٨) م : « وكده الطلب » .
 (٩) ب ، م : « واختل بالنعمة » .
 (١٠) ب : « نجاة شاربه » م : « نجات شاربه » ، صوابهما في ط .



ولو لم يكن من أياديه ومِنِيهِ ، ومن جميل آلائه ونِعَمِهِ ^(١) ، إلا أنك ما دُمْتَ تَمْزُجُهُ بُرُوحَكَ ، وتزَاجِرُ بينه وبين ذِمِّكَ فقد أَعْفَاكَ مِنْ الجِدِّ وَنَصَبِهِ ، وَحَبَّبَ إِلَيْكَ المَزَاحَ وَالفِكَاهَةَ ، وَبَغَضَ إِلَيْكَ الاستِقْصَاءَ وَالمَحَاوَلَةَ ، وَأزَالَ عَنكَ تَعَقُّبَ الحِشْمَةِ وَكَدَّ المَرْوَةِ ، وَصَارَ يَوْمُهُ جَمَالاً لِأَيَّامِ الفِكرَةِ ، وَتَسْهِيلاً لِمَعَاوِدَةِ الرُّويَةِ ^(٢) ، لَكَانَ فِي ذَلِكَ مَا يَوجِبُ الشُّكْرَ ، وَيُطِيبُ الذِّكْرَ ^(٣) . مَعَ أَنَّ جَمِيعَ مَا وَصَفْنَاهُ وَأَخْبِرْنَا بِهِ عَنْهُ يَقومُ بِأيسرِ الجِرمِ ^(٤) ، وَأَقْلَ الثَّمَنِ .

ثم يعطيك في السَّفَرِ مَا يُعْطِيكَ فِي الحَضَرِ ، وَسِوَاءَ عَلَيْكَ البِساتينُ وَالجَنَاتِ ^(٥) . وَيَصْلِحُ بِاللَّيْلِ كَمَا يَصْلِحُ بِالنَّهَارِ ، وَيَطِيبُ فِي الصُّحُورِ كَمَا يَطِيبُ فِي الدُّجُنِ ، وَيَلْدَدُ فِي الصَّيْفِ كَمَا يَلْدَدُ فِي الشِّتَاءِ ، وَيَجْرِي مَعَ كُلِّ حَالٍ . وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ فَإِنَّمَا يَصْلِحُ فِي بَعْضِ الأَحْوَالِ .

وَيَدْفَعُ مَضْرَّةَ الخُمَارِ ، كَمَا يَجْلِبُ مَنفَعَةَ السُّرُورِ .

إِنْ كُنْتَ جَدَلًا [كَانَ] ^(٦) بَارًا بِكَ ، وَإِنْ كُنْتَ ذَاهِمًا نَفَاهًا عَنْكَ .

وَمَا الغَيْثُ فِي الحَرِّثِ بِأَنْفَعَ مِنْهُ فِي البَدَنِ ، وَمَا الرِّيشُ السُّخَامَ ^(٧)

بِأَدْفَاءٍ مِنْهُ لِمَقْرُورٍ ^(٨) .

(١) ب ، م : « بلائه ونعمه » .

(٢) الروية : التفكير في مهل . ب ، م : « الروية » .

(٣) م ، ط : « ويطنب الذكر » . والإطناب : الإطالة .

(٤) الجرم ، بالفتح : الكسب .

(٥) البستان : جنيبة فيها نخيل متفرقة ، معرب . والجنة : الحديقة ذات النخل والشجر .

(٦) التكلمة من ط . والجدل : الفرغ .

(٧) السخام ، كغراب : اللين الحسن ، أو ما كان ليناً تحت الريش الأعلى . وفي جميع

الأصول : « السخام » ، صوابه ما أثبت .

(٨) المقرور : الذي أصابه البرد . م : « بأذى منه » تحريف .

ويُستمرراً به الغذاء^(١) ويدفع به ثقل الماء ، ويُعالج به الأدوية ، ويحمر به الوجنتان ، ويُعدل به قضاء الدين .

إن انفردت به أهلك ، وإن نادمت به سواك .

ثم هو أصنع للسرور من زلزل^(٢) ، وأشدُّ إطراباً من مُخارق^(٣) ، وقدر احتياجهما إليه كقدر استغنائه عنهما ؛ لأنه أصل اللذات وهي فرعه ، وأول السرور ونتاجه .

ولله درُّ أول من عميله وصنعه^(٤) ، وسقياً لمن استنبطه وأظهره . ماذا دبر ؟ وعلى أي شيء دل ؟ وبأي معنى أنعم ؟ وأي دفين آثار ؟ وأي كنز استخراج .

ومن استغناء التبيد بنفسه ، وقلة احتياجه إلى غيره ، أن جميع ما سواه من الشراب يُصلحه الثلج ، ولا يَطيبُ إلا به .

وأول ما يثنى عليه به ، ويُذكر منه^(٥) ، أنه كريم الجوهر ، شريف النفس ، رفيع القدر ، بعيد الهم . وكذلك طبيعته المعروفة^(٦) وسجيته الموصوفة . وأنه^(٧) يسرُّ النفوس ويحبُّ إليها الجود ، ويزين لها الإحسان ، ويرغبها في التوسع ، ويورثها الغنى ، وينفي عنها الفقر ،

(١) م : « ويستمرى » بالتسهيل .

(٢) زلزل ، يفتح الزايمين : مفعول ضارب بالعود يضرب به المثل ، وإليه تصاف بركة زلزل ببغداد ، تعلم على إبراهيم الموصلي ، وله أخبار مع هارون الرشيد مذكورة في الأغاني .

(٣) مخارق : أحد كبار المغنين في الدولة العباسية ، غنى هارون والمأمون والأمين والمعتمد والوالتق . وأخباره مسهب في الأغاني .

(٤) ب : « أول من صنعه » ، فقط .

(٥) م ، ط : « ماثنى عليه به » وفي ط أيضاً : « ونذكر منه » .

(٦) طبيعته ، ساقطة من ب ، م .

(٧) ب ، م : « وأن » .



وسح النبيذ
 ويملؤها عزاً، ويَعِدُّها خيراً، ويحسنُ المسارَةَ (١)، ويصبرُ به النَّبْتُ
 خِصْباً والجنابُ مَرِيحاً (٢)، ومأهولاً مُعْشَباً .

وليس شيءٌ من المأكول والمشروب أجمعَ للظرفاء، ولا أشدَّ تَأْلُفاً
 للأدباء، ولا أجلبَ للمؤنسين، ولا أدعى إلى خلافِ الْمُتَمَتِّعِينَ (٣)،
 ولا أجدرَ أن يُستدامَ به حديثهم ويُخرجَ مكنونهم، ويطولَ به مجلسهم،
 مِنْهُ .

وإنَّ كلَّ شرابٍ وإن كان حلاً وورقاً (٤)، وصفا ودقاً، وطابَ
 وعذب، وبرد ونقح (٥)، فإن استطابتك لأولِّ جُرعةٍ منه أكثر (٦)،
 ويكون من طبائعك أوقع . ثم لا يزال في نقصانٍ إلى أن يعود مكروهاً
 وبيّة (٧)، إلا النبيذ، فإنَّ القدحَ الثاني أسهلُّ من الأول، والثالث
 أيسر (٨)، والرابع ألدُّ، والخامس أسلس، والسادس أطرب، إلى أن
 يُسَلِّمَكَ (٩) إلى النُّوم الذي هو حياتك، أو أحدَ أقواتك (١٠). ولا خير
 فيه إذا كان إسكاره تغلباً، وأخذُه بالرأس تعسفاً، حتَّى يُميت الحسَّ

(١) م فقط : « السارة » .

(٢) المريع : الخصب ، يقال مكان مرع ومرعي : خصيب مرع ناجع . قال الأعشى :

سلس مقلده أسيب ——— سلس خسه مرع جنايه

ب ، م : « مريعان ، صوابه في ط .

(٣) في الأصول : « المتمتعين » ، ولا وجه له .

(٤) ط ، م : « وإن حلا ورق » .

(٥) التناخ : الماء العذب البارد الذي يتبخ المثلج ، أي يكرسه برده . وفي جميع

الأصول : « ونفح » ، والوجه ما أثبت .

(٦) م : « الأول جرعته منها » . وفي ب ، م . « كثر » ، وفي ط : « لأول جرة

منا كثير » . والوجه ما أثبت .

(٧) ب فقط : « ورية » ، تحريف .

(٨) ب فقط : « أسر » .

(٩) في جميع الأصول : « يسلسك » ، ولا وجه له .

(١٠) ب : « وأحد أقواتك » .

بحدته ، وَيَصْرَعُ الشارب بسورته ^(١) ، ويورث البُهرَ بِكَيْطِهِ ،
ولا يَسْرِى في العروق لِعَلْظِهِ ^(٢) ، ولا يَجْرى في البدن لِرُكُودِهِ ، ولا يَدْخُل
في العُمق ولا يَدْخُل الصَّمِيم .

ولا والله حتّى يغازل العقل ويعارضه ، ويدغدغه ويُخادعه ^(٣) ،
فيسره ثم يهزه ^(٤) ، فإذا امتلاً سروراً وعاد ملكاً مجبوراً ، خاتله
السُّكر وراوغه ، وداراه وما كرهه ، وهازله وغانجه . وليس كما يعتصب
السُّكر ^(٥) ، ويعتسف الداذي ^(٦) ، ويفترس الزَّبِيب ؛ ولكن بالتفتير
والعَمز ، والحيلة والخَلل ^(٧) ، وتحبيب النوم ، وتزيين الصَّمْت .

وهذه صفةُ شرابك إلا ما لا نُحِيطُ به ^(٨) ، ونعوته تتبدل ^(٩) إلا
ما يقبح منها الجهل به .

وخيرُ الأشربة ما جمع المحمودَ من خصالها وخصالٍ غيرها . وشرابك
هذا قد أخذ من الخمر ديببها في المفاصل ^(١٠) ، وتمشيتها في العظام
ولونها الغريب ؛ وأخذ برّد الماء ورقّة الهواء ، وحركة النار ، وحُمرة

(١) ب ، م : « ويسرع » بالسین ، تحريف . وسورة الشراب : تناوله للرأس
وروثه فيه .

(٢) ط : « لغلظته » .

(٣) الدغدغة : حركة في نحو الإبط أو البطن أو الأخص يحدث عنه انفعال .

(٤) م : « ويسره ثم يهزه » .

(٥) السكر ، بالتحريك : الخمر نفسها .

(٦) الداذي : شراب يتخذ من نبت له عنقود مستطيل ، وجهه كعب الشعير ، طيب

الرائحة جيد الإسكار . قال :

شربتنا من الداذي حتى كأننا
ملسوك لنسا بر العراقين والبحر

(٧) في جميع النسخ : « والحيل » ، والوجه ما أثبت .

(٨) ب ، م : « إلا ما لا يحيط به » .

(٩) ب ، م : « ويمت بتبدل » ، ط : « ونعوته بتبدل » ، والوجه ما أثبت .

(١٠) م ، ط : « زينتها في المفاصل » ، صوابه في ب . وفي ب أيضاً : « فقد أخذ » .



خَدُّكَ إِذَا خَجَلْتَ ، وَصَفْرَةَ لَوْنِكَ إِذَا فَرِغْتَ ، وَبَيَاضَ عَارِضِكَ إِذَا
 ضَجِجْتَ (١)

وحسبي بصفاتك عوضاً من كلِّ حَسَنٍ ، وخلفاً من كلِّ صالح .
 ولا تعجبْ أَنْ كانت نهايةَ الهمةِ وغايةَ المُنيةِ ؛ فَإِنَّ حُسْنَ الوجوهِ إِذَا
 وافقَ حُسْنَ القوامِ وشدَّةَ العقلِ ، وجودةَ الرَّأْيِ ، وكثرةَ الفضلِ (٢)
 وَسَعَةَ الخُلُقِ ، والمُغْرَسَ الطَّيِّبَ والنَّصَابَ الكَرِيمَ ، والطَّرْفَ النَّاصِعَ (٣) ،
 واللِّسَانَ الفَخْمَ (٤) والمُخْرَجَ السَّهْلَ والحامِثَ المُؤْتِقَ ، مع الإِشارةِ
 الحَسَنَةِ والنُّبْلِ فِي الجِلْسَةِ ، والحركةِ الرَّشِيقَةِ واللَّهْجَةِ الفَصِيحَةِ ،
 والتمهُّلِ فِي المَحَاوِرَةِ (٥) والهَزْرَ عِنْدَ المُنَاقَلَةِ (٦) ، والبَدِيهِ البَدِيْعِ والفِكرِ
 الصَّحِيحِ ، والمعْنَى الشَّرِيفِ ، واللفظِ المَحذُوفِ ، والإِيجازِ يَوْمَ الإِيجازِ
 والإِطنابِ يَوْمَ الإِطنابِ (٧) ، يَقْلُ الحَزْرَ (٨) وَيُصِيبُ المَفْصِلَ ، وَيَبْلُغُ بِالعَنو
 ما يَقْصُرُ عَنهُ الجَهْدُ ، كانَ أَكْثَرَ نِضاعِفِ الحُسْنِ ، وَأَحَقَّ بِالكَمالِ .
 والحمد لله .

وإِنَّ التاجَ هَيْئِي (٩) وهو فِي رَأْسِ المَلوكِ أُمِّي ، والياقوتَ الكَرِيمِ حَسَنٌ
 وهو فِي جِيدِ المَرأَةِ الحِسانِ أَحْسَنُ ، وَأَشْعَرُ الفاخِرِ حَسَنٌ وهو مِنِ فِي

(١) العارض : جانب الوجه ، وصفحة الخد ؛ وهما عارضان . ط : « وبياض عارضك »
 بالإفراد .

(٢) فِي جَميعِ الأُصولِ : « الفِعل » .

(٣) م ، ط : « والطرف الناصع » صوابه فِي ب . وانظر ما سبق فِي ص ١٠٠ .

(٤) ط فقط : « المعجم » .

(٥) فِي جَميعِ النسخِ : « المجاوزة » والوجه ما أثبت .

(٦) المناقلة : مراجعة الكلام فِي صخبٍ وتنازع . والهد : سرعة فِي الكلام والقراءة .

وفِي جَميعِ الأُصولِ : « والهز » بالزاي ، تحريف .

(٧) المراد باليوم هنا الوقت . ب : « يوم » بالهمز فِي هذا الموضع وسابقه ، تحريف .

(٨) يقل : يكسر ويضرب . ب ، م : « يقل » بالالف ، تحريف .

(٩) ب ، م : « التاج هَيْئِي » .

الأعرابي أحسن . فإن كان من قول المنشد وقريضه ، ومن نَحْتِه وتَجْبِرِه ، فقد بلغ الغاية وأقام النهاية .

وهذا الشرابُ حَسَنٌ وهو عندك أَحْسَنُ ، والهديةُ منه شريفةٌ وهي منك أشرف .

وإن كنتَ قدَّرتَ أنِّي إنَّما طلبته منك لِأشْرَبِه أو لِأَسْقِيَه ، أو لِأَهْبِه ، أو لِأَتَحَسَّاهُ في الخِلا ، أو أَدِيرُه في المِلا (١) أو لِأَنَافِس فيه الأَكْثَفاء ، واجترأَ زيادة الخُلطاء (٢) ، أو لِأَبْتَدِلَه لعيون النُدماء ، أو أَعْرَضَه لنوابِ الأَصْدقاء فقد أَسأتَ بي الظنَّ ، وذهبتَ من الإِسَاءة بي في كلِّ فنٍّ (٣) ، وقصَّرتَ به فهو أشدُّ عليك ، ووَضَعْتَ منه (٤) فهو أضرُّ بك .

وإن ظننتَ أنِّي إنَّما أُرِيدُه لِأَطْرَف به معشوقه (٥) ، أو لِأَسْتَمِيل به هَوَى مِلك ، أو لِأَغْسِل به أَوْضار الأَفئدة (٦) ، أو أَدَاوِي (٧) به خطايا الأَشْرَبه ، أو لِأَجْلُو به الأَبْصار العليَّة ، وأُصْلِح به الأَبْدان الفاسدة ، أو لِأَتَطَوَّع به على شاعر مُفلق (٨) أو خَطيب مُصَقِّع ، أو أَدِيب مُدَقِّع ، لِيَفْتِيقَ لهم المعاني (٩) ، وليُخْرِج المذاهب ، ولِمَا في جانبهم من

(١) ب فقط : « أو أدير في الملا » . والملا : المتسع من الأرض .

(٢) الاجترار : الاجتباب والاجتلاب . ب ، م : « واختر » ط : « واختبر » والوجه ما أثبت . وانظر الحيوان ٦ : ١٣ ورسائل الجاحظ ١ : ١٠٣ . والخلطاء : جمع خليل ، وهو صاحب ، واجر المصافي . ب ، م : « الخطأ » ط : « الخطأ » ، والصواب ما أثبت .

(٣) ب ، م : « غن » ، صوابه في ط .

(٤) ب ، م : « ووضعت منه » .

(٥) الإطراف : الإتحاف ، أطرفه بالشئ : أتخفه به . ب ، م : « لأطرف »

صوابه بالطاء المهملة كما في ط .

(٦) الوضر : الدرر والوسخ ، جمعه أوضار . ط : « وضر الأفئدة » .

(٧) م ، ط : « أو أودى » ، صوابه في ب .

(٨) المفلق : الذي يأتي بما يعجب من الشعر . م : « مفلق » ، تحريف .

(٩) في جميع الأصول : « ليفيق » ، والوجه ما أثبت .



الأَجْرُ ، وفي أعناقهم من الشكر^(١) ، ولينقضوا^(٢) ما قالت الشعراء في
 الحمد ، وليرتجعوا ما شاع لهم من الذِّكر^(٣) ؛ فإنِّي أريد أن أضعَ من
 قَدْرها ، وأن أكسر من يالها^(٤) ، فقد تاهت وتيهَ بها . أو لأن أنفءل
 برؤيته^(٥) وأتبركَ بمكانه ، وآنسَ بقربه ، أو لأشفي به الظماء^(٦) ، أو
 أجعله إكسير أصحاب الكيمياء^(٧) ، أو لأن أذكركَ كلِّما رأيتُه ،
 وأداعبكَ كلِّما قابلته^(٨) أو لأجتلبَ به اليسر^(٩) وأنفِي العسر .
 ولأنَّه والفقر لا يجتمعان في دار ، ولا يُقيمان في رُبْع . ولأتعرف^(١٠) به
 حُسْنَ اختيارك ، وأتذكَّرَ به جَوْدَ اجتهائك^(١١) . أو لأن أستدلَّ به
 على خالص حُبِّك ، وعلى معرفتك بفضلي ، وقيامك بواجب حقِّي - فقد
 أحسنتَ بي الظنَّ ، وذكرتَ من الإحسان في كلِّ فن . بل هو الذي
 أصونُه صيانة الأعراض . وأغار عليه^(١٢) غيرة الأزواج .

- (١) في جميع الأصول : « وفي أعناقهم من الشكر » ، والصواب ما أثبت .
 (٢) النفض : الاستقصاء . ب : « ولينقضوا » ط : « ولينقضوا » ، صوابهما في م .
 (٣) ط : « وليرتجعوا ما شاع لهم من الذكر » ، تحريف .
 (٤) البال : القلب ، والنفس ، والخاطر ، والأمل .
 (٥) ب ، م : « إلى رؤيته » .
 (٦) الظماء : مصدر ظمى يظمأ ظمأ وظماء . ب : « الظماء » ط : « الظمان » .
 (٧) الإكسير : مادة مركبة كان القدماء يزعمون أنها تحول المعدن الرخيص إلى ذهب ،
 وشراب في زعمهم يطيل الحياة ، مغرب . ويسمى أيضاً حجر الفلاسفة . انظر استينجاس ٨٩ .
 (٨) ب ، م : « وأعبك كلِّما قابلته » ، صوابه في ط .
 (٩) ب : « أو لأجتلب » بالخاء المهملة . وفي م : « البشري » موضع « اليسر » .
 (١٠) ب فقط : « أو لأتعرف » .
 (١١) الاجتهاب ، بالجيم : الاختيار والاصطفاء . وفي الكتاب العزيز : « هو اجتهابكم
 وما جعل عليكم في الدين من حرج » ، « شاكراً لأنعمه اجتهاب وهداه إلى صراط مستقيم » ،
 « ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء » . وفي جميع الأصول : « اجتهابك » بالخاء المهملة ، تحريف .
 (١٢) غار يغار غيرة : ثارت نفسه لإبدائها زينتها ومحاسنها لغيره ، أو لانصرافها عنه إلى
 آخر . م فقط : « وأغبر » ، تحريف .



واعلم أنك إن أكثرت لي منه خرجت إلى الفساد ، وإن أقلت أقسمت على الاقتصاد ،

وأنا رجلٌ من بني كنانة ، وللخلافة قرابة ، ولي فيها شُفعة ^(١) ،
وهم بعد ^(٢) جنسٌ وعَصْبَةٌ ، فأقلُّ ما أصنعُ إن أكثرتَ لي منه أن أطلبَ
المَلِكُ ، وأقلُّ ما يصنعون بي أن أنفَى من الأرض . فإن أقلتَ فإنك الولدُ
الناصح ، وإن أكثرتَ فإنك الغاش الكاشح . والسلام .

(١) ب : « وفيها شفعة » .

(٢) ب : « أبعد » ، تحريف .



٥

من كتابه في

طبقات المعنّين

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
A 1977
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT
Est. 2012 CE





ثم إننا وجدنا الفلاسفة المتقدمين في الحكمة ، المحيطين بالأمور
معرفةً ، ذكروا أن أصول الآداب التي منها يتفرع العلم لذوى الألباب
أربعة :

فمنها النجوم وبروجها ، وحسابها الذي يعرف به ^(١) الأوقات
والأزمنة ، وعليها مزاج الطبائع وأيام السنة .

ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير ، وما أشبه
ذلك .

ومنها الكيمياء والطب اللذان هما صلاح المعاش وقوام الأبدان ،
وعلاج الأسقام ، وما يتشعب من ذلك .

ومنها اللحون ومعرفة أجزائها وقسمها ، ومقاطعها ومخارجها ووزنها ،
حتى يستوى على الإيقاع ويدخل في الوتر وغير ذلك مما اقتصرنا من
ذكره على أسائه وجمله ، اجتناباً للتطويل ، وتوخياً للاختصار . وقصدنا
للأمر الذي إليه انتهينا ، وإياه أردنا . والله الموفق وهو المستعان .

ولم يزل أهل كل علم فيها خلا من الأزمنة يركبون منهاجه ،
ويسلكون طريقه ، ويعرفون غامضه ، ويسهلون سبيل المعرفة بدلائله ،
خلا الغناء ، فإنهم لم يكونوا عرفوا علله وأسبابه ووزنه وتصاريفه ،
وكان علمهم به على الهاجس وعلى ما يسمعون من الفارسية والهندية ^(٢)

(١) ب ، م ، « بها » ، صوابه في ط .

(٢) ب فقط : « والفهلندية » .

إلى أن نظر الخليل البصري في الشعر ووزنه ، ومخارج ألفاظه ، وميز ما قالت العرب منه ، وجمعه وألفه ، ووضع فيه الكتاب الذي سماه العروض ، وذلك أنه عرض جميع ما روي من الشعر وما كان به عالماً ، على الأصول التي رسمها ، والعلل التي بينها ، فلم يجد أحداً من العرب خرج منها ، ولا قصر دونها . فلما أحكم وبلغ منه ما بلغ ، أخذ في تفسير النغم واللحن ، فاستدرك منه شيئاً ، ورسم له رسماً احتذى عليه من خلفه ، واستتمه من عنى به ^(١) .

وكان إسحاق بن إبراهيم الموصلي أول من حدا حذوه ، وامتنل هديه ، واجتمعت له في ذلك آلات لم تجتمع للخليل بن أحمد قبله ^(٢) ، منها معرفته بالغناء ، وكثرة استماعه إياه وعلمه بحسنه من قبيحه ، وصحيحه من سقيمه .

ومنها جذفه بالضرب والإيقاع ، وعلمه بوزنها . وألف في ذلك كتباً معجبة ، وسهل له فيها ما كان مُستصعباً على غيره ، فصنع الغناء يعلم فاضل ، وجذق راجح ، ووزن صحيح ، وعلى أصل مستحکم له دلائل صحيحة واضحة ، وشواهد عادلة ^(٣) . ولم نر أحداً وجد سبيلاً إلى الطعن عليه والعيب له .

وصنع كثير من أهل زمانه أغاني كثيرة بهاجس طبعهم ^(٤) والاتباع لمن سبقهم ، فبعض أصاب وجه صوابه ^(٥) ، وبعض أخطأ ، وبعض قصر في بعض وأحسن في بعض .

(١) ط : « واستمد من عنى به » .

(٢) ب ، م : « قبلها » صوابه في ط .

(٣) ب ، م : « وشواهد عادلة » .

(٤) ب فقط : « بهاجس طبعهم » .

(٥) ب ، م : « وجه صوابه » .

ووجدنا لكلَّ دهرٍ دولةً للمغنيين يحملون الغناء عنهم ، ويُطارِحون به فتيانَ زمانهم ، وجوارىَ عصرهم . وكان يكون في كلِّ وقتٍ من الأوقات قومٌ يتنادمون ، ويستحسنون الغناء ، ويميزون رديهً من جيده ، وصوابه من خطائه ^(١) ، ويجمعون إلى ذلك محاسنَ كثيرةً في آدابهم وأخلاقهم ، ورؤايتهم وهياتهم ^(٢) ، فلم نجدْ هذه الطبقةَ ذُكروا . ووجدنا ذكر الغناء وأهله باقياً .

وخصصنا في أيامنا وزماننا بفتيةٍ أشرف ^(٣) ، وخُلائِ نِظافٍ ، انتظم لهم من آلات الفتوة وأسباب المروءة ما كان محجوباً عن غيرهم ، معدوماً من سواهم ، فحملنى الكُلفُ والمودةُ لهم ^(٤) والسُرور بتخليد فخرهم ^(٥) وتشديد ذكركم والحرصُ على تقويم أودِ ذى الأودِ منهم حتى يلحق بأهل الكمال في صناعته ، والفضلِ في معرفته ، على تمييز طبقة طبقة منهم ، وتسمية أهل كلِّ طبقةٍ بأوصافهم ، وآلاتهم وأدواتهم ، والمذاهب التي نَسبوا إليها أنفسهم ، واحتملهم إخوانهم عليها . وخططنا جداً بهزل ، ومزجنا تقريباً بتعريض ^(٦) ، ولم نُردْ بأحدٍ ممن سمينا سوءاً ، ولا تعمداً نقداً ^(٧) ولا تجاوزنا حداً .

ولو استعملنا غير الصدق لفضلنا قوماً وحاببنا آخرين . ولم نفعُلْ

(١) الخطاء ، كسحاب : الخطأ . ط : « خطئه » . والجاحظ يميل إلى استعمال الممدود .

(٢) م : « وروايتهم » ب : « ومروايتهم » ، والوجه ما أثبت من ط . والرواء : المنظر ، والمنظر الحسن .

(٣) م : « بقتنة » .

(٤) لم ، ساقطة من ب .

(٥) م ، ب : « بتجلية فخرهم » .

(٦) التقرع : التأنيب والتعنيف . ب : « تغريماً » بالفاء ، م ، ط « تعريفاً » ، صوابها

مأثبت . والتعريض : الذم الذي لا يصرح به .

(٧) ب ، م : « صحا »

ذلك ؛ تجنباً للحيف ^(١) ، وقصداً للإنصاف ^(٢) . وقد نعلم أنّ كثيراً منهم سبّالغ في الذمّ ، ويحتفل في الشتم ^(٣) ، ويذهب في ذلك غير مذهبنا .

وما أيسرَ ذلك فيما يجبُ من حقوقِ الفتيانِ وتفكيهِم ، واللهُ حسيبُ من ظلم ، عليه نتوكلُ وبه نستعين ، وهو ربُّ العرشِ العظيمِ .

ولم نقصدُ في وصفِ مَنْ وصفنا من الطبقاتِ التي صنّفنا منهم ، إلا لمن أدركنا من أهلِ زماننا ممّن حصل بمدينة السلام ، إذ مَنْ خرج عنها ونزع إلى الفتوة بعد التوبة ، وإلى أخلاقِ الحدّاثِ بعد الحنكة ^(٤) ، وذلك في سنة خمس عشرة ومائتين ^(٥) . فرحم الله امرأً أحسنَ في ذلك أمرنا ^(٦) ، وحدّاً فيه حدّونا ، ولم يعجلِ إلى ذمنا ، ودعاً بالمغفرة والرحمة لنا .

وقد تركنا في كلّ بابٍ من الأبوابِ التي صنّفنا في كتابنا ، فرحاً ^(٧) لزيادةٍ إن زادت ، ولاحقّةٍ إن لحقت ، أو نابتةٍ إن نبتت . ومَنْ عسى أن ينتقل به الحدقُ من مرتبته إلى ما هو أعلى منها ، أو يعجزُ به القصورُ عمّا هو عليه منها إلى ^(٨) ما هو دونها ، إلى مكانه الذي إليه نقله ارتفاعُ درجةٍ أو انحطاطُها ، ومَنْ لعلنا نصير إلى ذكره ممن

(١) م ، ط : « تحبباً » .

(٢) ط : « بل قصداً للإنصاف » .

(٣) ط : « ويحتفل في الشتم » .

(٤) الحنكة والحنك ، بضم الحاء فيهما : التجربة والبصر بالأمر .

(٥) هذا تسجيل للسنة التي تم فيها أو بعدها تأليف هذه الرسالة .

(٦) ب : « من أحسن في ذلك أمرنا » .

(٧) الفرج : جمع فرجة ، والمراد الفراغ الذي يكتب فيه . ب فقط : « فرحاً »

بالحاء المهملة ، تحريف .

(٨) إلى ، ساقطة من ب .

عَزَبَ عَنَّا ذِكْرَهُ ، وَأَنْسِينَا اسْمَهُ ، وَلَمْ يُحِطْ عَلَمُنَا بِهِ ، فَصَبَّرَهُ فِي مَوْضِعِهِ ، وَنُلِحِّقُهُ بِأَصْحَابِهِ .

وليس لأحد أن يثبت شيئاً من هذه الأوصاف إلا بعلمنا^(١) ، ولا يستبدَّ بامرٍ فيه دوننا . ويُوردُ ذلك علينا فنتمتحنه^(٢) ، ونُعرفه^(٣) بما عنده ، ويصير إلى ترتيبه في المرتبة التي يستحقُّها ، والطَّبعة التي يحتملها .

فلما استتبَّ لنا الفراغُ مما أردنا من ذلك خَطَرَ ببالنا كثرةَ العيَّابين من الجُهَّال بربِّ العالمين ، فلم نَأْمَنُ أَنْ يُسرعوا^(٤) بسفِّ رأيهم وخِفَّةِ أحلامهم إلى نقضِ كتابنا وتبديله ، وتحريفه عن موضعه ، وإزالته عن أماكنه التي عليها رسَمنا ، وأن يقول كلُّ امرئٍ منهم في ذلك على حاله ، ويقدر هواه^(٥) ورأيه ، وموافقته ومخالفته ، والميل في ذلك إلى بعض ، والذمُّ لطبقة والحمد لأخرى ، فيهجِّنوا كتابنا ، ويلحقوا بنا ما ليس من شأننا .

وأحببنا أن نأخذَ في ذلك بالحزم ، وأن نحتاط فيه لأنفسنا ومن ضمَّه كتابنا ، وتبادر إلى تفريق نسخ^(٦) منها وتصويرها في أيدي الثَّقَاتِ والمستبصرين ، الذين^(٧) كانوا في هذا الشأن ، ثم ختموا ذلك

(١) ط : « بعلمنا » ، تعريف .

(٢) في جميع الأصول : « فيمتحنه » ، والوجه ما أثبت .

(٣) في جميع الأصول : « ويعرفه » بالياء .

(٤) ب فقط : « فلم نَأْمَنُ من أن يسرع » ، صوابه في سائر النسخ .

(٥) في جميع النسخ : « ولقدّر هواه » .

(٦) في جميع النسخ : « نسخة » .

(٧) الذين ، ساقطة من ب ، م .

بالعزلة والتوبة منه ، كصالح بن أبي صالح ، وكأحمد بن سلام ، وصالح مولى رشيدة^(١) .

ف فعلنا ذلك وصيرناه أمانة في أعناقهم ، ونسخة باقية في أيديهم ، ووثقنا بهم أمانة ومُستودعين^(٢) وحَفَظَةً غيرَ مَضِيَّعِينَ ولا مَتَهَمِينَ . وعلّمنا أنّهم لا يدعون صيانة ما استودعوا ، وحَفَظَ ما عليه ائتمنوا .

فإن شيب^(٣) به شوبٌ يُخالفه ، وأُضِيفَ إليه^(٤) مالا يلائمه ، رجعنا^(٥) إلى النسخة المنصوبة ، والأصول المخددة عند ذوى الأمانة والثقة ، واقتصرنا عليها ، واستعلينا بها على المبطلين^(٦) ، ودفعنا بها^(٧) إدغال المدغليين ، وتحريف المحرفين ، وتزويد المتزئدين ، إن شاء الله .

ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

(١) لم أجد ترجمة لأحد هؤلاء الثلاثة ، ولم يرد لهم ذكر فيما سبق من مكتبة الملاحظ .

(٢) ب ، م : « وأمانة ومستودعين » ، صوابه في ط .

(٣) ط : « إذا شيب » م : « فإن شئت » ، صوابهما في ب .

(٤) إليه ، ساقطة من ب ، م .

(٥) في جميع النسخ : « وجعلنا » .

(٦) ب ، م : « به على المبطلين » .

(٧) ب ، م : « به » .



٦

من كتابه في

النِّسَاء

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
A 1977
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT
Est. 2012 CE





إنَّنا لما ذكرنا في كتابنا هذا الحبَّ الذي هو أصلُ الهوى ، والهوى الذي يتفرَّع منه العشق، والعشقَ الذي يهيم له الإنسانُ على وجهه أو يموتُ كمدأ على فراشه . وأوَّل ذلك إدخالُ الضِّيم على مروءته ، واستشعارُ الذَّلَّة لمن أطاف بعشيقته .

ولم نُطِيب مع ذلك في ذكر ما يتشعب من أصل الحبِّ من الرَّحمة والرِّقَّة ، [وحبِّ الأموال النَّفيسة والمراتبِ الرفيعة^(١)] ، وحبِّ الرعيَّة للأنثمة ، وحبِّ المُصطَنع لصاحب الصَّنِيعَة ، مع اختلاف مواقع ذلك من النفوس ، ومع تفاوتِ طبقاته في العواقب : احتجنا إلى الاعتذار من ذكر العشقِ المعروف بالصَّبابَة ، والمخالفة على قوَّة العزيمة ، لنجعل^(٢) ذلك القدرَ جُنَّةً دون من حاول^(٣) الطَّعن على هذا الكتاب ، وسخَّفَ الرأى الذى دعا إلى تأليفه ، والإشادة بذكره^(٤) . إذا كانت الدنيا لا تنفكُ من حاسدٍ باغٍ . ومن قائلٍ متكلف . ومن سامعٍ طاعن ، ومن مُنافسٍ مقصِّر . كما أنَّها لا تنفكُ من ذى سلامةٍ متسلِّم ، ومن عالمٍ متعلِّم . ومن عظيمِ الخطرِ حسنِ المحضِر ، شديدِ المحاماة على حقوق الأُدباء . قليلِ التسرُّع إلى أعراض العلماء .

وإنما العشقُ اسمٌ لِمَا فَضَّلَ عن المقدار الذى اسمه حبٌّ . وليس

(١) التكلية من م ، ط .

(٢) ب ، م : « ليجمل » .

(٣) ب ، م : « ما حاول » .

(٤) ب ، م : « والإشارة بذكره » ، صوابه في ط .

كلُّ حبٍّ يُسمَّى عشقاً ، وإنما العشق اسمٌ للفاضل عن ذلك المقدار ، كما أنَّ السَّرْفَ اسمٌ لما زاد على المقدار الذي يُسمَّى جُوداً ، والبُخْلُ اسمٌ لما نقص عن المقدار الذي يُسمَّى اقتصاداً ، والجبنَ اسمٌ لما قَصَرَ عن المقدار الذي يُسمَّى شجاعة .

وهذا القول ظاهرٌ على ألسنة الأدباء ، مُستعملٌ في بيان الحكماء . وقد قال عروة بن الزبير : ^(١) « والله إني لأعشق الشرف كما تُعشق المرأة الحسناء » .

وذكر بعض الناس رجلاً كان مُدقعاً محروماً ، ومنحوس الحظِّ ممنوعاً ، فقال : ما رأيت أحداً عَشِقَ الرِّزْقَ عَشْقَهُ ، ولا أَبغضَهُ الرِّزْقَ بُغْضَهُ ! فذكر الأوَّلُ عَشِقَ الشَّرْفَ ، وليس الشَّرْفُ بامرأة ، وذكر الآخر عشق الرزق والرزق اسمٌ جامعٌ لجميع الحاجات .

وقد يستعمل الناس الكناية ^(٢) ، وربما وضعوا الكلمة بدل الكلمة ، يريدون أن يظهرَ المعنى ^(٣) بالين اللفظ ، إما تنويهاً وإما تفضيلاً ^(٤) ، كما سموا المعزول عن ولايته مصروفاً ، والمنهزم عن عدوه مُنحازاً . نَعَمْ ، حتَّى سَمَى بعضهم البخيلَ مقتصداً ومصلاً ^(٥) ، وسَمَى عامل الخراج المتعدى بحقِّ السلطان مستقصياً ^(٦) .

(١) م : « وقال عروة » فقط .

(٢) ط : « الكتابة » ، صوابه في سائر النسخ .

(٣) م فقط : « يظهروا المعنى » .

(٤) في جميع الأصول : « إما تنوها وإما تفصلاً » ، والوجه ما أثبت . والتنويه : م الإظهار والإشادة والتعريف .

(٥) م : « أو مصلاً » .

(٦) في جميع الأصول : « مستقصياً » بالعين ، والوجه ما أثبت . والاستقصاء : بلوغ

الغاية القصوى .

ولما رأينا الحُبَّ من أكبر أسبابِ جِماعِ الخيرِ ، ورأينا البُغْضَ من أكبر أسبابِ الشرِّ ، أَحْبَبْنَا^(١) أن نذكر أبوابَ السَّبَبِ الجالبِ [للخيرِ ، ليفرق بينه وبين أبوابِ السببِ الجالبِ^(٢)] للشرِّ حتَّى نذكر أصولهما وعللهما الداعيةَ إليهما ، والموجبةَ لكونهما .

فتأملنا شأنَ الدنيا فوجدنا أكبرَ نعيمِها وأكملَ لذاتها ، ظفرَ المحبِّ بحبيبه ، والعاشقِ بِطَلْبَتِهِ^(٣) ، ووجدنا شِقْوَةَ الطالبِ المُكْدِي وَغَمَّهُ ، في وزنِ سعادةِ الطالبِ المُنْجِحِ وسروره ، ووَجَدْنَا العشقَ كُلِّمَا كانَ أرسخَ . وصاحبُهُ به أَكَلَفَ ، فَإِنَّ مَوْعَ لَذَّةِ الظْفَرِ منه أرسخَ ، وسُرورُهُ بذلكَ أبهجَ . فَإِنَّ زَعَمَ زاعِمٌ أَنَّ مَوْعَ لَذَّةِ الظْفَرِ بعدوهُ المرْصِدُ أَحْسَنُ من مَوْعِ لَذَّةِ الظْفَرِ من العاشقِ الهائمِ بعشيقته^(٤) .

قلنا : إِنَّا قد رأينا الكرامَ والحلماءَ ، وأهلَ السُّودِّ والعظماءَ ، ربَّما^(٥) جادوا بفضلهم من لَذَّةِ شِفاءِ الغَيْظِ ، ويعتُدُّون ذلكَ زيادةً في نُبُلِ النفسِ ، ويُعَدُّون الهَمَّةَ والقُدْرَ . ويُجودون بالنَّفْسِ من الصامتِ والناطقِ ، وبالثَّمينِ من العُرُوضِ^(٦) . وربَّما خَرَجَ من جميعِ ماله ، وآثَرَ طيبَ الذِّكْرِ على الغنى والبُسرِ . ولم نَرَ نفسَ العاشقِ تسخُو بمعشوقه ، ويجود بِشقيقته نفسه^(٧) لوالدٍ ولا لولدٍ بارٍّ ، ولا لذي نعمةٍ سابعةٍ^(٨) يخافُ سَلْبِهَا ، وَصَرَفَ إِحْسَانِهِ عنه بسببِها .

(١) ط : « اجتنبنا » ، صوابه في ب ، م .

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من ب .

(٣) الطلب والطلبية ، بكسر الطاء فيهما : ما يطلبه العاشق وبهواه ، الأخيرة عن الحمياني . وفي جميع النسخ : « بطلبه » .

(٤) ب : « لعشيقته » ، صوابه في م ، ط .

(٥) ب : « وربما » ، صوابه في م ، ط .

(٦) العرروض : الأمتعة ، سوى الدراهم والدنانير فإنها عين ، واحدها عرض ، بالفتح .

(٧) ب : « لشقيقته نفسه » ، تحريف ب : « بعشيقته نفسه » ، وأثبت ما في ط .

(٨) السابعة : الكاملة الوافية . ب فقط : « السابعة » بالعين المهملة ، تحريف .

ولم نر الرجال يَهْبُونَ للرجال إِلَّا مالا بالَ به ^(١) ، في جَنب ما يهبون للنساء . حتَّى كَأَنَّ العِطْرَ والصَّبْغَ ^(٢) ، والخِضَابَ والكحلَّ ، والنَّتْفَ والقَصَّ ، والتَّحْذِيفَ والحلْقَ ، وتجويدَ الثِّيابِ وتنظيفها ، والقيامَ عليها وتعهدُها ، مِمَّا لم ^(٣) يتكلَّفوه إِلَّا هُنَّ ، ولم يتقدِّموا فيه إِلَّا من أَجلهنَّ ، وحتَّى كَأَنَّ الحِيطَانَ الرَّفِيعَةَ ، والأبوابَ الوثِيقَةَ ، والسُّتُورَ الكَثِيفَةَ ^(٤) ، والخِصْيَانَ والطُّورَةَ ، والحُشُوةَ والحواضِنَ لم تُتَّخَذْ ^(٥) إِلَّا للصَّوْنِ لَهُنَّ ، والاحتفاظِ بما يجب من حفظ النِّعمة فيهنَّ .

٢ - فصل منه

وبابٌ آخر : وهو أَنَّا لم نجدَ أحداً من الناس ^(٦) عَشِيقَ والدَيْهِ ولا وِلْدَه ، ولا من عَشِيقِ مراكِبِهِ ومنزِلِهِ ، كما رأيناهم يموتون من عَشِقِ النِّساءِ الحرامِ . قال الله تعالى : ﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُمَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ ^(٧) . فقد ذكر ^(٨) تبارك وتعالى جملةَ أصنافِ ما خولَّهم من كرامته ، ومَنَّ عليهم من نعمته ، ولم نَرَ النَّاسَ ^(٩) وَجَدُوا بشيءٍ من هذه الأصنافِ وَجَدَهُم بالنِّساءِ . ولقد قدَّم ذكرهنَّ في هذه الآية على قدر تقدُّمهنَّ في قلوبهم .

- (١) ب ، م : « يهبون » في هذا الموضع وتاليه ، صوابه في ط : والاتهاب : قبول الهبة ، ولا وجه له هنا . وفي ب ، م أيضاً : « إلا بما لا بال له » ، صوابه في ط .
- (٢) ب : « والصَّبْغِ » ، صوابه في م ، ط .
- (٣) ب ، م : « ما لم » ، صوابه في ط .
- (٤) السُّتُور : جمع ستر ، بالكسر . ب فقط : « والسطور » ، تحريف .
- (٥) ب ، م : « لم يتخذ » ، ط : « لم يتخذن » ، والوجه ما أثبت .
- (٦) كلمة « الناس » ساقطة من ب ، م ثابتة في ط .
- (٧) الآية ١٤ من سورة آل عمران .
- (٨) ب : « فقد دلَّ » ، صوابه في م ، ط .
- (٩) ب : « ولم ير الناس » ، وأثبت ما في م ، ط .

فإن قال قائل : فقد نجد الرجلَ الحليمَ ، والشَّيخَ الركينَ ، يسمع الصوتَ المُطربَ من المغنى المصيبِ ، فينقله ذلك إلى طبع الصَّبيان ، وإلى أفعال المجانين ، فيشقُّ جيبه ، وينقُضُ حُبوتَه ، ويفدئُ غيره (١) ، ويرقصُ كما يرقصُ الحدُّثُ الغرير ، والشابُّ السَّفيه . ولم نجد أحداً فعلَ ذلك عند رؤية معشوقه .

قلنا : أمَّا واحدةٌ فإنَّه لم يكن ليدعَ التَّشاعُلَ بشمِّها وبرشفيها ، واحتضانها ، وتقبيلِ قدميها ، والمواضع التي وطئتُ عليها (٢) ، ويتشاعُلَ بالرقصِ المبين لها ، والصُّراخِ الشاغلِ عنها . فأما حلُّ الحُبوة ، والشَّدُّ حُضراً عند رؤية الحبيبة (٣) فإنَّ هذا مما لا يحتاج إلى ذكره (٤) ، لوجوده وكثرة استعمالهم له ، فكيف وهو إن خلا بمعشوقه لا يظنُّ (٥) أنَّ لذة الغناء تشغله (٦) بمقدار العُشر من لذته ، بل ربَّما لم يخطر له ذلك الغناء على بال .

وعلى أنَّ ذلك الطرب مجتازٌ غير لابت (٧) ، وظاعنٌ غير مقيم ، ولذة المتعاشقين راكدة أبداً (٨) مقيمة غير ظاعنة .

وعلى أنَّ الغناء الحسنَ من الوجهِ الحسنِ والبدَنِ الحسنِ ، أحسن ،

(١) ب : « ويفدئ » م : « ويقدى » ، صوابها في ط .

(٢) في جميع النسخ : « عليه » تحريف .

(٣) الحضر ، بالفم : أصله عدو الفرس . ب : « والشَّدُّ خسراً » م : « والشَّدُّ خسراً » .
 وفي ط : « والصراخ عند رؤية الحبيبة » ، صوابه ما أثبت .

(٤) ب ، م : « ما لا يحتاج إلى ذكره » .

(٥) ب ، م : « فكيف وإن هو خلا بمعشوقه فظن » ، صوابه في ط .

(٦) ب : « يشغل » م : « تشغل » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٧) ب : « ثابت » .

(٨) ب ، م : « راكدة لا بد » .

والغناء (١) السهي من الوجه الشهي والبدن الشهي أشهي . وكذلك الصوت
الناعم الرخيم من الجارية الناعمة الرخيمة .

وكم بين أن يقدى إذا شاع فيك الطرب مملوكك ، وبين أن يقدى
أمتك (٢) ؟

وكم بين أن يسمع الغناء من فم تشهي أن تقبله (٣) ، وبين
فم تشهي أن تصرف وجهك عنه .

وعلى أن الرجال دخلاء على النساء في الغناء ، كما رأينا رجالاً
ينوحون ، فصاروا دخلاء على النوائح .

وبعد ، فأيما أحسن وأملح (٤) ، وأشهي وأغنج ، أن يغنيك فعل
ملتفت اللحية ، كث العارضين ، أو شيخ منخلع الأسنان ، مغضن
الوجه ، ثم يغنيك إذا هو تغنى بشعر ورقاء بن زهير :

رأيت زهيراً تحت كل كل خالدٍ فأقبلت أسعى كالعجول أبادر (٥)
أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها ياسمينة ، أو كأنها
خُرطت من ياقوتة ، أو من فضة مجلوة (٦) ، بشعر عكاشة بن محصن (٧) :

(١) ب : والغنى « تحريف ما في م ، ط .

(٢) كذا وردت « يقدى » بالياء في جميع النسخ ، ولها وجهها .

(٣) ب ، م : « يشهي أن يقبله » صوابه في ط .

(٤) ب ، م : « وبعد فأيما » ، صوابه في ط .

(٥) كتابات الجرجاني ٣٥ . وانظر للشعر ومقتل زهير بن جذيمة العبسي ، الأغاني .

١١ - ١٥ .

(٦) انظر نحو هذا الكلام لثامة بن أشرس مع المأمون في زهر الآداب ٦٠٩

(٧) كذا . وعكاشة بن محصن صحابي لم يؤثر عنه شعر . انظر الإصابة ٥٦٦٦ . وإنما الشعر

لعكاشة بن عبد الصمد العمي البصري ، وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الهاشمية . وأخوه
أبو العذافر العمي شاعر أيضاً . وبنوالم : قوم نزلوا ببني تميم بالبصرة أيام عمر بن الخطاب
فأسلموا وغزوا مع المسلمين وحسن بلاؤهم ، فقال لهم الناس : أنتم وإن لم تكونوا من العرب ،
إخواننا وبنو العم ، فعفروا بذلك فصاروا في جملة العرب .

من كَفَّ جاريةً كأنَّ بناتِها... (١)
 من كَفَّ جاريةً كأنَّ بناتِها... (٢)
 وكانَّ يُمنّاها إذا نطقت به... (٣)
 ألفت على يدها الشمالِ حساباً... (٤)
 ومن أجلهنَّ تكلفوا القول في النسب... (٥)

٣ - فصل منه

فأمّا الغناء المُطرب في الشَّعر الغزليّ فإنّما ذلك من حقوق النِّساء .
 وإنّما ينبغي أن تغنّى (٣) بأشعار الغزل والتشبيب (٤) ، والعشق ،
 والصِّبابة بالنِّساء اللواتي فيهنَّ نطقت تلك الأشعار ، وهنَّ شَبَّب الرِّجال ،
 ومن أجلهنَّ تكلفوا القول في النسب (٥) .

وبعد ، فكلُّ شيءٍ وطبُّه ، وشكِّله ولفقه ، حتّى تخرج الأمور
 موزونة معدّلةً ، ومتساوية مُخلّصة (٦) .

= وفي النفاض ٣٦٠ أن بنى العم ، هم مرة بن مالك بن حنظلة . والبيتان بدون نسبة في الأمل
 ١ : ٣٢٠ وحاسة ابن الشجرى ٢٦٠ ونسبا في الأغاني ٣ : ٧٣ وسمط اللؤلؤ ٥٢٦ ، وزهر
 الآداب ٦٠٩ ونهاية الأرب ٥ : ١١٤ إلى عكاشة العمى . ونسبا في العقد ٦ : ٧٤ إلى عكاشة بن
 الحصين خطأ . وقبلهما في سمط اللؤلؤ :

والدهر يذهب بالنعم ذهابا	هوا فقد عذب النسيم وطابا
نور الصباح من الدجى جلبابا	حشا على حسن الصبوح فقد نضا
لوشت دام لنا النعم وطابا	ياليلة جمعت لنا الأحبابا
تدع الصحيح بعقله مرتابا	بتنا نسقاها شولا قرقفا
عند المزاج تخالها زربابا	حزاء مثل دم الغزال وتارة

(١) يقال طرفت الجارية بناتها ، إذا خضبت أطراف أصابعها بالحناء . وهذا البيت ساقط

من م .

(٢) في الأمل وأبن الشجرى : « نطقت بها » . وفي نهاية الأرب : « نطقت به » كما
 هنا . وفي العقد والزهر : « إذا ضربت بها » . وفي ب ، م : « على يده الشمال » صوابه في
 ط وحاسة ابن الشجرى . وفي جميع النسخ : « حبابا » وصوابه في جميع المراجع . وفي الأمل
 والعقد ونهاية الأرب : « تلقى على يدها الشمال » ، وفي زهر الآداب : « تلقى على الكف الشمال » .

(٣) ب فقط : « نغنى » .

(٤) ب ، م : « والتشبيب » ، صوابه في ط .

(٥) ط : « في التشبيب » .

(٦) ب : « متساوية مخلّصة » .

ولو أنّ رجلاً من آدمث الناس وأشدّهم تلخيصاً لكلامه ، ومحاسبةً
 لنفسه ^(١) ، ثم جلس مع امرأةٍ لا تزُنُ بمنطق ^(٢) ، ولا تعرف
 بحسنِ حديث ^(٣) ، ثم كان يعشقها ، لنتائجَ بينهما من الأحاديث ،
 ولتلاقحَ بينهما ^(٤) من المعاني والألفاظ ، ما كان لا يجرى بين دغفل
 ابن حنظلة ^(٥) ، وبين ابن لسان الحمرة ^(٦) . وإنما هذا على قدر ^(٧)
 تمكّن الغزل في الرجل .

٤ - فصل منه

والمرأة أيضاً أرفعُ حالاً من الرجل في أمور . منها : أنّها التي تُحطَبُ
 وتُراد ، وتُعشق وتُطلب ، وهي التي تُفدى وتُحمى . قال عَبَسَةَ بن
 سعيد ^(٨) للحجاج بن يوسف : أيفدى الأميرُ أهله ؟ . . قال : والله إن
 تعدونني إلا شيطاناً ، والله لربّما رأيته أُقبل رجلٌ إحداهن !

(١) م : « لكلامه ومحاسنه » فقط . وفي جميع النسخ : « محاسنه » بالنون ، والوجه
 ما أثبت .

(٢) زنه بالخير أو بالمال ، أو بالعلم زنا ، وأزنه إزنانا : ظنه به . ب ، م : « لا يزُن
 بمنطق » .

(٣) ب ، م : « ولا يعرف بحسن حديث » .

(٤) ب : « والتلاقح بينهما » . والذي في ط : « ما كان النتائجَ بينهما من الأحاديث
 والمتلاقحَ بينهما من المعاني والألفاظ إلا ما كان يجرى بين دغفل بن حنظلة » .

(٥) ودغفل هذا هو دغفل بن حنظلة بن زيد الشيباني الذهل النسابة الخطيب . أدرك الرسول الكريم
 ولم يسمع منه . غرق في يوم دولاب في قتال الخوارج سنة ٧٠ . الإصابة ٢٣٩٥ وابن النديم ١٣١
 والمعارف ٢٣٢ والاشتقاق ٢١١ وتاريخ الإسلام للذهبي ٢ : ٢٨٧ . وانظر أخباره وأقواله
 في البيان والتبيين .

(٦) في جميع النسخ : « وبين بشار بن الحمرة » ، والوجه ما أثبت . وابن لسان الحمرة
 هذا هو عبيد الله بن الحسين ، أو ورقاء بن الأشعر ، كما في القاموس والمعارف ٢٣٣ . وهو
 أعرابي من بني تميم الله بن ثعلبة ، وكان من علماء زمانه ، قال ابن قتيبة : « وكان أنسب العرب
 وأعظمهم بصراً » . دخل الكوفة وعليها المغيرة بن شعبة ، فسأله المغيرة عن طبائع قبائل من
 العرب ، وعن خلق النساء ، فأجاب أجوبة متممة ، سردها أبو الفرج في الأغاني ١٤ : ١٣٨ .
 (٧) ب : « على قدر » ، صوابه في م ، ط .

(٨) هو عبسة بن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية ، كان من جلساء الحجاج ، كما
 في الاشتقاق ٧٩ وجمهرة ابن حزم ٨١



٥ - فصل منه

وإنَّمَا يَمْلِكُ المولى مِنْ عبدهِ بدنه ، فَأَمَّا قلبُه فليس له عليه سلطان .
 والسُّلْطَانُ نفسه وإن ملك رقابَ الأُمَّةِ ^(١) ، فالناس يختلفون في جهة الطَّاعة ، فمنهم من يطيع بالرَّغبة ، ومنهم من يُطيع بالرَّهبة ، ومنهم مَنْ يطيع بالمحبة ، ومنهم من يُطيع بالديانة .
 وهذه الأصناف ، وإن كان أفضلها طاعةُ الديانة فإنَّ تلك المحبة ما لم يمازجها هوى لم تَقْوِ ^(٢) على صاحبها قوَّة العِشْق . وفي الأثر المستفيض والمثل السائر : « إن الهوى يُعمى ويصم » ؛ فالعِشْق يقتل .

٦ - فصل منه

ومَّا يُستدلُّ به على تعظيم شأنِ النساءِ أَنَّ الرجلَ يُستحلِّفُ باللهِ الذى لا شىءَ أعظمُ منه ، وبالمشئى إلى بيتِ الله ، وبصدقةِ ماله ، وعتقِ رقيقِهِ . فيسهلُّ ذلك عليه ^(٣) ، ولا يأنفُ منه . فإن استحلِّفَ بطلاقِ امرأته تربَّد وجهُه ^(٤) ، وطار الغضبُ في دماغه ، ويمتنع ^(٥) ويَعْصَى ، ويغضبُ ويأبى ، وإن كان المُحلِّفُ سلطاناً مهيباً ، ولو لم يكن يحبُّها ^(٦) ، ولا يستكثرُ منها ، وكانت نفسها قبيحة المنظر ، دقيقة الحساب ، خفيفة الصِّدَاقِ ، قليلة النَّسبِ .

ليس ذلك إلا لما قد عظمَ اللهُ من شأنِ الزَّوجاتِ فى صدور الأزواجِ ^(٧) .

(١) رقاب ، ساقطة من ب .

(٢) فى جميع الأصول : « لم يقو » ، ومرجع الضمير إلى المحبة .

(٣) م : « فيسهل عليه ذلك » .

(٤) تريب : احر حمرة فيها سواد عند الغضب . ب : « تريب » م : « يزيد » ، صوابها

فى ط .

(٥) فى جميع الأصول : « ويمتنع » .

(٦) ب : « ولم يكن يحبها » .

(٧) ب : « الرجال » .

٧ - فصل منه في ذكر الولد

وباب آخر : وهو أنا لو خيرنا رجلاً بين الفقر^(١) أيام حياته ، وبين أن يكون ممتعاً بالباه أيام حياته ، لاختار الفقر الدائم مع التمتع الدائم .

وليس شيء مما يُحدث الله لعباده من أصنافٍ نعيمه وضروبٍ فوائده ، أبقى ذكراً ، ولا أجلاً خطراً^(٢) من أن يكون للرجل ابنٌ يكون ولياً بنيته ، وسائر عورة حُرْمه ، وقاضى دَيْنه ، ومُحْيى ذِكْره ، مخلصاً في الدعاء له بعد موته ، وقائماً بعده في كل ما خلفه مقام نفسه .

فمن أقلُّ أسفاً على ما فارق ، ممن خلف كافياً مجرباً ، وحائطاً من وراء المال مُوفراً ، ومن وراء الحرم حامياً ، ولسلفه في الناس مُحَبِّباً . وقال رجلٌ لعبد الملك بن مروان ، وقد ذُكِرَ ولدٌ له^(٣) : « أراك الله في بنيك ما أرى أباك فيك ، وأرى بنيك فيك ما أراك في أبيك ! » .

ونظر شيخٌ وهو عند المهلب إلى بنيه قد أقبلوا فقال : « آنس الله بكم لاجتفكم ، فوالله إن لم تكونوا أسباط نبوة^(٤) إنكم أسباط ملحمة » .

وليسف التُّعْمَةُ في الولد المحي^(٥) ، والخلف الكافي ، بصغيرة .

(١) ب : « الفقراء » ، تحريف .

(٢) ط : « ولا أجل خطراً » .

(٣) ب : « ولسفه ذكر ولد له » بهذا النقص والتحريف . والإكمال والتصحيح من م ، ط ، مع زيادق لكلمة « وقد » . وفي البيان ٢ : ١٤٥ : « وقال مدني لعبد الملك بن مروان ودخل عليه بنوه » . على أن الخبر قد روى في مجالس ثعلب ٢٢٧ في قصة دخول الوفود إلى الوليد بن يزيد حين بايع لابنيه الحكم وعثمان .

(٤) ب فقط : « نبوة » بتقديم الباء .

(٥) ب ، م : « المحوى » صوابه في ط . والمراد المحي لذكر والده .



٨ - فصل منه

وباب آخر : وهو أَنَّ الله تعالى خلق من المرأة ولداً من غير ذكر ، ولم يخلق من الرجل ولداً من غير أنثى . فخصَّ بالآية العجيبة والبرهان المنير المرأة دون الرجل ، كما خلق المسيح في بطن مريم من غير ذكر .

٩ - فصل منه في ذكر القربات

وأما أنا فإني أقول : إنَّ تباغض الأقرباء عارضٌ دخيل ، وتحابُّهم واطدُّ أصيل ، والسَّلَامَة من ذلك أعمُّ ، والتَّنَاصُر أظهر ، والتَّصَادُق في المودَّة أكثر . فلذلك القبيلةُ تنزِلُ معاً وترحلُ معاً ، وتُحَارِبُ من ناوأها معاً ، إلَّا الشاذَّ النادر ، كخروج غنى وباهلة من غضبان ، وكنزول عيسى في بنى عامر ، وما أشبه ذلك ^(١) . وإلَّا فإنَّ القرابة يدٌ واحدة على من ناوأهم ^(٢) ، وسيفٌ واحد على من عاداهم ^(٣) ، وما صلاحُ شأنِ العشائر ، إلَّا بتقارب سادتهم في القدر ، وإنَّ تفاوتوا ^(٤) في الرِّياسَة والفضل ، كما قال ^(٥) في الأثر المستفيض : « لا يزال النَّاسُ بخير ما تفاوتوا ، فإذا تقارَبُوا هلَكوا » .

وحالُ العامَّة في ذلك كحال الخاصَّة .

١٠ - فصل منه

وقضيةٌ واجبة : أنَّ الناس لا يُصلِحهم إلَّا رئيسٌ واحد ، يجمع شملهم ، ويكفيهم ويحميهم من عدوهم ، ويمنع قلوبهم من ضعيفهم .

(١) ذلك ، من ط فقط .

(٢) م : « ناوى لهم » ، تحريف .

(٣) م : « من عادهم » ، تحريف .

(٤) م ، ب : « وإن يتفاوتوا » .

(٥) كذا . والوجه « قيل » .

وقليل له نظام ، أقوى من كثيرٍ نَشَرٍ^(١) لا نظام لهم ، ولا رئيسٍ عليهم .
 إذ قد علم الله^(٢) أن صلاحَ عامَّةِ البهائم في أن يجعل لكلِّ جنسٍ^(٣) منها
 فحلاً يُوردها الماء ويُصديرها ، وتتبعه إلى الكلاً ، كالعَير في العانة^(٤) ،
 والفحل من الإبل في الهجمة^(٥) ، وكذلك النحلُ العَسالة^(٦) ،
 والكرأكي^(٧) ، وما يحمى الفرسُ الحِصانُ الحُجورَ في المَروج^(٨) ،
 فجعل منها رغوساً متبوعة ، وأذناً تابعة .

ولو لم يُعَيمِ اللهُ للنَّاسِ الوَزَعَ من السُّلطان ، والحِماة من المُلوكِ وأهلِ
 الحِياطة عليهم من الأئمة - لعادوا تَشَرَّأ^(٩) لا نظامَ لهم ، ومُستكَلِبِينَ
 لا زاجرَ لهم ، ولكانَ مَن عَزَّ بَزَّ^(١٠) ، وَمَن قدر قهره ، ولَمَّا زال اليُسْر
 راكدأ ، والهَرَجُ ظاهرأ ، حتَّى يكونَ التَّغابُنُ والبَوار^(١١) ، وحتَّى تنطمسَ

(١) النشر ، بالتحريك : القوم المنفردون لا يجمعهم رئيس . وهذه الكلمة ساقطة من ط .
 (٢) ط : « الله سبحانه وتعالى » .
 (٣) ب : « في كل جنس » .
 (٤) العانة : القطيع من حمر الوحش . وانظر لعير العانة الحيوان ١ : ١١٠ ، ١٩٥ /
 ١٤١ : ٧ . وفي جميع النسخ : « العابة » ، صوابه ما أثبت .
 (٥) في الأصول : « والفحل في الإبل » . وفي ط أيضاً : « والهجمة » ، والوجه
 ما أثبت .

(٦) انظر الحيوان ١ : ١٩ / ٣ : ٣٢٩ / ٥ : ٤١٧ .
 (٧) الحيوان ٣ : ٣٢٨ ، ٤٠٦ / ٥ : ٤١٩ .
 (٨) الحجور : جمع حجر ، بالكسر ، الفرس الأثني . ويقال في جمعه أحجار وحجورة
 أيضاً . وانظر الحيوان ٧ : ١٤١ .
 (٩) انظر للنشر ما سبق قريباً في هذه الصفحة . ب : « نشرا » ط : « نثرا » ، صوابهما في م .
 (١٠) ب : « من عز يزل غيره » ، صوابه في م ، ط . وانظر جمهرة العسكري ٢ : ٢٨٨
 والفاخر ٨٩ والميداني ٢ : ٢٣٥ والمستقصى ٢ : ٣٥٧ واللسان (بز) . ومعناه من غلب
 سلب . قاله جابر بن رلان النسبي لما أقرع النعمان يوم بؤسه بينه وبين صاحبيه ، فقرعهما
 فحلى سبيله .
 (١١) التغابن : أن يغبن القوم بعضهم بعضاً . ب : « التغاني » ، صوابه في م ، ط .



منهم الآثار ^(١) ؛ ولكانت الأنعام طعاماً للسياح ، وكانت عاجزة عن حماية أنفسها ، جاهلة بكثير من مصالح شأنها .

فوصلَ اللهُ تعالى عجزها بقوةٍ من أحوجَه إلى الاستمتاع بها ، ووصلَ جهلها بمعرفةٍ من عرف كيف وجهُ الحيلة في صونها والدِّفاعِ عنها .

وكذلك فرض على الأئمة أن يحوطوا الدهماء ^(٢) بالجراسة لها ، والذبيادِ عنها ^(٣) ، وبردٌ قويها عن ضعيفها ^(٤) ، وجاهلها عن عالمها ، وظالمها عن مظلومها ، وسفيها عن حليمها .

فلولا السائس ضاع المسوس ، ولولا قوة الراعي هلكت الرعية ^(٥) .

١١ - فصل منه

وانفرادُ السيد بالسيادة كانفراد الإمام بالإمامة . وبالسَّلامة من تنازع الرؤساء تجتمع الكلمة ، وتكون الألفة ، ويصلح شأن الجماعة . وإذا كانت الجماعة انتهت الأعداء ، وانقطعت الأهواء ^(٦) .

١٢ - فصل منه

ولسنا نقول ولا يقول أحدٌ ممن يعقل : إنَّ النساءَ فوق الرجال ، أو دونهم بطبيعةٍ أو طبقتين ، أو بأكثر ^(٧) ، ولكننا رأينا ناساً يُزرون عليهم أشدَّ الزرابة ، ويحتقرونهنَّ أشدَّ الاحتقار ، ويبخسونهنَّ أكثرَ حقوقهنَّ .

(١) ب ، م : « ينطمس » ، وفي ب : « منه الآثار » ، صوابه في م ، ط .

(٢) ب : « أن يحيط الدهماء » ط : « أن يحوطها » م : « أن يحوط الدهماء » ، والوجه

ما أثبت .

(٣) في الأصول : « والزيادة عنها » ، صوابه ما أثبت . والزيادة والذود : الدفاع .

(٤) ب : « وترد » ، م ، ط : « ويرد » ، والوجه ما أثبت .

(٥) ب : « هلكت الرعية » .

(٦) ب ، م : « وانقطع الأهواء » .

(٧) ب ، م : « إلا بأكثر » ، صوابه في ط .

وإنَّ من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفيرَ حقوقِ الإباءِ والأعمامِ إلَّا بأنَّ ينكر حقوقَ الأمهاتِ والأخوالِ ، فلذلك ذكرنا جملةً ما للنساءِ من المحاسنِ .

ولولا أنَّ ناساً يفخرون بالجلدِ وقُوَّةِ المُنَّةِ ، وانصرافِ النَّفسِ عن حبِّ النساءِ ، حتَّى جعلُوا شدَّةَ حبِّ الرَّجُلِ لأمَّتِهِ ، وزوجتِهِ وولدهِ ، دليلاً على الضَّعفِ ، وباباً من الخورِ ، لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه في هذا الكتابِ .

١٣ - فصل منه

كما نحبُّ أن يخرجَ هذا الكتابُ تاماً ، ويكونَ للأشكالِ الداخلةِ فيه جامعاً ، وهو القولُ فيما للذكورِ والإناثِ في عامَّةِ أصنافِ الحيوانِ ، وما أمكن من ذلك ، حتَّى يحصلَ ما لكلِّ جنسٍ منها^(١) من الخِصالِ المحمودَةِ والمذمومةِ . ثم يُجمعُ بين المحاسنِ منها والمساوئِ ، حتَّى يستبينَ لقارئِ الكتابِ نقصانُ المفضولِ من رجحانِ الفاضلِ ، بما جاءَ في ذلك من الكتابِ النَّاطقِ ، والخيرِ الصَّادقِ ، والشَّاهدِ العَدْلِ ، والمثلِ السائرِ . حتَّى يكونَ الكتابُ عربياً أعرابياً ، وسُنِّيًّا جماعياً ، وحتَّى يُجتنبَ^(٢) فيه العويصُ والطُّرُقُ المتوعرةُ ، والألفاظُ المستنكرةُ ، وتلزيقُ المتكلمِّينِ^(٣) ، وتلفيقُ أصحابِ الأهواءِ من المتكلمِّينِ ، حتَّى نظرنا^(٤) لمن لا يعلمُ مقاديرَ ما استخرَّها اللهُ من المنافعِ ، وغشَّها من البرهاناتِ^(٥) ، وألزمها من الدَّلالةِ عليه ، وأنطقها به من الحجَّةِ له .

(١) منها ، ساقطة من م ، ط .

(٢) ب : « وحتَّى يجب » صوابه في م ، ط .

(٣) في اللسان : « الملقق - بتشديد الزاى - : الشيء ليس بالهكم » .

(٤) ب ، م : « نظر » ، ط : « نظرا » ، والوجه ما أثبت .

(٥) ط فقط : « البراهين » .



فمنع من ذلك فرط الكثرة^(١) ، وإفراط العلة ، وضعف المنة ،
 وانحلال القوة .

فلما^(٢) وافق هذا الكتابُ منّا هذه الحال ، وألقى^(٣) قلوبنا على هذه
 الأشغال ، اجتنبنا أن نقصد من جميع ذلك إلى فرق ما بين الرجل
 والمرأة .

فلما اعتزمنا على ما ابتدأنا به وجدناه قد اشتمل على أبواب يكثر
 عددها ، وتبعد غايتها ، فرأينا ، والله الموفق ، أن نقتصر منه^(٤) على
 ما لا يبلغ بالمستمع إلى السامة ، وبالمألوف إلى مجاوزة القدر .

وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات أن يحمل أصحابها على
 الجدِّ الصَّرف ، وعلى العقل المحض ، وعلى الحقِّ المرّ ، وعلى المعاني
 الصَّعبة ، التي تستكيدُ النفوس ، وتستفرغُ المجهود .

وللصبر غاية ، وللإحتمال نهاية .

ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل . وعلى أن الكتاب
 إذا كثُر هزله سَخف ، كما أنه إذا كثُر جدُّه ثَقُل .

ولا بدّ للكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارئ ، وينفي
 النعاس عن المستمع . فمن وجد في كتابنا هذا بعض ما ذكرنا ، فليعلم
 أن قصدنا في ذلك إنما كان على جهة الاستدعاء لقلبه ، والاستمالة
 لسمعه وبصره . والله تعالى نسأل التوفيق .

(١) في جميع الأصول : « الكثرة » ، وجهه ما أثبت .

(٢) ب ، م ، « فا » .

(٣) في جميع الأصول : « وألقى » بالقاف .

(٤) ب : « أن أقتصر منه » .

١٤ - فصل منه في ذكر العشق

ورجلان من الناس لا يَعشَقَانِ عِشْقَ الْأَعْرَابِ :

أحدهما الفقير المُدْفِع ، فَإِنَّ قلبه يُشغَلُ عن التوغُّل فيه وبلوغ أقصاه .

والملك الضَّخْمُ الشَّانُ ، لَأَنَّ في الرِّياسة الكبرى ، وفي جوازِ الأمرِ وَنَفَازِ النَّهْيِ ، وفي مِلْكِ رِقَابِ الْأُمَّمِ ، ما يَشغَلُ شَطْرَ قُوَى العِقلِ عن التوغُّلِ في الحب ، والاحتراقِ في العشق .

١٥ - فصل منه

كثيراً ما يعترى العُشَاقَ والمحبِّينَ غير المُحترقين^(١) ، كالرجل تكون له^(٢) جاريةٌ وقد حَلَّتْ من قلبه مَحَلًّا ، وتمكَّنتُ منه تمكُّنًا ، ولا يجتثُّ أصلَ ذلك الحبِّ الغضْبُ تعرُّض ، وكثرةُ التناذُّي بالخلافِ يكون منها ، فيجد^(٣) الفترة عنها [في^(٤)] بعضِ هذه الحالات التي تعرُّض ، فيظنُّ أَنَّهُ قد سلا ، أو يُظنُّ أَنَّهُ في عَزَائِهِ عنها^(٥) على فقدِها مُحتمِلًا ، فيبيعه^(٦) إن كانت أمة ، أو يطلقها^(٧) إن كانت زوجة ، فلا يَنْشَبُ ذلك الغضبُ أَنْ يزول ، وذلك الأذى أَنْ يُنسى ، فمتحرِّكٌ له الدفاتن^(٨) ، ويؤثِّرُ ذلك الغرس ، فيتبعُها قلبه ، فإِذَا أَنْ يسترجع

(١) ب : « المحترفين » بالفاء .

(٢) ب ، م : « لا يجنب » ، صوابه في ط .

(٣) ط فقط : « فيوجد » .

(٤) ليست في الأصول .

(٥) ط : « فظنن » و « أو تظن أنه » ، صوابه في ب ، م . والعزاء : الصبر . ب :

« في غراية عنها » م ، ط : « في عزاية عنها » ، والوجه ما أثبت .

(٦) م ، ط : « مبيها » ، صوابه في ب .

(٧) م ، ط : « أو طلقها » .

(٨) ب : « فيتحرَّك له الدفاتن » .



الأمّة من مُبتاعها ، بأضعافٍ ثمنها ، أو يسترجع الزوجة بعد أن نُكِحَتْ . فَإِنْ تَصَبَّرَ وَأَمَكَنَهُ الصَّبْرُ لَمْ يَزَلْ مُعَذِّباً ، وَإِنْ أَطَاعَ هَوَاهُ واحتمل المكروه فهذا هو العقابيل والنكس^(١) .

فليحذر الحازمُ الفترَةَ في حبِّ حبيبه ، والغضبُ التي تُنسيه عواقبَ أمره .

١٦ - فصل منه

. قال إبراهيم بن السندي^(٢) : حدّثني عبد الملك بن صالح^(٣) قال :
 بينا عيسى بن موسى^(٤) قد خَلَا بنفسه^(٥) ، وهو قد كان
 استكثر من النساء حتى انقطع ، إذ مرّت به جارية^(٦) كأنّها جانٌّ ،
 وكأنّها جدلِ عنان^(٧) ، وكأنّها جُمارة ، وكأنّها قَصِيبُ فِضَّةٍ ، فتحرّكت
 نفسهُ ، وخاف أن تخذله قُوته ، ثم طمِع في القوّة^(٨) لطول التُّركِ ،
 واجتماعِ الماءِ ، فلَمَّا صرَعَهَا ، وجلس منها ذلك المجلس خطر على باله
 لو عَجَزَ كَيْفَ يكون حاله^(٩) ؟ فلما فكَّرَ فترَ ، فأقبلَ كالمخاطب لنفسه
 فقال : إِنَّكَ لتجلسيني هذا المجلسَ ، وتحمليني على هذا المركبِ ، ثم

-
- (١) العقابيل : بقايا العلة والمشق والمرض ، الواحد عقبول وعقبولة . والنكس ،
 بالضم : عود المرض بعد النقع . وفي الأصول : « العقابيل » ولا وجه له .
 (٢) إبراهيم بن السندي ، سبقت ترجمته في ص ٦٠ . ب : « بن السدي » م ، ط : « بن
 السبيدي » ، صوابهما ما أثبت .
 (٣) انظر البيان والتبيين ١ : ٣٣٤ .
 (٤) هو عيسى بن موسى بن محمد بن عبد الله بن العباس ، أحد ولاة العباسيين وقوادهم .
 وأبوه موسى هو أخو السفاح والمنصور . انظر المعارف ١٦٥ .
 (٥) ب ، م : « قد خلى بنفسه » تحريف .
 (٦) ب : « إذ مرت جارية » .
 (٧) أي عنان مجدول . وانظر الحيوان ٦ : ٢٦٢ ورسائل الجاحظ ٢ : ١٢١ .
 (٨) ط : « في لقوة » .
 (٩) ب : « عن عجز كيف يكون حاله » ، تحريف .

تَحَذُّلِنِي هَذَا الْخِذْلَانَ ^(١) وَتَغْشِيَنِي مِثْلَ هَذَا الذَّلِّ ، وَلَوْلَا خَيْرَةُ الْخِجَلِ ^(٢) لَمْ أَسْتَعْمَلْ مَا لَا يَقْتُلُ ! وَذَلِكَ أَنَّهُ حِينَ رَأَى أَنَّ أَبْلَغَ الْحَيْلِ فِي تَوْهِيْمِهَا أَنَّ الْعَجْزَ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهِ أَنْ يَقُولَ لَهَا : تَعَرَّضِي لِي وَأَنْتِ تَفْلِي ، ثُمَّ لَا تُرْحِيَنِي بِأَدْيِكَ ^(٣) ، وَلَا تَسْتَهْدِفِيَن لِسَيْدِكَ ، وَلَا تُعِينِي عَلَى نَفْسِكَ ، حَتَّى كَأَنَّكَ عِنْدَ عَبْدٍ يُشْبِهُكَ ، أَوْ سُوقَةٍ لَا يَقْدِرُ إِلَّا عَلَى مِثْلِكَ ^(٤) . أَمَا لَوْ كُنْتِ ^(٥) مِنْ بَنَاتِ مَلُوكِ الْعَجَمِ لِأَلْفَاكِ سَيْدِكَ عَلَى أَجُودِ صِنْعَةٍ ، وَعَلَى أَحْسَنِ طَاعَةٍ ، إِذْ كُلُّ رَجُلٍ يَنْبَسِطُ لِلتَّمَتُّعِ مَعَ الثَّقَلِ ^(٦) .

١٧ - فصل منه

وَلَمْ أَسْمَعْ وَلَمْ أَقْرَأْ فِي الْأَحَادِيثِ الْمَوْلُودَةِ ، فِي شَأْنِ الْعُشَاقِ ، وَمَا صَنَعَ الْعَشَقُ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَكْبَادِ وَالْأَحْشَاءِ ، وَالزَّفَرَاتِ وَالْمَحْنِينَ ، وَفِي التَّدْلِيهِ وَالتَّوَلِّيهِ ^(٧) ، مَتَى تَسْتَعْرِ الدَّمْعَةَ ^(٨) ، وَمَتَى يُورِثُ الْعَيْنَ الْجُمُودَ ^(٩) .

- (١) ب ، م : « لتجلسني » و « وتحملني » ، و « تحذلني » ، والصواب في ط . واجتماع نون الرفع مع نون الواقية يجوز فيه حذف أحدهما أو إبقاؤهما معاً مع الفك ، ومع الإدغام ، كما في المغني ٣٨٠ . قال : « ونحو تأمروني يجوز فيه الفك ، والإدغام ، والنطق بنون واحدة » .
- (٢) ب ، م : « خيرة الخجل » بالحاء المعجمة ، تحريف .
- (٣) البادان : باطننا الفخذين ، وما بين الرجلين ، ومنه قول الدهناء بنت مسحل : « إني لأرعى لك بادي » . اللسان (بدد ٤٦) . ب : « لا ترحين » بالحاء المهملة ، ط ، م : « لا ترجين » ، والصواب ما أثبت . وفي ط أيضاً « بادتك » ، صوابه في ب ، م .
- (٤) ب : « على ملكك » م : « على ملك » ، صوابهما في ط .
- (٥) لو ، ساقطة من ب ، م .
- (٦) ب : « يبسط » م : « تنبسط » ، صوابهما في ط . وفي ب أيضاً : « مع الثقل » . وفي ط : « للتمتع » ، تحريفان .
- (٧) دلته الحب تدليهاً : حيره وأدهشهُ ، فهو مدله . وكذا وله توليها : حيره وأذهب عقله . وفي م ، ط : « التدلية والتولية » ، صوابهما في ب .
- (٨) في جميع الأصول : « ومتى » ، والوجه حذف الواو . وفي ب فقط : « الدمع » ، تحريف .
- (٩) وجود العين : قلة دمعها . ب ، م : « متى يورب » ، والوجه ما أثبت . وفي ط : « ومتى يعترى » .



ونحن وإن رأينا أن فضل الرجل على المرأة ، في جملة القول في الرجال والنساء ، أكثر وأظهر ، فليس ينبغي لنا أن نقصر في حقوق المرأة . وليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء أن يصغر حقوق الأمهات ، وكذلك الإخوة والأخوات ، والبنون والبنات . وأنا وإن كنت أرى أن حق هذا أعظم فإن هذه أرحم .

١٩ - فصل من احتجاجه للإمام^(١)

قال بعض من احتج لليلة التي من أجلها صار أكثر الإمام أحظى عند الرجال من أكثر المهيبرات^(٢) : أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شيء منها وعرفه ، ما خلا حظوة الخلوة ، فأقدم^(٣) على ابتاعها بعد وقوعها بالموافقة . والحررة إنما يُستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يُبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلاً ولا كثيراً . والرجال بالنساء أبصر . وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، وأما^(٤) الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك .

وقد تُحسين المرأة أن تقول : كأن أنفها السيف ، وكأن عينها عين غزال ، وكان عنقها إبريق فضة ، وكان ساقها جُمارة^(٥) ، وكان شعرها

(١) م فقط : « في الإمام » .

(٢) المهيرة : التي تعطي المهر من الحرائر .

(٣) ب فقط : « فأقبل » .

(٤) ب : « فأما » .

(٥) ب فقط : « وكأنها » . والمجار : شحم النخل ، تشبه به الساق في اللين والبياض .

وفي الحديث : « كاني أنظر إلى ساقه في غرزه كأنها جمارة » .

العناقيد، وكان أطرافها المدايرى^(١)، وما أشبه ذلك ؛
 وهناك^(٢) أسباب أخر بها يكون الحب والبغض .

٢٠ - فصل منه

وقد علم الشاعرُ وعَرَفَ الواصفُ ، أنَّ الجارية الفائقة الحسنِ
 أحسنُ من الطَّيبة ، وأحسنُ من البقرة ، وأحسنُ من كلِّ شيءٍ تشبَّه به ،
 ولكنَّهم إذا أرادوا القولَ شَبَّهوا بأحسنِ ما يجدون .

ويقول بعضهم : كأنَّها الشمس ، وكأنَّها القمر ! والشَّمْسُ وإن
 كانت هَيَّءَةً فإنَّما هي شيءٌ واحد ، وفي وجه الجارية الحسناءِ وخلَّقها
 ضروبٌ من الحسن الغريب والتركيب العجيب .

ومَنْ يشكُّ أنَّ عينَ المرأةِ الحسناءِ أحسنُ من عينِ البقرة ، وأنَّ
 جيدها أحسنُ من جيدِ الطَّيبة ، والأمر^(٣) فيما بينهما متفاوت ، ولكنَّهم
 لو لم يفعلوا هذا وشبَّهه لم تَظْهر بلاغتهم وفطنتهم .

٢١ - فصل منه

ورأيتُ أكثرَ النَّاسِ من البُصراءِ بجواهرِ النساءِ^(٤) ، الذين هم
 جهابذةُ هذا الأمرِ ، يقدِّمون المجدولة^(٥) ، والمجدولة من النساءِ تكون
 في منزلةٍ بين السَّمينةِ والمشوقةِ .

ولا بدُّ من جَوْدَةِ القَدِّ ، وحُسْنِ الخَرَطِ ، واعتدالِ المَنكبينِ ،

(١) أطرافها ، أى أطراف أصابعها . والمدايرى بكسر الراء وفتحها : بجمع مدرى
 ومدراة ، وهى شيء يعمل من حديد أو خشب على هيئة سن من أسنان المشط . تشبه به في الدقة .

(٢) ب : « هناك » بدون واو .

(٣) الواو ساقطة من ب .

(٤) ب : « لجواهر النساء » .

(٥) ب ، م : « المجدولة » . في هذا الموضع وتاليه ، تصحيف .



واستواء الظهر ، ولا بدَّ من أن تكون كاسية العظام ، بين الممتلئة والقصيفة .

وإنما يريدون بقولهم : مجدولة^(١) ، جودة العصب ، وقلة الاسترخاء ، وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول .

وكذلك قالوا : خمصانة وسيفانة^(٢) ، وكأنها جان ، وكأنها جدل عنان^(٣) ، وكأنها قصب خيزران .

والثنتى في مشيها أحسن ما فيها ، ولا يمكن ذلك الضخمة والسمنة ، وذات الفضول والزوائد .

على أن النحافة في المجدولة^(٤) أعم ، وهي بهذا المعنى أعرف^(٥) ، تُحبَّب على السمان الضخام^(٦) ، وعلى المشوقات والقضاف^(٧) ، كما يحبَّب هذه الأصناف على المجدولات^(٨) .

ووصفوا المجدولة بالكلام^(٩) المنشور فقالوا : « أعلاها قصب ، وأسفلها كتيب » .

(١) ب ، م : « مجدولة » ، تصحيف ما في ط .

(٢) الخمصانة ، بفتح الخاء وضمها : الضامرة البطن . والسيقانة : الطويلة المشوقة الضامرة . ب : « خصانته » ، صوابه في م ، ط . وفي ط : « سيقانة » ، صوابه بالفاء كما في ب ، م .

(٣) انظر الحاشية ٧ من ص ١٥٥ .

(٤) ب ، م : « المجدولة » في هذا الموضع وتاليه ، والصواب في ط .

(٥) بعدها في جميع النسخ : « ولم أر المجدولة أعم وهي بهذا المعنى أعرف » ، وهو تكرار

لما سبق .

(٦) ب ، م : « تيجيب على أصحاب السمان الضخام » ، وأثبت ما في ط .

(٧) القصيفة : الدقيقة النحيفة لا عن هنال . ب ، م : « أصحاب المشوقات والقضاف » .

(٨) ب : « كما يجيب » ، وأثبت ما في م ، ط . وفي ب ، م أيضاً : « أصناف

المجدولات » ، صوابه في ط .

(٩) ب : « المجزولة » م : « المجدولة » ، صوابه في ط .

وقف الأمير غازي للفكر القرآني
A 1977
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT
Est. 2012 CE





٧

من رسالة في

مناقب التُّرك وعامة جُند الخِلافة

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
A 1977
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT
Est. 2012 CE



فصل من صدر رسالته إلى الفتح بن خاقان (١)
 في مناقب الترك وعمامة جند الخلافة (٢)

وَفَقَّكَ اللهُ لِرُشْدِكَ^(٣) ، وَأَعَانَ عَلَى شُكْرِكَ^(٤) ، وَأَصْلَحَكَ وَأَصْلَحَ
 عَلَى يَدَيْكَ ، وَجَعَلْنَا وَإِيَّاكَ مِمَّنْ يَقُولُ بِالْحَقِّ وَيَعْمَلُ بِهِ ، وَيُؤَثِّرُهُ ، وَيَحْتَمِلُ
 مَا فِيهِ مِمَّا قَدْ يَصُدُّ عَنْهُ^(٥) ، وَلَا يَكُونُ حَظُّهُ مِنْهُ^(٦) الْوَصْفَ لَهُ ،
 وَالْمَعْرِفَةَ بِهِ ، دُونَ الْحَثِّ عَلَيْهِ ، وَالْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ ، وَكَشَفِ الْقِنَاعِ فِيهِ^(٧) ،
 وَإِيصَالِهِ إِلَى أَهْلِهِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَحَافِظَةِ فِي أَنْ لَا يَصِلَ إِلَى غَيْرِهِمْ ،
 وَالتَّثَبُّتِ فِي تَحْقِيقِهِ لَدَيْهِمْ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُعَلِّمِ النَّاسَ لِيَكُونُوا عَامِلِينَ
 دُونَ أَنْ يَكُونُوا عَامِلِينَ ، وَإِنَّمَا عَلَّمَهُمْ لِيَعْمَلُوا^(٨) ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ لِيَتَّقُوا^(٩) التَّوَرُطَ
 فِي وَسْطِ الْخَوْفِ ، وَالْوَقُوعِ فِي الْمَضَارِّ ، وَالتَّوَسُّطِ فِي الْمَهَالِكِ . فَلذَلِكَ
 طَلَبَ النَّاسُ التَّبَيِّنَ^(١٠) .

(١) الفتح بن خاقان هذا هو وزير المتوكل العباسي . وكان أديباً شاعراً فصيحاً بارع الذكاء .
 وكانت له خزانة كتب حافلة ، وله مؤلفات منها: كتاب اختلاف الملوك ، وكتاب الصيغ
 والجراح ، وكتاب الروضة والزهرة . وقتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ .
 وهو غير الفتح بن محمد عبيد الله بن خاقان ، صاحب قلائد العقيان . انظر فهرست ابن النديم
 ١٦٩ - ١٧٠ وفوات الوفيات ٢ : ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) نشرت كاملة في ليدن ١٩٠٣ م بعناية فان فلوتن ، كما نشرها الساسي في مجموع رسائله
 سنة ١٣٢٤ هـ = ١٩٠٧ م كما نشرت في رسائل الجاحظ بتحقيق سنة ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م .
 وقد رمزت للأولى هنا بالرمز (ن) وللثانية بالرمز (م) .

(٣) في جميع الأصول : « وأرشدك » ، وأثبت ما في ميج والرسائل ١ : ٥ هارون .

(٤) ط ، م : « وأعانك على شكره » .

(٥) ب : « يصدر عنه » ، وأثبت ما في م ، ط . وفي ميج والرسائل : « بما قد يصدده عنه »

(٦) منه ، ساقطة من الأصول ، ثابتة في ميج والرسائل .

(٧) ميج فقط : « عنه » .

(٨) ب ، ط : « ليملوا » ، صوابه في سائر النسخ .

(٩) ب : « ليتقوا » صوابه في م ، ط والرسائل . وبعد هذه الكلمة في ميج فقط :

« وتلوف الوقوع في المضار ، والتورط في المهالك ، طلب الناس التبيين » .

(١٠) م ، ط فقط : « التبيين » .

ولحِبِّ السَّلَامَةِ مِنَ الْهَلَكَةِ ، وَالرَّغْبَةِ فِي الْمَنْفَعَةِ احْتَمَلُوا ^(١) ثِقَلَ التَّعَلُّمِ ، وَتَعَجَّلُوا مَكْرَهُهُ ثِقَلَ الْمَعَانَاةِ ^(٢) .

ولقلة العالمين وكثرة الواصفين قال الأولون : العارفون أكثر من الواصفين ، والواصفون أكثر من العالمين .

وإنما كثرت الصفات وقلَّت الموصوفات لأنَّ ثواب العمل مؤجَّل ، واحتمال ما فيه معجَّل .

وقد أعجبنى ما رأيتُ من شغفك ^(٣) بطاعة إمامك ، واحتجاجك لتدبير خليفتك ، وإشفاقك من كلِّ خطلٍ يدخله وإنَّ دقَّ ، ونال سلطانه ^(٤) وإنَّ صغرُ ، ومن كلِّ أمرٍ خالف هواه وإنَّ خفى مكانه ، وجانب رضاه وإنَّ قلَّ ضرره . ومن تخوفك ^(٥) أنَّ يجد ^(٦) المتأوِّل إليه متطرِّقاً ، والعدوُّ عليه متعلِّقاً ؛ فإنَّ السلطان لا ينفكُ من متأوِّلٍ ناظمٍ ، ومن محكومٍ عليه ساخطٍ ، ومن معزولٍ ^(٧) عن الحكم زارٍ ، ومن متعطلٍّ متصفِّحٍ ، ومن مُعجَبٍ برأيه ، ذى خطلٍ في بيانه ، مُولعٍ بتتهجين الصَّواب ، وبالاعتراض على التدبير ، حتَّى كأنَّه رائدٌ لجميع الأمة ، ووكيلٌ لسكَّان جميع المملكة ؛ يضعُ نفسه في مواضع الرُّقباة ، وفي مواضع التصفُّح على الخلفاء والوزراء . لا يعزُرُ وإنَّ كان مجازُ العُدْر ظاهراً ، ولا يقف فيما يكون للشكِّ محتَمِلاً ، ولا يصدِّق بأنَّ الشاهد

(١) ب فقط : « احتمل » .

(٢) مع والرسائل : « مكروه المعاناة » .

(٣) ب فقط : « شغلك » .

(٤) ط فقط : « ونول سلطانه » .

(٥) ب ، م : « وإن تخونك » ، صوابه في سائر النسخ .

(٦) في جميع الأصول : « أن تجد » ، صوابه في مع والرسائل .

(٧) مع والرسائل : « معدول » بالبدال ، وله وجهه .

يرى ما لا يرى الغائب ، وأنه لا يعرف مصادر الرأى من لم يشهد موارده ، ومُستدبره من لم يعرف مُستقبله .

ومن محرومٍ قد أضعفه الحرمان ، ومن لئيمٍ قد أفسده الإحسان ، ومن مستبطنٍ قد أخذ أضعاف حقه ، وهو لجهله بقدره ، ولضيق ذرعه ، وقلّة شكره ، يظنُّ أنّ الذى بقى له أكثر ، ولحقه أوجب .

ومن مستزيدٍ لو ارتجع السلطان سالف أياديه البيض عنده ، ونعمته السالفة عليه ، لكان ^(١) لذلك أهلاً ، وله مستحقاً . قد غره الأمل ^(٢) ، وأبطره دوائم الكيفاية ، وأفسده طول الفراغ .

ومن صاحب فتنة ^(٣) خامل فى الجماعة ، رئيس فى الفرقة نعاق فى الهرج ، قد أقصاه عز السلطان ^(٤) ، وأقام صغوه ثقاف الأدب ^(٥) ، وأذله الحكم بالحق ^(٦) ، فهو مغيظ لا يجد غير التشنيع ^(٧) ، ولا يتشفى بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلا إلى الأمانى ^(٨) ، ولا يأنس إلا بكل مرجف كذاب ، ومفتون مُرتاب ، وخارص لا خير فيه ، وخالف لا غناء عنده ، يُريد أن يسوى بالكفاة ، ويرفع فوق الحماة ، لأمر ما سلف ^(٩) له ، ولإحسان كان من غيره ^(١٠) ، وليس ممن يربُّ قديم مجد ^(١١) ، ولا يحصل

(١) ب ، م : « وكان » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) ب ، مع ورسائل الجاحظ : « الإملاء » .

(٣) ط : « للفتنة » .

(٤) وكذا فى مع . وفى رسائل الجاحظ : « قد أقصاه السلطان » .

(٥) الصغور ، بالكسر والفتح : الميل . وفى جميع النسخ : « صغره » ، صوابه فى مع .

(٦) ب ، م : « الخلم بالحق » وفى ط « الجهل بالحق » ، صوابهما فى مع ورسائل

الجاحظ .

(٧) ب : « التشنيع » ، صوابه فى م ، ط ، مع ورسائل الجاحظ .

(٨) ب : « إلا بالأمانى » .

(٩) ب : « لا يسلف له » م ، ط : « لا أب سلف له » ، صوابهما فى رسائل الجاحظ .

وفى مع : « لأمر سلف له » .

(١٠) ط فقط : « وإحسان كان من غيره » .

(١١) ط : « يربه قديم مجد » . مع ورسائل الجاحظ : « يرب قديماً جديداً » .



بُدروس شرف^(١) ، ولا يَفْصِلُ بين ثواب [المحتسبين ، وبين الحفظ
لأبناء^(٢)] [المُحْسِنِينَ .

وكيف يعرف فَرَقَ ما بين حَقِّ الذِّمَامِ^(٣) وَثَوَابِ الكِفَايَةِ مَنْ
لا يعرف طبقاتِ الحَقِّ في مراتبه ، ولا يَفْصِلُ بين طبقاتِ الباطل^(٤)
في منازله .

ثم اعلم^(٥) بعد ذلك أَنَّكَ بِنَعْسِكَ بدأتَ في تعظيمِ إمامك ، والحفظِ
لمناقبِ أنصارِ خليفتك^(٦) ، وإيَّاهَا حُطَّتْ بحياطتك^(٧) لأشْيَاعِهِ ،
واحتجاجك لأوليائه ، ونعم العون أنت ، إن شاءَ اللهُ ، على ملازمةِ الطَّاعَةِ ،
والمُوازرةِ على الخير^(٨) ، والكفَايَةِ لِأَهْلِ الحَقِّ .

وقد استدللتُ بالذي أرى من شدةِ عِنَايَتِكَ^(٩) وفَرَطِ اكْتِرَائِكَ ،
وتفَقُّدِكَ لِأَجْنَاسِ الأَعْدَاءِ^(١٠) ، وبحثك عن مناقبِ الأَوْلِيَاءِ - على أَنَّ
ما ظَهَرَ من نُصْحِكَ أُمَّمٌ في جَنَبِ ما بَطَّنَ من إِخْلَاصِكَ^(١١) . فأمْتَع

(١) ط : « ولا يغفل به رروس شرفا » صوابه في سائر النسخ .

(٢) التكلمة من معج والرسائل .

(٣) الذمام ، بكسر الهمزة ، والحق والحرمة ، وكل حرمة تلزمك إذا ضيعتها المذمة .

ب : « فوق ما بين حق الزمام » ، تحريف .

(٤) ب فقط : « المبطل » ، تحريف .

(٥) معج والرسائل : « ثم أعلمتني » .

(٦) ب : « والحفظ بمناب أبطار خليفتك » ، صوابه في سائر النسخ .

(٧) في الأصول : « لحياطتك » ، وأثبت ما في معج والرسائل .

(٨) ب فقط : « والموازنة » ، تحريف .

(٩) من ، ساقطة من ب ، م . وكلمة « شدة » من معج والرسائل .

(١٠) في الأصول : « ولقدك » ، صوابه في معج والرسائل . وفي معج والرسائل :

« لأخبار الأعداء » . والأخبار : جمع جمع للخبر ، كما في اللسان .

(١١) الأُم : اليسير . وأنشد ياقوت في معجم البلدان :

تسأني برامتين سلجما يا هند لو سألت شيئاً أما

جاء به الكرى أو تيبها



الله بك خليفته ، وَمَنَحْنَا وَإِيَّاكَ مَحَبَّتَهُ ، وَأَعَاذْنَا وَإِيَّاكَ مِنْ قَوْلِ الزُّورِ ،
والتقربُ بالباطل ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، فَعَالَ لَمَا يَرِيدُ .

وذكرتَ أَنَّكَ جالستَ أَخْلَاطاً مِنْ جُنْدِ الْخِلافةِ ، وَجَماعَةٍ مِنْ
أبناءِ الدَّعوةِ ، وشيوخاً مِنْ جِلَّةِ الشُّيعَةِ^(١) ، وَكُهولاً مِنْ أبنائِ رجالِ
الدولةِ ، المنسوبين إلى الطاعةِ والمُناصحةِ ، ومحبَّةِ الدِّيْنِ^(٢)
دونِ محبَّةِ الرُّغبةِ والرَّهبةِ ، وَأَنَّ رَجُلًا مِنْ عُرْضِ تلكِ الجماعةِ^(٣)
ارتحلَ الكلامَ ارتجالاً مستبِدُّ ، وتفرَّدَ به تفرُّدٌ مُعجَبٌ ، وَأَنَّهُ تعسَّفَ
المعانيَ وتهجَّمَ على الألفاظِ^(٤) فزعمَ أَنَّ جندَ الخِلافةِ اليومَ على خمسةِ
أقسامٍ : خُرَاسانيٌّ ، وَتُرْكيٌّ ، وَموَلِيٌّ ، وعربيٌّ ، وَبنَوِيٌّ^(٥) ، وَأَنَّهُ أَكثَرَ حمداً
اللهُ وشكَّرهَ على إحسانه ومِنَّتهِ ، وعلى جميعِ أياديهِ ، وسبوغِ نِعَمِهِ^(٦) ،
وعلى سُموْلِ عافيتهِ ، وجزِيلِ مواهبِهِ ، حينَ أَلَّفَ على الطاعةِ هذهِ

(١) الجملة : جمع جليل ، وهو ذو الخطر والشأن . وفي الأصول : « من جملة الشيعة » ،
وأثبت ما في معج والرسائل .
(٢) الدينونة : الطاعة ، من الدين بالكسر . وهذا ما في م . وفي ب : « ومحبة الدينوية » ،
وفي ط والرسائل : « والمحبة الدينية » . وفي معج : « والمناصحة الدينية . والدينونة لم ترد في
المعاجم المتداولة . وفي اللسان (كون) : « قال الفراء : العرب تقول في ذوات الياهم مما يشبه
زغت وسرت : طرت طبرورة ، وحدث حيدودة ، فيما لا يحصى من هذا الضرب .
فأما ذوات الراو مثل قلت ورضت فأهيم لا يقولون ذلك . وقد أتى عنهم في أربعة أحرف ،
منها الكينونة من كنت ، والدميمومة من دمت ، والهينونة من الهواع ، والسيدودة من سدت » .
(٣) ب ، م : « الجملة » ، وأثبت ما في ط ومعج والرسائل . وبعده فيها : « ومن
حاشية تلك الجملة » .

(٤) في جميع الأصول : « وتهجم » بالكاف ، صوابه في معج والرسائل .
(٥) البنوي : نسبة إلى واحد الأبناء . ويقال أيضاً « أبنواي » نسبة إلى الجمع ، وهم قوم
أرسلهم كسرى مع سيف بن ذي يزن حين جاء يستنجد على الحبشة ، فنصروه وملكوا اليمن
وتديروها ، وتزوجوا في العرب فقيل لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم ، لأن أمهاتهم
من غير جنس آبائهم . اللسان (بنو) والتنبيه والإشرف ٤٢١ . ويبدو أن جميع الذين اجتذبهم
الحروب من الفرس إلى جزيرة العرب كان العرب يسمونهم الأبناء . وفي جميع الأصول :
« وبنوئي » ، صوابه في معج والرسائل .

(٦) معج والرسائل : « وسابغ نعمه » .

القلوب المختلفة ، والأجناس المتباينة ، والأهواء المتفرقة ، وأنتك اعترضت على هذا المتكلم المستبد ، وعلى هذا القائل المتكلف الذي قسم هذه الأقسام ، وخالف بين هذه الأركان ، وفضل بين أنسابهم . وأنتك أنكرت ذلك عليه أشد الإنكار ، وقذعته أشد القذع .

وزعمت أنهم لم يخرجوا من الاتفاق ، أو من شيء يقرب من الاتفاق^(١) ، وأنتك نفيت^(٢) التباعد في النسب ، والتباين في السبب .

وقلت : بل أزعم أن الخراساني والتركي أخوان ، وأن الحيز واحد ، وأن حكم ذلك الشرق^(٣) ، والقضية على ذلك الصنع^(٤) متفق غير مختلف ، ومتقارب غير متفاوت ، وأن الأعراق في الأصل إن لا تكن^(٥) كانت راسخة ، فقد كانت متشابهة ، وحدود البلاد المشتملة عليهم إن لا تكن^(٦) متساوية فإنها متناسبة ، وكلهم خراساني في الجملة ، وإن تميزوا ببعض الخصائص ، وافترقوا ببعض الوجود .

وزعمت أن اختلاف التركي والخراساني ليس كاختلاف ما بين الرومي والصقلبي ، والزنجي والحبشي ، فضلاً على ما هو^(٧) أبعد جوهرأ ، وأشد خلافاً ، بل كاختلاف ما بين المدري والوبري ، والبدوي والحصري ، والسهلي والجبلي ، وكاختلاف ما بين من نزل البطون وبين

(١) أو من شيء يقرب من الاتفاق ، ساقط من م ، ط وإن كان قد ورد بهامش م بخط مخالف .

(٢) مع والرسائل : « وأنتك أنكرت » .

(٣) ب فقط : « الشرف » بالفاء ، صوابه في سائر النسخ .

(٤) ط : « والقضاء » بدل « القضية » . وفي م : « ذلك الصنع » ، تعريف .

(٥) ط : « إذا لم تكن » مع : « إن لم تكن راسخة » .

(٦) مع : « إن لم تكن » .

(٧) مع والرسائل : فضلاً عما هو .

من نزل النجود^(١) ، وبين من نزل الأغوار^(٢) .

وزعمت أنّ هؤلاء وإن اختلفوا في بعض اللّغة ، وفارق بعضهم بعضاً في بعض الصّورة^(٣) ، فقد نجد أنّ علياً تميم^(٤) ، وسفلى قيس ، وعَجَزَ هوازن^(٥) ، وفصحاء الحجاز ، خلاف لغة حمير^(٦) وسكّان مخاليف اليمن ، وكذلك الصّورة والصّورة ، والشّمال والشّمائل ، والأخلاق والأخلاق . وكلّهم مع ذلك عربيّ خالصّ غير مشوّب ، ولا مُعلّج ولا مدرّع^(٧) ولا مزلج^(٨) . ولم يختلفوا كاختلاف ما بين

(١) النجود : جمع نجد ، وهو ما غلظ من الأرض وارتفع واستوى ، والجمع أجد ، وأنجاد ، ونجاد ، ونجود ، ونجد . ب ، ط : « البحور » تحريف ، صوابه في م مع أتر تصحيح ، وكذا في م و الرسائل .

(٢) الأغوار : جمع غور ، وهو ما انخفض من الأرض . ب : « الأهواز » م : « الأغوار » ، صوابها في ط ، م و الرسائل .

(٣) ب : « وقارب بعضهم بعضاً وبعض الصّورة » ، صوابه في م ، ط ، م و الرسائل ، لكن في ط : « وبعض الصّورة » تحريف .

(٤) م و الرسائل : « فقد تحالفت علياً تميم » . وعلياً تميم ، أو عالية تميم هم بنو عمرو بن تميم ، وهم بنو الهجيم والعنبر ومازن ، كما في اللسان (علا ٣٢٦) . وفي الصاحبى ٢٨ والمزهر ١ : ٢١١ : « أفصح العرب علياً هوازن وسفلى تميم » . وفي البرهان للزركشى : ٢٨٣ : « وأما سفلى تميم فبنو دارم » . وهم بنو دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ابن تميم .

(٥) في الصاحبى ٢٨ والمزهر ١ : ٢١٠ : « العجز من هوازن ، وهم الذين يقال لهم علياً هوازن ، وهم خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف » . وفي اللسان : « عجز هوازن : بنو نصر بن معاوية ، وبنو جشم بن بكر ، كأنه آخرهم » . ويبدو أن الوصف بالعليا والسفلى راجع إلى الموقع الإقليمي . فعليا تميم : من يسكنون العالية ، وهى ما ولى الحجاز وتامة . وسفلام : من يسكنون السافلة ، وهى ما ولى العراق . وتمامي كلها مشهود لها بالفصاحة .

(٦) م و الرسائل : « وهى في أكثرها على خلاف لغة حمير » .

(٧) الملهج : الهجين ، وهو العربي المولود من أمة . والمدرع : الذى أمه عربية وأبوه عربي . وأنشد :

إذا باهل عنده حنظلية لها ولد منه فذاك المدرع

وفى جميع النسخ : « ولا مربوع » ، صوابه في م و الرسائل وهامش م .

(٨) المزلاج : الدعى ، والمزلاج بالقوم وليس منهم ، كأنهم يزجونهم عن أنسابهم لعدم

أصالته . ب فقط : « مزنج » ، صوابه في م ، ط وم و الرسائل .

فَقَطَّانَ وَعَدْنَانَ ، مِنْ قَبْلِ مَا طَبِعَ اللَّهُ عَلَيْهِ تِلْكَ التُّرْبَةَ مِنْ خِصَائِصِ
الْفَرَائِزِ ، وَمَا قَسَمَ لِأَهْلِ كُلِّ جَزِيرَةٍ مِنَ الشُّكْلِ وَالصُّورَةِ ، وَمِنَ الْأَخْلَاقِ
وَاللُّغَةِ .

فإن قلتَ : وكيف صار أولادُهما جميعاً عَرَباً ، مع اختلاف الأبوة ؟
قلنا : إنَّ الجزيرة لما كانت واحدةً فاستَوُوا^(١) في التُّربة وفي اللُّغة ،
وفي الشُّبائلِ والهِمةِ ، وفي الأنْفِ والحميَّةِ ، وفي الأخلاقِ [والسجِيَّةِ]^(٢) ،
فسبكوا سبكاً واحداً ، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط^(٣) ، حتى
صار ذلك أشدَّ تشابهاً في باب الأعمِّ والأخصِّ ، وفي باب الوفاقِ
والمباينةِ^(٤) من بعضِ الأرحامِ ، وجرى عليهم حُكْمُ الاتِّفَاقِ في الحسَبِ^(٥) ،
وصارت هذه الأسبابُ ولادةً أُخرى حتى تناكحُوا عليها ، وتصارهروا
من أجلها . وامتنعتِ عدنانُ قاطبةً من مناكحةِ بني إسحاقِ ، وهو أخو
إسماعيلَ ، وجادوا^(٦) بذلك في جميعِ الدَّهرِ لبني قحطانِ^(٧) .

ففي إجماعِ الفريقينِ على التَّنَاحُحِ والتَّصَاهُرِ ، ومنعهما ذلك جميعاً
الأُممُ ، ككسرى^(٨) فمن دونه ، دليلٌ على أَنَّ النَّسَبَ^(٩) عندهم متَّفِقٌ ،
وأنَّ هذه المعاني قد قامت عندهم مقامَ الولادةِ والأرحامِ الماسَّةِ .

(١) ط فقط : « استوا » بدون فاء .

(٢) التكلمة من معج والرسائل .

(٣) ب ، م : « وتباينت الأخلاق » ، ط : « وتباينت الأخلاق » ، صوابها في معج

والرسائل .

(٤) في الأصول : « وفي باب الوفاق وفي البنية » ، صوابه في معج والرسائل .

(٥) في الأصول : « وفي الحسب » ، والوجه حذف الواو كما في معج والرسائل .

(٦) جادوا ، أي سمحوا . وفي الأصول : « وجازوا » ، صوابه في معج والرسائل .

(٧) في الأصول : « وكبني قحطان » ، وأثبت ما في معج والرسائل .

(٨) ب فقط : « كسرى » .

(٩) ب ، م : « دليل على النسب » ، تحريف .



وزعمت أنه أراد الفرقة والتحزيب^(١) ، وأنك أردت الألفة والتقريب^(٢) .

ثم زعمت أيضاً أن البَنَوِيَّ^(٣) خُرَاسَانِيٌّ ، وأنَّ نسب الأبناء نسب آبائهم ، وأنَّ حُسْنَ صنيع الآباء ، وقديمَ فَعَالِ الأجداد ، هو حَسَبُ الأبناء ، وأنَّ الموائى بالعرب أشبهُ ، وإليهم أقرب ، وبهم أَمْسٌ ؛ لِأَنَّ السُّنَّةَ^(٤) قد نقلت الموائى إلى العرب في كثيرٍ من المعاني ، لأنهم عربٌ في المدعى ، وفي العاقلة ، وفي الوراثة^(٥) . وهذا تأويلُ قوله^(٦) : « مَوَالِي الْقَوْمِ مِنْهُمْ^(٧) » . و « الْوَلَاءُ لِحِمَّةٍ كُلِّحِمَّةٍ النَّسَبِ^(٨) » .

ثم زعمت أن الأتراك قد شاركوا القومَ في هذا النسب ، وصاروا من العرب بهذا السبب ، مع الذي بانوا به من الخلال ، وجبوا به من شرف الخصال .

على أن ولاء الأتراك للبابِ قريش ، ولمُصَاصِ عبدِ مناف ، [وهم^(٩)] في سرِّ هاشم ، وهاشمٌ مَوْضِعُ العِذارِ من خَدِّ الفرس ، ومحلُّ العِقدِ

(١) التحزيب : أن يجعلهم أحزاباً و فرقةً . ب : « والتخريب » م : « والتخويف » ط : « والتحزب » ، صوابه في مج والرسائل .
 (٢) ط فقط : « والتقرب » .

(٣) في الأصول : « البنوي » صوابه في مج والرسائل . وانظر ما سبق في صفحة ١٦٧ .

(٤) ب ، م : « الشبه » ط : « النسبة » صوابهما مج والرسائل .

(٥) في الأصول : « الراية » ، وأثبت ما في مج والرسائل .

(٦) مج : « قوله عليه الصلاة والسلام » .

(٧) ويروى : « من أنفسهم » . الجامع الصغير ٩١٢٤ . وأخرجه البخاري عن أنس .

(٨) أخرجه الطبراني عن عبد الله بن أبي أوفى ، والحاكم والبيهقي عن ابن عمر . الجامع

الصغير ٩٦٨٧ .

(٩) التكلفة من رسائل الجاحظ .

من لَبَّةِ الكَعَابِ^(١) . وهو^(٢) الجواهر المكنون ، والدَّهَبُ المصنَّى ، وموضع المُنْحَة من البيضة^(٣) ، والعين في الرأس^(٤) ، والرُّوح من البدن . ومُهم الأَنْفِ المَقْدَم ، والسَّنَام الأَكْوَم ، والطَّيْنَةُ البِيضَاءُ ، والدَّرَّةُ الزهراء ، والرَّوْضَةُ الخَضْرَاءُ ، والدَّهَبُ الأَحْمَرُ .

فقد شاركوا العرب في أنسابهم ، وفَضَلُوهم بهذا الفضل الخاص الذي لا يبُلِّغُه فضلٌ وإن بَرَعَ ، بل لا يَعْشُرُه شرفٌ وإن عَظُم ، ولما جَدُّوا إن قَدِم . فزعمت أن أنساب الجميع متقاربةٌ غير متباعدة ، وعلى حسب ذلك التَّقَارُبِ تكون الموازنة والمكائفة^(٥) ، والطاعة والمناصحة ، والمحبة للخلفاء والأئمة .

وذكرت أنه ذكرَ جُملاً من مفاخر هذه الأجناس ، وجمهرة من مناقب هذه الأصناف ، وأنه جمع ذلك وفصله ، وأجمَلَه وفسره ، وأنه ألغى ذكر الأتراك فلم يعرض لهم^(٦) ، وأضرب عنهم صفحاً فلم يُخَيِّر عنهم ، كما أخبر عن^(٧) حُجَّة كلِّ جيل ، وعن بُرْهان كلِّ صنف . فذكر أن الخراساني يقول : نحنُ النُّقباءُ ، وأبناءُ النُّقباءُ ، ونحن النُّجباءُ وأبناءُ النُّجباءُ ، ومِنَّا الدُّعاة قبل أن تظهر نقابة^(٨) ، أو تُعرف

- (١) في رسائل الجاحظ : « الكاعب » ، وهما سواء . يقال جارية كعاب ومكعب ، وكاعب : نهد ثديها . واللبة بالفتح ، واللبب بالتحريك : موضع القلادة من الصدر .
 (٢) وهو ، ليست في رسائل الجاحظ . كما أن وجهها « وهم » .
 (٣) حمة البيضة ويحها : ما في جوفها من صفرة . ب فقط : « الحمة » تحريف .
 (٤) مع فقط : « من الرأس » .
 (٥) المكائفة ، بالنون : المعاونة ، ومثلها المكائفة ، بالتاء ، كما في المعجم الوسيط .
 ب ، م : « والمكايفة » . صوابها في ط ومع . وفي رسائل الجاحظ : « والمكائفة » بالتاء .
 (٦) ط فقط : « بهم » .
 (٧) ط فقط : « خبر » .
 (٨) النقيب : العريف على القوم المقدم عليهم ، الذي يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم . والنقابة بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم .

نَجَابَةٌ ، وقبل المغالبة والمبادأة^(١) ، وقبل كَشَفِ القِنَاعِ وزوالِ التَّقِيَّةِ .
وبنا زَالَ مُلْكُ أَعْدَائِنَا عَنْ مُسْتَقَرِّهِ ، وَتَبَّتْ مُلْكُ أَوْلِيَائِنَا فِي
نصابه ، وَبَيَّنَّ ذَلِكَ مَا قُتِلْنَا وَشُرِدْنَا ، وَنُهِكْنَا ضَرْباً وَطَلْباً ، وَبُضِعْنَا
بِالسُّيُوفِ الخُدَادِ ، وَعُدْبُنَا بِأَلْوَانِ العَذَابِ .

وبنا شَفَى اللهُ تَعَالَى الصُّدُورَ ، وَأَدْرَكَ الثَّأْرَ ، وَمَنَا الاثْنَى عَشَرَ
النُّقْبَاءَ ، وَالسَّبْعُونَ النُّجَبَاءَ . وَنَحْنُ الخَنْدَقِيَّةُ وَأَبْنَاءُ الخَنْدَقِيَّةِ^(٢) ،
وَنَحْنُ الكَفِّيَّةُ وَأَبْنَاءُ الكَفِّيَّةِ^(٣) ، وَمَنَا المُسْتَجِيبَةُ ، وَمَنْ^(٤) يَهْرَجُ التَّيْمِيَّةَ ،
وَمَنَا نَيْمِ خَزَانَ^(٥) ، وَأَصْحَابُ الجَوْرَبِيِّنِ^(٦) ، وَمَنَا الزُّغَنْدِيَّةِ^(٧) ،
وَالْأَزَادْمَرْدِيَّةِ^(٨) .

وَنَحْنُ فَتَحْنَا البِلَادَ ، وَقَتَلْنَا العَدُوَّ بِكُلِّ وَادٍ ، وَنَحْنُ أَصْلُ هَذِهِ الدُّوَلَةِ ،
وَمَنْبِتُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، وَأَصْحَابُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ ، وَمِنْ عِنْدِنَا هَبَّتْ هَذِهِ الرِّيحُ .
وَالْأَنْصَارُ أَنْصَارَانِ : الأَوْسُ والخَزْرَجُ ، نَصَرُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ فِي أَوَّلِ الزَّمَانِ ، وَأَهْلُ خُرَاسَانَ نَصَرُوا وَرَثَتَهُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ،
عَدَّانَا بِذَلِكَ آبَاؤُنَا ، وَعَزَّوْنَا بِهِ أَبْنَاءُنَا ، وَصَارَ لَنَا نَسَباً لَا نَعْرِفُ إِلَّا بِهِ ،
وَدِيناً لَا نُؤَالِي إِلَّا عَلَيْهِ .

(١) في الرسائل : « والمباراة » وبالراء .

(٢) الخندقية : أصحاب الخنادق أيام نصر بن سيار ، كما سيأتي في أول ص ١٧٦ .

(٣) ط فقط : « الكتفية وأبناء الكتفية » .

(٤) م ، ط : « منا » وفي ط والرسائل بعده : « يهرج التيمية » وفي معج : « يهرج التيمية » .

(٥) ط فقط : « تيم خزان » .

(٦) ب ، م : « الجوزتين » . وفي ط : « الحوزتين » ، وأثبت ما في معج والرسائل .

(٧) زغند ، في الفارسية بمعنى صوت الحيوان الوحشي . وسيأتي في ص ١٧٩ : « ولنا

الأصوات التي تسقط الجبال » .

(٨) الأزازمردية : اسم كان يطلق على طبقة الأشراف من الفرس . انظر مقال الدكتور

كراوس في مجلة الثقافة العدد ٢٢٤ . ب : « والأاذمردية » م : « والأزادردية » ط :

« والأزادردية » ، صوابه في معج والرسائل .

ثم نحن على وتيرة واحدة، ومنهاج غير مشترك، نُعرف بالشيعة، ونُدِين بالطاعة، ونُقْتَلُ فيها، ونَمُوتُ عليها. سَيَانَا موصوفٌ، وليأسنا معروف، ونحن أصحاب الرِّايات السود، والروايات الصحيحة^(١)، والأحاديث الماثورة، والذين يَهْدِمُونَ مُدُنَ الجبابرة، وينتزعون المُلْكَ من أيدي الظُّلَمَة. وفينا تقدّم الخبر، وصَحَّ الأثر. وجاء^(٢) في الحديث صفةُ الذين يفتحون عُمُورِيَّةً^(٣)، ويظهرون عليها^(٤)، ويقتلون مقاتليها^(٥)، وَيَسْبُونَ ذراريها، حيث قالوا في نعتهم: «شعورهم شعورُ النِّسَاءِ، وثيابهم ثياب الرُّهبان». فصدّق الفعلُ القولَ، وحقّقَ الخَبَرَ العِيَان.

ونحن الذين ذكرنا، وذَكَرَ بلائنا^(٦) إمامُ الأئمة، وأبو الخلائف العشرة^(٧) محمد بن علي، حين أراد توجيه الدُّعَاة إلى الآفاق، وتفريق شيعته في البُلدان:

(١) في الأصول: «في الروايات الصحيحة»، وأثبت ما في مج والرسائل.

(٢) ب، ط: «جاء» بدون واو.

(٣) عمورية، بتشديد الميم المضمومة والياء: بلدة في الروم فتحها المتصم العباسي سنة ٢٢٣. ولهذا الفتح قصة عجيبة مذكورة في كتب التاريخ. وفيه يقول أبو تمام:

يا يوم وقمة عمورية انصرفت عنك المني حفلا ممسولة الحلب

(٤) عليها، ساقطة من م.

(٥) كذا في مج والرسائل وم. وفي ب: «مقاتلها» وفي ط: «مقاتلها».

(٦) ب، م: «بلاد ناه»، صوابه في ط.

(٧) يعني خلفاء العباسيين العشرة الذين أدرك الجاحظ آخرهم، وهو الخليفة المتوكل. وهم على الولاء: أبو العباس السفاح، وأبو جعفر المنصور، ثم المهدي، والهادي، والرشيدي، والأمين، والمأمون، والمتصم الذي كان يسمى «الخليفة الثامن»، لأنه الثامن من خلفاء بني العباس، أو لأنه مات عن ثمانية بنين وثمان بنات، وخلف في بيت المال ثمانية آلاف ألف دينار، وثمانية آلاف ألف درهم، كما ذكر المسعودي في التنبيه والإشراف ٣٠٧. ثم تاسمهم الخليفة الواثق، والعاشر الخليفة المتوكل المتقول بالجعفرية من سر من رأى سنة ٢٤٧. وقد توالى بعد هؤلاء الخلائف العشرة من العباسيين ٢٦ خليفة كان آخرهم المستعصم بالله الذي قتله هولاء ملك التتر حين استولى على بغداد سنة ٦٥٦.

«أما البصرة وسواؤها فقد غلب عليها عثمان ، وصنائعُ عثمان ، فليس بها من شيعتنا إلا القليل .

وأما الكوفة وسواؤها فقد غلب عليها عليٌّ وشيعتهُ عليٌّ ، فليس بها من شيعتنا إلا القليل .

وأما الشام فشيعه بني مروان ، وآل بني سُفيان .

وأما الجزيرة فخارجةٌ ، وحروريةٌ ومارقةٌ .

ولكن عليكم بهذا الشرِّق فإنَّ هناك^(١) صدوراً سليمة ، وقلوباً باسلة ، لم تُفسدْها الأهواء ، ولم تُخايرها الأدواء ، ولم تعتقِها البدع ، وهم مغيظون^(٢) موثورون . وهناك العدد والعدة ، والعناد والنجدة .

ثم قال : « وأنا أتفاءلُ إلى حيث ما تطلع^(٣) . »

فكنا خيرَ جنديٍّ لخيرِ إمام ، وصدقتنا ظنُّه ، وثبتنا رأيه ، وصوبنا فراسته .

وقال مرةً أخرى : « إنَّ أمرنا هذا شرقٌ لا غربٌ ، ومُقبِلٌ غيرُ مدبرٍ ، يطلعُ كطلوعِ الشمس ، ويمتدُّ على الآفاق امتدادَ النهار ، حتَّى يبلُغ^(٤) حيث ما تبلغُه الأخفاف^(٥) ، وتناله الحوافِر^(٥) . »

قالوا : ونحن قتلنا الصَّحصحية^(٦) ، والدالقية^(٧) ، والدكوانية ،

(١) ط فقط : « هناك » .

(٢) ط فقط : « مغبون » ، صوابه في سائر النسخ .

(٣) ب : « ما تطلع » ، تحريف . والمراد : حيثما تطلع الشمس . وفي مج : « حيث

يطلع النهار » ، وفي الرسائل : « حيث يطلع منه النهار » .

(٤) في الأصول : « حتَّى تبلغ » ، صوابه بالياء كما في مج والرسائل .

(٥) أى أخفاف الإبل . ب ، م : « الإخفاق » ، صوابه في ط ، مج والرسائل .

(٦) الصحصحية : نسبة إلى صحصح ، وكان أحد المتكلمين . انظر الحيوان ٣ : ٣٩٥

والبخلاء ؛ والطبرى في حوادث سنة ١٣٢ . وفي الأصول : « الصحصحة » ، صوابه في مج والرسائل .

(٧) م ، ب : « الدالقية » بالفاء . وبدله في الطبرى : « الدكوانية » .

والرأشدية . ونحن أصحاب^(١) الخنادق ، ونباته بن حنظلة^(٢) ، وعامر ابن ضبارة^(٣) ، وأصحاب ابن هبيرة . فلنا قديم هذا الأمر وحديثه ، وأوله وآخره^(٤) .

ومنا قاتل مروان .

ونحن قوم لنا أجسام وأجرام ، وشعور وهام ، ومناكب عظام ، وجباه عراض ، وقصر غلاظ^(٥) ، وسواعد طوال .

ونحن أولد للذكورة ، وأنسل بعولة ، وأقل صوى وضولة ، وأقل إتاماً^(٦) ، وأنتق أرحاماً^(٧) ، وأشد عصباً ، وأتم عظاماً . وأبداننا أحمل للسلاح ، وتجفاننا أملاً للعيون^(٨) .

(١) بعده في مع والرسائل : « أيام نصر بن سيار ، وابن جديع الكرمانى ، وشيبان بن سلمة الخارجي » . وابن جديع هذا هو علي بن جديع الكرمانى ، كما في حواشى رسائل الجاحظ . ١٧ : ١ .

(٢) ب : « وبناته بن حنظلة » ، م : « وبناته » صوابهما في ط ، مع والرسائل . وفيها : « ونحن أصحاب نباته بن حنظلة » . وكان نباته هذا والياً على جرجان . وانظر جهمرة ابن حزم ٢٨٢ . وهو نباته بن حنظلة بن ربيعة بن عبد قيس بن ربيعة بن كعب بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وانظر خبر مقتله في تاريخ الطبرى سنة ١٣٠ .

(٣) كان عامر بن ضبارة هذا من قواد ابن هبيرة . وانظر الاشتقاق ٢٨٩ ، ٢٩٠ وجهمرة ابن حزم ٢٥٤ . وفي الأصول : « بن ضبابة » صوابه بالراء كما في مع والرسائل والتنبيه والإشراف ٢٨٣ والطبرى ٧ : ٤٠٥ . قتله قحطبة بن شبيب الطائى بأصبهان في حروب أبي مسلم الخراسانى سنة ١٣١ .

(٤) في الطبرى أن قاتل مروان بن محمد ، هو رجل من أهل البصرة يقال له المغود ، طمعه وهو لا يعرفه فصرعه ، فصاح صائح : صرع أمير المؤمنين ! وابتدروه ، فسبق إليه رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمان فاحتز رأسه . انظر حوادث سنة ١٣٢ .

(٥) القصر ، بالتحريك : جمع قصرة ، وهى أصل العنق . وبه فسر ابن عباس قوله تعالى : « إنها ترى بشر كالقصر » في قراءته بفتح الصاد .

(٦) الإتام : أن تلد المرأة اثنين في بطن .

(٧) أنتق أرحاماً ، أى أكثر ولادة . والمرأة ناتق ، لأنها ترى بالأولاد رمية . والنثق :

الرمى والنفض .

(٨) في الأصول ومع وأصل الرسائل ١ : ١٨ : « وأخفاننا » . والوجه ما أثبت .

وانظر حواشى الرسائل . والتجفاف ، بفتح التاء وكسرهما ، ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقية الجراح في الحرب . وانظر ص ١٧٨ .



ونحن أكثر مادةً ، وأكثر عددًا وعُدَّةً ، ولو أن يأجوج ومأجوج
كاثروا^(١) من وراء النهر منا لظهروا عليهم بالعدد .

فأما الأيْدُ وشِدَّةُ الأَسْرِ فليس لأحدٍ بعد عادٍ وثمودَ والعمالقَةَ
والكنعانيين مثل أَيْدِنَا وأَسْرِنَا .

ولو أنَّ خِيُولَ الآفَاقِ ، وفُرسَانَ جميعِ الأَطرافِ جُمِعُوا في حَلْبَةٍ
واحدةٍ لَكُنَّا أَكثَرَ في العِيونِ ، وأَهْوَلَ في الصُّدُورِ .

ومتى رأيتَ مواكِبَنَا وفُرسَانَنَا وبُنُودَنَا التي لا يحملها^(٢) غيرُنَا
علمتَ أَنَّا لم نُخَلِّقْ إِلَّا لقلبِ الدُّوَلِ ، وطاعةِ الخُلَفَاءِ ، وتأييدِ السُّلْطَانِ .

ولو أنَّ أَهْلَ حَلْبَتِ ، ورجالِ الزَّابِجِ^(٣) ، ورجالِ وفُرسَانَ الهِنْدِ^(٤) ،
وحَلْبَةِ^(٥) الرُّومِ ، هَجَمَ عليهم هاشمُ بنُ أَشْتاخنَجِ^(٦) لَمَّا امتنعوا من
طَرَحِ السِّلَاحِ ، واخربِ في البلادِ .

ونحنَ أَصْحَابُ اللَّحَى ، وأَرِيَابُ النَّهْيِ ، وأَهْلُ الحِلْمِ والحِجَا^(٧) ،
وأَهْلُ التَّخَانَةِ في الرَّأْيِ^(٨) ، والبُعْدِ مِنَ الطَّيْشِ .

(١) كاثروهم : باروهم في الكثرة . م فقط : « كثروا » ، تحريف .

(٢) ب ، م : « يحمله » ، صوابه في ط ، مع والرسائل .

(٣) الزابج ، بفتح الباء وكسرهما : جزيرة في أقصى بلاد الهند في حدود الصين . وفي
الحيوان ٧ : ٣٣٠ : « ويزعم تجار التبت من قد دخل الصين والزابج » . وفي الأصل ، وهو

هنا ب فقط : « الزنج » إذ لم ترد « رجال الزابج » في كل من م ، ط .
(٤) هذا ما في ط . وفي ب ومع والرسائل : « وفرسان الهند » ، وفي م : « وفرسان
ورجال الهند » .

(٥) الخلبة ، بالفتح : جماعة الخيل في السباق ، والمراد هنا الفرسان .

(٦) كان قد عصى وخالف في إفريقية ، فقتله أبو جعفر المنصور سنة ١٥٢ كما في

الطبرى .

(٧) كتبت في م ، ط : « الحجى » بالياء ؛ والكلمة واوية بمعنى القتال والفتنة ؛ يقال

حاجيته فحجوته .

(٨) ثغانة الرأي : قوته وجزالته . ب : « التجانة » م ، ط : « التجانة » ، صوابها

في مع والرسائل .

ولسنا كجند الشام المتعرضين للجرم ، والمتنهكين لكل محرّم
ونحن نأس لنا أمانة ، وقينا عمّة . ونحن نجمع بين النزاهة
والقناعة ، والمصبر على العزيمة ، وعلى التجمير ، وبُعْد الشقة (١)

ولنا الطبول المهولة والبُنود العظام (٢)

ونحن أصحاب التجافيف والأجراس (٣) ، والبارفكند (٤)
واللُبود الطُول ، والأعماد المعقّفة (٥) والقلائس الشاشية (٦) ، والخيل
الشهريّة (٧) ، ولنا الكافر كوبات (٨) ، والطبرزيّات في الأكف (٩) ،
والخنجر في الأوساط .

(١) تجمير الجيش : إيقاظه في ثغر العدو ، وأصل معناه التجميع . مع والرسائل : ٤ . وعند
بعض الشقة .

(٢) وكذا في مع . لكن في الرسائل : « ولنا الطبول المهولة العظام والبُنود . والبُنود :
جمع بندق ، وهو العلم الكبير ، فارسي مغرب .

(٣) انظر للتجافيف ما مضى في ص ١٧٤ .

(٤) مع والرسائل : « والبارفكند » . وفي البيان ١ : (٤) - ٣ : ١١٥ : « يازيكند »
أيضاً . وضبطت في أعلى نسخ البيان بفتح الزاي وضم الياء المثناة وفتح الكاف . وفي هامشها :
« يازيكند : نوع من الثياب ، فارسية » . ويبدو أنه كساه يلقى على الكف . وبار في الفارسية
بمعنى الكف .

(٥) الأعماد : جمع عمدة ، وهو جفن السيف . في الأصول : « والأعمدة » ، صوابه
في مع والرسائل ، والمعقّفة : المعوجة ، وذلك لإعوجاج السيوف التي تشتمل عليها . ب :
« والمعقّفة » والواد مقحمة . وفي ط : « والحقفة » وفي م : « والمعقّفة » ، صوابها ما أثبت .

(٦) نسبة إلى الشاشية ، وهو نسج رقيق من القطن تضمد به الجروح ، ويستعمل أيضاً
لغافة العمامة ، ولفظه مولد . ب ، م : « الشبسية » صوابه في ط ومع والرسائل .

(٧) الشهريّة : بالكسر . كما في اللسان والقاموس . وذكر ابن منظور أنه ضرب من
البراذير . و زاد صاحب اللسان أنه بين البرذون والمقرف من الخيل .

(٨) جمع كافركوب ، وفي هامش ل من نسخ البيان أن كافركوب هي المقرعة .

(٩) الطبرزيّات : جمع طبرزين ، وهو فأس تستعمل في القتال عند الفرس ، مركب من
« تبر » بمعنى الفأس ، و « زين » بمعنى السرج ، ولعله سمي بذلك لالتزام وضعه بجانب السرج .
استبحر ٢٧٠ والمغرب ١٩٤ والألفاظ الفارسية لأدى شير ١١١ .

الثابتة ، والأرحام الشابكة ، وبالقُدْمة^(١) ، وبطاعة الآباء والعشيرة ، وبالشُّكر النافع ، والمديح الباقي^(٢) ، وبالشعر الموزون الذى يبقى بقاء الدهر ، ويلوح ملاحَ نجم ، ويُشَدُّ ما أهْلٌ بالحجّ ، وما هَبَّت الصِّبا ، وما كان للزَّيْتِ عاصر . وبالكلام المنشور ، والقول المأثور ، وبصفة مَخرج الدولة ، والاحتجاج للدَّعوة ، وتقييد المآثر ، إذ لم يكن ذلك من عادة العجم ، ولا كان يحفظ ذلك معروفاً لسوى العرب ، ونحن نرتبطُها بالشعر الملقى ، ونقيدها بحفظ الأُميين^(٣) الذين لا يتكلمون^(٤) على الكتب المدوّنة ، والخطوط المطرّسة^(٥) .

ونحن أصحاب التفاخر والتنافر ، والتنازُع في الشرف ، والتحاكم إلى كلِّ حَكَمٍ مُتَّعٍ ، وكاهنٍ سَجَّاعٍ^(٦) .

ونحن أصحاب^(٧) التعابيرُ بالمثالب ، والتفاخرُ بالمناقب .

ونحن أَحْفَظُ لَأَنْسابنا ، وأرعى لحقوقنا^(٨) ، وتقييدها^(٩) أيضاً بالمنثور المرسل ، بعد الموزون المعدل ، بلسانٍ أَمْضَى من السُّنَانِ ، وأرَهَفِ

(١) م : وبالقدومة « صوابه في ب ، ط و مع والرسائل .

(٢) في جميع الأصول : « والمديح الباقي » ، صوابه في مع والرسائل . وفيهما : « والمديح الكافي » .

(٣) ب : « الأمتين » ب : « الأيمن » مع تشديد الميم ، صوابه في ط و مع والرسائل .

(٤) ط فقط : « لا يتكلمون » ، تحريف .

(٥) التطريس ، كما في القاموس : إعادة الكتابة على المكتوب .

(٦) السجّاع : الذى يستعمل السجع ، وهو الكلام الملقى ، أو الكلام الذى له فواصل ، وكان ذلك من دأب الكهان ، كما نراه في سيرة ابن هشام من أقوالهم . وفي جميع الأصول وكذلك

مع : « شجاع » بالشين المعجمة ، صوابه في رسائل الجاحظ ١ : ٢٢ ،

(٧) ب : « ونحن بنا » ، وأثبت ما في م ، ط . وفي مع والرسائل : « ولنا » .

(٨) ط فقط : « وأدعى لحقوقنا » .

(٩) م فقط : « وتقييدها » .



من السيف الحسام ، حتّى ندكرهم ما قد درس رسمه ، وغفا أثره . وبين القتال من جهة الرغبة والرغبة فرق . وليس المعرق في الحفاظ كمن هذا فيه حادث^(١) . وهذا بابٌ يتقدّم التالّد القديم الطارف الحديث^(٢)

وطُلاب الطوائل رجلاّن : سجستانيّ وأعرابيّ . وهل أكثرُ النقباء إلا من صميم العرب ، ومن صليبة هذا النسب ، كآبي عبد الحميد قحطبة بن شبيب الطائي^(٣) ، وآبي محمد سليمان بن كثير الخزاعي^(٤) ، وآبي نصر مالك بن الهيثم الخزاعي^(٥) ، وآبي داود خالد بن إبراهيم الذهليّ ، وكآبي عمرو لاهز بن قريظ المرثي^(٦) ، وآبي عتيبة موسى

(١) ط فقط : « كن هذى فيه حادثا » .

(٢) ب فقط : « والطارف الحديث » تحريف .

(٣) قحطبة بن شبيب الطائي ، صحب أبا مسلم الخراساني ، في اثني عشر رجلا من النقباء اختارهم له أبو محمد الصادق ، فكان شريكا لأبي مسلم في إقامة الدعوة العباسية بخراسان ، وقاد جيوش أبي مسلم فكان مفلجاً . ومات غرقاً في الفرات سنة ١٣٢ حين بدأت الخلافة العباسية . انظر الطبري في حوادث سنة ١٠٠ ، وسنة ١٣٢ . ط : « كعبد الحميد بن قحطبة » ، صوابه في سائر النسخ ومع والرسائل .

(٤) كان سليمان بن كثير الخزاعي أحد النقباء الاثني عشر من دعاة الدولة العباسية وأنصار أبي مسلم ، ولكن أبا مسلم شك في أمره وأمر بضرب عنقه في سنة ١٣٢ . الطبري ٧ : ٤٥٠ وابن الأثير ٥ : ٤٣٧ .

(٥) أبو نصر هذا : أحد النقباء ، وكان المنصور قد أمر بقتله بعد قتله لأبي مسلم ، ولكنه أظهر من الطاعة والتصح ما غير رأى المنصور فيه ، فن عليه واستعمله على الموصل . وذلك في سنة ١٣٧ . الطبري وابن الأثير .

(٦) لاهز بن قريظ ، بالظاء المعجمة كما في الطبري وابن الأثير ورسائل الجاحظ . وفي الأصول : « بن قريظ » بالطاء المهملة . وفي معج : « بن طريز » ، صوابهما ما أثبت . ونسبته من الجهمرة ٢١٤ : لاهز بن قريظ بن سري بن الكاهن بن زيد بن عصبة بن امرئ القيس . كان من وجوه أهل دعوة بني العباس وضرب أبو مسلم عنقه صبراً لأنه قرأ بحضرة نصر بن سيار : « إن الملائكة يأتونوك بك ليتناولوك فاخرج إلى لك من الناصحين » ، ففهمها نصر وهرب . فنسبته « المرثي » هي إلى امرئ القيس . وفي الأصول ومعج : « المرثي » ، تحريف . وما بعده من الكلام إلى : « ومن كان يجرى » ساقط من ط .

ابن كعب المرزبي^(١) ، وأبي سهل القاسم بن مجاشع المرزبي^(٢) . ومن
كان يجرى مجرى النقباء ولم يدخل فيهم ، [مثل^(٣)] مالك بن الطواف^(٤)
المرزبي^(٥)

وبعد ، فمن هذا الذي باشر قتل مروان^(٦) ، ومن هزم ابن هبيرة ،
ومن قتل ابن ضبارة ، ومن قتل نباتة بن حنظلة ، إلا عرب الدعوة ،
والصميم من أهل الدولة ؟ ومن فتح السند إلا موسى بن كعب ، ومن
فتح إفريقية إلا محمد بن الأشعث ؟

وقلت : وقال : ويقول المولى^(٧) لنا النصيحة الخالصة ، والمحبة
الرأسخة . ونحن موضع الثقة عند الشدة ، وعغل المولى^(٨) من تحت موجبة
لمحبة المولى من فوق ؛ لأن شرف مولاہ راجع إليه ، وكرمه زائد في
كرمه ، وخموله مسقط لقدره ، وبؤده^(٩) أن خصال الكرم كلها
اجتمعت فيه ، لأن ذلك كلما^(١٠) كان مولاہ أكبر وأشرف وأظهر ،
كان هو بها أشرف وأنبيل ، ومولاك أسلم لك صدراً ، وأود ضميراً ،
وأقل حسداً .

(١) في الطبري ٧ : ٣٨٠ : « ومن تميم : موسى بن كعب أبو عيينة » كما في معج ،
لا أبو عتيبة بالتمام كما هنا . وكذا في الرسائل . ولاهزم بن قريظ ، والقاسم بن مجاشع ، كليهما من
بنى امرئ القيس « ب : المرابي » م : « المزاني » تحريف والصواب « المرقي » نسبة إلى امرئ القيس .
(٢) ب : « المرزبي » م : « المزاني » ، صوابهما ما أثبت . وانظر الحواشي السابقة .
(٣) التكملة من معج والرسائل .
(٤) م : « الطراف » وفي الطبري : « بن طريف » وفي ابن الأثير : « بن طراف » ،
وجعلنا نسبه « انخراساني » .

(٥) في معج : « المزاني » وفي ط والرسائل : « المرزبي » .

(٦) انظر ما سبق في ص ١٧٦ س ٤ .

(٧) ب فقط : « المولى » ، تحريف .

(٨) ب فقط : « الموق » ، تحريف .

(٩) ب : « ويؤده » م : « ويؤده » ، صوابه في سائر النسخ .

(١٠) معج والرسائل : « لأنه كلما » .

وَيَعُدُّ ، فالولاءُ لحمَةٌ كلحمَةِ النَّسَبِ (١) . فقد صار لنا النَّسَبُ الَّذِي
يَصُوبُهُ الْعَرَبِيُّ (٢) . ولنا الْأَصْلُ الَّذِي يَفْتَخِرُ بِهِ الْعَجَمِيُّ .

قال : وَالصَّبْرُ ضَرْبٌ ، فَأَكْرَمُهَا كُلُّهَا الصَّبْرُ عَلَى إِفْشَاءِ السَّرِّ ،
وَلِلْمَوْلَى فِي هَذِهِ الْمَكْرُمَةِ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ ، وَنَحْنُ أَحْصَى مَدْخَلًا ، وَأَلْطَفَ فِي
الْخِدْمَةِ مَسْلُكًا . ولنا مع الطَّاعَةِ وَالْخِدْمَةِ ، وَالْإِخْلَاصِ وَحُسْنِ النِّيَّةِ ،
خِدْمَةُ الْأَبْنَاءِ لِلآبَاءِ ، وَالْآبَاءِ لِلْأَجْدَادِ (٣) ، وَهُمْ بِمَوْلَاهُمْ آتَسُّ ،
وَبِنَاهِئِهِمْ أَوْثَقُ ، وَبِكِفَايَتِهِمْ أَسْرَ .

وقد كان المنصور ، ومحمد بن علي ، وأعلى بن عبد الله ، يَحْضُونُ
مَوْلَاهُمْ بِالْمَوَاكِلَةِ وَالْبَسْطِ وَالْإِيْناسِ ، لَا يُبْهَرِجُونَ الْأَسْوَدَ لِسَوَادِهِ ،
وَلَا الدَّمِيمَ لِذِمَامَتِهِ ، وَلَا ذَا الصَّنَاعَةِ الدَّنِيئَةِ لِدَنَائَتِهَا . وَيُوصُونَ بِحِفْظِهِمْ
أَكْبَارَ أَوْلَادِهِمْ ، وَيَجْعَلُونَ لِكَثِيرٍ مِنْ مَوْتَاهُمْ الصَّلَاةَ عَلَى جَنَائِزِهِمْ (٤) ،
وَذَلِكَ بِحَضْرَةِ مِنَ الْعُمُومَةِ ، وَبَنِي الْأَعْمَامِ وَالْإِخْوَةِ .

وَيَتَذَكَّرُونَ إِكْرَامَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ
مَوْلَاهُ . حِينَ عَقَدَ لَهُ يَوْمَ مُؤْتَةِ عَلَى جِلَّةِ بَنِي هَاشِمٍ ، وَجَعَلَهُ أَعْيُرَ كُلِّ
بَلَدٍ (٥) يَطُؤُهَا .

وَيَتَذَكَّرُونَ حُبَّهُ لِأَسَامَةِ بْنِ زَيْدٍ ، وَهُوَ الْحَبِيبُ ابْنُ الْحَبِيبِ . وَعَقَدَ لَهُ
عَلَى عُظَمَاءِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَكْبَابِ الْأَنْصَارِ .

(١) مع : « وبعده فقالوا : لحمة كلحمه النسب » ، تحريف : « لحمة كلحمه النسب » .

(٢) ب : « تصوب به العربي » م : « تصوب به العربي » ط : « تصوب به العربي » ، صوابه

من معج والرسائل : « تصوب به العربي » ، « تصوب به العربي » ، « تصوب به العربي » .

(٣) في جميع النسخ : « والأجداد للأجداد » ، والوجه ما أثبت من معج والرسائل : «

(٤) ط فقط : « ويجعلون الكثير من موتاهم في الصلاة على جنازتهم » .

(٥) ب فقط : « بلد » ، تحريف : « بلد » ، « بلد » ، « بلد » ، « بلد » ، « بلد » ، « بلد » .

ويتذكرون صنيعه بسائر مواليه كتابي أنسة^(١) وشقران^(٢) ، وفلان وفلان .

قالوا : ولنا صاحب الدولة : أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم ، وأبو سَلَمَةَ حَفْصُ بن سليمان . وأبو مسلم مولى الإمام ، وعليهما دارت رحى الدولة ، وتم الأمر واتسق نظام الملك .

قالوا : ولنا من رثوس^(٣) النقباء : أبو منصور مولى خُزَاعَةَ ، وأبو الحكم عيسى بن أعين مولى خُزَاعَةَ ، وأبو حمزة عمرو بن أعين^(٤) مولى خُزَاعَةَ ، وأبو النجم عمران بن إسماعيل^(٥) مولى آل أبي مُعَيْطٍ^(٦) .

فلنا مناقب الخُراسانية ، ولنا مناقب الموالى فى هذه الدَّعْوَةِ . ونحن منهم وإليهم ، ومن أنفسهم ، لا يلفع ذلك مسلم . ولا ينكره مؤمن . خدمناهم كباراً ، وحملناهم على عواتقنا صغاراً .

هذا مع حق الرِّضَاعِ والخَوْلَةِ ، والنَّشْوَءِ فى الكُتَّابِ ، والتقلُّبِ فى تلك العِراضِ التى لم يبلغها إلا كلُّ سعيدِ الجَدِّ ، وحيه فى الملوك . فقد شاركتنا العربى فى فخره ، والخراسانى فى مجده ، والبنوى فى فضله^(٧) ، ثم تفرَّدنا بما لم يشاركونا فيه ، ولا سابقونا إليه^(٨) .

(١) اختلف فى اسمه ، فقيل أنسة أيضاً ، كما فى الإصابة ٢٨٥ . وكان حبشياً كما فى جوامع السيرة لابن حزم ١١٤ . وكان يأذن على النبي صلى الله عليه وسلم . ومات فى خلافة أبي بكر .
 (٢) شقران ، يقال كان اسمه صالح بن عدى . وكان حبشياً أهدها عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله . الإصابة ٣٩١١ . وهو أحد من دلى رسول الله فى قبره . جوامع السيرة ٢٦٥ . وذكر ابن هشام فى السيرة ١٠١٨ أنه تولى صب الماء عليه فى غسله .
 (٣) فقط : « رؤساء » .

(٤) فى الأصول : « عمر بن أعين » ، صوابه فى معج والرسائل والطبرى ٦ : ٥٦٢ .
 (٥) فى الأصول : « عامر بن اسماعيل » ، صوابه فى معج الرسائل والطبرى ٦ : ٥٦٢ .
 (٦) ط فقط : « مولى أبي معيط » ، صوابه فى سائر النسخ .
 (٧) البنوى : نسبة إلى الأبناء ، كما سبق فى ١٦٧ . ط : « والبنوى » ، صوابه فى سائر النسخ .
 (٨) معج والرسائل : « ولا سبقونا إليه » ، وهو الوجه .

قالوا: ونحن أشكلُ بالرعيَّة، وأقربُ إلى طباعِ الدَّهْمَاءِ، وهم (١)
بنا آنَسَ، وإلينا أسكَنَ، وإلى لقائنا أَحَنَّ. ونحن بهم أرحم، وعليهم
أعطف، وبهم أشبه. فمن أَحَقُّ بالأثرة، وأولى بحُسْنِ المنزلةِ مِمَّنْ هذه
الخصالُ له، وهذه الخلالُ فيه.

وقلت: وذكرت أَنَّ البِنَوِيَّ قال: نحن أصلُ خراساني (٢)، وهو
مخرج الدولة، ومطلع الدعوة، ومنها نَجَمَ هذا القرنُ، وصبأَ هذا
النَّابُ، وتفجَّرَ هذا الينبوع، واستفاضَ هذا البحر، حتَّى ضربَ الحقُّ
بجيرانه (٣)، وطَبَّقَ الآفاقَ بضيائه، فأبرأَ من السُّقْمِ القديمِ، وشفَى من
الداءِ العُضالِ، وأغنى من العَيْلةِ، وبصَّرَ من العمى.

وهذه بغدادُ وهي مستقرُّ الخلافةِ، والقرارُ بعدَ الجَوْلَةِ (٤)، وفيها
بقيةُ رجالِ الدعوةِ، وأبناءُ أبناءِ الشيعةِ (٥)، وهي خُراسانُ العراقِ،
وبيتُ الخلافةِ (٦) وموضعُ المادةِ.

وأنا أعرقُ (٧) في هذا الأمرِ من أبي، وأكثرُ ترداداً فيه من جدِّي،
وأحقُّ بهذا الفضلِ من المولى والعربيِّ.

ولنا بعدُ في أنفسنا مالا يُنكرُ من الصَّبْرِ تحتِ ظلالِ السُّيوفِ

(١) م فقط: «وهما».

(٢) ب، م: «أصل»، صوابه في ط. وفي مع والرسائل: «أنا أصلُ خراسان».

(٣) ضرب بجرائه: استقر وثبت. وأصل الجران باطن عنق البعير. فإذا برك واستقر
قيل أتى جرائه.

(٤) ب، م، مع والرسائل: «الحولة»، وهي بالخاء المهملة المفتوحة: التحول
والتنقل. وما هنا من ط.

(٥) مع والرسائل: «وأبناء الشيعة».

(٦) بعده في الأصول: «وفيها بقية رجال الدعوة»، وهو تكرار لما سبق.

(٧) ب، ط: «أعرف»، صوابه في م، مع والرسائل.

القصار ، والرماح الطوال ، ولنا معانقة الأبطال عند تحطم القنا ،
وانقطاع الصفائح (١) ، ولنا المواجاة بالسكاكين ، وتلقى الخناجر

بالعيون .

ونحن حماة المستلحم ، وأبناء المضايق ، ونحن أهل الثبات عند
الجولة ، والمعرفة عند الخيرة (٢) ، وأصحاب المشهات (٣) ، وزينة
العساكر وحلى الجيوش (٤) ، ومن يمشي في الرمح ، ويختال بين الصفيين ،
ونحن أصحاب الفتك والإقدام .

ولنا بعد التسلق ونقّب المدن ، والتقحم على طبات السيوف (٥) ،
وأطراف الرماح ، ورَضَحُ الجنادل ، وهشم العمد ، والصبر تحت
الجراح (٦) ، وعلى جبر السلاح (٧) ، إذا طار قلب الأعرابي ، وساء ظن
الخراساني .

ثم الصبر تحت العقوبة ، والاحتجاج عند المسألة ، واجتماع الثقل ،
وصحة الطرف ، وثبات القدمين ، وقلة التكلمى يجعل العقابين (٨) ،

.....

(١) الصفائح : جمع صفحة ، وهي السيف العريض .
(٢) في الأصول ، مع : « الخبرة » ، صوابه في الرسائل .
(٣) المشهات : الحلل الفاخرة الموسومة بالشهرة لحضنها . كما في الفائق للزحزحى .
عند حديث عمر : « وقد إليه عامله من اليمن وعليه حلة مشهرة » : ط فقط : المشهورات .
(٤) الحلى بكسر الحاء وضمها : جمع حلية ، بالكسرة ، وهي كل ما حليت به امرأة أوسيفاً
ونحوه . ط فقط : « والحلى الجيوش » ، تحريف .
(٥) الطبات : جمع طبة ، وهي حد السيف والخنجر وما أشبه ذلك . وقب فقط : « طباة » ،
وهو خطأ .
(٦) في الرسائل : « على الجراح » .
(٧) يقال أجره الرمح إجراراً ، إذا طعنه به ففتى وهو نجرة .
(٨) التكمى : التليل والتقلب . والعقابين : تشبعتان يشيح بينهما الرجل فيجلد . انظر
السان (عقب) وجى الجنتين ٨٠ .

والبعد من الإقرار^(١) ، وقلة الخضوع للدهر ، والخضوع عند جفوة الزوار^(٢) ، ووجفاء الأقارب والإخوان . ولنا القتال عند أبواب الخنادق وروس القناطر^(٣) .
 ونحن الموت الأحمر عند أبواب النقب ، ولنا المواجهة في الأوقه ، والصبر على قتال السجون . فسئل عن ذلك الخليدي^(٤) ، والكتفية والبلالية ، والحزبية ، ونحن أصحاب المكابرات^(٥) ، وأرباب البيات^(٦) ، وقتل الناس^(٧) جهاراً في الأسواق والطرق .
 ونحن نجتمع بين السلّة والمزاحفة . ونحن^(٨) أصحاب القناطول ما كنا رجالاً ، والمطارد القصار ما كنا فرساناً^(٩) . فإن صرنا كمننا^(١٠) فالحنف القاضي ، والسّم الزعاف^(١١) ، وإن كنا طلائع فكلنا يقوم مقام أمير الجيش . نقاتل بالليل كما نقاتل بالنهار ، ونقاتل في الماء كما نقاتل على الأرض^(١٢) ، ونقاتل في القرية كما نقاتل في المحلة .

(١) ط : « من القرار » .

(٢) مع : « حفة الزوار » بالحاء المهملة .

(٣) ب فقط : « الروس القناطر » ، تحريف .

(٤) عطفة منسوبة إلى خليلي . وفي الجلاميد - ٣٣ : « فصل عن الكتيبة والخليدي والخرابية والبلالية » . والظاهر أنهم طوائف من أهل الشيب والقوضي . م : ط : « الخلية » فإن صحت كانت بضم الخاء وفتح اللام ، فإن المراد يميز الحذف في فعل مضموم الفاء باطراد .

(٥) ط فقط : « المكابرات » بالذال .

(٦) وكذا في مع والرسائل . وفي ط فقط : « البيات » .

(٧) ب فقط : « وقتل الناس » ، تحريف .

(٨) في جميع النسخ : « وبين » ، والوجه ما أثبت من مع والرسائل .

(٩) المطارد : جمع مطرد ، بالكسر ، وهو الرمح القصير .

(١٠) جمع كين ، وهم الذين يكتنون ويختفون في الحرب ، وفي ط : « كينا » .

(١١) الذعاف : الوحي السريع ، ويقال أيضاً الزعاف بالزاي . وفي ب ومع : « الزعاف » بالزاي .

(١٢) م فقط : « كما على الأرض » .

(١٣) في نسخة من الرسائل : « القناطر » .

ونحن أفنك وأخشب^(١) . ونحن أقطع للطريق ، وأذكرُ في الثُّغور^(٢) ،
مع حسن الفُود ، وجودة الحُرْط ، ومقادير اللُحى ، وحُسن العِمة ،
والنفس المُرّة ، وأصحاب الباطل والفتوة^(٣) ، ثم الخطُّ والكتابة ،
والفِقْه والرِواية .

ولنا بغدادُ بأسرِها ، تسكُن ماسكِنًا ، وتتحركُ ما تحركنا . والدُّنيا
كلُّها معلقةٌ بها ، وصائرةٌ إلى مَغانها^(٤) ، فإذا كان هذا أمرها وقدرها
فجميعُ الدُّنيا تبعُ لها ، وكذلك أهلها لأهلها ، وفُتاكُها لفتاكها ،
وخلاعُها لخلاعِها ، ورؤساؤها لرؤسائها ، وصلحائها لصلحائها .

ونحن تربيةُ الخُلفاء ، وجيرانُ الوُزراء^(٥) ، ولدنا في أفنيةِ
مُلوكنا^(٦) ، ونحن أجنحةُ خلفائنا ، فأخذنا بآدابهم ، واحتذينا على
مثالهم ، فلسنا نعرفُ سيواهم ، ولا ننتهمُ بغيرهم^(٧) ، ولم يطمع فينا أحدٌ
قطُّ^(٨) من خُطابِ مُلكهم ، ومن يترشَّح للاعتراض عليهم . فمن أحقُّ
بالأثرة ، وأولى بالتقرب في المنزلة من هذه الخصال فيه ، وهذه الخِلال
له^(٩)

إن ذهبنا ، حفِظك الله ، بعقب هذه الاحتجاجات ، وعند مُنقطع

(١) أى أشد غلاظة وخشونة .

(٢) جمع ثغز ، وهو الموضع يخاف هجوم العدو منه . ب فقط : « الصغور » ،

تحريف .

(٣) ط فقط : « وأصحاب الفتوة » .

(٤) المعنى : المنزل يقام فيه طويلا . مع والرسائل : « معناها » بالعين المهملة .

(٥) ب : « وجيران والوزراء » ، تحريف .

(٦) الفناء : ساحة الدار ، والجمع أفنية . ب فقط : « أفنية » ، تصحيف .

(٧) مع والرسائل : « ولا نعرف بغيرهم » .

(٨) في جميع الأصول : « ولم يطمع فينا أحد قط أحداً » صوابه في مع والرسائل .

(٩) بعده في مع والرسائل : بسم الله الرحمن الرحيم «

هذه الاستدلالات نستعمل المفاوضة^(١) بمناقب الأتراك ، والمقارنة^(٢) بين خصالهم وخصال كل صنف من هذه الأصناف ، سلطنا في هذا الكتاب سبيل أصحاب الخصومات في كتبهم ، وطريق أصحاب الأهواء في الاختلاف الذي بينهم .

وكتابتنا هذا إنما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم إن كانت مختلفة^(٣) ، ولنزيد في الألفة إن كانت مؤتلفة ، ولنخير عن اتفاق أسبابهم ، لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم ، وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت في النسب كم مقدار الخلاف في الحسب ، لئلا يغير بعضهم مغير ، ويفسده^(٤) عدو بأباطيل موهمة ، وشبهات مزورة ، فإن المناق العليم ، والعدو ذا الكيد العظيم قد يصور لمن دونه الباطل في صورة الحق ، ويلبس الإضاعة ثياب الحزم^(٥) .

إلا أننا على حال^(٦) ، سنذكر جملاً من أحاديث روينها ، وأمور^(٧) رأيناها وشاهدناها ، وقصصاً تلقفناها من أفواه الحكماء وسمعناها .

وسنذكر ما حفظ لجميع الأصناف من الآلات والأدوات ، ثم ننظر أيهم لها أشد استعمالاً ، وبها أشد استقلالاً ، ومن أثقب حسباً^(٨) ،

(١) ب : « يستعمل » م ، ط : « تستعمل » ، والوجه ما أثبت من مع والرسائل .

(٢) في جميع الأصول : « والمقارنة » ، والوجه ما أثبت . وفي مع والرسائل : « والموازنة » .

(٣) في الرسائل فقط : « التي كانت مختلفة » .

(٤) ب ، م : « ومفسدة » ، صوابه في ط ، مع والرسائل . وفي الأخيرتين : « فلا يغير بعضهم مغير ، ولا يفسده » .

(٥) ب ، م : « ثياب الحزم » ، صوابه في ط ، مع والرسائل .

(٦) مع فقط : « على كل حال » .

(٧) م ، ط فقط : « وأموراً » .

(٨) مع والرسائل : « كيباً » . والكيس ، بالفتح : العقل ، وتوقد الذهن .

منهم في عامة الأسباب لم يكن بأعجب من جعل الخيال والداء (١) ،

والمحلي من الصميم ، وابن الأخت من القوم .

وقد جعل الله لبن الملاعبة المولود على فراش البغل منسوباً إلى أمه ،

وقد جعل (٢) إسماعيل وهو ابن أعجميين عربياً ، لأن الله تعالى لما

فتق لسانه بالعربية المبينة على غير التلقين (٣) والترتيب ، وفطره على

الفضاحة العجيبة على غير النشوء والتمرير ، وولّخ طباعه من طبائع

العجم ، ونقل إلى بدنه تلك الأجزاء ورّبه اختراعاً على ذلك التركيب ،

وسوّاه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصيغة ، ثمّ حمّاه من طبائعهم ،

ومنعه من أخلاقهم وشمالهم ، وطّبعه من كرمهم وأنفتهم وهمهم

على أكرهها وأسناها ، وأشرها وأعلاها ، وجعل ذلك برهاناً على رسالته ،

ودليلاً على نبوته ، وصار أحقّ بذلك النسب (٤) ، وأولى بشرف ذلك

الحسب .

وكما جعل إبراهيم أباً لمن لم يلد (٥) ، فالنبوي خزانة من جهة

الولادة ، والمولى عربي من جهة المدعى والعاقلة .

ولو أحاط علمنا بأن زيداً لم يخلق من نجل عمرو إلا عهراً (٦)

لنفينا عنه ، وإن أيقنا أنه لم يخلق إلا من ماء ضلّبه .

وكما جعل النبي أزواجه أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وهنّ لم يلدنهنّ ولا

ولدتنّهنّ .

(١) ب : « جعله الخال والداء » .

(٢) في الرسائل : « وقد جعلوا » .

(٣) م ، ط : « التعيين » ، صوابه في ب . مع الرسائل .

(٤) ب : « بهذا النسب » ، وفي مع و الرسائل : « فكان أحقّ بذلك النسب » .

(٥) في الرسائل : « لمن لم يلد » .

(٦) ط : « لم يخلق إلا من نجل عمرو » . فقط وهو تحريف . والنجل : النسل والولادة .

أَرْضَعْنَهُمْ . وفي بعض القراءات: ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ، وَهُوَ أَبُو لَهُمْ ﴾^(١) على قوله : ﴿ مَلَّةٌ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾^(٢) ، وجعل المرأة من جهة الرضاع أمًا ، وجعل امرأة البعل أمَّ ولد البعل من غيرها ، وجعل الرَّابَّ والدًا^(٣) . وجعل العَمَّ في كتاب الله أبًا . وهم عبيده^(٤) لا يتقبلون إلا فيما قلبهم فيه .

وله أن يجعل من عباده من شاء عربياً، ومن شاء أعجمياً ، ومن شاء قرشياً ، ومن شاء زنجياً . كما أنَّ له أن يجعل من شاء ذكراً ومن شاء أنثى ، ومن شاء خُنثى ، ومن شاء أخرجَه من ذلك^(٥) فجعله لا ذكراً ولا أنثى ولا خُنثى .

وكذلك خلق الملائكة ، وهم أكرمُ على الله من جميع الخليقة . ولم يجعل لآدم^(٦) أباً ولا أمًا ، وخلقَه من طينٍ ونَسَبَه إليه ، وخلق حواء^(٧) من ضلعِ آدم ، وجعلها له زوجاً وسَكَنًا . وخلق عيسى من غير ذكرٍ ، ونسبه إلى أمه التي خلقه منها . وخلق الجنَّ من نار السموم ، وآدمَ من طينٍ ، وعيسى من غير

(١) هي قراءة أبي وعبد الله بن مسعود في الآية ٦ من سورة الأحزاب . انظر تفسير أبي حيان ٧ : ٢١٢ .

(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .

(٣) الراب : فاعل من ربه يربه رباً ، بمعنى ربه حتى يفارق الطفولية ، كان ابنه أو لم يكن .

(٤) ب فقط : « وهم عبيد » ، وفي مع : « وهم عباده » ، وأثبت ما في م ، ط والرسائل .

(٥) مع والرسائل : « أفرد من ذلك » .

(٦) مع في الأصول : « فلم يجعل لآدم » ، والوجه ما أثبت . والذي في مع والرسائل :

« وخلق آدم فلم يجعل له » .

(٧) ب ، م : « حوى » .



نُطْفَةٌ ، وخلق السماء من دُخَانٍ ، والأَرْضَ من الماء . وخلق إسحاق من عاقرة .

وَأَنْطَقَ عِيسَى فِي الْمَهْدِ ، وَأَنْطَقَ يَحْيَى بِالْحِكْمَةِ وَهُوَ صَبِيٌّ ، وَعَلَّمَ سُلَيْمَانَ مِيقَاتَ الطَّيْرِ ، وَكَلَامَ النَّمْلِ . وَعَلَّمَ الْحَفَظَةَ مِنَ الْمَلَانِكَةِ جَمِيعَ الْأَلْسِنَةِ حَتَّى كَتَبُوا بِكُلِّ خَطٍّ ، وَنَطَقُوا بِكُلِّ لِسَانٍ . وَأَنْطَقَ ذَنْبٌ أَهْبَانَ ابْنِ أَوْسٍ (١) .

والمؤمنون من جميع الأمم إذا دخلوا الجنة ، وكذلك أطفالهم والمجانين منهم ، يتكلمون ساعة يدخلون الجنة بكلام أهل الجنة ، على غير الترتيب والتنزيل ، والتعليم على طول الأيام والتلقين . فكيف يتعجب الجاهلون من إنطاق إسماعيل بالعربية على غير تعليم الآباء ، وتأديب الحواضين ؟ !

وهذه المسألة ربما سأل عنها بعض القحطانية ، ممن لا علم له ، بعض العدنانية (٢) ، وهى على حال القحطانية أشد (٣) .

فأما جواب العدناني فسليس النظام ، سهل المخرج ، قريب المعنى ؛ لأن بنى قحطان لا يدعون لقحطان نبوة (٤) فيعطيه الله تعالى مثل هذه الأعجوبة .

وما الذى قسم الله بين الناس من ذلك إلا كما صنع الله فى طينة

(١) أهبان هذا : أحد الصحابة ، ذكروا أن الذئب كلمه ثم بشره بالرسول . انظر تفصيل ذلك فى مآب القلوب ٣٠٩ . وانظر كذلك الحيوان ١ : ٢٩٨ / ٣ : ٥١٣ / ٤ : ٧ / ٨٠ : ٥٠ : ٢١٣ ، ٢١٧ ، والإصابة ٣٠٥ .

(٢) ب ، م : « لبعض العدنانية » ، صوابه فى ط ، مج والرسائل .

(٣) مج : « وهى على القحطاني أشد » .

(٤) ب فقط : « بنوة » بتقديم الباء ، تحريف .

الأرض^(١) ، فجعل بعضُها حجراً ، وبعضُ الحجر ياقوتاً ، وبعضُه ذهباً ، وبعضُه نحاساً ، وبعضُه رصاصاً ، وبعضُه صفراً^(٢) ، وبعضُه حديداً ، وبعضُه تراباً ، وبعضُه فخّاراً . وكذلك الزّاج ، والمغرة ، والزّرنيخ ، والمرتك ، والكبريت ، والقار ، والتوتيا ، والنوشادر^(٣) ، والمرقشيشا^(٤) ، والمغنطيس^(٥) .

ومن يُحصي عدَدَ جواهرِ الأرضِ وأصنافِ الفلِيزِ^(٦) ؟ !

وإذا كان الأمرُ على ما وصفنا فالبنويُّ^(٧) خُرَاسانيٌّ . وإذا كان الخراساني مولىً والمولى عربي^(٨) ، فقد صار الخراساني والبنويّ والمولى والعربيُّ^(٩) شيئاً واحداً . وأدنى ذلك أن يكون الذي معهم^(١٠) من خصال الوفاق غامراً لما معهم من خصال الخلاف ، بل هم في مُعظم الأمر ، وفي كِبَرِ الشانِ^(١١) وعمود النسب متفقون . فالأثراك خراسانية ،

(١) م فقط : « إلا كما صنع في طينة الأرض ، » .

(٢) الصفر ، بالضم : النحاس الأصفر .

(٣) انظر حواشي الحيوان ٣ : ٣٧٧ / ٥ : ٣٤٩ .

(٤) المرقشيشا ، هو ما يعرف بحجر الماركزيت ، كما في معجم استينجاس ١٢١٨ . وقد وردت في مج والرسائل : « المرقشيشا » بالثاء بدل الشين الثانية . كما وردت بالثاء أيضاً في تذكرة داود عرضاً في الكلام على « المغنيسيا » إذ يقول : « حجر كالمرقشيشا » . وعقد له رسماً في المتمد لابن رسولاً ٣٤٢ بلفظ « مرقشيشا » .

(٥) ذكر داود في تذكرته أنه يسمى حجر الهنود وحجر الحديد . وقال : « وأجوده اللازوردى الرزين الصافي » الجاذب للحديد . ومثله في المتمد لابن رسولاً .

(٦) الفلز : جميع جواهر الأرض من الذهب والفضة والنحاس وأشباهاها . ب فقط : « الفلل » ، تحريف .

(٧) ط : « فالبنوي » ، تحريف . وانظر ما سبق في ١٦٧ .

(٨) ط : « عربياً » .

(٩) في جميع الأصول : « والمولى مولى والعرب » ، صوابه في مج والرسائل .

(١٠) ب فقط : « معه » .

(١١) الكبر ، بكسر الكاف وضمها : الرفعة في الشرف .

وموالى الخلفاء قُصرة^(١) ، فقد صار فضل الترك إلى الجميع راجعاً ،
وصار شرفهم زائداً في شرفهم .

وإذا عرف سائرُ الأجنادِ ذلك سامحت النفوس ، وذهب التعقيد ،
ومات الضغن ، وانقطع سببُ الاستئقال ، فلم يبقَ إلاَّ التحاسد والتنافس الذى
لا يزال يكون بين المتقارِبين في القرابة ، وفي الصَّناعة ، وفي المُجاورة .
على أنَّ التوازر والتَّسالم في القرابات وفي بنى الأعمام والعشائر
أقشى وأعمُّ من التَّخاذُل والتَّعادى .

ولحبِّ التناصر والحاجة إلى التعاون انضمَّ بعض القبائل في البوادي
إلى بعض ، ينزلون معاً ، ويظعنون معاً . ومن فارق أصحابه أقلُّ ، ومن
نصر ابن عمه أكثر ، ومن اغتبط بنعمته وتمنَّى بقاءها والزيادة
فيها أكثر من بغاها الغوائل^(٢) وتمنَّى انقطاعها وزوالها .

ولا بدَّ في أضعافِ ذلك من بعض التَّناسف والتَّخاذُل ، إلاَّ أنَّ ذلك
قليلٌ من كثير .

وليس يكون^(٣) أن تصفو الدنيا ، وتنقى^(٤) من الفسادِ والمكروه ،
حتى يموت جميع الخلفاء^(٥) ، وتستوى لأهلها ، وتتمهد لسكانها^(٦)
على ما يشتهون ويهوون ؛ لأنَّ ذلك من صفة دار الجزاء ، وليس كذلك
صفة دار العمل .

(١) قصرة ، بضم القاف ، أى أدنى إليهم . كما يقال هو ابن عمى قصرة ، أى داني النسب .
(٢) الغوائل : المهلكات . ويقال بغيتك الشيء : طلبته لك وتمنيته . وفى كتاب الله :
« يبتغونكم الفتنة » ، أى يبتغونها لكم .

(٣) وكذا فى مج . وفى الرسائل : « وليس يجوز » .

(٤) ب : « أن يصفو الدنيا ويبقى » م ، ط : « أن تصفو الدنيا ويبقى » ، صوابها فى
مج والرسائل . ونفى الشيء ينفى نفاه : صار نقياً خالصاً .

(٥) فى جميع الأصول : « وحتى » ، صوابه فى مج والرسائل . وفى الرسائل أيضاً :
« جميع الخلائق » .

(٦) فى جميع الأصول : « ويستوى لأهلها ويتمهد لسكانها » ، صوابه فى مج والرسائل .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا كتابٌ كتبته أيامَ المعتصم بالله^(١) رضى الله عنه ونَصَّرَ وجهه ، فلم يصل إليه لأسباب يطول ذكرها^(٢) ، فلذلك لم أعرض للإخبار عنها ، وأجبت أن يكون كتاباً قَصِداً ، ومذهباً عَدَلاً ، ولا يكون كتابَ إسرافٍ في مديح قوم ، وإغراقٍ في هجاء آخرين ؛ فإنَّ الكتابَ إذا كان كذلك شابهَ الكذب^(٣) وخالطه التزويد ، وبُنِيَ أساسه على التكلُّف^(٤) ، وخرج كلامه مَخْرَجَ الاستكراهِ والتغْلِيْقِ^(٥) .

وأَنْفَعُ المَدائِحُ للمادح ، وأَجْدَاهَا على الممدوح ، وأَبْقَاهَا أثراً ، وأَحْسَنُهَا ذكراً ، أن يكون المديح صِدْقاً ، وإِظَاهِرِ حَالِ الممدوح موافقاً ، وبه لائِقاً ، حتَّى لا يكون من المعبرِ عنه والواصفِ له إِلاَّ الإِشارةُ إليه ، والتَنْبِيهُ عليه .

وأنا أقول : إن كان لا يمكن ذكر مناقب الأتراك إِلاَّ بذكر مثالب سائر الأجناد ، فتركُ ذكرِ الجميعِ أَصَوَّبٌ ، والإِضرابُ عن هذا الكتابِ أَحْزَمٌ .

(١) هو محمد بن هارون الرشيد ، بويح بالخلافة بعد وفاة أخيه المأمون سنة ٢١٨ . وتوفى بسر من رأى سنة ٢٢٧ . وولى الخلافة بعده ولده هارون الواثق .

(٢) مع والرسائل : « يطول شرحها » .

(٣) هذا ما في الرسائل . وفي جميع الأصول : « شانه » فقط . وفي مع : « شانه الكذب » .

(٤) في جميع الأصول : « في التكلّف » .

(٥) التغلِيق ، المراد به العسر ، كما يغلُق الباب تغليقاً . وفي جميع الأصول وكذا في مع والرسائل : « التغلِيق » ، والوجه ما أثبت .

وذكرُ الكثير من هذه الأصناف بالجميل لا يقوم إلا بالقليل من ذكر بعضهم بالقبيح ، وهو معصية^(١) وبابٌ من ترك الواجب . وقليلُ الفريضة أجدى علينا ، لأن ذكر الأكثر بالجميل نافلة ، وبابٌ من التطوع ؛ وذكر الأقلُّ بالقبيح معصية ، وبابٌ من ترك الواجب . وقليلُ الفريضة أجدى علينا من كثيرِ التطوع .

ولكلُّ الناس نصيبٌ من النقص ، ومقدارٌ من الذنوب ، وإنما يُتفاضلُ بكثرة المحاسن وقلَّة المساوئ . فأما الاشتغالُ على جميع المحاسن ، والسَّلامةُ من جميع المساوئ ، دقيقتها وجليلها ، ظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف فيهم^(٢) .

فإذا كان الخلطاء من جمهور الناس وأهلِ المعاش^(٣) من دهماء الجماعة^(٤) يرون ذلك واجباً في الأخلاق ، ومصلحةً في المعاش ، وتدبيراً في التعامل ، على ما فيهم من مشاركة الخطأ للصواب ، وامتزاج الضعف بالقوة ، فلسنا نشكُّ أنَّ الإمام الأكبر^(٥) ، والرئيس الأعظم مع الأعراق الكريمة ، والأخلاق الرفيعة ، والتام في الحلم والعلم ، والكمال في العزم والحزم ، مع التمكين والقدرة ، والفضيلة والرياسة والسيادة ، والخصائص التي معه من التوفيق والعصمة ، والتأييد وحسن المعونة - لم يكن الله ليجلِّله لباس الخلافة ، ويحبوه ببهاء الإمامة^(٦) ، وبأعظم نعمة

(١) ب : « لم نعصيه » م : « معصية » فقط . وأثبت ما في ط .

(٢) في جميع الأصول : « فهذا ما يعرفونه » ، صوابه في معج والرسائل مع سقوط كلمة « فيهم »

منها .

(٣) في جميع الأصول : « وأهل المقاييس » . وفي معج : « وأصحاب المقاييس » ، وأثبت

ما في الرسائل .

(٤) ط فقط : « من زعماء الجماعة » .

(٥) ب فقط : « في أن الإمام الأكبر » .

(٦) ب : « بهاء الإمامة » ، وفي معج والرسائل : « بتاجِ الخلافة » .

وَأَسْبِغْهَا ، وَأَفْضَلِ كَرَامَةٍ وَأَسْنَاهَا ، ثُمَّ وَصَلَ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِهِ ، وَمَعْبُوتِهِ بِمَعْبُوتِهِ ، إِلَّا وَمَعَهُ مِنَ الْحَلْمِ فِي مَوْضِعِ الْحَلْمِ ، وَالْعَفْوِ فِي مَوْضِعِ الْعَفْوِ ، وَالتَّغَاوُلِ فِي مَوْضِعِ التَّغَاوُلِ ، مَا لَا يَبْلُغُهُ فَضْلُ ذِي فَضْلٍ ، وَلَا جِلْمُ ذِي حَلْمٍ .

ونحن قائلون ، ولا حول ولا قوة إِلَّا بالله العلي العظيم ، فيما انتهى إلينا من القول في الأثر .

زعم محمد بن الجهم وثمامة بن الأشرس^(١) والقاسم بن سيار^(٢) في جماعة ممن يغشي دار الخلافة^(٣) ، وهي دار العامة^(٤) ، قالوا جميعاً :
 بينا حميد بن عبد الحميد جالساً ومعه إخشيد الصفدي^(٥) ،
 وأبو شجاع شبيب بن بخار خدای^(٦) البلخي ، ويحيى بن معاذ ، ورجال
 من المعدودين المتقدمين في العلم بالحرب ، من أصحاب التجارب
 والجراس ، وطول المعالجة والمعاناة بصناعة الحرب ، إذ خرج رسول
 المأمون فقال لهم : يقول لكم مفترقين ومجتمعين : فليثبت^(٧) كل

(١) ب : « الأثرث » ، تحريف . وهو ثمامة بن أشرس النخعي مولى بني نعيم . كان زعيم القدرية في زمان المأمون والمعتمد والوائق . وهو الذي دعا المأمون إلى الاعتزال . انظر الفرق بين الفرق ١٥٧ . وتروى عنه قصص تشير إلى استخفافه بالدين ، من ذلك أنه رأى الناس يوم جمعة يتعدون إلى المسجد الجامع ، نحو فهم من فوت الصلاة ، فقال لرفيق له : انظر إلى هؤلاء الخمر والبقر ! ثم قال : ما صنع ذلك العربي بالناس . تأويل مختلف الحديث ٦٠ . قتل ثمامة في زمان الواثق الذي تولى الخلافة من ٢٢٧ - ٢٣٢ . وقيل مات سنة ٢١٣ . انظر الفرق ١٥٩ ولسان الميزان ٢ : ٨٤ وتاريخ بغداد ٧ : ١٤٥ - ١٤٨

(٢) ب : « يسار » ، صوابه في سائر النسخ والحيوان ٤ : ٤٤٢

(٣) ط فقط : « ممن يغشون دار الخلافة » .

(٤) ط فقط : « وهي دار الإمامة » .

(٥) مع : « يخشاد الصفدي » ، وفي الرسائل : « بخشاد الصفدي » .

(٦) ب : « بخار خدای » ، وأثبت ما في م ، ط ، مع . وفي الرسائل ١ : ٤٠ : « بخارا خدای » .

(٧) مع والرسائل : « فليكتب » .

رجلٍ منكم دَعَوَاهُ وَحُجَّتْهُ ، يَقُولُ لَكُمْ : أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيَّ كُلِّ قَائِدٍ مِنْكُمْ ، إِذَا كَانَ فِي مَائَةٍ مِنْ نَخْبَتِهِ وَثِقَاتِهِ ^(١) : أَنْ يَلْقَى بِهِمْ مَائَةٌ تَرْكِيٌّ أَوْ مَائَةٌ خَارِجِيٌّ ؟

فَقَالَ الْقَوْمُ جَمِيعاً : [لَأَنَّ ^(٢)] نَلْقَى مَائَةَ تَرْكِيٍّ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ نَلْقَى مَائَةَ خَارِجِيٍّ ! وَحُمِيدٌ سَاكِتٌ ، فَلَمَّا فَرَّغَ الْقَوْمُ جَمِيعاً مِنْ حُجَجِهِمْ قَالَ الرَّسُولُ لِحُمَيْدٍ : قَدْ قَالَ الْقَوْمُ فَقُلْ وَاكْتُبْ قَوْلَكَ ، وَلِيَكُنْ حُجَّةً لَكَ أَوْ عَلَيْكَ . قَالَ : بَلِ أَلْقَى مَائَةَ خَارِجِيٍّ أَحَبُّ إِلَيَّ ؛ لِأَنِّي وَجَدْتُ الْخِصَالَ الَّتِي فَضَّلُ بِهَا التَّرْكِيَّ جَمِيعَ الْمُقَاتِلَةِ غَيْرَ تَامَةً فِي الْخَارِجِيِّ ، وَوَجَدْتُهَا تَامَةً فِي التَّرْكِيِّ . فَفَضَّلُ التَّرْكِيَّ عَلَى الْخَارِجِيِّ بِقَدْرِ فَضْلِ الْخَارِجِيِّ عَلَى سَائِرِ الْمُقَاتِلَةِ . وَذَلِكَ بِأَنَّ التَّرْكِيَّ بَانَ مِنَ الْخَارِجِيِّ بِأُمُورٍ لَيْسَ فِيهَا لِلْخَارِجِيِّ دَعْوَى وَلَا مُتَعَلِّقٌ . عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الَّتِي بَانَ بِهَا التَّرْكِيُّ مِنَ الْخَارِجِيِّ أَعْظَمُ خَطِراً وَأَقْلُ نَفْعاً مِمَّا شَارَكَهُ الْخَارِجِيُّ فِي بَعْضِهِ .

ثُمَّ قَالَ حُمَيْدٌ : وَالْخِصَالُ الَّتِي يَصُولُ بِهَا الْخَارِجِيُّ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ : صِدْقُ الشَّدَّةِ عِنْدَ أَوَّلِ وَهْلَةٍ ، وَهِيَ الدَّفْعَةُ الَّتِي يَبْلَغُونَ بِهَا مَا أَرَادُوا ، وَيُنَالُونَ بِهَا مَا أَمَلُوا .

وَالثَّانِيَةُ : الصَّبْرُ عَلَى الْخَبَبِ ^(٣) ، وَعَلَى طُولِ السَّرْيِ حَتَّى يُصْبِحُوا الْقَوْمَ الَّذِينَ مَرَّقُوا بِهِمْ غَارِينَ ^(٤) ، فَيَهْجُمُوا ^(٥) عَلَيْهِمْ وَهُمْ بَسُوءٌ ^(٦)

(١) ب : « من نخبه » . وفي معج والرسائل : « إذا كان في عدته من صحبه وثقاته » .

(٢) هذه من ط والرسائل .

(٣) الخبيب : ضرب من العدو السريع . ب : « الخنب » تحريف .

(٤) المروق : المرور بسرعة كما يمرق السهم من الرمية . غارون : غافلون . ب : « غازين » .

(٥) ب فقط : « فهجموا » .

(٦) في الأصول : « بشر » ، ولا وجه له . والوجه ما أثبت من معج والرسائل . وهو

من قولهم : ناقة بسوء ، بفتح الباء : لاتمتنع الخالب . وهذا مثل اللصمف .

ولحم على وَصَمَ^(١) ، فَيَعْجَلُوا بِهِمْ عَنِ الرَّوِيَّةِ^(٢) ؛ وَعَنْ رَدِّ النَّفْسِ بَعْدَ الْجَوْلَةِ^(٣) وَالنَّزْوَةِ ، لَا يَظُنُّونَ أَنَّ أَحَدًا يَقْطَعُ فِي ذَلِكَ الْمَقْدَارِ مِنَ الزَّمَانِ ذَلِكَ الْمَقْدَارَ مِنَ الْبِلَادِ .

والثالثة : أَنَّ الْخَارِجِيَّ مُوصُوفٌ عِنْدَ النَّاسِ بِأَنَّهُ إِنْ طَلِبَ أَدْرَكَ ، وَإِنْ طُلِبَ فَاتَ .

والرابعة : خِفَّةَ الْأَزْوَادِ^(٤) ، وَقَلَّةَ الْأَمْتَعَةِ ، وَأَنَّهَا تَجُنَّبُ الْخَيْلَ^(٥) ، وَتَرْكَبُ الْبِغَالَ ، وَإِنْ احتاجتْ أَمَسَتْ بِأَرْضِي وَأَصْبَحَتْ بِأُخْرَى^(٦) ، وَأَنَّهُمْ قَوْمٌ حِينَ خَرَجُوا لَمْ يَخْلُفُوا الْأَمْوَالَ الْكَثِيرَةَ ، وَالْجِنَانَ الْمَلْتَفَّةَ ، وَالذُّورَ الْمُشِيدَةَ ، وَلَا ضِيَاعًا وَلَا مُسْتَغَلَّاتٍ ، وَلَا جَوَارِيَ مَطْهُمَاتٍ ، وَأَنَّهُمْ^(٧) لَا سَلَبَ لَهُمْ ، وَلَا مَالَ مَعَهُمْ ، فَيَرْغَبُ الْجَنْدُ فِي لِقَائِهِمْ ، وَإِنَّمَا هُمْ كَالطَّيْرِ لَا تَدَّخِرُ ، وَلَا تَهْتَمُ^(٨) لَعَدِي ، وَهِيَ فِي كُلِّ أَرْضٍ مِنَ الْمِيَاهِ وَالْبُرُورِ^(٩) مَا يَقُوتُهَا . وَإِنْ لَمْ تَجِدْ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ فَاجْنَحْتُهَا تَقْرُبُ لَهَا الْبَعِيدَ ، وَتَسَهِّلُ لَهَا الْحَزُونَ . وَكَذَلِكَ الْخَوَارِجُ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمُ الْقِرَى وَالطَّعْمُ^(١٠) ،

(١) الوضم : جمع وضمة ، وهو كل شيء يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير ، يوق به الأرض . واللحم على الوضم مثل للضعف وعدم الامتناع .

(٢) في جميع الأصول : « على الروية » ، والوجه ما أثبت من مع والرسائل .

(٣) ب ، م : « بعد الحولة » بالحاء المهملة .

(٤) ب فقط : « الأزواج » تحريف . والأزواد : جمع زاد ، وهو الطعام ولاسيما في السفر .

(٥) تجنبها : تفودها إلى جنب البغال . والضمير للخوارج .

(٦) ب فقط : « وأضحت بأخرى » .

(٧) ب ، م : « أنهم » بدون واو .

(٨) ب : « ولا تهتم لغد » .

(٩) في جميع الأصول : « والبرور » ، ولاوجه له . وفي مع والرسائل : « والأقوات » .

(١٠) مع والرسائل : « والمطعم » . والطعم ، بالنضم : الطعام .

فإن يمتنع^(١) عليهم في بنات أعوج^(٢) وبنات شحاح^(٣) ، وخفة الأنفال ، والقوة على طول الحَبب ما يأتيتها بأرزاقها ، وأكثرَ من أرزاقها .

والخامسة : أنَّ الملوك إذا أرسلوا إليهم أعدادهم ليكونوا في خفة أزوادهم وأثقالهم ، وليَقْوُوا على التنقل كقوتهم^(٤) ، لم يَقْوُوا عليهم ، لأنَّ مائة^(٥) من الجند لا يقومون لمائة من الخوارج . وإن كَفَّوْا الجيش وضاعفوا العدد^(٦) ثَقُلُوا عن طلبهم ، وعن العَوْتُ إن طلبهم عدوهم . ومتى شاءَ الخارجيُّ أن يَقرُبَ منهم ليتطَرَّفَهُمْ^(٧) ، أو ليُصيبَ الزَّرةَ^(٨) أو ليشتبهم^(٩) ، فعل ذلك^(١٠) ، ثقةً بأنَّه يَغْنَمُ^(١١) عند الفرصة ورؤية العورة ، ويمكنه الهربُ عند الخوف ، وإن شاءَ كَبَسَهُمْ^(١٢) ليقطع نظامهم ، أو ليقطع القطعةَ منهم .

- (١) في الأصول : « تمتنع » ، وأثبت ما في مع . وفي الرسائل : « فإن تمتنع » .
 (٢) ط : « أعوج » تحريف . وأعوج هذا : فرس كان لكتندة ، فأخذته بنو سليم في بعض أيامهم ، فصار إلى بني هلال . وليس في العرب فعل أشهر ولا أكثر نسلته .
 (٣) بنات شحاح ، هي البغال ، لأنها تشجع بصوتها . وفي مع والرسائل : « وبنات شحاح وبنات صهال » . وبنات صهال يعني بها الخيل فإن الصهيل لها . وبنات صهال لم ترد في اللسان ولا القاموس ، ولكن وردت في الزهر ١ : ٥٢٥ .
 (٤) ب : « كقولهم » ، صوابه في م ، ط ومع والرسائل .
 (٥) ب : « لامية » تحريض .
 (٦) مع والرسائل : « وإن كففوا الجيش بالجيش ، وضاعفوا العدد بالعدد .
 (٧) التطرف : الإغارة من حول المسكر . ب : « لينظر فيهم » . م ، ط : « ليتطرقهم » بالقاف ، صوابه في مع والرسائل .
 (٨) الفرقة ، بالكسر : الغفلة . ب : « العراة » ، صوابه في م ، ط ، مع والرسائل .
 (٩) أثبتته : جرحه جراحة لا يقوم معها . وفي الكتاب العزيز : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك » في الآية ٣٠ من الأنفال . وفي مع والرسائل : « أو ليلسبهم » .
 (١٠) ب ، مع : « فعل » بإسقاط « ذلك » .
 (١١) في الأصول : « يقيم » ، وأثبت ما في مع والرسائل .
 (١٢) الكبس : الاقتحام ، كالتكبيس والتكبيس . ب : « كيبسهم » بالياء المشناة التحتية ، تحريف .

قال حميد: فهذه هي مفاخرهم وخصالهم، التي بها كره القواد لقاءهم.

قال القاسم بن سيار: وخصلة أخرى، وهي التي رعبت القلوب^(١) وحشتها^(٢)، ونقضت العزائم^(٣) وفسختها، وهو ما تسمع الأجناد ومقاتلة العوام من ضرب المثل بالخوارج، كقول الشاعر:

إذا ما البخيل والمحاذر للقرى

رأى الصيْف مثل الأزرق المجفّف^(٤)

هذه زيادة القاسم بن سيار.

فأمّا حميد^(٥) فإنه قال:

فأمّا الشدة فالتركي فيها أحمد أثراً، وأجمع أمراً، وأحكم شأنًا؛ لأنّ التركي من أجل أن تصدق شدته ويتمكن عزمه، ولا يكون مشترك العزم، ومنقسم الخواطر، قد عودَ يردونه أن لا ينثنى وإن ثناه، أن يملاً فروجه^(٦)، إلا أن يُديره مرةً أو مرتين، وإلا فإنه لا يدع سننه، ولا يقطع ركضه^(٧)، وإنما أراد التركي أن يويس نفسه من البدوات^(٨)،

(١) ط فقط: «أرعبت». يقال رعب فلاناً رعباً: خوفه وأفزع، كما يقال أربعه إرعباً.

(٢) أي ملاتها من الرعب. وفي م: «وجشتها»، وفي م ج والرسائل: «وخلعها».

(٣) ب: «ونقضتها العزائم».

(٤) ب: «إذا ما الخيل، تحريف. وفي ط: «إذا ما رأى الخيل المحاذي للقرى» تحريف أيضاً، صوابه في م، ومج والرسائل. ب، م: «الصيف» بالصاد المهملة، تحريف. والمجفّف: الذي جفت فرسه بالجفاف، وهو ما جلل به من سلاح وآلة تقيه الجراح. وفي ب: «المخفق» وفي م، ط: «المخفف» صوابهما في مج والرسائل.

(٥) م، ط: «وأما حميد».

(٦) ط فقط: «فلا يملاً فروجه» تحريف. والفروج: ما بين قوائم الفرس. وكفى بملها عن الإسراع وشدة العدو حتى لا تكاد تظهر تلك الفروج للنظر.

(٧) ب فقط: «ركده» تصحيف.

(٨) ب فقط: «يويس» بالياء، تحريف. والبدوات: الحطرات والآراء تبدو وتظهر.

ط فقط: «البدرات».

ومن أن يعتبره التَّكْذِيبُ (١) بعد الاعتزام ، لِهول اللقاء ، وَحُبِّ الحِياة ،
لأنَّهُ إذا علم أَنَّهُ قد صيرَّ بِرِذْوَنِهِ إلى هذه الغاية حتَّى لا يثنى ،
ولا يجيبه إلى التصرُّفِ معه إلَّا بِأَنْ يصنع شيئاً بين الصَّفِينِ فيه عَطْبُهُ ،
لم يُقدِّم على الشَّدَّةِ إلَّا بعد إحكام الأمر ، والبَصْرَ بالعورة (٢) . وإنَّما
يريد أن يشبه نفسه بالمُخْرَجِ (٣) الذي إذا رأى أشدَّ القتال لم يدعُ
جُهداً ولم يدخر حيلة ، ولينفى (٤) عن قلبه خواطرَ الفِرار ، ودواعي
الرُّجوع .

وقال : الخارجىُّ عند الشَّدَّةِ إنَّما يعتمد على الطَّعان . والأتراك
تطعنُ طعنَ الخوارج ، وإن شدَّ منهم ألف فارسٍ فرموا رشقاً واحداً (٥)
صرعوا ألفَ فارس ، فما بقاء (٦) جيشٍ على هذا النوع من الشَّدَّةِ (٧) !
والخوارج والأعراب ، ليست لهم رمايةٌ مذكورةٌ على ظُهور الخيل ،
والتركيُّ يرمى الوحشَ ، والطَّيرَ ، والبُرْجاسَ (٨) ، والنَّاسَ (٩) ، والمجمَّمةَ (١٠) ،
والمثَّلَ الموضوعة ، والطَّيرَ الخاطفَ (١١) ، ويرمى وقد ملأَ فروج دابَّته

(١) التَّكْذِيبُ : الإحجام ، يقال للرجل إذا حلَّ ثم ولى ولم يمض : قد كذب عن
قرنه تكذيباً .

(٢) العورة : موضع الخلل عند العدو . ويقال بيوت عورة ، أى ممكنة للسرقة ، لخلوها
وأناها غير حريزة . وفي جميع الأصول : « بالعودة » . وأثبت ما في معج والرسائل .

(٣) في جميع الأصول : « بالخروج » ، صوابه بالخاء المهملة كما في معج والرسائل .

(٤) ب فقط : « وليبقى » بالقاف ، صوابه في م ، ط ، معج والرسائل .

(٥) الرشق بالكسر : الاسم من الرشق ، ورشقاً واحداً ، أى وجهاً واحداً بجميع

سهامهم .

(٦) في جميع الأصول ، معج : « بقى » ، صواب رسمه من الرسائل .

(٧) هذا ما في ب . وفي م ، ط ومعج والرسائل : « من الشدة » .

(٨) البرجاس ، بضم الباء ، سبق تفسيره في ص ١٧٩ .

(٩) انظر ما سيأتى في ٢٠٦ س ٤ .

(١٠) الجمجمة ، سبق تفسيرها في ص ٣٢ . ب فقط : « المحبته » ، تحريف .

(١١) م ، ط : « والطار الخاطف » .

مُدْبِرًا وَمُقْبِلًا^(١) ، وَيَمْنَةً وَيَسْرَةً ، وَصُعْدًا وَسُقْلًا ، وَيَرْمِي بِعَشْرَةِ
أَسْهَمٍ^(٢) قَبْلَ أَنْ يَفُوقَ الْخَارِجِيَّ سَهْمًا وَاحِدًا . وَيَرْكُضُ دَابَّتَهُ مَنْحَدِرًا
مِنْ سَهْلٍ ، أَوْ مُتَسَفِّلًا إِلَى بَطْنٍ وَادٍ بِأَكْثَرِ مِمَّا يُمْكِنُ الْخَارِجِيُّ عَلَى بَسِيطِ
الْأَرْضِ .

والتركيُّ له أربعة أعين^(٣) : عينان في وجهه ، وعينان في قفاه .
وللخارجيِّ عيب في مستدبرِ الحرب ، وللخراسانيِّ عيبٌ في مُستقبلِ
الحرب .

فعب الخراسانية أنَّ لها جولةً عند أولِّ الالتقاء^(٤) ، فإن ركبوا
أكساءهم^(٥) كانت هزيمتهم ، وكثيراً ما يُثوبون ، وذلك بعد الخطار
بالعسكر ، وإطماع العدو في الشدة .

والخوارج إذا ولَّوْا فقد ولَّوْا ، وليس لهم بعد الفررُ كركبٍ إلا ما لا يُعدُّ .
والتركيُّ ليست له جولةُ الخراسانيِّ ، وإذا أدبرَ فهو السمُّ النافع ،
والحُتْفُ القاضِي ، لأنَّه يُصيبُ بسهمه وهو مُدْبِرٌ ، كما يُصيبُ بسهمه
وهو مقبلٌ ، ولا يُؤمنُ وهَقَه^(٦) .

(١) انظر ما سبق في ص ٢٠١ .

(٢) ب : « لعشرة أسهم » بحرف م : « العشرة أسهم » ؛ وهو خطأ ، وفي ط :
« العشرة الأسم » ، وأثبت ما في مع والرسائل .

(٣) مع والرسائل : « ولتركي أربعة عين » . وقد وردت « أربعة » مؤنثة مع العين المؤنثة ،
وهو وجه جائز في العربية المذكور في المطولات . وانظر الصبان ٤ : ٦٢ حيث ذكر ابن هشام
أن ما كان لفظه مذكراً ومعناه مؤنثاً ، أو بالعكس ، فإنه يجوز فيه وجهان .

(٤) م : « الألقاء » ، صوابه في ب ، ط .

(٥) الأكساء : جمع كساء ، بالضم ، وهو مؤخر كل شيء . يقال ركب كساءه : وقع
على قفاه . والمراد : أدبروا وتأخروا . ب فقط : « كساءم » ، بالإنفراد .

(٦) الوهق ، بالتحريك : حبل شديد القتل يرمى وفيه أنشودة ، فتوغذ فيه الدابة
والإنسان . ب فقط : « رهقه » ، تحريف .



قال : وهم عَلموا الفُرسانَ حملَ قُوسينَ وثلاثَ قُوسٍ ، ومن الأوتارِ
 على حَسَبِ ذلك (١) .

والتركيُّ في حالِ شِدَّتِه معه كلُّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إليه ، لِنفْسِه ،
 ولسلَاحِه ، ولدابَّتِه ، وأداةِ دابَّتِه (٢) . فَأَمَّا الصَّبْرُ على الخَبَبِ (٣)
 ومواصله السَّيرِ ، وعلى طُولِ السَّرى وقَطْعِ البِلادِ [فَعَجِيبٌ جَدًّا (٤)] .
 فواحدةٌ (٥) : أَنْ فَرَسَ الخارِجِيَّ لا يَصْبِرُ صَبْرَ بَرْدُونِ التُّرْكِيِّ .

والخارجيُّ لا يَحْسِنُ أَنْ يَعالِجَ فَرَسَه إِلَّا مُعالِجَةَ الفُرسانِ لخيوطِمْ ،
 والتُّرْكِيُّ أَحَدَقُ مِنَ البَيْطارِ ، وأجودُ تقويماً لِبَرْدُونِه على ما يَريدُ من
 الرَّاضةِ (٦) ، وهو اسْتَتَجَهُ ، وهو رَبَّاهُ فِلَوْأً ، وَيَتَّبِعُه إِنْ سَإَه (٧) ، وَإِنْ
 رَكَضَ رَكَضَ خَلْفَه ، قد عَوَّدَه [ذلك (٨)] حَتَّى عَرَفَه ، كما يَعْرِفُ
 الفُرسَ : اجْدَمَ (٩) ، والناقةُ : حَلَى (١٠) ، والجملُ : جَا (١١) ، والبغلُ :
 عَدَسٌ ، والحمارُ : سَأَسَأُ ؛ وكما يَعْرِفُ المَجنونُ لِقَبِه ، والصبيُّ اسْمَه .

(١) م ، ط : « على حساب ذلك » .

(٢) ب فقط : « وأداة دابته » ، تحريف .

(٣) انظر ما معنى في ص ٨٩ . وفي ب : « الجنب » ، تحريف

(٤) التكلمة من معج والرسائل .

(٥) ط فقط : « فظاهر » .

(٦) الراضة : جمع رائض ، وهو من يروض الدابة ويسوسها ويدلها .

(٧) ب ، م والرسائل : « وتتبعه إن ساه » ، وأثبت ما في ط .

(٨) التكلمة من معج والرسائل .

(٩) أجدم ، بوصل الهنزة بعدها جيم ودال مهمله ، وهو زجر للفرس ، ومثله « هجدم »

بالهاء . وفي الأصول : « اجدم » بالذال المعجمة ، صوابه في معج ومعظم أصول الرسائل . انظر :

٤٧ : ١

(١٠) يقال في زجر الناقة : حل ، وحلى أيضاً . وأنشدوا لأبي النجم :

* وقد حدوناها بحوب وحلى *

(١١) جاه ، بكسر الهاء : زجر للإبل . وربما قيل جاه بالنون ، وكذلك جوه جوه

بسكون الهاء . ومثله جأ ، وشأ ، كما يقال جيء جيء : أمر لها بورود الماء وهي على الخوض .

وجوؤج : أمر لها بورود بالماء وهي بعيدة منه ، أو هو زجرها لا أمر بورود الماء . وفي م ، ط :

« جأ » . وأثبت ما في ب ، معج والرسائل .

ولو حصلت مُدَّةٌ عُمُرِ التُّرْكِيِّ وَحَسِبْتَ أَيَّامَهُ لَوَجَدْتَ جُلُوسَهُ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ نَادراً^(١). وَالتُّرْكِيُّ يَرْكَبُ فَحَلاً أَوْ رَمَكَةً^(٢) ، وَيُخْرَجُ غَازِياً أَوْ مَسَافِراً ، أَوْ مُتَبَاعِداً فِي طَلَبِ صَيْدٍ ، أَوْ سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، فَتَتَّبِعُهُ الرَّمَكَةُ وَأَفْلَاؤُهَا ؛ إِنْ أَعْيَاهُ اصْطِيَادُ النَّاسِ اصْطَادَ الْوَحْشِ ، وَإِنْ أَخْفَقَ مِنْهَا وَاحْتِاجَ إِلَى طَعَامٍ فَصَدَّ دَابَّةً مِنْ دَوَابِّهِ ، وَإِنْ عَطِشَ حَلَبَ رَمَكَةً مِنْ رِمَاكِهِ ، وَإِنْ أَرَاكَ وَاحِدَةً رَكِبَ أُخْرَى ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْزَلَ إِلَى الْأَرْضِ .

وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا وَبَدَنُهُ يَنْتَقِضُ^(٣) عَنْ اقْتِيَاتِ اللَّحْمِ وَحَدَهُ - غَيْرِهِ ، وَكَذَلِكَ دَابَّتُهُ تَكْتَفِي بِالْعُنْقُرِ^(٤) وَالْعُشْبِ وَالشَّجَرِ ، لَا يُظِلُّهَا مِنْ شَمْسٍ ، وَلَا يُكْنِئُهَا مِنْ بَرْدٍ .

قَالَ : وَأَمَّا الصَّبْرُ عَلَى الْخَيْبِ^(٥) فَإِنَّ الثَّغْرِيِّينَ^(٦) ، وَالْفَرَانْقِيِّينَ^(٧) ، وَالْخِصْيَانَ ، وَالْخَوَارِجَ ، لَوْ اجْتَمَعَتْ قُورَاهُمْ فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ لَمَا وَقَفُوا بِتُرْكِيٍّ وَاحِدٍ . وَالتُّرْكِيُّ لَا يَبْقَى مَعَهُ مَعَ طَوْلِ الْغَايَةِ إِلَّا الصَّمِيمُ مِنْ دَوَابِّهِ ، وَالَّذِي يَقْتُلُهُ التُّرْكِيُّ بِإِتْعَابِهِ لَهُ . وَيُنْفِيهِ^(٨) عِنْدَ غَزَاتِهِ هُوَ الَّذِي لَا يَصْبِرُ

(١) نادراً ، ساقطة من ب . وفي م : « نادر » محرف . وفي مج والرسائل : « لوجدت جلوسه على ظهر دابته أكثر من جلوسه على ظهر الأرض » .

(٢) الرمكة ، بالتحريك : الأثني من البراذين . وفي جميع الأصول : « فحل أرمাকে » ، وأثبت ما في مج والرسائل .

(٣) ينتقض : يفسد ويهزل . وفي جميع الأصول : « ينتفض » بالفاء ، ولا وجه له .

(٤) العنقر : كعنقر : أصل القصب والبردى والبقل مادام أبيض مجتمعاً .

(٥) ب : « الجنب » ، تحريف . وانظر ١٩٩ .

(٦) الثغريون : نسبة إلى الثغر ، وهو واحد ثغور الشام . ومن أشهرها : أنطاكية ،

وبغراس ، والمصيصة . وأصل أهلها من الروم .

(٧) نسبة إلى الفرانق بالضم ، يعني بهم عمال البريد ، ويبدو أنهم كانوا من غير العرب .

والفرانق : الذي يدل صاحب البريد على الطريق ، معرب « بروانك » . ب ، م : « والفرانقيين » ط : « والفرانقيين » ، صوابهما ما أثبت .

(٨) في جميع الأصول : « ويبيقيه » ، وأثبت ما في مج والرسائل .



معه فرس الخارجى ، ولا يبقي معه كل بردون بخارى^(١) ، ولو ساير خارجياً لاستفرغ جهده^(٢) قبل أن يبلغ الخارجى عفوهُ .

والتركى هو الراعى ، وهو السائس ، وهو الرائض ، وهو النخاس^(٣) ، وهو البيطار ، وهو الفارس . فالتركى الواحد أمة على حدة .

قال : وإذا سار التركى فى غير عساكر الترك فسار القوم عشرة أميال سار التركى عشرين ميلاً ، لأنه ينقطع عن العسكر يمنة ويسرة ، ويصعد فى ذرى الجبال ، ويستبطن قعور الأودية ، فى طلب الصيد ، وهو فى ذلك يرى كل ما دب ودرج ، وطار ووقع .

قال : والتركى لم يسير فى العسكر سير الناس قط ، ولا سار مستقيماً قط^(٤) .

قال : وإذا طالت الدلجة ، واشتد السير ، وبعد المنزل ، وانتصف النهار ، واشتد التعب ، وشغل الناس الكلال^(٥) ، وصمت المتسايرون فلم ينطقوا ، وقطعهم ما هم فيه عن التشاغل بالحديث ، وتفسخ كل شىء من شدة [الحر ، وجمد كل شىء من شدة^(٦)] البرد ، وتمنى كل جليد القوى على طول السرى أن تطوى له الأرض ، وكلما رأى خيالاً^(٨)

(١) ط فقط : « تجارى » ، تحريف .

(٢) هذا الصواب من م ، مع . وفى الرسائل : « لاستفرغ وسه » . وفى ب : « لا استفرغ جهده » . وفى ط « لا يستفرغ جهده » ، محرفتان .

(٣) ب ، م : « النحاس » ، تحريف . والنحاس ، بالخاء المعجمة : بائع اللواب ، سمي بذلك لنخسه إياها حتى تنشط .

(٤) ب : « ولا مدار » ، صوابه فى م ، ط .

(٥) فى جميع الأصول : « الكلام » ، ولا يستقيم مع ما بعده . والصواب من مع والرسائل . والكلال : التعب والإعياء .

(٦) التفسخ : عدم الطاقة وقلة الاحتمال . م فقط : « وتفسخ » ، تحريف .

(٧) التكلمة من مع والرسائل ، لكن فى الرسائل : « وخذ » بالخاء .

(٨) الخيال : مانصب فى الأرض ليعلم أنها حى فلا تقرب . والخيال والخيالة أيضاً :

ماتشبه لك فى اليقظة أو الحلم من صورة

أو علماً استبشَّرَ به ، وظنَّ أنه قد بلغ المنزل ، وإذا بلغه الفارس نزل وهو متفحج^(١) ، كأنه صبيُّ محقون^(٢) ، يشنُّ أنينَ المريض ، ويستريح إلى الثاوب^(٣) ، ويتداوى مما به بالتمطى والتضجع . وترى التركيَّ في تلك الحال ، وقد سار ضعفَ ما ساروا ، وقد أتعبَ منكبَّيه كثرةُ النزع^(٤) ، يرى بقرب^(٥) المنزلِ غيراً أو ظلياً ، أو عرَنَسَ له ثعلبٌ أو أرنب ، كيف يركضُ ركضَ مبتدئٍ مستأنفٍ ، حتَّى كأنَّ الذي سار ذلك السيرَ ، وتعبَ ذلك التعبَ غيره .

وإن بلغ النَّاسُ وادياً فازدحموا على مسلِّكه أو على قنطرتِه ، بَطَنَ^(٦) برذونه فأقحمَه ثم طلع من الجانب الآخر كأنه كوكبٌ . وإن انتهوا إلى عقبةٍ صعبةٍ ترك السنن^(٧) ، وذهبَ في الجبلِ صُعداً ، ثم تدلَّى من موضعٍ يعجزُ عنه الوعلُ ، وأنت تحسبه مخاطراً بنفسه ، لِلَّذِي ترى من مُطْلعه . ولو كان في كلِّ ذلك مخاطراً لما دامت له السَّلَامَةُ ، مع تنابع ذلك منه .

-
- (١) متفحج : قد فتح ما بين رجليه ، وذلك من تأثير طول الركوب . ب : « متفحج » م ، ط : « متفحج » بتقديم الجيم على الحاء ، ولا مادة لهذه في العربية ، وصوابها ما أثبت من مع والرسائل .
- (٢) محقون : قد أعطى الدواء بالحقنة . وفي جميع الأصول : « مجنون » ، صوابه في مع والرسائل .
- (٣) ب : « التناوب » ، م ، ط « الثواب » ، والصواب ما أثبت من مع والرسائل .
- (٤) النزع في القوس : مد و ترها ليرى بسهامها .
- (٥) في جميع الأصول : « لقرب » باللام ، والوجه ما أثبت . وفي مع والرسائل : « قرب المنزل » .
- (٦) بطنه بطناً : ضرب بطنه . ب : « فطن » ، بالفاء ، صوابه في م ، ط ، مع والرسائل .
- (٧) السنن ، بالتحريك : نهج الطريق ومجته . م ، ط : « السير » بتحريف .

قال : وَيَفْخَرُ^(١) الْخَارِجِيُّ بِأَنَّهُ إِذَا طَلَبَ أَدْرَكَ ، وَإِذَا طُلِبَ فَاتَ^(٢) .

والتركيُّ ليس يُحَوِّجُ إِلَى أَنْ يَفُوتَ ، لِأَنَّهُ لَا يُطَلَّبُ وَلَا يُرَامُ .

وَمَنْ يَرُومُ مَا لَا يُطْمَعُ فِيهِ ؟ !

فهذا دليلٌ على أننا قد علمنا أَنَّ العلةَ التي عمَّت الخوارج بالنجدة استواءُ حالاتهم في أشدِّ الديانة^(٣) ، واعتقادهم بأنَّ القتالَ دينٌ ؛ لِأَنَّا حينَ وجدنا السَّجِسْتَانِيَّ ، وَالْجَزْرِيَّ^(٤) ، وَالْيَائِيَّ ، وَالْمَغْرِبِيَّ ، وَالْعُمَانِيَّ ، وَالْأَزْرَقِيَّ مِنْهُمْ وَالنَّجْدِيَّ^(٥) ، وَالْإِبَاضِيَّ ، وَالصُّفْرِيَّ^(٦) ، وَالْمَوْلِيَّ وَالْعَرَبِيَّ ، وَالْعَجَمِيَّ وَالْأَعْرَابِيَّ ، وَالْعَبِيدَ وَالنِّسَاءَ ، وَالْحَائِكَ وَالْفَلَاحَ ، كُلَّهُمْ يُقَاتِلُ مَعَ اخْتِلَافِ الْأَنْسَابِ ، وَتَبَايُنِ الْبُلْدَانِ - عَلِمْنَا أَنَّ الدِّيَانَةَ هِيَ الَّتِي سَوَتْ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ ، كَمَا أَنَّ كُلَّ حِجَامٍ فِي الْأَرْضِ مِنْ أَيِّ جِنْسٍ كَانَ ، وَمِنْ أَهْلِ أَيِّ بَلَدٍ كَانَ ، فَهُوَ يَحِبُّ النَّبِيذَ . وَكَمَا أَنَّ

(١) في جميع الأصول : « ويمجز » ، صوابه في معج الرسائل .

(٢) معج الرسائل : « لم يدرك » .

(٣) معج الرسائل : « في الديانة » .

(٤) ب : « والحزري » ط : « والحزري » ، وأثبت ما في م ومعج الرسائل .

(٥) نسبة إلى نجدة بن عامر ، أو ابن عاصم ، الحنفى . ويقال لهم « النجدات » أيضاً .

وكان نجدة ممن خرج مع ابن الزبير ثم فارقه هو ونافع الأزرق من الخوارج ، فصار نافع إلى البصرة ونجدة إلى الإمامة ، وذلك في سنة ٦٤ . الملل والنحل ١ : ١٦٥ والطبرى في حوادث ٦٤ .

ثم صار إلى الطائف ثم إلى البحرين ، ووجه إليه مصعب بن الزبير بخيل بعد خيل فهزمهم ، وظل خمس سنوات هو وعماله بالبحرين والإمامة وعمان وهجر والعرض ، ثم نقم عليه الخوارج فخلعوه بعد أن كان يسمى أمير المؤمنين ، وأقاموا أباً فديك مكاته سنة ٧٣ وقتل نجدة في تلك السنة . الطبرى والفرق بين الفرق ٦٧ والمواقف ٦٢٩ .

(٦) الصفريه ، بضم الصاد : طائفة من الخوارج ، وهم أصحاب زياد بن الأصغر ، ويقال

لهم الزبيدية أيضاً . وقولهم كقول الأزارقة في أن أصحاب الذنوب مشركون ، غير أن الصفريه لا يرون قتل أطفال مخالفيهم ونسأهم ، وهم يرون ذلك . انظر آراءهم في الملل ١ : ١٨٣ والفرق ٧٠ والسمراني ٣٥٤ والمواقف ٦٤٠ ومفاتيح العلوم ١٦ والكامل ٦٠٤ . ط :

« والصفوي » تحريف .

أصحاب الخُلُقَانِ^(١) ، والسَّمَاكِينَ ، والنَّخَّاسِينَ والحَاكَةَ ، في كُلِّ بَلَدٍ
ومن كُلِّ جَنَسٍ ، شِرَارَ خَلْقِ اللَّهِ في المَبَايَعَةِ والمَعَامَلَةِ . فَعَلَّمْنَا بِذَلِكَ
أَنَّ ذَلِكَ خَلْقَةٌ في هَذِهِ الصَّنَاعَاتِ ، وَبِنِيَّةٍ في هَذِهِ التِّجَارَاتِ ، حَتَّى
صَارُوا مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ النَّاسِ كَذَلِكَ .

قال : ورَأْيُنَاهُ في بِلَادِهِ لَيْسَ يُقَاتَلُ عَلى دِينِ ، وَلَا عَلى تَأْوِيلِ ،
وَلَا عَلى مُلْكٍ وَلَا عَلى خِرَاجٍ ، وَلَا عَلى عَصَبِيَّةٍ ، وَلَا عَلى غَيْرَةِ دُونَ
الْحُرْمَةِ ، وَلَا عَلى حَمِيَّةٍ وَلَا عَلى عِدَاوَةٍ ، وَلَا عَلى وَطَنِ وَلَا عَلى مَنَعِ
دَارٍ^(٢) وَلَا مَالٍ ، وَإِنَّمَا يُقَاتَلُ عَلى السَّلْبِ والخِيَارِ في يَدِهِ . وَلَيْسَ يَخَافُ
الوَعِيدَ إِنْ هَرَبَ ، وَلَا يَرْجُو الوَعْدَ إِنْ أَبْلَى عِذْرًا . وَكَذَلِكَ هُمْ في بِلَادِهِمْ
وَعَارَاتِهِمْ^(٣) وَحُرُوبِهِمْ .

وهو الطالب غير المطلوب ، ومن كان كذلك فإنَّما يأخذ العفو من
قَوَّتِهِ ، وَلَا يَحْتَاجُ إلى مَجْهُودِهِ ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ لَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَطْمَعُ
فِيهِ أَحَدٌ ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ هَذِهِ صِفَّتُهُ ، أَنَّ لَوْ^(٤) اضْطَرَّه إِحْرَاجٌ أَوْ
غَيْرُهُ^(٥) ، أَوْ غَضَبٌ أَوْ تَدْيِينٌ ، أَوْ عَرَضٌ لَهُ بَعْضُ مَا يَصْحَبُ المِقَاتِلَ
المَحَامِي مِنَ العِلَلِ والأَسْبَابِ .

قال : وَقَنَاةُ الخَارِجِيِّ طَوِيلَةٌ صَمَاءٌ ، وَقَنَاةُ التَّرْكِيِّ مِطْرَدٌ أَجُوفٌ^(٦) .
وَالْقَنَاةُ الجُوفُ القِصَارُ أَشَدُّ طَعْنَةً ، وَأَخْفُ مَحْمِلًا . والعِجْمُ تَجْعَلُ القَنَاةَ
الطَّوَالَ لِلرَّجَالَةِ ، وَهِيَ قَنَاةُ الأَبْنَاءِ^(٧) عَلى أَبْوَابِ الخِنَادِقِ والمِضَابِقِ .

(١) يراد بهم من يبيعون الخلقان من الثياب ، جمع خلق ، بالتحريك ، وهو البالي .
وانظر الحيوان ٢ : ١٠٥ .

(٢) ب فقط : « ومنع دار » .

(٣) في الأصول : « وعاداتهم » ، وأثبت ما في مج والرسائل .

(٤) ب ، م : « أولو » ط : « ولو » ، صوابه في مج والرسائل .

(٥) ب ، م : « إخراج أو غيره » ط : « إخراج أو غيره » ، صوابه من مج والرسائل .

(٦) المطرد ، بكسر الميم : رجع قصير .

(٧) ب : « قنائة » ، وإنما تجمع القنائة على قنوات وقنات وقنات ، الأخيرة على وزن فعول .

وفي مج والرسائل : « قنات الأبناء » . والأبناء سبق القول عليهم في ص ١٦٧ .

والأبناء في هذا الباب لا يجرون مع الأتراك والخراسانية ، لأنَّ الغالب على الأبناء المطاعنة على أبواب الخنادق ، وفي المضايق ، وهؤلاء أصحاب الخيل والفرسان ، وعلى أصحاب الخيل والفرسان يدور أمر الفروسية^(١) . لهم الفرّ والكرّ . والفراس هو الذي يطوى الجيش طيَّ السَّجَلِ^(٢) ، ويفرقهم فرّق الشعر^(٣) . وليس يكون الكمين ولا الطليعة ولا الساقة إلاَّ الكبار منهم^(٤) . وهم أصحاب الأيام المذكورة ، والحروب الكبار ، والفتوح العظام .

٢٤ - فصل منها

والشَّحُّ على الوطن ، والحنين إليه ، والصَّباةُ به ، مذكور في القرآن^(٥) ، مخطوط في الصُّحف بين جميع الناس ، غير أنَّ التركيَّ للعلل التي ذكرناها أشدُّ حنيناً ، وأكثر نزوعاً^(٦) .

وباب آخر مما كان يدعوهم إلى الرجوع قبل ثنِّي العزم^(٧) والعادة المنقوضة : وذلك أنَّ التُّركَ قومٌ يشدُّ عليهم الحَصْرُ^(٨) والجُثومُ^(٩) ،

-
- (١) ب ، م : « الفروس » ، صوابه في ط . وفي مع والرسائل : « تدور الجيوش »
 (٢) السجل : الصحيفة ، والكتاب الكبير ، والسجل : الكتاب أيضاً أو ملك يطوى كتب بني آدم إذا رفعت إليه ، وهما فرت الآية الكريمة : « يوم نطوى السماء كطي السجل للكتب » في الآية ١٠٤ من الأنبياء . ب : « على السجل » ، صوابه في م ، ط ومع والرسائل .
 (٣) مع والرسائل : « ويفرقهم تفريق الشعر » .
 (٤) في الرسائل فقط : « وليس يكون الكمين إلا منهم ولا الطليعة ولا الساقة » .
 (٥) في آيات كثيرة فيها ذكر « الديار » . ينظر لها المعجم المفهرس .
 (٦) النزوع والنزاع أيضاً : الحنين والاشتياق إلى الأهل والوطن . ب : « نزعا »
 تحريف . وفي مع : « نزاعا » . وأصل النزاع المغالبة ، يقولون : نازعتني نفسي إلى هواها أي غالبتني . كما يقولون نزاع إلى أهله ووطنه نزوعاً .
 (٧) ب ، م : « عزم الثاني » ، وأثبت ما في ط . وفي مع والرسائل : « قبل العزم الثابت » .
 (٨) في جميع الأصول وكذا في مع : « الحصر » ، وأثبت ما في الرسائل .
 (٩) جثم جثوماً : لزم مكانه فلم يبرحه . وهذه الكلمة ساقطة من ط . وفي ب : « الحثوم »
 وفي م : « الحثوم » ، صوابها من مع والرسائل .

وطول اللبث والمكث ، وقلة التصرف والتحرك^(١) . وأصل بنيتهم إنما وضع على الحركة ، وليس للسكون فيهم نصيب ، وفي قوى أرواحهم فضل على قوى أبدانهم ، لأنهم أصحاب توقدٍ وحرارة ، واشتعال وفطنة^(٢) ، كثيرة خواطرهم ، سريع لحظهم . وكانوا يرون الكفاية معجزة ، وطول المقام بلدة^(٣) ، والراحة عقلة^(٤) والقناعة من قصر الهمة ، وأن ترك الغزو يورث الدلة .

وقد قالت العرب في مثل ذلك : قال عبد الله بن وهب الراسبي^(٥) :
« حبُّ الهويَني يُكسب النَّصَب » .

والعرب تقول : « من غلا دماغه في الصَّيف غلَّتْ قِدرُهُ في الشِّتاء » .
وقال أكرم بن صبيح : « ما أحبُّ أني مكفيُّ كلِّ أمرِ الدنيا » ، قيل :
ولم ؟ قال : « أخاف عادة العَجْزِ^(٦) » .

فهذه كانت عِللَ التُّرك في حبِّ الرجوع ، والحنين إلى الوطن .
ومن أعظم ما كان يدعوهم إلى الشُّرود ، وبيعهم على الرجوع ، ويكرهه عندهم المقام ، ما كانوا فيه من جهل قوادهم بأقدارهم ، وقلة معرفتهم بأخطارهم ، وإغفالهم موضع الردِّ عليهم^(٧) ، والانتفاع

(١) ب ، م : « والتحرق » ط : « والتحرف » ، صوابهما في معجزة الرسائل .

(٢) هذا ما في ط . وفي ب ، م ومعجزة الرسائل : « واشتعال » بالعين المعجمة .

(٣) البلدة بضم الباء وفتحها : ضد الذكاء والنفاذ والمضاء في الأمور ، ومثلها البلادة .

ط ، ومعجزة الرسائل : « بلادة » .

(٤) عقلة ، بضم العين المهملة : أي تعقل صاحبها وتعبسه عن الانطلاق . ط فقط : « عقلة » .

(٥) الراسبي : نسبة إلى راسب بن ميدعان بن مالك بن نصر بن الأزدي . وكان عبد الله هذا قد

خرج على علي في أربعة آلاف ، وبايعه الخوارج لعشر خلون من شوال سنة ٣٧ وقتل يوم

النهروان سنة ٣٨ كما في الطبري . وانظر التنبيه والإشراف ٢٥٦ وجمهرة ابن حزم ٣٨٤ .

(٦) م : « عارة العجز » . تحريف . وفي الرسائل : « أخاف العجز » .

(٧) الرد : النفع ، من قولهم : هذا أرد من ذلك ، أي أنفع .

٣٣. ، ولأنهم حين جعلوهم أسوة أجنادهم^(١) لم يقنعوا أن يكونوا في الحاشية والحشوة ، وفي غمار العامة^(٢) ، ومن عرض العساكر ، وأنفوا [من ذلك^(٣)] لأنفسهم ، وذكروا ما يجب لهم ، ورأوا أن الضيم لا يليق بهم ، وأن الخمول لا يجوز عليهم ، وأنهم في المقام على من لم يعرف حقهم ألوم ممن منعهم حقهم . فلما صادفوا ملكاً حكيماً ، وبأقدار الناس عليماً ، لا يميل إلى سوء عادة ، ولا ينجح إلى هوى ، ولا يتعصب لبلد على بلد ، يدور مع التدبير حيثما دار^(٤) ، ويقم مع الحزم حيثما أقام – أقاموا إقامة من منح الحظ^(٥) ، ودان بالحق^(٦) ، ونبذ العادة ، وآثر الحقيقة ، ورحل نفسه لقطيعة وطنه^(٧) ، وآثر الإمامة على ملك الجبرية ، واختار الصواب على الألف .

ثم اعلم بعد ذلك كله أن كل أمة وقرن وجيل وبني أب وجدتهم قد برعوا في الصناعات ، وفضلوا الناس في البيان ، أو فاقوهم في الآداب^(٨) أو في تأسيس الملك ، أو في البصر بالحرب^(٩) . فإنك لا تجدهم في العاية وفي أقصى النهاية ، إلا أن يكون الله تعالى قد سخرهم لذلك المعنى بالأسباب ، وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك

(١) وكذا في مج . وفي الرسائل : « حتى جعلوهم » ، بإسقاط « ولأنهم » .

(٢) الغار : جمع غمرة ، بالفتح ، وهي الزجعة من الناس والماء ، وفي حديث أوس : « أكون في غمار الناس » ، أي جمعهم المتكاثف . وفي الأصول : « غمارة العامة » صوابه في مج والرسائل .

(٣) التكلفة من مج والرسائل .

(٤) ط : « مع التدبير مادار » .

(٥) هذا ماني ط . وفي م : « فهم الحظ » ، وفي ب : « فهم الخط » .

(٦) في جميع الأصول : « ودار بالخط » ، وأثبت ماني مج والرسائل .

(٧) رحل نفسه لكذا ، إذا صبر على آذاه . وفي جميع الأصول : « ووصل نفسه بقطيعة

وطنه » ، وأثبت ماني مج والرسائل .

(٨) ب ، م : « وفاقوهم في الآداب » ، وفي ط : « وفاقوهم » . وأثبت ماني مج والرسائل .

(٩) في جميع النسخ : « أو في النصر بالحرب » ، صوابه في مج والرسائل .

الأُمور، وتصلح لتلك المعاني، لأن من كان متقسّم الهوى، مشترك الرأى، متشعب النفس^(١)، غير موفرّ على ذلك الشيء، ولا مهياً له، لم يحذق من تلك الأشياء شيئاً بأسره، ولم يبلغ فيه غايته، كأهل الصين في الصناعات، واليونانيين في الحكم والآداب، والعرب فيما نحن ذاكروه في موضعه، والساسان^(٢) في الملك، والأتراك في الحروب.

ألا ترى أنّ اليونانيين الذين نظروا في العلل لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً بأكتفهم، ولا أصحاب زرع وفلاحة، وبناء وغرس، ولا أصحاب جمع ومنع وكد^(٣). وكانت الملوك تفرغهم^(٤)، وتجرى عليهم كفايتهم، فنظروا حين نظروا بأنفس مجتمع، وقوة وافرة، وأذهان فارغة، حتى استخرجوا الآلات والأدوات، والملاهي التي تكون جَمَاماً للنفس، وراحة بعد الكدّ، وسروراً يداوى قرح المهوم^(٥)، فصنعوا من المرافق، وصاغوا من المنافع، كالقرسطنات^(٦)، والقبنات،

(١) الرسائل فقط: «ومتشعب النفس».

(٢) مج والرسائل: «وآل ساسان».

(٣) في مج والرسائل: «ومنع، وحرس وكد».

(٤) ب، ط: «تفرغهم»، صوابه في م والرسائل.

(٥) القرع، بالفتح والنم: الجرح. ب: «قرح المهوم» م: «قرح المهوم، ط:

قرح المهوم»، وأثبت ما في مج. وفي الرسائل: «قرح المهوم».

(٦) في الزهرة المبهجة لداود الأنطاكي بهامش تذكرة داود ١: ١٥: «علم مركز

الأنفال مثل القرصطيون، يعنى القبان». كما جاء في كتاب التريبع والتدوير ص ١٣٨ ساسي:

«وخبرني عن القرصطون كيف أخرج أحد رأسيه ثلاثمائة رطل زاد ذلك أم نقص، ووزن

جميعه ثلاثون رطلا زاد ذلك أو نقص». وانظر الحيوان ١: ٨١. ويبدو أنه ضرب من

الميزان القبان.

والأسطرلابات^(١) ، وآلة الساعات ، وكالكونيا^(٢) ، والكسيران^(٣) ،
والبركار^(٤) ، وكأصناف المزامير والمعازيف ، والطب^(٥) والحساب ،
والهندسة ، واللحون ، وآلات الحرب ، وكالمجانيق ، والقرادات^(٦) ،
والرتيلات^(٧) ، والدبابات ، وآلة النفاطين ، وغير ذلك مما يطول ذكره^(٨) .

وكانوا أصحاب حكمة ، ولم يكونوا فعلةً . يصورون الآلة ، ويخرون
الأداة^(٩) ، ويصوغون المثل ولا يحسنون العمل بها^(١٠) ، ويشيرون
إليها ولا يمسونها ، يرغبون في التعليم^(١١) ، ويرغبون عن العمل .

فأما سكان الصين فإنهم أصحاب السبك والصياغة ، والإفراج
والإذابة ، والأصباغ العجيبة ، وأصحاب الخرط والنجر^(١٢) والتصاوير ،

(١) الأسطرلاب أو الأصرلاب : مقياس النجوم ، هو باليونانية : أصرلابون .
وأصر هو النجم ، ولايون هو المرأة . وقد يهذى بعض المولعين بالاشتقاق في هذا المعنى بلامعنى
له ، وهو أنهم يزعمون أن لاب اسم رجل وأصر جمع سطر . وهذا اسم يوناني ، اشتقاقه
من لسان العرب جهل ومخف . انظر مفاتيح العلوم للحوارزمي ص ١٣٤ والحيوان ١ : ٢/٨١ ؛
٢٤٢ . وقد وقع صاحب القاموس في هذا الوهم الذي نبه عليه الحوارزمي في مادة (لوب) .

(٢) ب ، ط : « كالكونيا » وفي م : « الكرنيا » ، وأثبت مافي مع والرسائل . وجاء
في مفاتيح العلوم : « الكونيا » بالواو كما أثبت وقال : « للنجارين يقدرون بها الزاوية القائمة » .
(٣) كذا في جميع الأصول . وفي مع : « والكشتوان » ، وفي الرسائل : « وكالشيزان » .
(٤) في جميع النسخ « والبوكار » ، صوابه في مع والرسائل . والبركار : آلة هندسية مركبة
من سابقين متصلتين ، تثبت إحداها وتدور حولها الأخرى ، ترسم بها الدوائر والأقواس ، وهي
في العامة المصرية « البرجل » ، وفي الفارسية : « بركار » .

(٥) مع والرسائل : « وكالطب » .
(٦) العرادة : منجنيق صغير . والمنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة ونحوها في القتال .
وانظر حواشي البيان ٣ : ١٧ . ط : « والقرادات » ، تحريف .

(٧) انظر ما سبق في حواشي ١ : ٦٩

(٨) ب فقط : « يطيل ذكره » ، تحريف .

(٩) م فقط : « الادات » ، تحريف .

(١٠) في جميع الأصول : « به » ، صوابه في الرسائل . وفي مع : « ويصوغون المثال
ولا يحسنون العمل به » .

(١١) مع والرسائل : « في العلم » .

(١٢) مع والرسائل : « والنحت » .

والنَّسجَ وَالْحَطَّ (١) ، وَرَفِقَ الْكَفِّ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَتَوَلَّوْهُ وَيُعَانُوهُ ،
وَإِنْ اِخْتَلَفَ جَوْهَرُهُ ، وَتَبَايَنَتِ صِنْعَتُهُ ، وَتَفَاوَتِ ثَمَنُهُ (٢) .

فالْيُونَانِيُّونَ يَعْرِفُونَ الْعِلَالَ وَلَا يَبَاشِرُونَ الْعَمَلَ ، وَسُكَّانُ الصِّينِ
يَبَاشِرُونَ الْعَمَلَ وَلَا يَعْرِفُونَ الْعِلَالَ ؛ لِأَنَّ أَوْلَئِكَ حُكَمَاءَ ، وَهَؤُلَاءِ فَعَلَةٌ .

وَكَذَلِكَ الْعَرَبُ لَمْ يَكُونُوا تِجَاراً وَلَا صُنَّاعاً ، وَلَا أَطْبَاءً وَلَا حُسَاباً
وَلَا أَصْحَابَ فَلَاحَةٍ . فَيَكُونُوا مَهَنَةً (٣) ، وَلَا أَصْحَابَ زَرْعٍ ، لِخَوْفِهِمْ
صَغَارَ الْجِزْيَةِ (٤) . وَلَمْ يَكُونُوا أَصْحَابَ جَمْعٍ وَكَسْبٍ ، وَلَا أَصْحَابَ
اِحْتِكَارٍ لِمَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَطَلِبٍ لِمَا عِنْدَ غَيْرِهِمْ . وَلَا ظَلَبُوا (٥) . الْمَعَاشَ مِنْ
أَلْسِنَةِ الْمَوَازِينِ وَرُءُوسِ الْمَكَايِيلِ ، وَلَا عَرَفُوا الدَّوَانِيْقَ وَالقَرَارِيْطَ ، وَلَمْ
يَفْتَقِرُوا الْفَقْرَ الْمُدْمَقَ الَّذِي يَشْغَلُ عَنِ الْمَعْرِفَةِ ، وَلَمْ يَسْتَعْنُوا الْغَنَاءَ الَّذِي
يُورِثُ الْبِلْدَةَ (٦) ، وَالثَّرْوَةَ الَّتِي تُحَدِّثُ الْغِرَّةَ (٧) ، وَلَمْ يَحْتَمِلُوا ذَلًّا قَطُّ
فِيمَعِيَتِ قُلُوبِهِمْ ، وَيَصْغُرُ (٨) عِنْدَهُمْ أَنْفُسُهُمْ . وَكَانُوا سُكَّانَ فَيَافٍ ،
وَتَرْبِيَةِ الْعَرَءِ ، لِأَيَعْرِفُونَ الْعَمَقَ وَلَا اللَّثْقَ (٩) ، وَلَا الْبَحَارَ وَلَا الْغِلْظَ (١٠) ،

(١) فِي الرَّسَائِلِ : « وَالنَّسْجَ وَالْحَطَّ » .

(٢) ثَمَنُهُ ، سَاقِطَةٌ مِنْ م .

(٣) فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ : « كَانَ النَّاسُ مَهَنَةً أَنْفُسِهِمْ » ، جَمْعُ مَا هُنَّ ، كَكَاتِبٍ وَكُتَيْبَةٍ ، وَيُقَالُ
مَهَانَ أَيْضاً كَكَاتِبٍ وَكُتَيْبَةٍ .

(٤) الصَّغَارُ ، بِالْفَتْحِ : الذَّلُّ وَالضَّمِيمُ .

(٥) ب : « وَلَا طَلَبَ » .

(٦) الْغَنَاءُ ، بِالْفَتْحِ : ضِدُّ الْفَقْرِ ، وَهُوَ الْغِنَى بِالْكَسْرِ وَالْقَصْرُ . ب : « الْغَنَاءُ » م :
« الْغَنَاءُ » ، وَجِهَهُمَا مَا أُثْبِتَ مِنْ مَج . وَفِي ط ، وَالرَّسَائِلِ : « الْغِنَى » . وَالْبَيَادَةُ : بِضَمِّ الْبَاءِ
وَفَتْحِهَا : ضِدُّ النَّفَازِ وَالذِّكَاةِ وَالْمَضَاءِ فِي الْأُمُورِ . وَفِي ط : « الْبِلَادَةُ » وَفِي مَج : « التَّبْلِيدُ » .

(٧) ب ، م : « الْعِزَّةُ » صَوَابُهُ فِي ط وَمَج وَالرَّسَائِلِ . وَالْفِرَّةُ : الْغَفْلَةُ .

(٨) ب : « أَوْ تَصْغِيرُ » صَوَابُهُ فِي م ، ط . وَفِي مَج : « أَوْ يَصْغُرُ » ، وَفِي الرَّسَائِلِ :

« وَيَصْغُرُ » .

(٩) الْعَمَقُ ، بِالتَّحْرِيكِ : التَّنْدِي وَالرُّطُوبَةُ وَالْوَخَامَةُ . وَالثَّقُّ : التَّنْدِي مَعَ سُكُونِ الرَّيْحِ .

(١٠) فِي جَمِيعِ النُّسخِ : « الْغِلْظُ » بِالطَّاءِ الْمَهْمَلَةِ ، صَوَابُهُ بِالطَّاءِ الْمُهْمَلَةِ ، وَهُوَ ضِدُّ الرِّقَّةِ

فِي الْخَلْقِ وَالطَّبِيعِ وَالْعَيْشِ ، وَالْمَرَادُ غَلْظُ الْهَوَاءِ .

ولا العَفَنَ ، ولا التَّخَمَ ^(١) . أذهانٌ حديدية ^(٢) ، ونفوسٌ منكرة . فحين حملوا حدهم ^(٣) ، ووجهوا قواهم إلى قول الشعر ، وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة ^(٤) ، وتصاريف الكلام ، وقيافة البشر بعد قيافة الأثر ، وحفظ النسب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآثار ، وتعرف الأنواء ^(٥) ، والبصر بالخيال والسلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن المناقب والمثالب ، بلغوا في ذلك الغاية ، وحازوا كل أمنية . وبيعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ، وهمهم أرفع ، وهم من جميع الأمم أفخر ^(٦) ، ولأيامهم أذكّر .

وكذلك الترك ، أصحاب عمَدٍ ، وسُكَّانِ فيافي ، وأرباب مواشٍ . وهم ^(٧) أعرابُ العجم ، كما أن هذيلًا أكرادُ العرب ، لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات ، ولا الطبُّ والفلاحة والهندسة ، ولا غراس ولا بُنيان ، ولا شقُّ أنهار ، ولا جباية غلات ، ولم يكن لهم غير الغارة والغزو والصيد ، وركوب الخيل ، ومقارعة الأبطال ، وطلب الغنائم ، وتدويخ البلاد . وكانت ^(٨) [همهم إلى ذلك مصروفة ، وكانت هذه المعاني والأسباب مُسخرَةً ، ومقصورةً عليها وموصولةً بها ، أحكموا ذلك الأمر بأسره ، وأتوا على آخره ، وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ، ولذتهم في الحرب وفخرهم ، وحديثهم وسمرهم .

فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة ،

(١) التخيم : الروم ، وهو الوباء .

(٢) معج والرسائل : « حداد » .

(٣) ب فقط : « أحدهم » ، تحريف .

(٤) ط فقط : « وتثقيف اللغة » ، تحريف .

(٥) ط : « الأنوار » ، تحريف .

(٦) وكذا في معج ، لكن في الرسائل : « وهمهم أرفع من جميع الأمم وأفخر » .

(٧) ب : « والترك » . (٨) التكملة من م ، ط ، معج والرسائل .

وأهل (١) الصَّيْنِ في الصناعات ، والأعراب فيما عددنا ونزلنا (٢) ،
وكالسَّاسان (٣) في الملك والسياسة .

ومِمَّا يُسْتَدَلُّ به على أَنَّهُم قد استقصَوْا هذا البابَ واستفروغوه ،
وبلغوا أقصى غايته وتعرفوه ، أَنَّ السَّيْفَ إلى أَنْ يتقلَّده متقلِّدٌ ، أو
يضرب به ضارب (٤) ، قد مرَّ على أيدي كثيرة ، وعلى طبقاتٍ من
الصُّنَّاعِ ، كلُّ واحدٍ منهم لا يعمل عملَ صاحبه ولا يُحسنه ، ولا يدعِّيه
ولا يتكلَّفُه ؛ لِأَنَّ الذي يُذِيب حديد السَّيْفِ ويُمِيعه ويصْفِيه ويُهْدِيه ،
غيرُ الذي يمدُّه ويَمْطُله (٥) ، والذي يمدُّه ويمطله (٦) غيرُ الذي يطبِّعه
ويسوى متنه ، ويقمِّم حَشِيَّته (٧) ، والذي يطبِّعه ويسوى متنه غير (٨)
الذي يسقيه ويُرْهفه ، والذي يسقيه ويُرْهفه ، غيرُ الذي يركِّب قبيلته ،
ويستوثقُ من سيلانه (٩) ، والذي يعمل مسامير السَّيْلانِ ، وشاربِي
القبيلة (١٠) ونَعْلُ السَّيْفِ (١١) غيرُ الذي ينحت خشب غِمدِه . والذي
ينحت خشبَ غِمدِه غيرُ الذي يدبِّغُ جلده ، والذي يدبِّغُ جلده غير
الذي يحلِّيه ، والذي يحلِّيه ويركِّب نصله غيرُ الذي يَحْرِزُ حمانله .

(١) ب فقط : « وأصل » ، تحريف .

(٢) ب ، م : « ونولنا » ط : « ونوعنا » ، صوابها في مج والرسائل .

(٣) مج والرسائل : « وكال ساسان » .

(٤) في جميع النسخ : « ويضربه ضارب » ، صوابه في مج والرسائل .

(٥) المطل : اللد والبسط . ط : « ويمعله » .

(٦) ط : « ويمطه » .

(٧) يقال سيف مشقوق الحشبية : عرض حين طبع . ب فقط : « خشابته » .

(٨) ب ، م : « سوى » .

(٩) السيلان ، بالكسر : سنخ قائم السيف ، أي أصل مقبضه .

(١٠) القبيلة : ما على مقبض السيف من فضة أو حديد . والشاربان : أنفان طويلان في

أصل مقبض السيف . وفي ب : « وشاذى القبيلة » وفي م ، ط : « وشاذى القبيلة » .

(١١) نعل السيف : الحديدة التي تكون في أسفل جفته من حديدة أو فضة ، وفي الحديث :

« كان نعل سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضة » . مج والرسائل : « ونصل السيف » .



وكذلك السَّرْجُ، وحالات السَّهْمِ والجَعْبَةِ والرَّمْحِ، وجميع السلاح مما هو جارح^(١) أو جُنَّةٌ .

والتركيُّ يعمل هذا كله بنفسه ، من ابتدائه إلى غايته ، ولا يستعينُ برفيقٍ ، ولا يَفْرَعُ إلى رأى صديق ، ولا يختلف إلى صانع ، ولا يَشْغَلُ قلبه بمطاله وتسويفه^(٢) ، وأكاذيبِ مواعيده ، وبغُرمِ كِرائِهِ^(٣) .
 وليس في الأرض كلُّ تركيٍّ كما وصفنا ، كما أنه ليس كلُّ يونانيٍّ حكيماً ، ولا كلُّ صينيٍّ حاذقاً ، ولا كلُّ أعرابيٍّ شاعراً فائقاً^(٤) ، ولكن هذه الأمور في هؤلاء أعمُّ وأتمُّ ، وفيهم أظهر وأكثر .

قد قلنا في السَّببِ الذي تكاملت به النجدة والفروسية في الترك دون جميع الأمم ، وفي العلل^(٥) التي من أجلها نظّموا جميع معاني الحرب ، وهي معاني تشتمل على مذاهب غريبة ، وخصالٍ عجيبة ، فمنها ما يقصّي^(٦) لأهله بالكرم ، ويبعد الهمة ، وطلب الغاية . ومنها ما يدكُّ على الأدب السديد^(٧) ، والرأى الأصيل ، والفطنة الثاقبة ، والبصيرة النافذة .

ألا ترى أنه ليس بدُّ لصاحب الحرب من الحلم والعلم ، والحزم والعزم ، والصبر والكيان ، ومن الثقافة وقلة الغفلة ، وكثرة التجربة ؟ ولا بدُّ من البصر بالخيال والسلاح^(٨) ، والخبرة بالرجال والبلاد ،

-
- (١) م ، ط : « خارج » ، صوابه في ب ، ومع الرسائل .
 (٢) م ، ط : « بمطله وتسويفه » . والمطل والمطال : التسوية وتأجيل موعد الوفاء بالشيء .
 (٣) هذا الصواب من مع و الرسائل . وفي ب : « وبغرم كرائه » ، وفي م : « وبغرم كرائه » وفي ط : « وبغرم كرائه » .
 (٤) مع و الرسائل : « فائقاً » . القائف : الذي يتتبع الآثار ويعرفها ، ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه . وأثبت ما في سائر النسخ
 (٥) كذا في مع و الرسائل . وفي جميع النسخ : « في العلل » بسقوط الواو .
 (٦) في الأصول : « يقصّي » بالفاء ، وأثبت ما في مع و الرسائل .
 (٧) كذا في مع و الرسائل . وفي ب : « الأرب الشديد » ، وفي م ، ط : « الأدب الشديد » .
 (٨) ب : « في الخيل والسلاح » ، وفي مع : « من البصر في الخيول والسلاح » .



والعلم بالمكان والزمان والمكاييد، وبما فيه صلاح الأمور كلها^(١). ومن أمتنها سبباً، وأعمها نفعاً، ما ثبته في نصابه^(٢)، وسكّنه في قراره، وزاده في تمكينه وبهائه، وقطع أسباب المطبعة فيه، ومنع أيدي البُغاة من الإشارة إليه، فضلاً عن البسط عليه.

قد قلنا في مناقب جميع الأصناف بجُمَل ما انتهى إلينا، وبلّغَه علمنا، فإن وقع بالموافقة فبتوفيق من الله تعالى وصُنِعِهِ، عزّ ذكره. وإن قصر دون ذلك فالذي قصر بنا^(٣) نقصان علمنا، وقلة حفظنا، وأساعنا^(٤). فأما حُسن [النِّيَّة^(٥)]، والذي^(٦) نضم من المحبة والاجتهاد في القرية، فإننا لا نرجع في ذلك إلى أنفسنا بلائمة. وبين التخصير من جهة العجز وضعف القوة^(٧) فرق.

ولو كان هذا الكتاب من كُتب المناقضات، وكُتب المسائل والجوابات، وكان كلُّ صنف من هذه الأصناف يريد الاستقصاء على صاحبه، ويكون غايته إظهار نفسه وإن لم يصل إلى ذلك إلا بإظهار نقص أخيه ووليه، لكان كتابنا كبيراً، كثير الورق عظيماً. ولكن القليل الذي يجمع، خير من الكثير الذي يفرّق.

ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب، ونسأله العون والتسديد، إنّه سميع قريب، فعّال لما يريد.

(١) في الرسائل: «صلاح هذه الأمور كلها».

(٢) ب: «ما بيته في نصابه» م: «ما بيته» فقط، صوابها في ط، مع والرسائل.

(٣) ب، م: «فالذي قصر بنا»، صوابه في ط ومع والرسائل.

(٤) مع والرسائل: «وسمعنا».

(٥) التكملة من مع والرسائل. وفي م: «وأما حسن» فقط. وفي ط: «وربما حسنه».

(٦) ط: «الذي» يطرح الواو.

(٧) مع والرسائل: «وضعف العزم».



٨

من كتابه في

حُجَجِ النُّبُوَّةِ

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
A 1977
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT
Est. 2012 CE





في حجج النبوة

الحمد لله الذي عرفنا نفسه ، وعلمنا دينه ، وجعلنا من الدُّعاة إليه ،
 والمحتجِّين له . فنحن نسأله تمام النِّعمة ، والعون على أداء شكره ، وأن
 يوفِّقنا للحقِّ برحمته ، إنَّه وليُّ ذلك ، والقادرُ عليه ، والمرغوبُ إليه
 فيه ، وصلى الله على محمد وآله وسلم .

ثم إنَّنا قائلون في الأخبار ، ومخبرون عن الآثار ، ومفرِّقون بين
 أسباب الشُّبهة ، وأسباب الحُجَّة ، ثمَّ مفرِّقون بين الحجَّة التي تلزم
 الخاصَّة دون العامَّة ، ومُخبرون عن الضُّرب الذي يكون الخاصَّة فيه
 حُجَّة على العامَّة ، وعن الموضوع الذي يكون القليلُ فيه أحقُّ بالحجة من
 الكثير ، ولم شاع الخبرُ وأصله ضعيف ؟ ولم خفيَ وأصله قوي ؟
 وما الذي يؤمِّن من فساده وتبديله مع تقادم عصره ، وكثرة الطاعنين
 فيه (١) ، وعن الحاجة إلى رواية الآثار ، وإلى سماع الأخبار ، وعن
 أخلاق النَّاس وآبائهم ، ومذاهب أسلافهم ، وعن سيرِ الملوك قبلهم (٢) ،
 وما صنعت الأيامُ بهم ، وعن شرائع أنبيائهم ، وأعلام رسلهم ، وعن أدب
 حكمائهم ، وأقاويل أئمَّتهم وفقهائهم ، وعن حالاتٍ من غاب عن أبصارهم
 في دهرهم ، ولم كان الإخبار على النَّاس (٣) أخفَّ من الكتمان ؟ ولم

(١) ب فقط : « فصل منها » .

(٢) كلمة « فيه » من ط فقط .

(٣) ب : « وعن سر الملوك قبلهم » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « عن الناس » .

كان الصَّمْتُ أَثْقَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكَلَامِ ؟ وما الضَّرْبُ الَّذِي يَقْدِرُونَ عَلَى كِتْمَانِهِ وَطَيْئِهِ ، وَالضَّرْبُ الَّذِي لَا يَقْدِرُونَ إِلَّا عَلَى إِذَاعَتِهِ وَنَشْرِهِ ؟ ولم اجتمعَت الأُممُ عَلَى الصِّدْقِ فِي أُمُورٍ ، واختلفت في غيرها ؟ ولم حَفِظَتْ أُمُوراً وَنَسِيَتْ سِوَاهَا ؟ ولم كان الصِّدْقُ أَكْثَرَ مِنَ الْكُذْبِ ؟ ولم كان الصَّمْتُ أَثْقَلَ وَالْقَوْلُ أَفْضَلَ ؟

والعجب من تركِ الفقهاء تمييزَ الآثارِ ، وَتَرْكِ المتكلمين القولَ في تصحيح الأخبارِ ، وبالأخبارِ يعرفُ النَّاسُ النَّبِيَّ مِنَ الْمُتَنَبِّئِ (١) ، وَالصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ ، وبها يعرفون الشريعةَ مِنَ السُّنَّةِ ، وَالنَّارَ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَالشُّدُوزَ مِنَ الْإِبَاحَةِ ، وَالْحَظَرَ مِنَ الْإِبَاحَةِ ، وَالاجْتِمَاعَ مِنَ الْفُرْقَةِ ، وَالشُّدُوزَ مِنَ الْإِسْتِغَاثَةِ (٢) ، وَالرَّدَّ مِنَ الْمَعَارِضَةِ ، وَالنَّارَ مِنَ الْجَنَّةِ . وَعَامَّةَ الْمَفْسَدَةِ مِنَ الْمَصْلُحَةِ (٣) .

فإِذَا نَزَلَتْ الْأَخْبَارَ مَنَازِلَهَا وَقَسَمَتْهَا ، ذَكَرْتُ حُجُجَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَدَلَائِلَهُ وَشَرَائِعَهُ وَسُنَنَهُ ، ثُمَّ جَنَسْتُ الْأَثَارَ عَلَى أَقْدَارِهَا ، وَرَتَّبْتُهَا فِي مَرَاتِبِهَا ، وَقَرَّبْتُ ذَلِكَ وَاجْتَصَرْتُهُ ، وَأَوْضَحْتُ عَنْهُ وَبَيَّنَّنْتُهُ ، حَتَّى يَسْتَوِيَ فِي مَعْرِفَتِهَا مَنْ قَلَّ سَمَاعُهُ وَسَاءَ حِفْظُهُ ، وَمَنْ كَثُرَ سَمَاعُهُ وَجَادَ حِفْظُهُ ، بِالْوَجُوهِ الْجَلِيلَةِ ، وَالْأَدَلَّةِ الْاضْطِرَّارِيَّةِ .

وَلَمْ أَرِدْ فِي هَذَا الْكِتَابِ جَمْعَ حُجُجِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَتَفْصِيلَهَا وَالْقَوْلَ فِيهَا ، لِنَقْضِ مَسْئَلَتِي (٤) ، أَوْ لَوْهَنْ كَانَ فِي أَصْلِهَا مِنْ نَاقِلِيهَا

(١) ب : « المتنبئ » بالهمز .

(٢) م فقط : « الإفاضة » .

(٣) م ، ط : « والمصلحة » .

(٤) ب : « لنبض سببها » ط : « لنبض مسها » م : « لنبض مسها » ، والوجه ما أثبت .

والمخبرين عنها ، أو لأنَّ طعنَ الملحدِّين نَهَكها وفرَّقَ جماعتها ، ونَقَضَ قواها . ولكنَّ لأُمورٍ سأذكرها وأحتجُّ .

وكيف تنقُصُ الحجَّةَ عن بلوغِ الغاية ، وتنقُصُ عن التمامِ (١) ، والله تعالى المتوكِّلُ بها ، ومُسخَرُ أصنافِ البريةِ ومهيِّجُ النفوسِ على إبلاغها (٢) ، وقد أخبرَ بذلك عن نفسه في محكمِ كتابه عزَّ ذكره (٣) ، حين قال : ﴿ هو الذى أرسلَ رَسولَه بِالهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٤) . وأدنى منازل الإظهارِ إظهارِ الحجَّةِ على من ضارَّه وخالفَ عليه .

وقال عزَّ ذكره : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٥) .

وأخبرَ أنَّه أمرَ الأحمرَ والأسودَ ، ولم يكنْ ليأمرَ الأقصى إلا كما يأمرُ الأدنى (٦) ويأمرُ الغائبَ على الحاضرِ (٧) ، قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : ﴿ وما أرسلناك إلا كافَّةً للناسِ بشيراً ونذيراً ﴾ (٨) .

فأقول : إنَّ كلَّ مطيقٍ محجوجٍ (٩) « والحجَّةُ حُجَّتَانِ : عِيَانُ ظاهرٍ ،

(١) ب : « وينقص عن التمام » ، والوجه ما في م ، ط .

(٢) ب ، م : « عن إبلاغها » .

(٣) ب : « عن ذكره » ، تحريف .

(٤) الآية ٣٣ من سورة التوبة . وفي الكتاب العزيز أيضاً : « هو الذى أرسل رسولَه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » . الآية ٢٨ من سورة الفتح .

(٥) الآية ٨ من سورة الصف .

(٦) كلمة « إلا » ليست في جميع النسخ ، كما أن كلمة : « يكن » ساقطة من ب .

(٧) كذا في الأصول ، والوجه : « إلا كما يأمر الحاضر » .

(٨) الآية ٢٨ من سورة سبأ .

(٩) المطيق : القادر ، والمراد المكلف . وفي ط : « منطبق » . والمنطبق : البليغ ، ولاوجه

وخبِرُ قاهر. فإذا تكلّمنا في العيان وما يفرغ منه^(١) فلا بدّ من التعارف في أصله وفرعه منه . ولا بدّ من التصادق في أصله ، والتعارف في فرعه . فالعقل هو المستدلّ ، والعيان والخبر هما علّة الاستدلال وأصله ، ومُحال كون الفرع مع عدم الأصل ، وكون الاستدلال^(٢) مع عدم الدليل . والعقل مضمّن بالدليل ، والدليل مضمّن بالعقل ، ولا بدّ لكلّ واحدٍ منهما من صاحبه^(٣) ، وليس لإبطال أحدهما وجهٌ مع إيجاب الآخر .

والعقل نوعٌ واحد ، والدليل نوعان : أحدهما شاهدٌ عيانٌ يدلُّ على غائب ، والآخر مجبىءٌ خبرٌ يدلُّ على صدق .

ثم رجع الكلام إلى الإخبار عن دلائل النبي صلى الله عليه وسلم وأعلامه ، والاحتجاج لشواهد وبرهانه ، فأقول :

إنّ السلف الذين جمعوا القرآن^(٤) في المصاحف بعد أن كان متفرقاً في الصدور ، والذين جمّعوا النَّاسَ على قراءة زيد ، بعد أن كان غيرها^(٥) مُطلقاً غيرَ محظورٍ ، والذين حصّنوه ومنعوه الزيادة والنقصان لو كانوا جمعوا علاماتِ النبي صلى الله عليه وسلم ، وبرهانه ، ودلائله وآياته وصنوف بدائعه ، وأنواعَ عجائبه في مقامه وطمعته^(٦) ، وعند دعائه واحتجاجه في الجَمْعِ العظيم ، وبحضرة العددِ الكثير الذي

(١) ب : « وما يفرغ » ، تحريف .

(٢) ب ، م : « ويكون » ، صوابه في ط .

(٣) ط فقط : « من صاحب » .

(٤) ب فقط : « جعلوا القرآن » .

(٥) أي غير قراءة زيد .

(٦) الظن ، بالفتح والتحريك : السير والارتحال . ب فقط : « وطمعته » بالطاء المهملة ،

لا يستطيعُ الشُّكَّ في خبرِهِمُ إِلَّا الغيُّ الجاهلُ ، والعدوُّ المائلُ ، لما استطاعَ اليومَ أن يدافعَ كونَها وصحةَ مَجِيئِها^(١) ، لا زنديقٌ جاحدٌ ، ولا ذميرٌ معانِدٌ ، ولا متطرفٌ ماجنٌ ، ولا ضعيفٌ مخلوعٌ ، ولا حدتٌ مَعْرورٌ ؛ ولكان مشهوراً في عوامنا كشهرة في خواصنا ، وكان استبصارُ جميعِ أعياننا في حقِّهم كاستبصارهم في باطلِ نصاراهم ومجوسهم ، ولما وجد المَلحدُ موضِعَ طمعٍ في غنيِّ يستميله^(٢) ، وفي حدتِ مِوه له^(٣) .

ولولا كثرةُ ضَعفائنا مع كثرةِ الدُّخلاءِ فينا ، الذين نَطَقوا بألسنتنا ، واستعانوا بقولنا على أغيابنا وأعمارنا ، لما تكلفنا كَشْفَ الظَّاهرِ ، وإظهارَ البارزِ ، والاحتجاجَ الواضحَ .

إِلَّا أَنَّ الذي دعا سلفنا إلى ذلك ، الاتِّكَالُ على ظهورها واستفاضةِ أمرها .

وإذ كان^(٤) ذلك كذلك فلم يُؤتَ من أُتِيَ من جُهالنا وأحداثنا ، وسفهاثنا وخلعائنا^(٥) إِلَّا من قِبَلِ ضعفِ العِنايةِ ، وقلةِ المبالاةِ ، ومن قِبَلِ الحدائثِ والغرارةِ ، ومن قِبَلِ أَنَّهُم حملوا على عقولهم من دقيقِ الكلامِ قِبَلِ العلمِ بجلبله ما لم تبلغه قُوَاهم ، وتَنَسَّعَ له صدورهم ، وتحملنه أقدارهم ، فذهبوا عن الحقِّ^(٦) يميناً وشمالاً ، لأنَّ مَنْ لم يلزم الجادَّةَ تخبُّطاً ، ومَنْ تناول الفِرْعَ قِبَلِ إحكامِ الأصلِ سَقَطَ ، ومن خَرَقَ بنفسه

(١) ب : « وصحة مجيها » ، صوابه في م ، ط .

(٢) في جميع الأصول : « يستميله » . واستملاء الكتاب : سأله أن يميله عليه . ولا وجه

له هنا .

(٣) م ، ط : « موه له » .

(٤) ب ، م : « وإن كان » ، وأثبت ما في ط .

(٥) الخليج : المستهتر بالشرب والهوى ، وأصله الشاطر الخبيث الذي خلمته عشيرته وتبرموا

منه . ط : « وخلفائنا » ، تحريف .

(٦) ط فقط : « عن الحق » ، محرف ،

فإذا كانوا كذلك فإنما أتوا من قبَل أنفسهم ، ولم يُؤتوا من سلفهم ، أو لأنَّ الله تبارك وتعالى صَرَفَ أَسْلَافَنَا بِنَسْيَانٍ أَوْ غَيْرِهِ لِيَمْتَحِنَ بِذَلِكَ غَيْرَهُمْ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، وَلِيَعْرِضَهُمْ لَطَاعَتِهِ بِالذَّبِّ عَنْ دِينِهِ ، وَالِاحْتِجَاجِ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلِيَجْرِيَ هَذَا الْخَيْرَ عَلَى أَيْدِيهِمْ ، كَمَا أَجْرَى أَكْثَرَ مِنْهُ عَلَى أَيْدِي أَسْلَافِهِمْ ، لِثَلَا يُبْخَسَ أَحَدُ خَلْقِيَّتِهِ^(٣) مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ ، وَلِأَنَّ يَجْعَلَ فَضْلَهُ مَقْسَمًا بَيْنَ جَمِيعِ الْأَوْلِيَاءِ ، وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ أَحَقَّ بِالتَّقْدِيمِ ، وَالْآخِرُ أَحَقَّ بِالتَّأْخِيرِ ، لِذَلِكَ^(٤) قَدَّمُوا مِنَ الْإِحْتِمَالِ ، وَأَعْطَوْا مِنَ الْمَجْهُودِ ، وَلِأَنَّهُمْ أَصْلُ هَذَا الْأَمْرِ وَنَحْنُ فِرْعُهُ ، وَالْأَصْلُ أَحَقُّ بِالقُوَّةِ مِنَ الْفِرْعِ . وَهَمَّ السَّابِقُونَ وَنَحْنُ التَّابِعُونَ ، وَهَمَّ الَّذِينَ وَطَّئُوا لَنَا ، وَكَلَّفُونَا مَا لَمْ نَكُنْ لِنَكَلِّفَهُ أَنْفُسَنَا ، فَتَجَرَّعُوا دُونَنَا الْمُرَارَ^(٥) ، وَمَنَحُونَا رُوحَ الْكِفَايَةِ . وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اخْتَارَهُمْ لَصُحْبَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلِأَنَّ الْقُرْآنَ نَطَقَ بِفَضِيلَتِهِمْ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَنْ بَعْدَهُمْ ، وَالَّذِي جَمَعَ أَسْلَافَنَا^(٦) الَّذِينَ جَمَعُوا النَّاسَ عَلَى قِرَاءَةِ زَيْدِ ، دُونَ أَبِي بِنِ كَعْبٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودِ ، وَالَّذِينَ رَأَوْا مِنْ قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ فِي الْمَعْوِذَتَيْنِ^(٧) ، وَقَوْلِ أَبِي فِي سُورَةِ الْحَقِّدِ وَالْحَلَعِ^(٨) .

(١) ب ، م : « طاقته » .

(٢) عليه ، ساقطة من ب .

(٣) ب ، م : « لثلايبخس من أحد خليقته » .

(٤) ب ، م : « للذين » ، تحريف .

(٥) المرار ، بالضم : شجر مر .

(٦) أي والله تعالى هو الذي جمع الأسلاف .

(٧) انظر في ذلك البرهان ١ : ٢٥١ والإتقان ١ : ١٨٤ . وانظر لتليل عدم كتابه

للمعوذتين ولأم الكتاب في مصحفه ، مقدمه كتاب المباني نشرة آرثر جفرى ص ، ٩٣ ، ٩٦ - ٩٧ .

(٨) هذا التصويب من الإتقان للسيوطي ١ : ١٨٤ . وفي جميع الأصول =



وَمِنْ تَعَلُّقِ النَّاسِ بِالْاِخْتِلَافِ ، فَكَانُوا لَا يَزَالُونَ قَدْ رَأَوْا الرَّجُلَ يَرُوي الحَرْفَ الشَّاذَّ ، وَيَقْرَأُ بِالْحَرْفِ الَّذِي لَا يَعْرِفُونَهُ ، فَرَأَوْا أَنَّ تَحْصِيْنَهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِحَمْلِ النَّاسِ عَلَى الْمَقْرُوءِ عِنْدَهُمْ ^(١) ، الْمَشْهُورِ فِيْمَا بَيْنَهُمْ ، وَأَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَشْهَدُوا فِي ذَلِكَ لَمْ يَنْقَطِعِ الطَّمَعُ ، وَلَمْ يَنْزَجِرِ الطَّيْرَ ^(٢) ، لِأَنَّ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ لَوْ قَرَأَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ خُطْبَائِهِمْ وَبُلْغَائِهِمْ سُورَةً وَاحِدَةً ، طَوِيلَةً أَوْ قَصِيرَةً ، لِتَبَيَّنَ لَهُ فِي نِظَامِهَا وَمَخْرَجِهَا ، وَفِي لَفْظِهَا وَطَبْعِهَا ، أَنَّهُ عَاجِزٌ عَنْ مِثْلِهَا . وَلَوْ تَحَدَّى بِهَا أَبْلَغَ الْعَرَبِ لَظَهَرَ عَجْزُهُ عَنْهَا . وَلَيْسَ ذَلِكَ ^(٣) فِي الْحَرْفِ وَالْحَرْفِيْنَ ، وَالْكَلِمَةِ وَالْكَلِمَتَيْنِ .

أَلَا تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ كَانَ يَتَهَيَّأُ فِي طِبَاعِهِمْ ، وَيَجْرِي عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ أَنَّ يَقُولُ رَجُلٌ مِنْهُمْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَإِنَّا لِلَّهِ ، وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، وَرَبُّنَا اللَّهُ ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَهَذَا كُلُّهُ فِي الْقُرْآنِ ، غَيْرَ أَنَّهُ مَتَفَرِّقٌ غَيْرَ مُجْتَمِعٌ ؛ وَلَوْ أَرَادَ أَنْ نَطَّقُ النَّاسَ أَنَّ يُؤَلَّفَ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ سُورَةٌ وَاحِدَةً ، طَوِيلَةً أَوْ قَصِيرَةً ، عَلَى نَظْمِ الْقُرْآنِ وَطَبْعِهِ ، وَتَأْلِيفِهِ وَمَخْرَجِهِ لَمَا قَدَّرَ عَلَيْهِ ، وَلَوْ اسْتَعَانَ بِجَمِيعِ قَحْطَانَ وَمَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ .

وَرَأَوْا ^(٤) بِفَهْمِهِمْ وَبِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ أَنَّ يَحْصِنُوهُ مِمَّا يَشْكَلُ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُفْتَعَلَ مِثْلُهُ مِنَ الْحَرْفِ وَالْحَرْفِيْنَ ، وَالْكَلِمَةِ وَالْكَلِمَتَيْنِ ،

= : «سورتي العرب» ووجهه ما أثبت من الإتيان . وانظر النصوص فيه . وجاء في كتاب مقدمتان في علوم القرآن ص ٧٥ : «وأما ما ذكر عن أبي بن كعب أنه عد دعاء القنوت : اللهم إنا نستعينك» إلى آخره ، سورة من القرآن ، فإنه إن صح ذلك عنه فإنه كتبها في مصحفه لا على أنها من القرآن ، بل ليحفظها ولا ينساها احتياطاً ، لأنه سمع النبي صل الله عليه وسلم كان يقنت بها في صلاة الوتر .»

(١) ب : «المكروه عندهم» م : «المكروه» فقط ، صوابهما في ط .

(٢) م فقط : «الطين» .

(٣) ذلك ، ساقطة من ب ، م .

(٤) ب فقط : «قرأوا» .

وقد كانوا عرفوا الابتداعَ الكثيرَ (١) على البلغاء والشُعراء، وخافوا إن هم لم يتقدموا في ذلك أن يتطرفوا عليه، كما تطرفوا على الرواية (٢)، لأنهم حين رأوا كثرة الرواية في غير ذوى السابقة، ورأوا كثرة اختلافها، والغرائب التي لا يعرفونها، لم يكن لهم إلا تحصيل الشيء الذي عليه مدار الأمر، وإن كانوا يعلمون أن الله بالغ أمره.

فعلى الأئمة أن تحوط هذه الأمة، كما حاط (٣) السلف أولها، وأن يعملوا (٤) بظاهر الحيلة، إذ كان على الناس الاجتهاد (٥)، وليس عليهم علم الغيوب. وإنما ذلك كنعو رجل أبصر نبياً يحيى الموتى فعرف صدقه، فلما انصرف سأله عنه بعض من لم ير ذلك ولا صحَّ عنده، فعليه أن لا يكتمه، وإن كان يعلم أن الله تعالى سيُعَلِّمه ذلك من قبيل غيره، وأنه عز ذكره سيُسَمِّعُه صحته على حبه وكرهه.

ورأوا أن قراءة زيدٍ أحقُّ بذلك، إذ كانت آخر العرض، ولأنَّ الجَمْعَ الذين سمِعُوا آخر العرض أكثرُ ممن سمع أوله، فحملوا الناس على قراءة زيد، دون أبي وعبد الله، وإن كان الكلُّ حقاً، إذ كان رُبُّ حقٍّ في بعض الزمان أقطع للقليل والقال، وأجدُرُّ أن يُمَيِّتَ الخلاف، ويحسمَ الطمع. فتركوا حقاً إلى حقِّ العملِ به أحقَّ.

ولو أن فتيتها رأى إطباق العلماء على صوم يوم عرفة، واستنكارهم الإفطار فيه، فافطر وأظهر ذلك ليُعلمهم موضع الفريضة من النافلة،

(١) ب : « امتناع الكثير » ، م : « المتناع الكثير » وأثبت ما في ط .

(٢) المتطرف : الذي لا يثبت على أمر . وفي الأصول : « أن يتطرفوا عليه كما تطرقوا على

الرواية » ، مع سقوط « على الرواية » من م . والصواب ما أثبت .

(٣) ب ، م : « أحاط » .

(٤) ب ، م : « وأن يعمل » ، صوابه في ط .

(٥) ب ، م : « إذا كان » . وكلمة « على » ساقطة من ب .



أو خاف أن يلحق الفرص على تطاول الأيام ما ليس فيه - كان مصيباً ، ولكان قد ترك حقاً إلى أحق منه .

وللحق درجات ، وللخلاف درجات ، وللحرام درجات . ألا ترى أن لوليُّ المقتول أن يقتل ويصفح ، وأنه إن قتل قتل بحق ، وإن صفح صفح بحق ، والصفح أفضل من القتل .

ولو أن رجلاً أخرج ساكناً بيتاً له ^(١) ، أو اقتضى ديناً له ساعة مَحَلُّه ^(٢) ، أو طلق زوجته وما دخل بها ^(٣) - لكان ذلك له ، ولحق فعل ^(٤) . وغير ذلك الحق أولى به .

وكيف لا يكون أولى به وهو أحسن ، والثواب فيه أعظم ، وإلى سلامة الصدور أقرب .

وقد يكون الأمران حسنين ، وأحدهما أحسن . وقد يكون الأمران قبيحين ، وأحدهما أقبح .

وبعد ، فعلى الناس طاعة الأئمة في كل ما أمرؤا به ، إلا فيما تبين أنه معصية . فأما غير ذلك فإنه واجب مفروض ، ولازم غير مرفوع .

وعلموا أيضاً أنهم لا يبقون إلى آخر الزمان ، وأن من يجيء بعدهم لا يقوم مقامهم ، ولا يفصل الأمور تفصيلهم . ولو عرفوا كمعرفتهم ، وأرادوا ذلك كإرادتهم ، لما أطيعوا كطاعتهم .

وعلموا أن الأكاذيب والبِدَع ستكثر ، وأن الفتن ستفتح ، وأن

(١) بيتا ، ساقطة من ب ، م .

(٢) ب ، م : « واقتضى » . ومحل الدين : وقت حلول أدائه . وفي ط : « عند حلول أجله »

(٣) ب ، م : « ولما دخل بها » ووجه هذه : « ولما يدخل بها » .

(٤) ب ، م : « ولحق فعله »

الفساد سيفشوا ، فكرهوا أن يجعلوا للمتطرفين علة^(١) ، ولأهل الزبغ حجة .

بل لا شك^(٢) أنهم لو تركوا الناس عامة يقرءون على حرف فلان وكل ما أجاز فيه فلان عن فلان ، لألحق قوم في آخر الزمان بهم ما ليس منهم ، ولا يجرى مجراهم ، ولا يجوز مجازهم .

٢٦ - فصل منه في الاحتجاج للجمع

على قراءة زيد

ولو كان زيد من آل أبي العاص ، أو من عرض بني أمية ، لوجد ابن مسعود متعلقاً .

ولو كان بدل زيد عبد الرحمن بن عوف لوجد إلى القول سبيلاً .

ولو كان ابن مسعود رجلاً من بني هاشم لوجد للطعن موضعاً .

ولو كان عثمان رضي الله تعالى عنه استبد بذلك الرأي على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وسعد وطلحة والزبير رحمهم الله ، وجميع المهاجرين والأنصار ، لوجد للتهمة مساعاً .

فأما والأمر كما وصفنا ونزلنا ، فما الطاعن على عثمان إلا رجل أخطأ خطئة الحق^(٣) ، وعجل على صاحبه . ولكل بني آدم من الخطأ نصيب ، والله عز ذكره يغفر له ويرحمه .

(١) في جميع الأصول : « للمتطرفين » . وانظر ماسبق في حواشي ٢٣٠ .

(٢) ب : « بل شك » ، صوابه في م ، ط .

(٣) ب ، م : « أخطأ خطه » مع سقوط كلمة « الحق » ، والصواب في ط .



والذي يخطئُ عثمان في ذلك فقد خطأَ علياً وعبداً الرحمن وسعداً ،
والزبيرَ وطلحة ، وعليه الصحابة (١) .

ولو لم يكن ذلك رأىً على لغيره ، ولو لم يمكنه التغيير لقال فيه ،
ولو لم يمكنه في زمن عثمان لأمكنه في زمن نفسه ، وكان لا أقل من
إظهار الحجّة إن لم يملك تحويل الأمة ، وكان لا أقل من التجربة
إن لم يكن من الشجح على ثقة ، بل لم يكن لعثمان في ذلك ما لم يكن
لجميع الصحابة ، وأهل القدم والقُدوة . ومع أن الوجه فيما صنعوا واضح ،
بل لا نجدُ لما صنعوا وجهاً غير الإصابة والاحتياط ، والإشفاق والنظر
للعواقب ، وحسَمِ طعن الطاعن .

ولو لم يكن ما صنعوا لله تعالى فيه رضاً (٢) لما اجتمع عليه أولُ
هذه أول الأمة وآخِرُها . وإنَّ أمراً اجتمعت عليه المعتزلة والشيعية ،
والخوارج والمرجئة ، لظاهر الصواب ، واضح البرهان ، على اختلاف
أهوائهم ، وبغيتهم لكل ما ورد عليهم .

فإن قال قائل : هذه الروافض بأسرها تأبى ذلك وتنكره ، وتطعن
فيه ، وترى تغييره (٣) .

قلنا : إنَّ الروافض ليست منّا بسبيل ، لأنَّ من كان أذانه غير
أذانا ، وصلاته غير صلاتنا ، وطلاقه غير طلاقنا ، وعتقه غير عتقنا ،
وحجته غير حجتنا ، وفقهاؤه غير فقهاءنا (٤) وإمامه غير إمامنا ،

(١) ط : « وما عليه الصحابة » .

(٢) م فقط : « فيما صنعوا » مع سقوط كلمة « فيه » من ب ، م . وأثبت ما في ط .

(٣) ب ، م : « لغيره » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٤) غير فقهاءنا ، ساقط من ب ، م .

وقراءته غَيْرَ قراءتنا ، وحلاله غَيْرَ حلالنا ، وحرامه غَيْرَ حرامنا ، فلا نحنُ منه ولا هو منّا^(١) .

ولأى شئٍ حامت^(٢) عن قراءة ابن مسعود ، فو الله ما كان أحدٌ أفرطَ في العمريَّة منه ، ولا أشدَّ على الشيعة منه ، ولقد بلغَ من حبه لعمر رضى الله عنه أن قال : لقد خشيت الله تعالى في حبيِّ لعمر . فلم يُحامون عنه وهو كان شجاهم^(٣) لو أدركهم .

٢٧ - فصل منه

فآمن الله رجلاً فارقههم ولزم الجماعة ، فإنَّ فيها الأنسة والحجة^(٤) ، وتركَ الفرقة فإنَّ فيها الوحشة والشبهة . والحمد لله الذى جعلنا لا نفرق بين أئمتنا ، كما جعلنا لا نفرق بين أنبيائنا .

٢٨ - فصل منه

والذى دعانا إلى تأليف حُججِ الرِّسولِ ونظَّمها ، وجَمَعِ وجوهها وتدوينها - أنَّها متى كانت مجموعةً منظومةً ، نشطَ لحفظها وتفهمها من كان عسى أن لا يَنشَطَ لجمعها ، ولا يقدرَ على نَظْمها ، وجمع متفرِّقها ، وعلى اللَّفظ المؤثر عنها^(٥) ، ومن كان عسى أن لا يعرف وجهَ مطلبها ، والوقوعَ عليها .

(١) ب ، م : « ولا نحن منه ولا هو منا » ، صوابه في ط .

(٢) في جميع الأصول : « جانب » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما سيأتى .

(٣) أصل الشجا : ما يمرض في خلق الإنسان والدابة من عظم أوعود أو غيرها ، ومنه قول سويد بن أبي كاهل في المفضليات ١٩٨ :

ويرانى كالشجا في حلقة
عسراً مخرجه ما يتزع

وفي م فقط : « سحاهم » تحريف .

(٤) الأنس ، بالضم ، والأنسة ، بالتحريك : الطمانينة . ط فقط : « الأنس » .

(٥) كذا في جميع النسخ . وأراها « المأثور عنها » . يقال أثر الحديد أثرًا : نقله ورواه

عن غيره ، فهو مأثور .



ولعلَّ بعضُ الناسِ يعرفُ بعضُها ويجهلُ بعضها .
 ولعلَّ بعضهم وإن كان قد عَرَفَهَا بحَقِّها وصدَّقَهَا فلم يعرفها من
 أسهلِّ طرقها ، وأقربِ وجوها .

ولعلَّ بعضهم أن يكون قد عَرَفَ فنسبَ ، أو تهاون بها فعَمِيَ ، بل
 لا نشكُّ أنَّها إذا كانت مجموعةً محرَّبةً (١) ، مستقصاةً مفصَّلةً ، أنَّها
 ستزيدُ (٢) في بصيرة العالم ، وتَجْمَعُ الكلَّ لمن كان لا يعرفُ إلاَّ البعض ،
 وتُذَكِّرُ النَّاسِيَّ ، وتكونُ عُدَّةً على الطاعنِ (٣) .

ولعلَّ بعضَ من أَلْحَدَ في دينه ، وعَمِيَ عن رُشْدِهِ ، وأخطأ موضعَ
 حَظِّهِ (٤) أن يدعوهُ العُجْبُ بنفسه ، والثَّقَةُ بما عنده ، إلى أن يلتبس
 قراءتها ، لِيَتَقَدَّمَ (٥) في نَقْضِها وإفْسَادِها ، فإذا قرأها فهمها ، وإذا فهمها
 انتبه من رَقْدَتِهِ (٦) ، وأفاقَ مِنْ سكرته (٧) ، لعزَّ الحقُّ ، وذُلُّ الباطلِ ،
 ولإِشْرَافِ الحِجَّةِ على الشُّبْهَةِ (٨) ، ولأنَّ من تفرَّدَ بكتابٍ فقرأه ليس
 كمن نازع صاحبه وجأته (٩) ، لأنَّ الإنسان لا يُباهي بنفسه (١٠) ،

(١) من تحبير الخط والشعر ونحوهما ، أي تحسينه ، ب ، م : « بخيرة » صوابه في ط .

(٢) ب ، م : « سيزيد » ، صوابه في ط .

(٣) في جميع الأصول : « ويجمع » و « يذكر » و « يكون » ، صوابها كلها بالناء كما

أثبت .

(٤) ب فقط : « خطه » ، تحريف .

(٥) ب ، م : « ليقدم » ، صوابه في ط .

(٦) م فقط : « فإذا قرأها وفهمها انتبه من رقدته » .

(٧) ب ، م : « عن سكرته » .

(٨) ب فقط : « ولإشراق » بالقاف .

(٩) المجازاة : أن يجلس مع خصمه على ركبتيه للخصومة . وفي البيان والتبيين ٣ : ٦ :

« وبالأرجاز عند المنح وعند مجازاة الخصم » . وفي ب ، م : « وحائاه » ، وفي ط : « وجافاه »
 صوابهما ما أثبت .

(١٠) ب ، م : « نفسه » ، صوابه في ط .

والحقُّ بعدُ قاهرٌ له . ومع التَّلَاقِي يحدثُ التَّبَاهِي ، وفي المحافل يُقَلُّ الخُضُوع ، ويشتدُّ التَّزُوع .

ثمَّ رَجَعَ الكلامُ إلى حاجة النَّاسِ إلى استماعِ الأخبارِ ، والتَّفَقُّه في تصحيحِ الآثارِ ، فأقول : إنَّ الناسَ لو استغنَوْا عن التَّكْرِيرِ ^(١) ، وكَفُّوا مَثُونَةَ البَحْثِ والتَّنْقِيرِ ^(٢) لَقَلَّ اعتبارُهُم ^(٣) . ومن قَلَّ اعتباره قَلَّ عِلْمُهُ ، وَمَنْ قَلَّ عِلْمُهُ قَلَّ فَضْلُهُ ، ومن قَلَّ فَضْلُهُ كَثُرَ نَقْصُهُ ، ومن قَلَّ عِلْمُهُ وَفَضْلُهُ وَكَثُرَ نَقْصُهُ لم يُحْمَدَ على خَيْرٍ أَنَّهُ ، ولم يَذَمَّ على شَرٍّ جَنَاهُ ، ولم يَجِدْ طَعْمَ العِزِّ ، ولا سُورُورِ الظَّفَرِ ، ولا رُوحَ الرَّجَاءِ ، ولا بَرْدَ اليَقِينِ ، ولا راحةَ الأَمَنِ .

وكيف يُشكر من لا يقصد ، وكيف يُلام من لا يتعمد ، وكيف يُقصد من لا يعلم . وما عسى أَن يَبْلُغَ قَدْرُ سُورُورٍ من لا يحسن من السُّورُورِ إِلَّا ما سُرَّ به حَواشِيهِ ^(٤) وَمَسَّ جِلْدُهُ ^(٥) .

وكيف يَأْتِي أَرَبِحَ الأَفْعَالِ ، وأبْعَدَ الشَّرِّينِ من رَكْبٍ في شِراةِ السَّبَاعِ ^(٦) وَعَبَاوَةَ البِهَائِمِ ، ثمَّ ^(٧) لم يُعْطِ الآلَةَ التي بها يستطيع التَّفْرِيقَةَ ^(٨) بين ما عليه وله ، والعِلْمَ بِمِصَالِحِهِ ومِفاسدِهِ ، فيَقْوَى بها على عِصْيَانِ طَبَائِعِهِ ، ومُخَالَفَةِ شَهَوَاتِهِ ، وبها يَعْرِفُ عِواقِبَ الأُمُورِ ، وما تَأْتِي به

(١) في جميع الأصول : « قد استغنوا عن التكرير » ، والصواب ما أثبت .

(٢) ب فقط : « وكفوا عن مثونة البحث والتنقير » .

(٣) ب ، ط : « لقللة اعتبارهم » ، صوابه في م .

(٤) ب ، م : « وحواشيه » ، والوجه حذف الواو كما في ط .

(٥) ب فقط : « ومس جلد » .

(٦) ب ، م : « من ركب في شراة السباع » ، ط : « من ركب شراة السباع »

صوابهما ما أثبت .

(٧) ثم ، ساقطة من ب .

(٨) ب ، م : « تفرقة » .

الدُّهُور^(١)، وَفَضْلٌ^(٢) لَذَّةِ الْقَلْبِ عَلَى لَذَّةِ الْبَدَنِ .

وَإِنَّ سُرُورَ الْجَاهِلِ لَا يَحْسُنُ فِي جَنْبِ سُرُورِ الْعَالِمِ ، وَإِنَّ لَذَّةَ الْبِهَائِمِ لَا تَعْتَشِرُ^(٣) لَذَّةَ الْحَكِيمِ الْعَالِمِ .

وَأَيُّ سُرُورٍ كَسُرُورِ الْعِزِّ وَالرِّيَاسَةِ ، وَاتِّسَاعِ الْمَعْرِفَةِ ، وَكَثْرَةِ صَوَابِ الرَّأْيِ ، وَالنُّجْحِ الَّذِي لَا سَبَبَ لَهُ إِلَّا حُسْنُ النَّظَرِ وَالتَّقَدُّمِ^(٤) فِي التَّدْبِيرِ ، ثُمَّ الْعِلْمُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، وَأَنَّكَ بَعْرُضُ وَلَايَتِهِ وَالجَاهِ عِنْدَهُ ، وَأَنَّهُ الَّذِي يَرَعَاكَ وَيَكْفِيكَ ، وَأَنَّكَ إِذَا عَمِلْتَ الْيَسِيرَ^(٥) أَعْطَاكَ الْكَثِيرَ ، وَمَتَى تَرَكْتَ لَهُ الْفَائِزَ أَعْطَاكَ الْبَاقِيَ ، وَمَتَى أَدْبَرْتَ عَنْهُ دَعَاكَ ، وَمَتَى رَجَعْتَ إِلَيْهِ اجْتَبَاكَ ، وَيَحْمَدُكَ عَلَى حَقِّكَ ، وَيُعْطِيكَ عَلَى نَظْرِكَ ، لِنَفْسِكَ وَلَا يُغْنِيكَ إِلَّا لِيُبْقِيكَ^(٦) ، وَلَا يُمِيتُكَ إِلَّا لِيَحْيِيكَ ، وَلَا يَمْنَعُكَ إِلَّا لِيُعْطِيكَ . وَأَنَّهُ الْمَبْتَدِئُ بِالنِّعْمَةِ قَبْلَ السُّؤَالِ ، وَالنَّاهِضُ لَكَ فِي كُلِّ حَالٍ .

وَهَذَا كُلُّهُ لَا يُنَالُ إِلَّا بِغَرِيزَةِ الْعَقْلِ . عَلَى أَنَّ الْغَرِيزَةَ لَا تَنَالُ ذَلِكَ بِنَفْسِهَا ، بَمَا بَاشَرْتَهُ حَوَاسِئُهَا ، دُونَ النَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ ، وَالبَحْثِ وَالتَّصْفُحِ .
 وَلَنْ يَنْظُرَ نَازِرٌ وَلَا يَفْكَرُ مَفَكِّرٌ^(٧) دُونَ الْحَاجَةِ الَّتِي تَبْعَتْ عَلَى

(١) ب : « وما يأتي به الدهور » .

(٢) الفضل : الزيادة . وفي ب ، م : « وفضلة » ، وإنما الفضلة والفضالة : البقية من الشيء ، فالوجه ما أثبت من ط .

(٣) تعشراها : تبلغ عشرها . ب ، م : « لا يعشر » ، صوابه ما أثبت . وفي ط : « لاتعادل » .

(٤) في جميع الأصول : « والتقديم » .

(٥) ب : « علمت اليسير » .

(٦) ب ، ط : « ولا يغنيك » ، وأثبت ما في م . وفي جميع الأصول : « إلا ليقيك » . والمراد بالإبقاء هنا الإبقاء الأبدي في الآخرة .

(٧) ب : « ولم ينظرنا ولا فكر مفكر » ، صوابه في م ، ط .

الفكرة^(١) ، وعلى طلب الحيلة . ولذلك وضع الله تعالى في الإنسان طبيعة الغضب ، وطبيعة الرضا ، وطبيعة البُخل والسخاء ، والجزع والصبر ، والرياء والإخلاص ، والكبر والتواضع ، والسخط والقناعة ، فجعلها عروفاً . ولن تفي^(٢) قوة غريزة العقل بجميع^(٣) قوى طباعته وشهواته ، حتى يقيم ما اعوجَّ منها^(٤) ، ويسكن ما تحرك ، دون النظر الطويل الذى يشدها ، والبحث الشديد الذى يشحدها ، والتجارب التى تُحسِّنُها^(٥) ، والفوائد التى تزيد فيها^(٦) . ولن يكثر النظر حتى تكثر الخواطر^(٧) ، ولن تكثر الخواطر حتى تكثر الحوائج^(٨) ، ولن تبعد^(٩) الرؤية إلا لبعد الغاية وشدة الحاجة .

ولو أنّ الناس تُركوا وقدر قوَى غرائزهم^(١٠) ، ولم يُهاجروا بالحاجة على طلب مصلحتهم والتفكير فى معاشهم ، وعواقب أمورهم ، وألجئوا إلى قدر خواطرهم التى تولدها مباشرة حواسهم ، دون أن يُسمعهم الله تعالى خواطر الأولين ، وأدب السلف المتقدمين ، وكُتِبَ رب العالمين ، لما أدركوا من العلم إلا اليسير^(١١) ، ولما ميزوا من الأمور إلا القليل .

(١) ب فقط : « على الفكر » .

(٢) ب فقط : « ولم يف » ، تحريف .

(٣) يقال هذا الشيء لا يفي بذلك ، أى يقصر عنه ولا يوازيه . وفي جميع النسخ :

« لجميع » ، والصواب ما أثبت .

(٤) ب ، م : « ما عدا منها » ، صوابه فى ط .

(٥) يقال حسنته التجارب : حسنا ، بالفتح ، وحسناً بالتحريك ، وأحسنته وحسنته تحسناً ، واحسنته : أى هذبه وأحسنته . ب : « الذى يحسكها » م : « التى يحسكها » ، صوابها فى ط .

(٦) ب ، م : « التى يزيد فيها » ، صوابها فى ط .

(٧) ب ، م : « يكثر الخواطر » ، وأثبت ما فى ط .

(٨) ب : « ولم يكثر » صوابه فى م ، ط ، وفى ب ، م : « حتى يكثر الحوائج » ، وأثبت ما فى ط .

(٩) ب : « ولن يبعد » صوابه فى م ، ط .

(١٠) م : « تركوا قدر قوَى غرائزهم » .

(١١) ب : « الستر » م : « التستر » ، صوابها ط .

ولولا أن الله تعالى أراد تشریف العالم وترتيبته^(۱) ، وتسويد العاقل ورفع قدره ، وأن يجعله حكيماً ، وبالعواقب عليماً ، لما سخر له كل شيء ، ولم يسخره لشيء ، ولما طبعه الطبع الذي يجيء منه أريب حكيم ، وعالم حكيم .

كما أنه عز ذكره لو أراد أن يكون الطفل عاقلاً ، والمجنون عالماً ، لطبعهم طبع العاقل ، ولسواهم تسوية العالم ، كما أراد أن يكون السبع وثأباً ، والحديد قاطعاً ، والسم قاتلاً ، والغذاء مقيماً ؛ فكذلك أراد^(۲) أن يكون المطبوع على المعرفة عالماً ، والمهيأ للحكمة حكيماً ، وذو الدليل مستديلاً ، وذو النعمة مستنفعاً بها^(۳) .

فلما علم الله تبارك وتعالى أن الناس لا يدركون مصالحهم بأنفسهم ، ولا يشعرون بعواقب أمورهم بغرائزهم ، دون أن يرد عليهم آداب المسلمين ، وكُتِبَ الأوّلين ، والأخبار عن القرون ، والجبايرة الماضين - طبع كل قرن من الناس على أخبار من يليه ، ووضع القرن الثاني دليلاً يُعلم به صدق خبر الأوّل ؛ لأنّ كثرة السماع للأخبار العجيبة ، والمعاني الغريبة ، مشحذةً للأذهان ، ومادةً للقلوب ، وسببٌ للتفكير ، وعلةٌ للتنقيير^(۴) عن الأمور .

وأكثر الناس سماعاً أكثرهم خواطر ، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكيراً ، وأكثرهم تفكيراً أكثرهم علماً ، وأكثرهم علماً أرجحهم عملاً . كما أن أكثر البصراء رؤيةً للأعاجيب أكثرهم تجارب^(۵) ، ولذلك

(۱) ب ، م : « وترتيبه » .

(۲) أراد ، من ط فقط .

(۳) ب ، م : « والدليل مستديلاً والنعمة مستنفعاً بها » ، صوابه في ط .

(۴) ب ، م : « للتبقيير » ، صوابه في ط .

(۵) في جميع الأصول : « تجارباً » ، والصواب ما أثبت .

صار البصير أكثر خواطر^(١) من الأعمى ، وصار السميع البصير أكثر خواطر من البصير .

وعلى قدر شِدَّة الحاجة تكون الحركة ، وعلى قدر ضَعْف الحاجة يكون السُّكون ، كما أنَّ الرَّاجِيَ والخائف دائبان ، والآيس والآمن وإِدعان .

وإذا كان^(٢) الله تعالى لم يَخْلُق عباده في طبع عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، وآدم أبي البشر ، صلوات الله عليهم أجمعين ، وَخَلَقَهُمْ منقوصين^(٣) ، وعن دَرْك مصالِحهم عاجزين ، وأراد منهم العبادة ، وكَلَّفَهُم الطَّاقة^(٤) ، وتَرَكَ العِنان^(٥) للآمل البعيد ، وأرسل إليهم رسلَه ، وبعث فيهم أنبياءَه ، وقال : ﴿ لِيَثَلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بعد الرسل^(٦) ﴾ ، ولم يُشْهِد أكثرَ عباده حُجَجَ رُسُلِهِ^(٧) عليهم السلام ، ولا أَحْضَرَهُمْ عجائب أنبيائه^(٨) ، ولا أَسْمَعَهُمْ احتجاجَهم ، ولا أَرَاهِم تدبيرَهم - لم يكن بدُّ من أن يُطْلِع^(٩) المُعائنين على أخبار الغائبين ، وأن يسخَّرَ أَسْمَاعَ^(١٠) الغائبين لأخبار المعاندين ، وأن يخالف بين طبائع

(١) ب ، م : « خواطرا » في هذا الموضع وتاليه ، صوابه في ط .

(٢) ب : « وإن كان » ، تحريف .

(٣) ط فقط : « ناقصتين » .

(٤) كذا في جميع النسخ . والمراد : ما يطبقون . لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

(٥) العنان : السير أو الجبل الذي تمسك به الدابة . وإطلاق العنان هنا كناية عن اتساع مدى

الأمل . وفي جميع الأصول : « العيان » ، والوجه ما أثبت .

(٦) الآية ١٦٥ من سورة النساء .

(٧) ب ، م : « وحجج رسله » ، صوابه في ط .

(٨) ب : « ولا أخبر » م : « ولا أخضر » ، صوابهما في ط .

(٩) ب ، م : « يطلع » ، وجهه في ط .

(١٠) ب ، م : « يسحر » ، صوابه في ط .



المُخْبِرِينَ ، وَعِلَلِ النَّاqِلِينَ ^(١) ، لِيَدُلَّ السَّامِعِينَ ، وَمَنْ يَجِبُ مِنَ النَّاسِ ^(٢) .

على أَنَّ العَدَدَ الكَثِيرَ المِخْتَلِفِ العِلَلِ ، المِتضَادِّ الأَسْبَابِ ، المِتفَاوِي الهِمَمَ ، لَا يَتَفَقَّهُونَ على تَخْرُصِ الخَبَرِ فِي المَعْنَى الوَاحِدِ ^(٣) ، وَكَمَا لَا يَتَفَقَّهُونَ على الخَبَرِ الوَاحِدِ على غَيْرِ التَّلَاقِ وَالتَّرَاسُلِ إِلاَّ وَهُوَ حَقٌّ . فَكَذَلِكَ ^(٤) لَا يَمْكِنُ مِثْلَهُمْ فِي مِثْلِ عِلْمِهِمُ التَّلَاقِ عَلَيْهِ ، وَالتَّرَاسُلُ فِيهِ . وَلَوْ كَانَ تَلَاقِيهِمْ مِمكِنًا ، وَتَرَاسُلُهُمْ جَائِزًا لَظَهَرَ ذَلِكَ وَفِشَا ، وَاسْتِفَاضَ وَبَدَا .

ولو كَانَ ذَلِكَ أَيضًا مِمكِنًا ، وَكَانَ قَوْلًا مِتَوَهِّمًا لِبَطَلَتِ الحُجَّةُ ، وَلتُقَصِّصَتِ العَادَةُ ^(٥) ، وَلفَسَدَتِ العِبْرَةُ ، وَلعَادَتِ النَّفْسُ بَعْلَةَ الإخْبَارِ جَاهِلَةً ، وَلكَانَ لِلنَّاسِ ^(٦) على اللَّهِ أَكْبَرُ الحُجَّةِ . وَقَد قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ : ﴿ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ ^(٧) ، إِذْ كَلَّفَهُمْ ^(٨) طَاعَةَ رُسُلِهِ ، وَتَصْدِيقَ أَنبِيَائِهِ وَرِسلِهِ وَكُتِبَهُ ^(٩) ، وَالإِيمَانَ بِجَنَّتِهِ وَنَارِهِ ، وَلَمْ يَضَعُ لَهُمْ دَلِيلًا على صِدْقِ الأَخْبَارِ ، وَامْتِنَاعِ العَلَطِ فِي الأَثَارِ ، تَعَالَى اللَّهُ عن ذَلِكَ علوًّا كَبِيرًا .

(١) ب الفِطْرَةِ : « وَعِلَلِ النَّاqِلِينَ » ، تَحْرِيفٌ .

(٢) ط فَقَطْ : « وَمَنْ يَجِبُ » .

(٣) التَّخْرُصُ ، المِرَادُ بِهِ الحَزْرُ وَالتَّقْدِيرُ وَالفَهْمُ . وَسِيَأْتِي فِي ٢٤٨ س ١٢ : « لَا يَتَفَقَّهُونَ

على تَخْرُصِ الخَبَرِ الوَاحِدِ فِي المَعْنَى الوَاحِدِ فِي الزَّمَنِ الوَاحِدِ » .

(٤) ب ، م : « فَكَذَلِكَ » ، صَوَابُهُ فِي ط .

(٥) ب ، م : « وَلانْقَصَتِ » ، تَحْرِيفٌ .

(٦) ب : « النَّاسِ » ، مَحْرَفَةٌ .

(٧) مِنَ الآيَةِ ١٦٥ مِنْ سُورَةِ النَّسَاءِ .

(٨) ط : « إِذَا كَلَّفَهُمْ » .

(٩) ب : « أَنبِيَائِهِ وَكُتِبَهُ » م : « أَنبِيَائِهِ وَرِسلِهِ » ، وَأَثْبَتِ النِّصْنَ كَامِلًا مِنْ ط .

واعلمُ أَنَّ اللهَ تعالى إِنَّمَا خَالَفَ بَيْنَ طَبَائِعِ النَّاسِ لِيُوقِفَ بَيْنَهُمْ ، وَلَمْ يَحِبَّ أَنْ يُوَفِّقَ بَيْنَهُمْ فِيمَا يَخَالَفُ مَصْلَحَتَهُمْ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ لَوْ لَمْ يَكُونُوا مَسْخَرِينَ بِالسَّبَبِ الْمُخْتَلَفَةِ ، وَكَانُوا مُجْبَرِينَ ^(١) فِي الْأُمُورِ الْمُتَّفِقَةِ وَالْمُخْتَلَفَةِ ، لَجَازَ أَنْ يَخْتَارُوا بِأَجْمَعِهِمُ التَّجَارَةَ وَالصَّنَاعَةَ ، وَلَجَازَ أَنْ يَطْلُبُوا بِأَجْمَعِهِمُ الْمُلْكَ وَالسِّيَاسَةَ ^(٢) . وَفِي هَذَا ذَهَابُ الْعَيْشِ ، وَبُطْلَانُ الْمَصْلَحَةِ ، وَالْبَوَارُ وَالتَّوَاهُ ^(٣) .

وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا مَسْخَرِينَ بِالسَّبَبِ ، مُرْتَهَنِينَ بِالْعِلَلِ لِرَغْبَا عَنْ الْحِجَامَةِ أَجْمَعِينَ ، وَالْبَيْطَرَةَ ، وَالْقِصَابَةَ ، وَالذَّبَّاعَةَ . وَلَكِنْ لِكُلِّ صَنْفٍ مِنَ النَّاسِ مُزَيَّنٌ عِنْدَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ ، وَمُسَهَّلٌ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ . فَالْحَائِكُ إِذَا رَأَى تَقْصِيرًا مِنْ صَاحِبِهِ أَوْ سَوْءَ حِذْقٍ أَوْ خِرْقًا ^(٤) قَالَ لَهُ : يَا حِجَّامُ ! وَالْحِجَّامُ إِذَا رَأَى تَقْصِيرًا مِنْ صَاحِبِهِ قَالَ لَهُ : يَا حَائِكُ ! وَلِلذَلِكَ لَمْ يُجْمَعُوا عَلَى إِسْلَامِ أَبْنَائِهِمْ فِي غَيْرِ الْحَيَاكَةِ وَالْحِجَامَةِ ، وَالْبَيْطَرَةِ وَالْقِصَابَةِ .

وَلَوْلَا أَنَّ اللهَ تعالى أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ الْاِخْتِلَافَ سَبَبًا لِلاتِّفَاقِ وَالِاتِّتْلَافِ ، لَمَا جَعَلَ وَاحِدًا قَصِيرًا وَالْآخَرَ طَوِيلًا ، وَوَاحِدًا حَسَنًا وَالْآخَرَ قَبِيحًا ، وَوَاحِدًا غَنِيًّا وَالْآخَرَ فَقِيرًا ^(٥) ، وَوَاحِدًا عَاقِلًا وَالْآخَرَ مَجْنُونًا ، وَوَاحِدًا ذَكِيًّا وَالْآخَرَ غَبِيًّا . وَلَكِنْ خَالَفَ بَيْنَهُمْ لِيُخْتَبِرَهُمْ ، وَبِالِاخْتِبَارِ يُطِيعُونَ ، وَبِالطَّاعَةِ يَسْعُدُونَ . فَفَرَّقَ بَيْنَهُمْ لِيَجْمَعَهُمْ ، وَأَحَبَّ أَنْ يَجْمَعَهُمْ عَلَى

(١) ب فقط : « مخبرين » تحريف .

(٢) ط : « لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة » يسقط ما قبل « بأجمعهم » الثانية .

(٣) التوى ، مقصور : الهلاك ، كما في اللسان والقاموس . وفي ب : « التواء » ،

وفي م ، ط : « التواء » ، صوابهما ما أثبت .

(٤) المخرق ، بالضم ، وبالتحريك : ضد الرفق ، وأن لا يحسن الرجل العمل .

(٥) ب ، م : « والآخر فقيرًا » .

الطاعة ليجمهم على المثوبة . فسيحانه وتعالى ، ما أحسن ما أبلى وأزلى ، وأحكم ما صنع ، وأتقن ما دبّر ! لأنّ الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة^(١) لبقينا عرأة . ولو رغبوا بأجمعهم عن كد البناء لبقينا بالعرءاء . ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الأقوات ، ولبطل أصل المعاش . فسخرهم على غير إكراه ، ورغّبهم من غير دعاء .

ولولا اختلاف طبائع الناس وعيّلهم لما اختاروا من الأشياء إلّا أحسنها ، ومن البلاد إلّا أعدلها ، ومن الأمصار إلّا أوسطها . ولو كانوا كذلك لتناجزوا على طلب الأواسط^(٢) ، وتشاجروا على البلاد العليا ، ولما وسعهم بلد ، ولما تمّ بينهم صلح . فقد صار بهم التسخير إلى غاية القناعة .

وكيف لا يكون كذلك وأنت لو حولت ساكني الآجام إلى الفيافي ، وساكني السهل إلى الجبال ، وساكني الجبال إلى البحار ، وساكني الوبر إلى المدر ، لأذاب قلوبهم همّ ، ولأثني عليهم فرط النزاع . وقد قيل^(٣) : « عمّر الله البلدان بحبّ الأوطان » .

وقال عبد الله بن الزبير رحمه الله تعالى : « ليس الناس بشيء من أقسامهم أقتع منهم بأوطانهم » .

وقال معاوية في قوم من اليمن رجعوا إلى بلادهم بعد أن أنزلهم من

(١) ب فقط : « لوغبوا » تحريف . وفي ب ، م : « من عار الحياكة » ، صوابه في ط .

(٢) في اللسان : « تناجز القوم : تسافكوا دمامهم ، كأنهم أسرعوا في ذلك » . ب ، ط : « طلب الواسط » ، وأثبت ما في م .

(٣) وكذا في الحيوان ٣ : ٢٢٧ . ونسب القول إلى عمر رضى الله عنه في رسالة الحنين إلى الأوطان . انظر رسائل الجاحظ ٢ : ٣٨٩

الشام منزلاً خِضْباً ، وفرض لهم في شرف العطاء (١) : « يصلون أوطانهم بقطيعة أنفسهم . »

وقال الله جلَّ وعز : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴾ (٢) . فقرن الضنَّ بالأوطان إلى الضنَّ بمهج النفوس (٣) .

وليس على ظهرها إنسانٌ إلا وهو مُعجَبٌ بعقله ، لا يسره أن له بجميع ما له ما لغيره ، ولولا ذلك لماتوا كمداً ، ولذأبوا حسداً ، ولكن كلُّ إنسانٍ وإن كان يرى أنه حاسد في شيء فهو يرى أنه محسود في شيء .

ولولا اختلاف الأسباب لتنازعا بلدةً واحدةً ، واسماً واحداً ، وكُنْيَةً واحدةً . فقد صاروا كما ترى مع اختيار الأشياء المختلفة (٤) إلى الأسماء القبيحة ، والألقاب السَّمِجَة (٥) . والأسماء مبدولةً ، والصناعات مُباحة ، والمتاجر مُطلقة ، ووجوه الطُّرُق مُخلَّاة (٦) ، ولكنها مُطلقة في الظاهر ، مقسمة في الباطن ، وإن كانوا لا يشعرون بالذي دبرَ الحكيم من ذلك ، ولا بالمصلحة فيه .

فسبحانَ من حَبَّبَ إلى واحدٍ أن يسميَ ابنه محمداً ، وحَبَّبَ إلى آخر أن يسميه شيطاناً (٧) ، وحَبَّبَ إلى آخر أن يسميه عبدَ الله ، وحَبَّبَ

(١) ب ، م : « في شوف العطاء » ، ط : « في شون العطاء » . والوجه ما أثبت .

(٢) من الآية ٦٦ من سورة النساء .

(٣) ب ، م : « الظن » في الموضعين ، صوابه في ط .

(٤) كلمة « الأشياء » من ط فقط . وفي م : « مع اختبار مختلفة » . وصواب الكلام في ط .

(٥) السج ، بالفتح ، وكسفت : القبيح . ب فقط : « السمحة » تحريف .

(٦) ب : « مخلَّاة » ، صوابه في م ، ط .

(٧) ب ، م : « شيطان » .

إلى آخر أن يسميه حماراً^(١) ، لأنَّ الناس لو لم يُخالف بين عللهم في اختيار الأسماء والكُنَى ، جاز^(٢) أن يجتمعوا على شيء واحد ، وكان^(٣) في ذلك بطلان العَلَامَات ، وفساد المعاملات .

وأنت إذا رأيت ألوأنهم وشمالهم واختلاف صورهم ، وسَمِعْتَ لُغَاتِهِمْ وَنَعْمَهُمْ^(٤) علمت أنَّ طبائعهم وعللهم المحجوبة الباطنة ، على حَسَبِ أُمُورِهِم الظاهرة .

وبعضُ الناس وإن كان مسخراً للحياكة^(٥) فليس بمسخَّرٍ للفِسق والخيانة^(٦) ، وللاِحْكَامِ^(٧) والصِّدْقِ والأمانة .

وقد يسخرُ الله الملك^(٨) لقومٍ بِأَسْبَابٍ قَدِيمَةٍ وَأَسْبَابٍ حَدِيثَةٍ ، فلا يزال ذلك الملكُ مقصوراً عليهم ، ما دامت تلك الأسبابُ قائمة ، إذا كانوا للملِكِ مسخَّرين^(٩) ، وكان النَّاسُ لهم مسخَّرين ، بالجبرية^(١٠) والنَّخْوَةِ ، والفِظَاظَةِ والقسوة ، ولطُولِ الاحتجاج والاستتار ، وسوءِ اللِّقَاءِ والتضييع .

(١) ب فقط : « حمار » . ومن سمي به « معقر بن حمار البارقي » ، ومن لقب بذلك « مروان الحمار » .

(٢) ط : « وجاز » بزيادة واو .

(٣) ط : « كان » بدون واو .

(٤) م : « ونعماهم » .

(٥) ب : وإن كانوا مسخراً للحياكة ط : « وإن كانوا مسخَّرين للحياكة » . والوجه ما أثبت من م .

(٦) ب : « للتفسيق والخيانة » .

(٧) ب ، ط : « والأحكام »

(٨) ط : « يسخر الملك » ب ، م : « يسخر الملة الملك » ووجه هذه الأخيرة ما أثبت .

(٩) ب : « فليس إذ كانوا » ، م ، ط : « فليس إذا كانوا » . والوجه حذف « فليس » .

وفي ب ، م : « المسخَّرين » .

(١٠) الجبرية : الكبرياء . وانظر لغاتها الثلاث عشرة في القاموس . وفي ب ، م :

« للجبرية » .

وقد يكون الإنسان مسخراً لأمرٍ ، ومخيراً في آخر .

ولولا الأمر والنهي لجاز التسخير في دقيق الأمور وجليلها ، وخفيها وظهرها ؛ لأنَّ بنى الإنسان ^(١) إنما سُخِّروا له لإرادة العائدة عليهم ^(٢) ، ولم يسخِّروا للمعصية ، كما لم يسخِّروا للمفسدة .

وقد تستوى الأسباب في مواضع ، وتتفاوت في مواضع ^(٣) . كلُّ ذلك ليجمع الله تعالى لهم مصالح الدنيا ، ومراشد الدين .

ألا ترى أنَّ أمةً قد اجتمعت على أنَّ عيسى عليه السلام هو الله ، وأمةً قد اجتمعت على أنَّه ابن الله ، وأمةً اجتمعت على أنَّ الآفة ثلاثة ، عيسى أحدها . ومنهم يتبدد ^(٤) ، ومنهم من يتدهر ^(٥) ، ومنهم من يتحوَّل نسطورياً بعد أن كان يعقوبياً ، ومنهم من أسلم بعد أن كان نصرانياً . ولستَ واحداً ^(٦) هذه الأمة مع اختلاف مذاهبها ، وكثرة تنقلها ، انتقلت مرّةً واختلفت مرّةً ، متعمدة أو ناسيةً ، في يومٍ واحد ، فجعلته - وهو الجمعة - يومَ السبت ، ولم تخطب في يومِ جُمُعَةٍ بخطبةٍ يوم خميس ، ولا غلِطت في كانونِ الأوَّلِ فجعلته كانونَ الآخر ، ولا بين الصَّوم والإفطار ؛ لأنَّ الباب الأوَّل في باب الإيمان

(١) ب ، م : « لأن الإنسان » ، تحريف .

(٢) م : « الفائدة عليهم » .

(٣) ب : « وقد يستوى » و « يتفاوت » ، صوابهما في م ، ط .

(٤) يريد : يعبد البد ، بالضم ، وهو الصنم . ب : « يتبدد » م : « يتدير » ط :

« يتذبذب » . وأرى أن الجاحظ قد اشتق هذا الفعل من « البد » ، كما اشتق الفعل التالى من الدهر ، وكلاهما لم تذكره المعاجم .

(٥) يتدهر ، أراد يدين بمذهب الدهرية ، بضم الدال نسبة غير قياسية إلى الدهر بالفتح .

وانظر آرامهم المتفرقة في الحيوان ١ : ٢/١٧ : ٤/١٣٩ : ٤٠ : ٥/٤٣٢ : ٦/٣٢٧ : ٢٧٠ ، بالإضافة إلى مادة (الدهرية) في دائرة المعارف الإسلامية ٩ : ٣٣٧/

(٦) م فقط : « واجدة » تحريف .

وتعديل الأسباب والامتحان ، والباب الثاني داخل في باب الامتحان
وتسخير النفوس وطرح الامتحان .

وقد زعم ناس من الجهال ، ونفر من الشكك ، ممن يزعم أن الشك واجب في كل شيء ، إلا في العيان ، أن أهل المنصورة ^(١) وأفوا مصلاهم يوم خميس على أنه يوم الجمعة ، في زمن منصور بن جمهور ^(٢) وأن أهل البحرين جلسوا عن مصلاهم ^(٣) يوم الجمعة على أنه يوم خميس ، في زمن أبي جعفر ، فبعث إليهم وقومهم .

وهذا لا يجوز ولا يمكن في أهل الأمصار ، ولا في العدد الكثير من أهل القرى ، لأن الناس من بين صانع لا يأخذ أجرته ولا راحة له دون الجمعة ، وبين تجار قد اعتادوا الدعة في الجمع ^(٤) ، والجلوس عن الأسواق . ومن معلم كتاب لا يصرف غلمانة إلا في الجمع . وبين معنى بالجمع يتلاقى هناك مع المعارف ^(٥) والإخوان والجلساء . وبين معنى بالجمع حرصاً على الصلاة ، ورغبة في الثواب . ومن رجل عليه موعد ينتظره . ومن صيرفي [يصرف ذلك اليوم سفاتجه ^(٦) وكتب

(١) المنصورة هذه كانت قصبة السند ، واسمها القديم « همناباد » قال المسعودي : سميت المنصور بمنصور بن جمهور عامل بني أمية . وقال هشام : بناها فسميت به ، وكان قد خرج مخالفاً لهارون وأقام بالسند . وانظر معجم البلدان .

(٢) ب : « منصور بن جمهور » ، وفي ط : « منصورى » فقط . والمنصور هذا أخبار في تاريخ الطبري انتهت بهزيمته وموته عطشاً حين وجه إليه أبو العباس السفاح جيشاً إلى الهند بقيادة موسى بن كعب . وذلك في سنة ١٣٤ . وكان أول ظهور أمره سنة ١٢٥

(٣) أى لم يذهبوا إلى المسجد يوم الجمعة . ب فقط : « على مصلاهم » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « المدعاة في الجمع » ، صوابه في ط . وما بعده إلى الجمع « التالفة ساقط من م .

(٥) ب ، م : « تلقى هناك من المعارف » .

(٦) جمع سفتجة ، يضم السين وفتح التاء ، وهى كما في المصباح : كتاب صاحب المال لوكيله أن يدفع مالا قرضاً لآخر فيأمن بذلك على ماله من خطر الطريق . وفي القاموس : أن يعطى مالا لآخر ، وللآخر مال في بلد المعطى فيوفيه إياه ثم ، فيستفيد أمن الطريق . المعطى بضمط =

أصحابه . ومن جندي فهو ^(١) [يعرف بذلك نوبته ^(٢)] . وبعض السؤال
والمساكين والقصاص ، الذين يمدون أعناقهم للجمعة انتظاراً للصدقة
والفائدة ، في أمور كثيرة ، وأسباب مشهورة .

ولو جاز ذلك في أهل البحرين والمنصورة لجاز ذلك على أهل
البصرة والكوفة ، ولو جاز ذلك في الأيام لكان في الشهور أجوز ، ولو
جاز ذلك في الشهور لكان في السنين أجوز . وفي ذلك فساد الحج ،
والصوم ، والصلاة ، والزكاة ، والأعياد .

ولو كان ذلك جائزاً لجاز أن يتفق الشعراء على قصيدة واحدة ،
والخطباء على خطبة واحدة ، والكتّاب على رسالة واحدة ، بل جميع
الناس على لفظة واحدة .

وإنما نزلت لك حالات الناس ، وخبرتك عن طبائعهم ، وفسرت
لك عليهم لتعلم أن العدد الكثير لا يتفقون على تحرّص الخبر الواحد
في المعنى الواحد في الزمن الواحد ^(٣) ، على غير الشاعر ^(٤) ، فيكون
باطلاً . وسأوجدك موضع اختلافهم واتفاقهم ^(٥) ، وأنه لم يخالف
بينهم في بعض الوجوه إلا إرهاساً لمصلحتهم ^(٦) ، ولتصح أخبارهم .

= اسم الفاعل . ثم ، أي هناك . واللفظ فارسي معرب ، وقد فسرت حديثاً بأنها حوالة صادرة من دائن
يكلف فيها مدينه دفع مبلغ معين في تاريخ معين لأذن شخص ثالث ، أو لإذن الدائن نفسه ،
أو لإذن صاحب الحوالة .

(١) هذه التكملة من م ، ط . لكن في م : « يعرف » موضع « يصرف » . مع سقوط كلمة
« اليوم » وكلمة « أصحابه » .

(٢) ب ، م : « ذلك بنوبته » .

(٣) التحرص ، سبق تفسيره في ٢٤١ .

(٤) الشاعر : تفاعل من قولهم شعر بكذا : أحس به . وانظر العنانية ص ٣ .

(٥) يقال أوجدته الشيء : جملة يجده ويفطر به ، كما في اللسان والقاموس . وفي ط

« وسأين لك » .

(٦) الإرهاس : الإرعاص ، والإثبات ، والتأسيس .

ألا ترى أن أحداً لم يبيع قطُّ سلعةً بدرهمٍ إلا وهو يرى أن ذلك الدرهم خيرٌ له من سلعته . ولم يشترِ (١) أحدٌ قطُّ سلعةً بدرهمٍ إلا وهو يرى أن تلك خيرٌ له من درهمه . ولو كان صاحب السلعة يرى في سلعته ما يرى فيها صاحبُ الدرهم ، وكان صاحبُ الدرهم يرى في الدرهم ما يرى فيه (٢) صاحبُ السلعة ما اتَّفَقَ بينهما شراءً أبداً ، ولا بيعاً أبداً . وفي هذا جميعُ المفسدة ، وغايةُ الهلكة .

فسبحان الذى حبَّبَ إلينا ما فى أيدي غيرنا ، وحبَّبَ إلى غيرنا ما فى أيدينا ، ليقع التبايعُ . وإذا وقع التبايعُ وقع الترابُحُ ، وإذا وقع الترابُحُ وقع التعايشُ .

ويدلُّك أيضاً على اختلاف طبائعهم وأسبابهم : أنَّك تجد الجماعة وبين أيديهم الفاكهة والرطب ، فلا تجدُ يدين تلتقيان (٣) على رُطبةٍ بعينها ، وكلُّ واحد من الجميع يرى ما حوَّاهُ الطَّبَقُ ، غير أنَّ شهوته وقعتُ على واحدةٍ غيرِ التى آثرها صاحبه (٤) . ولربَّما سبق الرجلُ إلى الواحدة ، وقد كان صاحبه يريدُها فى نفسه ، غير أنَّ ذلك لا يكون إلا فى الفُرط ، ولو كانت (٥) شهواتهم ودواعيهم تتَّفَقُ على واحدةٍ بعينها لكان فى ذلك التَّمانُعُ والتجاذبُ (٦) ، والمبادرةُ وسوءُ المخالطةِ والمؤاكلة . وكذلك هو فى شهوةِ النساءِ والإماءِ ، والمراكبِ والكُمى . وهذا كثيرٌ ، والعلمُ به قليل . وبأقلِّ ممَّا قلنا (٧) يعرفُ العاقلُ صوابَ مذهبنا . والله تعالى نَسألُ التوفيقَ .

(١) ب : « ولم يشتر » ، صوابه فى م ، ط .

(٢) فيه ، ساقطة من ب . وفى م : « فيها » ، تحريف .

(٣) ب فقط : « فلا نجد » بالنون . وفى ب ، م : « يلتقيان » ، واليدائى .

(٤) ب ، م : « صاحبها » .

(٥) ب فقط : « كان » .

(٦) م فقط : « التحارب » .

(٧) ب : « وبأقل ما قلنا » .

وهو الذى ^(١) خالف بين طبائعهم وأسبابهم ، حتى لا يتفق على
تخريف خبر واحد ^(٢) ، لأنَّ في اتفاق طبائعهم وأسبابهم في جهة الإخبار
فسادُ أمورهم ، وقلة فوائدهم واعتبارهم ، وفي فساد أخبارهم فسادُ
متاجرهم والعلم بما غاب عن أبصارهم ، وبطلانُ المعرفة بأنبيائهم
ورسلهم عليهم السلام ، ووَعْدِهِم ووَعِيدِهِم ، وأمرهم ونهيهم وزجرهم ،
ورغبتهم ، وحدودهم ، وقصاصهم الذى هو حياتهم ، والذى يعدل
طبائعهم ، ويسوى أخلاقهم ، ويقوى أسبابهم ^(٣) ، والذى به يمانون
من تواب السباع ^(٤) ، وقلة احتراس البهائم ، وإضاعة الأعمار . وبه
تكثر خواطرهم وتفكيرهم ، وتحسن معرفتهم ^(٥) .

ولم نقل إنَّ العددَ الكثير ^(٦) لا يجتمعون على الخبرِ الباطل ،
كالتكذيب والتصديق ، ونحن قد نجد اليهود والنصارى ، والمجوس
والزنادقة ، والدهرية وعُباد البِدَّة ^(٧) يكذبون النبي صلى الله عليه
وسلم ، وينكرون آياته وأعلامه ، ويقولون : لم يأت بشيء ، ولا بانَّ
بشيء . وإنَّما قلنا : إنَّ العدد الكثير ^(٨) لا يتفقون على مثل إخبارهم
أنَّ محمدَ بنَ عبد الله بن عبد المطلب ، التَّهائمُ الأبطحيُّ عليه السلام
خرج بمكة ، ودعا إلى كذا ، وأمر بكذا ، ونهى عن كذا ، وأباح كذا ،

(١) ب ، م : « والذى » .

(٢) انظر ما سبق في ص ٢٤١ ، ٢٤٨ .

(٣) ب ، م : « ويقوم أسبابهم » .

(٤) ب ، م : « تواتر » ، صوابه في ط .

(٥) ب ، ط : « ويحسن معرفتهم » .

(٦) ب ، م : « ولم يقل إنَّ العدد كثير » ، تحريف ما في ط .

(٧) البِدَّة : جمع بد ، بالصم ، وهو الضم ، معرب بت ، ويجمع أيضاً على أبعاد .

وفي ب ، م : « البِدرة » ، وفي ط : « المبدرة » ، صوابها ما أثبت .

(٨) ب ، م : « كثير » ، صوابه في ط .

وجاء بهذا الكتاب الذي نقرؤه ، فوجب العمل بما فيه ، وأنه تحدّى
البلغاء^(١) والخطباء والشُعراء ، بنظمه وتأليفه ، في المواضع الكثيرة ،
والمحافل العظيمة . فلم يَرْمُ ذلك أحدٌ ولا تكلّفه ، ولا أتى ببعضه
ولا شبيهه منه ، ولا ادعى أنه قد فعل ، فيكون ذلك الخبرُ باطلاً .
وليس قولُ جَمْعِهِمْ إنَّه كان كاذباً^(٢) معارضةً لهذا الخبر ، إلا أن
يُسْمَوُا الإنكار معارضة . وإنَّما المعارضة مثلُ الموازنة والمُكايَلة ، فمتى
قابلونا بأخبارٍ في وزن أخبارنا ومخرِجها ومَجِيئها ، فقد عارضونا
ووازنونا وقابلونا ، وقد تكافينا^(٣) وتدافعنا . فأما الإنكار فليس بحجّة ،
كما أن الإقرار ليس بحجّة ، ولا تصديقنا النبيَّ صلى الله عليه وسلم
حُجَّةٌ على غيرنا ، ولا تكذيبُ غيرنا له حُجَّةٌ علينا ، وإنَّما الحُجَّةُ في
المجىء الذي لا يمكن في الباطل مثله .

فإن قلتَ : وأى مجىءٍ أثبتَ خبر النَّصارى عن عيسى بنِ مريمَ
عليه السلام ؟ وذلك أنك لو سألتَ النَّصارى مجتمعين ومتفرّقين
لخبروك عن أسلافهم أن عيسى قد قال : إني إله .

قلنا : قد علمنا أن نصارى عصرنا لم يكذبوا على القرن الذي كان
قَبْلَهُمْ ، والذين كانوا يَلُونَهُمْ . ولكنَّ الدليل على أن أصلَ خبرهم ليس
كفره ، أن عيسى عليه السلام لو قال : إني إله – لما أعطاه الله تعالى
إحياء الموتى ، والمشى على الماء . على أن في عيسى عليه السلام^(٤) دلالةً
في نفسه ، أنه ليس بإله ، وأنه عبدٌ مدبّرٌ ، ومقهورٌ ميسرٌ ، وليس

(١) ب : « تجد » م : « تحد » صوابهما في ط .

(٢) ب : « أنه كذا كان كاذباً » م : « أنه كان كاذبة » ، صوابهما في ط .

(٣) ب : « تكافأنا » بالهمز .

(٤) ب فقط : « على أن عيسى عليه السلام » .

خبرهم هذا إلا كإخبار النصارى عن آبائهم والقرن الذى يليهم أن بولس (١) قد كان (٢) جاء بالآيات والعلامات. وكإخبار المنانية (٣) عن القرن الذى كان يليهم منه (٤) أن ماني قد كان جاءهم بالآيات والعلامات. وكإخبار المجوس عن آبائهم الذين كانوا يلونهم أن زرادشت قد جاءهم بالآيات والعلامات. وقد علمنا أن هؤلاء النصارى لم يكذبوا على القرن الذى كان يليهم، ولا الزنادقة ولا المجوس. ولكن الدليل على أن أصل خبرهم ليس كفره (٥) أن (٦) الله جلّ وعز لا يعطى العلامات من لا يعرفه، لأن بولس إن كان عنده أن عيسى عليه السلام إله فهو لا يعرف الله تعالى، بل لا يعرف الربوبية من العبودية، والبشرية من الإلهية.

٢٩ - فصل منه

وللنصارى خاصة رياء عجيب (٧)، وظاهر زهد، والناس أبطأ شئ عن التصفح، وأسرع شئ إلى تقليد صاحب السنن والسمت، وظاهر العمل أدعى لهم من العلم.

(١) بولس : أحد الحواريين ، وقد قام نيرون ملك الروم بقتله هو وبطرس بمدينة رومية وصلبهما متكسين ، وذلك بعد وفاة المسيح بالثنتين وعشرين سنة ، وذلك بعد ثلاث عشرة سنة من ملكه . ابن الأثير ١ : ٣٢٥ والتنبية والإشراف ١٠٩ - ١١٠ . وفي م فقط : « يونس » تحريف .

(٢) كان ، ساقطة من ب ، م .

(٣) المنانية ، والمنانية : أتباع ماني المنتهي الذي زعم أنه الفارقليط الذى بشر به عيسى عليه السلام ، واستخرج مذهبه من المجوسية والنصرانية . وانظر ما كتبت من تحقيق فى حواشى الحيوان ٤ : ١ . وفى ط : « المانوية » .

(٤) أى من زمن ماني . وفى ب ، م : « منهم » .

(٥) أن ، ساقطة من ب ، ط .

(٦) ط فقط : « لأن » .

(٧) م : « رقاء » ، وهى لغة قرآنية .



٣٠ - فصل منه على ذكرهم

وكلُّ قومٍ بناؤا دينهم على حبِّ الأشكال^(١)، وشبه الرجال^(٢)،
يَشْتَدُّ وجدُّهم به^(٣) وحبُّهم له، حتَّى ينقلب^(٤) الحبُّ عشقاً، والوجدُ
صباةً، للمشاكله التي بين الطبائع، والمناسبة التي بين النفوس.

وعلى قدر ذلك يكون البُغْضُ والحقد، لأنَّ النَّصارى حين جعلوا
ربَّهم إنساناً مثلهم بَحَمَتْ نفوسهم بأهْيَابِهِ له^(٥) لتوهمهم الربوبية،
وأسمحت بالموذَّة لتوهمهم البشريَّة، فذلِكَ قَدَرُوا من العبادة على ما لم
يقدرُ عليه مَنْ سواهم^(٦). وبمثل هذا السَّبَبِ صارت المشبهة منَّا أَعْبَدَ
مَنْ بنى التشبيه، حتَّى ربَّما رأيتَه يتنفَّس من الشوق إليه، ويشهق^(٧)
عندَ ذكر الزيارة، ويبكي عند ذكر الرؤية، ويُغشى عليه عند ذكر رَفَعِ
الحُجَّجِ. وما ظنُّك بشوقٍ مَنْ طَمَع في مجالسة ربِّه عزَّ وجلَّ، ومحادثة
خالقه عزَّ ذكره.

ولقد غالت القومَ غَوْلٌ، ودعاهم أمرٌ، فانظُرْ ما هو؟ وإن^(٨) سألتني
عنه خبرتكَ: إنَّما هو نتيجةُ أحدِ أمرين: إمَّا تقليدُ الرجال، وإمَّا طلبُ
تعظيمهم. ولذلك السَّبَبِ لم ترض اليهودُ من إنكار حقِّه بتكذيبه،
حتَّى طلبتَ قتله وصلَّبه، والمثلة به، ثم لم ترض بذلك حتَّى زعمت

(١) ط: « بناوا على حب الأشكال ».

(٢) ب، م: « وشيد الرجال » ط: « وشد الرجال »، ولعل وجهه ما أثبت.

(٣) ب: « أشد وجدهم به » م: « اشدت وجدهم به »، وأثبت ما في ط.

(٤) ب: « تقرب » م: « يقرب »، صوابهما في ط.

(٥) بجمت: خضمت وأقرت. وفي ب: « نعمت » تحريف. م، ط: « بالهية له »

والإلهية: الربوبية. وأثبت ما في ب.

(٦) ب، م: « من العبادة ما لم يقدر عليه سواهم ».

(٧) ب، م: « ويشهد ».

(٨) ب: « وإذا ».

أَنَّهُ لغيرِ رِشْدَةٍ ، فلو كانت دون هذه المنزلة منزلةً لما انتهت اليهودُ دونَ بلوغها ، ولو كانت فوق ما قالت النصارى منزلةً لما انتهت دونَ غايتها .

وبذلك السَّببُ صارت الرافضةُ أشدَّ صِباةً وتحرقاً ، وأفرطَ غضباً ، وأدومَ حِقْدًا . وأحسنَ تواضلاً من غيرهم أيضاً .

وربَّ خبيرٍ قد كان فاشياً^(١) فدخل عليه من العِللِ ما منَعَه من الشهرة ، وربَّ خبيرٍ ضعيفِ الأصلِ ، واهنِ المخرجِ ، قد تهبَّأ له من الأسبابِ ما يُوجبُ الشهرةَ .

٣٩ - فصل منه

واعلم أنَّ لأكثرَ الشعرِ طَعْنًا^(٢) وحظوظاً ، كالبيتِ يحطِّي ويسير ، حتَّى يحطِّي صاحبه بحظِّه ، وغيره من الشعرِ أجودُ منه . وكالمثلِ يحطِّي ويسير ، وغيره من الأمثالِ أجودُ . وما ضاع من كلامِ النَّاسِ وُضِلَّ أكثرُ مما حَفِظَ وحكى . واعتبر ذلك من نفسك ، وصديقك وجليسك .

وأمرُ الأسبابِ عجيب . ومن ذلك قَتْلُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ^(٣) من السَّادةِ والقادةِ والحُماةِ ، ما عسى لو ذكرته لاستكبرته واستعظمتَه ، فأضرب النَّاسُ عن ذكرهم ، وجَهِلتِ العوامُ مواضعهم ، وأخذوا في ذكر عمرو بنِ عبْدودٍ^(٤) فرفعوه فوق كلِّ فارسٍ مشهور ، وقائِدٍ مذكور .

(١) فاشياً : ذائعاً منتشرأ . ب ، م : « ناسياً » صوابه في ط .

(٢) في الأصول : « طعنأ » بالمهمله ، صوابه ما أثبت . والظنن : الارتحال والسير .

(٣) ب ، م : « وليس كل ذلك يعرف قبل علي بن أبي طالب » ، تحريف .

(٤) عمرو بن عبْدود : أحدُ أشرافِ قريش . وقد ظهر أمره في غزوة بدر الكبرى

قاتل فيها فأثبتته الجراحة ، فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه ،

ودعا إلى المبارزة ، فنازله علي بن أبي طالب وجاوله حتى قتله . وانظر السيرة ٤٣٦ ، ٦٧٧ ،

٦٩٩ . وفي ب ، م : « وأخذوا في ذلك » . وود : صنم يقال بفتح الواو وضبها ، وفتحها

أكثر في اللغة وفي القراءات .

وقد قرأتُ على العلماء كتابَ الفجار^(١) الأوَّل ، والثاني ، والثالث .
وأمر المطيِّبين^(٢) والأحلاف^(٣) ، ومقتل أبي أزيهر^(٤) ، ومجىء الفيل ، وكلُّ
يومٍ جَمَعٍ كان لقريش ، فما سمعتُ لعمرٍو هذا في شيءٍ من ذلك ذكراً .

فإن قلت : إنَّ نُبْلَ القتال زيادة في نُبْلِ المقتول ، فكلُّ من قتله على
ابن أبي طالب رضوان الله عليه أنبلُّ منه وأحقُّ بالشهرة ، ولكن أشعار
ابنِ دأبٍ^(٥) ، ومناقلة الصَّبيان في الكُتَّاب هما اللتان أورثتا^(٦)
ما تَرَى وتسمع .

(١) أيام الفجار معروفة في أيام العرب أيام الجاهلية . وسميت فجاراً لأنها كانت في الأشهر
الحرم ، وكانت قبل بعث النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بست وعشرين سنة . وقال النبي صلى
الله عليه وسلم : « كنت أنبل على أعمام يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة » أنبل . : أناولم
النبل ، أي السهام . وانظر العتد ٢٥١ : ٢٥٧ . ب ، م : « الفجار » ، صوابه في ط .
(٢) المطيِّبون : هم أسد ، وزهرة ، وتميم ، عقدت معهم بنو عبد مناف حلفاً مؤكداً على
ألا يتخاذلوا ، وأن يكونوا يوماً واحدة على أخذ ماني بندي عبد الدار من الحجابة والرفادة واللواء
والساقية ، فأخرجت بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فوضعوها في المسجد ، ثم غمس القوم
أيديهم فيها جميعاً وتعاقدا ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً ، فسموا المطيِّبين . وكان أبو بكر
من المطيِّبين .

(٣) الأحلاف ، هم خمس قبائل من قريش : عبد الدار ، وجبع ، وسهم ، ومخزوم ، وعدى
ابن كعب . تماقدت معهم بنو عبد الدار حلفاً مؤكداً ألا يتخاذلوا ، فسموا الأحلاف . وكان عمر
ابن الخطاب من الأحلاف . انظر اللسان (حلف) ، وكذلك الحجير لابن حبيب ١٦٦ - ١٦٧ .
(٤) ف ، ب ، ط : « ومقتل أبي أزيهر » وفي م : « ومقتل بن أبي أزيهر » ، صوابهما
ما أثبت . وانظر خبر مقتل أبي أزيهر الدومى في كتاب أسماء القتالين من نوادر المخطوطات
٢ : ١٤٩ . والذي قتله هو هشام بن الوليد بن المغيرة .

(٥) اسمه عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب ، كان خطيباً شاعراً نسباً ، وكان يضع الحديث
والشعر كأحاديث السمرة . وكان يضع الحديث بالمدينة ، وابن شوكر يضع الحديث بالسند ، وفيها
يقول خلف الأحمر :

أحاديث ألفها شوكر وأخرى مؤلفة لابن داب

وكان كثير الأدب ، عذب الألفاظ ، صاحب خطوة عند الهادي . روى عنه شبابة بن سوار ،
ومحمد بن سلام الجمحي . تاريخ بغداد ٥٨٤٥ ولسان الميزان ٤ : ٤٠٨ . ط : « ابن ود » ،
تحريف .

(٦) ب : « ورثتا » م : « أورثتا » ، وأثبت ماني ط .

٣٢ - فصل منه في أمر الأخبار

وإنما ذكرت هذا لتعلم أن الخبر قد يكون أصله ضعيفاً ثم يعود قوياً ، ويكون أصله قوياً فيعود ضعيفاً ، للذي يعتربه من الأسباب ، ويحلُّ به من الأعراض ، من لذن مخرجه وقصوله ، إلى أن يبلغ مدته ^(١) ، ومنتهى أجله ، وغاية التدبير فيه ، والمصلحة عليه .

فلما كان هذا مخوفاً ، وكان غير مأمونٍ على المتقادم منه وضع الله تعالى لنا على رأس كلِّ فترة علامة ، وعلى غاية كلِّ مدة أمانة ، ليُعيد قوّة الخبر ، ويجدد ما قد همّ بالدروس ، بالأنبياء والمرسلين ^(٢) عليهم السلام أجمعين . لأنَّ نوحاً عليه السلام هو الذي جدّد الأخبار التي كانت في الدهر الذي بينه وبين آدم عليهما السلام ، حتّى منعه الخلل ، وحماها النقصان بالشواهد الصادقة ، والأمارات القائمة . وليس أن أخبارهم وحججهم قد كانت دَرَسَتْ واختلّت ، بل حين همّت بذلك ^(٣) وكادت . بعثه الله عزّ وجلّ بآياته لثلاث تخلو الأرض من حججه ، ولذلك سموا آخر الدهر الفترة . وبين الفترة والقِطعة فرق . فاعرف ذلك .

ثم بعث الله جلّ وعزّ إبراهيم عليه السلام على رأس الفترة الثانية التي كانت بينه وبين دهر نوح ، وإنما جعلها ^(٤) الله تعالى أضول فترة كانت في الأرض ، لأنَّ نوحاً كان لبث في قومه يحتجّ ويُخبر ، ويؤكد ويبين ، ألف سنةٍ إلاخمسین عاماً ، ولأنَّ آخر آياته كانت أعظم الآيات ، وهى الطوفان ، الذى أغرق الله تعالى به ^(٥) جميع أهل الأرض

(١) ب : « تبلغ مدته » .

(٢) ط : « من أنباء المرسلين » .

(٣) كلمة « بل » من ط فقط .

(٤) ب ، م : « جعله » ، صوابه في ط .

(٥) ب ، م : « الذى غرق الله تعالى » فقط ، صوابه في ط .

غيره وغير شيعته ، وإنما أفار الماء^(١) من جوف تنُّور ، ليكون أعجب للآية^(٢) ، وأشهر للقيصة ، وأثبت للحجة .

ثم ما زالت الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، بعضهم على إثر بعض في الدهر الذي بين إبراهيم ، وبين عيسى عليهما السلام . فلتترادف حُجَجهم ، وتظاهر أعلامهم ، وكثرة أخبارهم ، واستفاضة أمورهم ، ولشدة ما تأكَّد ذلك في القلوب ، ورسخ في النفوس ، وظَّهر على الألسنة ، لم يدخلها الحَطل والنَّقْص^(٣) والفساد ، في الدهر الذي كان بين النبي عليه السلام وبين عيسى عليه السلام .

فحينَ هَمَّت بالضعف ، وكادت تنقص عن التَّام^(٤) ، وانتهت قُوَّتُها ، بعثَ اللهُ تعالى محمَّداً صلى اللهُ عليه وسلم ، فجَدَّدَ أقاصيص آدم ونوح ، وموسى وهارون ، وعيسى ويحيى ، عليهم السلام ، وأموراً بين ذلك ، وهو الصادق ، بالشواهد الصادقة ، وأنَّ السَّاعة آتية^(٥) ، وأنَّه ختم الرُّسل عليهم السَّلامُ به ، فعلمنا عند ذلك أنَّ حجَّته ستمُّ إلى مُدَّتْها ، وبلوغِ أمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ فيها .

٣٣ - فصل

ثم رجع الكلام إلى القول في الأخبار ، فأقول :
إنَّ الناس مُوكِّلون بحكاية كلِّ عَجيب ، وميسِّرون للإخبار عن

(١) يقال فار الشيء : جاش ، وأفرته وفرته أيضاً بالتعدية فيهما . وأنشد ابن الأعرابي :

وكانوا قوموا حولها يرقبونها
وكانت فتاة الحى من يفسيرها

ويروى : « يفرها » ويروى : « يغيرها » . ط فقط : « فار الماء » .

(٢) ب : « وليكون » بزيادة واو .

(٣) ب : « لم يدخلها النقص » فقط . م : « لم يدخلها الخلل والنقص » ، وأثبت ما في ط .

(٤) ب : « وكانت تنقص عن التَّام » ، صوابه في م ، ط .

(٥) ب ، م : « أن الساعة آتية » .

كُلٌّ عَظِيمٌ ، وَليَسُوا ^(١) لِلحَسَنِ أَحْكَمِي مَنَّهُم لِلقَبِيحِ ، وَلا لِمَا يَنْفَعُ أَحْكَمِي مَنَّهُم لِمَا يَضُرُّ ، وَعَلَى قَدَرِ كِبَرِ الشَّيْءِ تَكُونُ حِكَايَتُهُمْ لَهُ وَاسْتِمَاعُهُمْ ^(٢) .

أَلَا تَرَى أَنَّ رَجُلًا مِّنَ الخُلَفَاءِ لَوْ ضَرَبَ عُنُقَ رَجُلٍ مِّنَ العُظَمَاءِ لِمَا أَمْسَى وَفِي عَسْكَرِهِ وَبَلَدْتِهِ جَاهِلٌ وَلا عَالِمٌ إِلَّا وَقَدْ اسْتَقَرَّ ذَلِكَ عِنْدَهُ وَثَبِتَ فِي قَلْبِهِ ^(٣) ، لِأَنَّ النَّاسَ بَيْنَ حَاسِدٍ فَهُوَ يَحْكِي ذَلِكَ الَّذِي دَخَلَ عَلَيْهِ مِنَ التُّكْلِ وَقَلَّةِ العُدَدِ ، وَبَيْنَ وَاجِدٍ ^(٤) يَعْجَبُ النَّاسُ ، وَبَيْنَ وَاعِظٍ مُّتَبَرِّعٍ ، وَبَيْنَ قَوْمٍ شَانَهُمُ الأَرَاجِيْفُ بِالفَاسِدِ وَالصَّالِحِ . وَلَوْ كَانَ ضَرَبَ عُنُقَهُ فِي يَوْمِ عِيدٍ ، أَوْ حَلْبَةٍ ^(٥) ، أَوْ اسْتِمطَارٍ ، أَوْ مَوْسَمٍ ، لَكَانَ أَشَدَّ لِاسْتِفْضَاظَتِهِ ، وَأَسْرَعَ لِظُهُورِهِ .

وَلَوْ جَازَ أَنْ يَكْتُمَ النَّاسُ هَذَا وَشَبَّهَهُ عَلَى الإِثَارِ لِلكَيْفَانِ ، وَعَلَى جِهَةِ النِّسْيَانِ ، لَكُنَّا لَنَدْرِي : لَعَلَّهُ قَدْ كَانَ فِي زَمَنِ صَفِيْنِ وَالجَمِيلِ وَالنَّهْرَوَانِ حَرْبٌ مِثْلُهَا أَوْ أَشَدُّ مِنْهَا ، وَلَكِنِ النَّاسُ آثَرُوا الكَيْفَانَ ، وَاتَّفَقُوا عَلَى النِّسْيَانِ .

فَإِذَا كَانَ قَتْلُ المَلِكِ الرَّجُلِ مِنَ العُظَمَاءِ بِهَذِهِ المَنْزِلَةِ مِنْ قُلُوبِ الأَعْدَاءِ ، وَمِنْ قُلُوبِ الحُكَمَاءِ وَالعُوغَاءِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ لَوْ أَبْصَرُوا رَجُلًا قَدْ أَحْيَاهُ بَعْدَ أَنْ ضَرَبَ عُنُقَهُ ، وَأَبَانَ رَأْسَهُ مِنْ جَسَدِهِ ، أَلَيْسَ كَانَ يَكُونُ تَعْجِبُهُمْ ^(٦) مِنْ إِحْيَائِهِ أَشَدَّ مِنْ تَعْجِبُهُمْ مِنْ قَتْلِهِ ، وَكَانَ يَكُونُ إِخْبَارُهُمْ مَن خَلَّفُوا فِي مَنَازِلِهِمْ وَمَنْ وَرَدَ عَلَيْهِمْ عَنِ القَتْلِ لِيَكُونَ سَبَبًا لِلإِخْبَارِ عَنِ الإِحْيَاءِ ، إِذْ كَانَ الأَوَّلُ صَغِيرًا فِي جَنْبِ الثَّانِي .

(١) ب ، م : « وليس هم » .

(٢) ب : « يكون » بالياء . وكلمة « له » من ط فقط .

(٣) ب ، م : « ذلك عنده وقلبيه » تحريف .

(٤) ب ، م : « واحد » ، صوابه في ط .

(٥) يوم الخلبة : يوم سباق الخيل . ب ، م : « خلية » ، صوابه في ط .

(٦) ط فقط : « أليس يكون يكون تعجبهم » .

فهذا يدلُّ على أَنَّ أعلامَ الرُّسل عليهم السلام وآياتهم أَحَقُّ بِالظُّهورِ والشهرة ، والقهرِ للقلوب والأَسْماع ، من مخارجهم وشرائعهم . بل قد نعلم أَنَّ موسى عليه السلام لم يُذكر ولم يُشهر إِلَّا لأعاجيبه وآياته . وكذلك عيسى عليه السلام ، ولولا ذلك لما كانا إِلَّا كغيرهما من لا يُشعر بموته ولا مولده .

وكيف تتقدم المعرفة بهما المعرفة بأعلامهما^(١) وأعاجيبهما ، وأنت لم تسمع بذكرهما قطُّ ، دون ما ذكر من أعلامهما .

فإذا كان شأنُ النَّاسِ الإخبارَ عن كلِّ عَجِيبٍ ، وحكايةَ كلِّ عَظِيمٍ ، والإطرافَ بكلِّ طريفٍ ، وإيرادَ كلِّ غريبٍ من أمورِ دنيائهم ، فما لا يمتنع^(٢) في طبائعهم ، ولا يخرُجُ من قوى الخليقة في البطش والحيلة ، أَحَقُّ بالإخبار والإذاعة ، وبالإظهار والإفاضة ، هذا على أن يُتركُ الطَّبَاعُ وما يُولدُ عليه^(٣) ، والنُّفوسُ وما تُنتج^(٤) ، والعللُ وما يسخرُ . فكيف إن كان الله عز وجل قد خَصَّ أعلامَ أنبيائه وآياتِ رسله عليهم السلام من تبيين النَّاسِ على الإخبار عنها^(٥) ، ومن تسخير الأسماع لحفظها ، بخاصَّةٍ لم يجعلها لغيرها^(٦) .

٣٤ - فصل منه

فإن قال قائل : إنَّ الحجَّةَ لا تكون حجَّةً حتى تعجز الخليقة^(٧) ،

(١) ب ، م : « وكيف يتقدم » وبمدها في ب فقط : « المعرفة » . وتتمة الكلام من م ، ط .

(٢) ب ، م : « ولا ما يمتنع » ، صوابه في ط .

(٣) الطباع : الطبع ، ويكون أيضاً جمعاً للطبع ، كما قال الأزهرى . وفي ط : « وما تولد عليه » ، فلها وجهها .

(٤) ب ، م : « وما ينتج » .

(٥) ب ، م : « عن الإخبار عنها » ، صوابه في ط .

(٦) ب ، م : « خاصة لم يجعلها لغيرها » .

(٧) ب ، م : « حتى يعجز الخليقة » .

وتخرج (١) من حدّ الطاقة ، كإحياء الموتى ، والمشي على الماء ، وكفلق البحر ، وإطعام الشّمار في غير أوّان الثّار ، وإنتاج السّباع ، وإشباع الكثير من القليل ، وكلّ ما كان جسماً مُخترعاً ، وجرمأ مُبتدعاً .
وكالذي لا يجوز أن يتولّاه إلّا الخالق ، ولا يقدر عليه إلّا الله عزّ ذكره .

فأمّا الأخبار التي هي أفعالُ العباد ، وهم تولّوها ، وبهم كانت ويقولهم حدثتْ ، فلا يجوز أن يكون حجّة ، إذ كان (٢) لا حُجّة إلّا مالا يقدر عليه الخليفة ، وما لا يُتوهم من جميع البريّة .

قلنا : إنّنا لم نَزعمُ أنّ الأخبار حُجّة فيحتجّون علينا بها ، وإنّما زعمنا أنّ مجيئها حجّة ، والمجيء ليس هو أمرٌ يتكلّفه الناس ويختارونه على غيره ، ولو كان كذلك لكانوا متى أرادوه فعلوه وتبيّثوا له ، ولفعلوه في الباطل (٣) كما يجيء لهم في الحقّ . والمجيء أيضاً ليس هو فعلاً قائماً فيستطيعوه أو يعجزوا عنه (٤) ، وإنّما هو الإنسان ، يعلم أنّه إذا لقي البصريين فأخبروه أنّهم قد عاينوا بمكة شيئاً ، ثم لقي الكوفيين فأخبروه بمثل ذلك ، أنّهم قد صدّقوا (٥) . إذ كان (٦) مثلهم لا يتواطأ (٧) على مثل خبرهم على جهلهم بالغيب ، وعلى اختلاف طبائعهم وهمهم وأسبابهم .

فليس بين هذا وبين إحياء الموتى والمشي على الماء فرق ، إذ كان الناس لا يقدرّون عليه ، ولا يطمعون فيه ، والمجيء إنّما هو معنى

(١) ب ، م : « ويخرج » .

(٢) ب فقط : « إذا كان » ، تحريف .

(٣) هذا ماقى ط . وفي م : « وتبيّثوا لفعله في الباطل » ، وفي ب : « وتبيّثوا وفعلوه .

في الباطل » .

(٤) ب ، م : « فيستطيعونه أو يعجزون له عنه » .

(٥) في ب : « فأخبروه بمثل ذلك قد صدّقوا » . وتتمّة الكلام من م ، ط .

(٦) ب فقط : « إذا كان » ، تحريف .

(٧) ب ، م : « يتواطأ » ، تحريف .



معقول ، وشيءٌ موهوم . إذ كان ^(١) كيف يكون ومعلومٌ أنَّ الناس لا يمكنهم أن يقدرُوا ، ولا يستطيعون فعله . وإنَّما مدارُ أمرِ الحجَّةِ على عجز الخليقة . فمتى وَجَدْتَ أمراً ووجدت الخليقة عاجزةً عنه ^(٢) فهي حجة . ثمَّ لا عليك جوهرأ كان أو عَرَضاً ، أو موجوداً أو متوهماً معقولاً . ألا ترى أنَّ فُلُقَ البحرِ ليس هو من جنس اختراع الثَّار ، لأنَّ الفلق هو انفراج أجزاء ، والثَّار أجرامٌ حادثة .

وكذلك لو ادَّعى رجلٌ أنَّ الله عزَّ وجلَّ أرسله وجعل حجَّته علينا ^(٣) الإخبار بما أكلنا وادَّخرنا وأضمرنا ، لكان قد احتجَّ علينا .
فإن قلم ^(٤) : إنَّ المنجمين ربَّما أخبروا بالضمير ، وبالأمْر المستور ، وببعض ما يكون .

قلنا : أمَّا واحدة ^(٥) فإنَّ خطأ المنجمين كثير ، وصوابهم قليل ، بل هو أقلُّ من القليل . وأنتم لا تقدرون أن تفقنوا ^(٦) من أخبار المرسلين عليهم السلام في كثير أخبارهم على خطأ واحد ^(٧) ، والذي سهَّل قليل المنجمين طرَافَةُ ذلك منهم ^(٨) ، لأنهم لو قالوا فأخطئوا أبداً لما كان

(١) م ، ط : « إذا كان » .

(٢) ب : « غيره عجزه » م : « غير عاجزة » ، صوابهما في ط .

(٣) ب : « فجملة حجة علينا » تحريف . وفي ط : « فجعل حجته علينا » ، وأثبت

ما في ب .

(٤) ب : « فلم قلم » تحريف . ط : « فإن قلت » ، وأثبت ما في م .

(٥) بدله في ط : « هناك فرق » .

(٦) ط : « أن تفقن » صوابه في ب ، م .

(٧) ب : « في كثرة أخبارهم » . ب ، ط : « على خطأ واحد » . والجاحظ يميل كثيراً إلى استعمال « الخطأ » بمعنى الخطأ ، وهو ما ورد هنا في نسخة م . انظر الحيوان ١ : ٢١٣ / ٣ :

٢٥٨ ، ٥٥٠ ، والبيان ٤ : ١٦ ، ٦٧ .

(٨) الطرافة من الطريف ، وهو الشيء الغريب المستحدث . وفي جميع النسخ : « طرافة »
بالظاء المعجمة ، والطرافة : الكيس والحذق ، ولاوجه لها هنا .

عَجَبًا ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ مَا يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ ، وَمَنْ أَعْجَبَ الْعَجَبِ أَنْ يُوَافِقَ قَوْلَهُمْ بَعْضَ مَا يَكُونُ .

وقد نجد المنجمين يختلفون في القضية الواحدة ، ويُخطئون في أكثرها . وقد نجد الرسول يُخبرهم عما يأكلون وَيَشربون وَيَدخرون وَيُضْمرون ، في الأمور الكثيرة المعاني ، والمختلفة في الوجوه ، حتى لا يخطيء في شيء من ذلك . وليس في الأرض منجم ذكر شيئاً^(١) أو وافق ضميراً إلا وأنت واجد بعض من يزجر^(٢) قد يعجى بمثله وأكثر منه .

فإن قلت : إنَّ الناس يكذبون في الإخبار عن الأعراب والكهَّان من كلِّ جيل ؟

قلنا : فهم في إخبارهم عن المنجمين أكذب .

وبعد ، فالناس غير مستعظمين لكثرة كذب المنجمين وخطاياهم وخُدعهم ، والناس يستعظمون^(٣) اليسير من المرسلين عليهم السلام . وكلِّما كان الرجلُ في عينك أعظم ، وكان عن الكذب أزجر ، كان كذبه عندك أعظم . وإنما المنجم عند العوام كالطبيب الذي إن قتل المريض علاجه كان عندهم أن القضاء هو الذي قتله^(٤) ، وإن برأ كان هو أبرأه . على أن صوابهم أكثر ، ودليلهم أظهر .

وقد صار النَّاسُ لا يقتصرون للمنجمين على قدر ما يسمعون منهم ، دون أن يولدوا لهم ، ويضعوا الأعاجيب عن ألسنتهم .

(١) ب ، م : « قال شيئاً » .

(٢) الزجر : ضرب من الكهانة . وفي جميع النسخ : « مايزجر » . وجهه ما أثبت .

(٣) في جميع النسخ : « يستقلون » ، صوابه ما أثبت .

(٤) ب ، م : « إن قبل المريض » ، و « هو الذي قبله » صوابها في ط .

وكلُّ ملحدٍ في الأرض للرسول طاعنٍ عليه ، عائبٍ له ، يرى أن يصدِّق عليه كلَّ كذابٍ يريد ذمَّهُ ، وأن يكذِّب كلَّ صادقٍ يريد مدحه .

وبعدُ ، فلو كان خبرُ المنجمين^(١) في الصوابِ كخبرِ الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، الذي هو حُجَّةٌ ، لما كان خبرُ المنجمين حجةً .

فإن قلت : ولم ذاك ؟

قلتُ : لأنَّ من كثر صوابُه على غير استدلالٍ ومقايَسة ، وعلى غير حسابٍ وتجربة ، أو على نظيرٍ ومُعَاينةٍ لم يكن الأمرُ مِنْ قِبَلِ الوحي^(٢) ؛ لأنَّكَ لو قلت قصيدةً في نفسك فحدثك بها رجل ، وأنت تعلم أنه ليس بمنجم ، وأنشدكها كلها ، لعلمت أن ذلك لا يكون إلا بوحى .

ومثل ذلك رجلٌ اشتدَّ وَجَعُ عَيْنِهِ فعالجه طبيبٌ فبرأ^(٤) ، فلو جعل الطَّبيبُ ذلك حُجَّةً على نُبُوَّتِهِ لوجب علينا تكذيبه ، ولو قال رجلٌ من غير أن يمسه أو يدنو إليه : اللهم إن كنت صادقاً عليك فاشفه الساعة ، فبرأ^(٥) من ساعته لعلمنا أنه صادق .

فإن قالوا : وما علمنا أن محمداً عليه السلام لم يكن منجماً ؟

قلنا : إنَّ عِلْمَنَا بذلك كعلمنا بأنَّ العباسَ وحذرةَ وعلياً وأبا بكرٍ وعمر ، رضوان الله عليهم أجمعين ، لم يكونوا منجمين ، ولا أطباءً متكهنين . وكيف يجوز أن يصير إنسانٌ عالماً بالنجوم من غير أن يختلف

(١) ب فقط : « غير المنجمين » ، تحريف .

(٢) ب ، م : « عل » بسقوط الواو .

(٣) ب ، م . : « لم يكن الأمر قبل الوحي » ، وإكالة من ط .

(٤) ط : « فبرئ » ، وهما لغتان : برأ يبرأ ويبرؤ ، وبرئ يبرأ ، أى شفى من مرضه .

(٥) م ، ط : « فبرئ » .

إلى المنجمين ، أو يختلفوا إليه ، أو يكون علمُ النجوم فاشياً في أهل بلاده ، أو يكون في أهله واحدٌ معروف به . ولو بلغ إنسانٌ في علم النجوم ، وليست معه عِلَّةٌ من هذه العلل ، وكان ذلك يخفى ، لكان ذلك كبعض الآيات والعلامات .

ومتي رأينا حاذقاً بالكلام ، أو بالطَّبِّ ، أو بالحساب ، أو بالغناء ، أو بالنجوم ، أو بالعرُوض ، خَفِيَ على النَّاسِ موضِعُه وسببُه ؟ !
وجمیع ما ذكرنا ، فعنايةُ الناس به ^(١) وعداوتهم ، وشهرته في نفسه ، دون محمد صلى الله عليه وسلم .
وهل نصب أحدٌ قطُّ لأحدٍ إلا بدون ما نصبَ له رهطه ^(٢) ، وأداني أهله ^(٣) ، ومن معه في بيته ورَبْعِه .

وما أعرِفَ - يرحمك الله - المعاندَ والمسترشِدَ والمصدقَ والمكذَّبَ ، ينكر أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن منجماً ولا طبيباً . وإذا قال الجاهل : إنه قد كان يعلم الخطَّ فخفى له ذلك ، وتعلم الأسبابَ والقضاءَ في النجوم فخفى له ذلك ، وتعلم البيانَ وقدرَ منه ^(٤) على ما يعجز أمثاله عنه وخفى ذلك ، أليس مع قوله ما يعلمُ خلافةً ، يعلم أنه قد سلمَ له أعجوبةٌ كأعجوبةِ إبراءِ الأكمه والأبرص ، والمشى على الماء ، إذ كان ذلك لا يجوز ، ولا يمكنُ في الطبائع والعقل والتجربة .

وافهم يرحمك الله ما أنا واصفه لك : هل يجد التَّارِكُ لتصديقه

(١) ب ، م : « عناية الناس به » .

(٢) نصب له : أظهر له العداء . ط : « وهل نسب أحد قطُّ لأحدٍ إلا دون مانسبه له رهطه » ، تحريف . وبعد كلمة « رهطه » في كل من ب ، م وردت لفظه « نعمة » مقحمة .

(٣) الأداني : جمع أدنى ، وهو الأقرب . ب ، م : « وأراني » ، صوابه في ط .

(٤) ب ، م : « وتعلم البيان على قدر منه » ، صوابه في ط .

أَنَّهُ لَا يَدْرِي بِزَعْمِهِ ، لَعَلَّهُ كَانَ أَعْلَمَ الْخَلْقَ بِالنُّجُومِ ، نَاطِرًا لِنَفْسِهِ ،
غَيْرِ مُعَانِدٍ لِحُجَّةِ عَقْلِهِ . وَهُوَ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا قَطُّ بَرَعَ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ
فَخَفِيَ عَلَى النَّاسِ مَوْضِعُهُ بِكُلِّ مَا حَكِينَا وَفَسَّرْنَا .

وَأَنْتَ كَيْفَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي إِخْوَانِكَ مَنْ لَيْسَ بِمَنْجَمٍ ، وَأَنْ فِيهِمْ مَنْ
لَيْسَ بِطَبِيبٍ ، إِلَّا بِمَثَلٍ مَا يَعْرِفُ بِهِ رَهْطُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْهُ .

وَكَيْفَ لَمْ يَشْتَهَرِ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَلْمِ بِحُجَّتِهِ بِهِ عَلَيْهِ ؟ وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ إِسْرَافِهِمْ
فِي شَتْمِهِ ، وَإِفْرَاطِهِمْ عَلَيْهِ ، أَنْ نَافَقُوا وَأَحَالُوا ، لِأَنََّّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ
لَهُ : أَنْتَ سَاحِرٌ ، وَأَنْتَ مَجْنُونٌ ! وَإِنَّمَا يُقَالُ لِلرَّجُلِ : سَاحِرٌ ، لِخِلَابَتِهِ
وَحَسَنِ بَيَانِهِ ، وَلُطْفِ مَكَايِدِهِ ، وَجُودَةِ مَدَارَاتِهِ وَتَجَبُّهِ . وَيُقَالُ :
مَجْنُونٌ ، لَصُدُّ ذَلِكَ كُلِّهِ .

٣٥ - فصل منه

وَلَيْسَ يَنْتَفِعُ النَّاسُ بِالْكَلامِ فِي الْأَخْبَارِ إِلَّا مَعَ التَّصَادُقِ ، وَلَا تَصَادُقُ
إِلَّا مَعَ كَثْرَةِ السَّمَاعِ ، وَالْعِلْمِ بِالْأَصُولِ ؛ لِأَنَّ رَجُلًا لَوْ نَازَعَ فِي الْأَخْبَارِ ،
وَفِي الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَالْخَاصِّ وَالْعَامِّ ، وَالنَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ ، وَالْفَرِيقَةِ
وَالنَّافِلَةِ ، وَالسُّنَّةِ وَالشَّرِيعَةِ ، وَالْاجْتِمَاعِ وَالْفُرْقَةِ ، ثُمَّ حَسُنَتْ نَيْتُهُ ،
وَنَاضَحَ عَنْ نَفْسِهِ ^(١) ، لَمَا عَرَفَ حَقَائِقَ بَاطِلٍ دُونَ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَفَ
الْوَجُوهَ ، وَسَمِعَ الْجُمْلَ ^(٢) ، وَعَرَفَ الْمَوَازِنَةَ ، وَمَا كَانَ فِي الطَّبَاعِ ،
وَمَا يَمْتَنِعُ فِيهَا . وَكَيْفَ أَيْضًا يَقُولُ فِي التَّأْوِيلِ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ بِالتَّنْزِيلِ ؟
وَكَيْفَ يَعْرِفُ صِدْقَ الْخَبَرِ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ سَبَبَ الصِّدْقِ ^(٣) ؟

(١) فِي اللِّسَانِ (نَفَّحَ) : « وَيُقَالُ هُوَ يَنَاضِحُ عَنِ قَوْمِهِ وَيَنَافِحُ عَنْهُمْ ، أَيْ يَذِبُ عَنْهُمْ » .
وَفِي جَمِيعِ النُّسخِ : « وَنَاضِحٌ عَنِ نَفْسِهِ » ، صَوَابُهُ مَا أُثْبِتَ .
(٢) ب : « وَسَمِلَ الْجَمْلَ » ، صَوَابُهُ فِي م ، ط .
(٣) م فَقَطُ : « سَبَبُ الْخَبَرِ » .

واعلم أنّ من عَوَّدَ قلبه التشكُّكُ (١) اعتراه الضعف ، والنفس
 عَرُوفٌ (٢) ، فما عَوَّدْتَهَا من شيءٍ جَرَّتْ عليه .

والتخيير (٣) إلى تقوية قلبه وردَّ قوّته عليه وإفهامه موضع رأيه ،
 وتوقيفه (٤) على الأمر الذي أثقل صدره (٥) ، أحوجُّ منه إلى المنازعة
 في فرق ما بين المجيء الذي يكذب مثله ، والمجيء الذي لا يكذب مثله .
 وستكلف من علاج دائه ، وترتيب إفهامه إن أعان على نفسه ،
 بما لا يُبقي سبباً للشك ، ولا علةً للضعف . والله تعالى المعين على ذلك ،
 والمحمود عليه .

٣٦ - فصل منه

ومتى سمعنا نبياً الله عليه السلام أتكل على عدالته ، وعلى معرفة
 قومه بتقديم ظهارته ، وقلة كذبه ، دون أن جاءهم بالعلامات والبُرهانات؟
 ولعمري لو لم نجد (٦) الحافظ ينسى ، والصادق يكذب ، والمؤمن
 يبذل ، لقد كان ما ذهبوا إليه وجهاً .

٣٧ - فصل منه في ذكر دلائل

النبي عليه الصلاة والسلام

وباب آخر يُعرف به صدقه ، وهو إخباره عما يكون ، وإخباره عن

(١) ب : « التشكلا » ، صوابه في م ، ط .

(٢) ب ، ط : « عزوف » ، صوابها في م .

(٣) في جميع النسخ : « والتخير » بالخاء المعجمة ، وإنما يراد هنا التخير المتشكك ،
 فالوجه ما أثبت .

(٤) في جميع النسخ : « وتوقيفه » ، تحريف ما أثبت .

(٥) ب : « انقل صدره » صواب هذه ما أثبت . وفي م ، ط : « أشغل صدره » ،
 وهي صحيحة أيضاً . لكن في القاموس : « وأشغله لغة جيدة ، أو قليلة ، أو رديئة » .

(٦) ب ، م : « أن لو نجد » ، صوابه في ط .



ضامير الناس^(١) ، وما يأكلون وما يدخرون ، ولدعائه المستجاب الذي لا تأخير فيه ، ولا خُلف له . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين لقي من قريشٍ والعرب ما لقي من شِدَّة أذاهم له ، وتكذيبهم إياه ، واستعانتهم عليه بالأموال والرِّجال ، دعا الله جلَّ وعزَّ أن يُجِدِبَ بلادهم ، وأن يُدخِلَ النِّقر بيوتهم ، فقال صلى الله عليه وآله : « اللهم سِنِينَ كَسَبِنِي يوسف^(٢) . اللهم اشدِّدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَّ . »

فَأَمْسَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ الْمَطَرَ حَتَّى مَاتَ الشَّجَرُ ، وَذَهَبَ الثَّمَرُ ، وَقَلَّتْ الْمَزَارِعُ ، وَمَاتتِ الْمَوَاشِي ، وَحَتَّى اشْتَوَوْا الْقِدَّ وَالْعِلْهَزَّ^(٣) .

فعند ذلك وقد حاجبُ بن زُرارة على كسرى ، يشكو إليه الجَهْدَ والأَزْلَ^(٤) ويستأذنه في رعى السَّوَادِ^(٥) ، وهو حين ضَمِنَه عن قومه ، وأرهنه قوسه . فلما أصاب مَضَرَّ خَاصَّةً الجَهْدُ ، وَنَهَكهم الأَزْلُ ، وبلغت الحُجَّةُ مِبلنَهَا ، وانتهت الموعظةُ مَنتهاها ، عادَ بفضله صلى الله عليه وسلم ، على الذي بدأهم به ، فسأل ربَّه الخِصْبَ وإِدْرَارَ القَيْثِ ، فَأَتَاهم منه ما هَدَمَ بُيُوتَهُمْ ، وَمَنَعَهُمْ حَوَائِجَهُمْ ، فَكَلَّمُوهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ : « اللَّهُمَّ حَوِّالِينَا وَلَا عَلَيْنَا » . فَأَمَطَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا حَوْلَهُمْ ، وَأَمْسَكَ عَنْهُمْ .

وكتب إلى كسرى يَدْعُوهُ إلى نجاته وتخليصه من كُفْرِهِ ، فبدأ باسمه على اسمه ، فَأَنْزَفَ مِنْ ذَلِكَ كَسْرَى لَشِقْوَتِهِ ، وَأَمَرَ بِتَمْزِيقِ الْكِتَابِ ،

(١) ب فقط : « ضمير الناس » .

(٢) ب فقط « كسبين يوسف » ، تحريف . وكانت سنو يوسف سبعاً شداداً ذات قحط وغلاء . والحديث من أفراد البخارى . انظر الحديث ٦١٩ من الألف المختارة .

(٣) القد ، بالكسر ؛ سير يقد من جلد غير مدبوغ . والعلهز ، كزبرج : خليط من الدم والأوبار الإبل ، وقد يخلطون به القردان ، ثم يشوونه بالنار ويأكلونه .

(٤) الأزل ، بالفتح ؛ شدة الزمان ، يقال هم في أزل من العيش وأزل من السنة .

(٥) السواد ؛ جماعة النخل والشجر ، لخضرته واسوداده . وسواد العراق ؛ ما حوالى

مدنه من القرى والرساتيق .



فلَمَّا بلغه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « اللَّهُمَّ مَزِقْ مُلْكَهُ كُلَّ مُزْقٍ » .
فمزقَ اللهُ جَلَّ وَعَزَّ ملكه ، وجَدَّ أصله ، وقطع دابره ، لأنَّ كلَّ ملكٍ فى
الأرض ، وإن كان قد أخرج من مُعظم ملكه ، فهو مقيمٌ على بقيةٍ منه ،
وذلك أنَّ الإسلام لم يتركْ ملكاً بحيث تناله الحوافر والأخفاف
والأقدام ، إلَّا أزاله عنه ، وأخرجه منه إلى عقابٍ يعتصمُ بها^(١) ،
ومعاقلِ يأوى إليها ، أو طرده إلى خليجٍ منيع ، لا يقطعه إلَّا السفنُ^(٢) ،
فهم من بين هاربٍ قد دخل فى وِجَارٍ ، أو اختفى^(٣) فى غِيضةٍ ، أو مقيمٍ
على فمِّ شِعْبٍ ، ورأسٍ مَضِيقٍ ، قد سَخَتْ نفسه عن كلِّ سهلٍ ، وأسلمَ
كلَّ مَرَجٍ أو مُلْكٍ لا قرارَ له ، وليس بذى مَدْرَ فيؤتَى ، وإنما أصحابه
أكرادٌ يطلبون النُّجعة ، أو كخوارجِ يَطْلُبون العِزَّةَ^(٤) . فأمَّا أن يكون
ملكٌ يُصْحِرُ لهم^(٥) ، ويقمى بلِزائهم ، ويغاديهم الحربِ ويُمسِيهم ،
ويساجلهم الظَّفَرِ ويناهضهم ، كما كانت ملوكُ الطوائف ، وكالذى كان
بين فارسَ والرُّومِ - فلا ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ هو الذى أَرْسَلَ رَسولَهُ
بِأَهْدَى وِدينِ الحَقِّ لِيُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾^(٦) إلى قوله عزَّ ذكره :
﴿ المشركون ﴾^(٧) . فلم يرضَ أن أظهرَ دينه حتَّى جعل أهله الغالبيين
بالقُدرة ، والظَّاهرين بالمنعة ، والآخذين بالإتاوة .

(١) العقاب : جمع عقبة ، وهى طريق فى الجبلِ وعِر .

(٢) ب : « لا يمتعه » ، صوابه فى م ، ط .

(٣) فى جميع النسخ : « واختفى » ، والوجه ما أثبت .

(٤) ب فقط : « العزة » .

(٥) أصرح : برز وظهر . ب ، م : « يصخر » ط : « يصهر » ، صوابهما ما أثبت .

(٦) الآية ٣٣ من سورة التوبة و ٢٨ من سورة الفتح و ٩ من سورة الصف . وختام الأولى

والأخيرة : « ولوكره المشركون » ، وختام الوسطى : « وكفى بالله شهيدا » .

(٧) ب ، م : « الكافرون » ، تحريف ، صوابه فى ط .

وكتب كسرى إلى فيروز الدَّيْلَمِي^(١) ، وهو من بقية أصحاب سيف بن ذي يزن : أن احمل إلى هذا العبد الذي بدأ باسمه قبل اسمي ، واجترأ عليّ ، ودعاني إلى غير ديني ! فاتاه فيروز فقال : إن ربي أمرني أن أحملك إليه . فقال صلى الله عليه وسلم : « إن ربي خبرني أنه قد قتل ربك البارحة ، فأمسك عليّ ريثما يأتيك الخبر ، فإن تبين لك صدقي ، وإلا فانت على أمرك » . فراع ذلك فيروز وهاله ، وكره الإقدام عليه ، والاستخفاف به ، فإذا الخبر قد أتاه : أن شيرويه قد وثب عليه في تلك الليلة فقتله . فأسلم وأخلص ، ودعا من معه من بقية الفرس إلى الله عز ذكره^(٢) فأسلموا .

٣٨ - فصل منه^(٣) في ذكر النبي صلى الله عليه وآله

ثم إن الذي تقدمه صلى الله عليه وآله من اليُشارات في الكتب المتقدمة ، في الأزمان المتباعدة ، والبُلدان الموجودة بكل مكان ، على شدة عداوة أهلها ، وتعصب حاملها ، ومع قوة حسدهم ، وشدة بغيتهم . وما ذلك ببديع منهم ومن آبائهم ، على أنهم أشبه بأبائهم منهم بأزمانهم . وكل الناس أشبه بأزمانهم منهم بأبائهم . وآباؤهم الذين قتلوا أنبياءهم عليهم السلام ، وتعنّتوا رسلهم صلى الله عليهم ، حتى خلاهم الله عز وجل من يده ، وأفقدهم عصمته وتوفيقه .

(١) فيروز الديلمي ، ويقال « فيروز بن الديلمي » كما في ب ، وهو صحابي يكنى أبا الضحاك ، وأباً عبد الرحمن . وكان من أبناء الأساورة من فارس ، الذين كان كسرى قد بعثهم إلى قتال الحبشة . ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد إسلامه رجع إلى اليمن وأعان على قتل الأسود الغنسي الكذاب ، وأتى برأسه إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وقد سكن مصر . ومات في خلافة عثمان ، وقيل في خلافة معاوية ، بائمين سنة ٥٣ . الإصابة ٧٠٠٤ .

(٢) م : « عز وجل » .

(٣) منه ، ساقطة من ب .

ولم استدلَّ على ذكره في التَّوراة والإنجيل والزيَّبور ، وعلى صِفته والبشارة به في الكُتب إلاَّ لأنَّك (١) متى وجدتَ النصرانيَّ واليهوديَّ يُسلم بأرض الشام وجدته يَعْتَلُّ بأموْرٍ ، ويحتجُّ بأشياءَ مثلِ الأمور التي يحتجُّ بها من أسلم بالعراق . وكذلك من أسلم بالحجاز ، ومن أسلم من اليمن ، من غير تلاقٍ ولا تعارف ، ولا تشاعُرٍ (٢) . وكيف يتلاقون ويتراسلون ، وهم غير متعارفين ولا مُتَشاعرين ؟ ولو كانوا كذلك لظهر ذلك ولم ينكتم ، كما حكينا قبلَ هذا . ولو قابلتَ بين أخبارهم واحتجاجهم مع كثرة الألفاظ واختلاف المعاني ، لوجدتها متساوية .

٣٩ - فصل منه

فإن قال قائل : لمَ كانت أعلامُ موسى عليه السلام في كثرتها (٣) مع غيِّ بني إسرائيل ، ونقصان أحلام القبط ، في وزنِ أعلام محمد صلى الله عليه وسلم وفي قدرها ، مع أحلام قريش ، وعُقول العرب . ومتى أحببتَ أن تعرفَ غيِّ بني إسرائيل ونُقْصان (٤) أحلام القِبط ، ورُجْحان عقول العرب (٥) ، وأحلام كنانة (٦) ، فأنت (٧) بَوادِيهم ورباعهم . وانظر إلى بنيهم (٨) وبقاياهم ، كما نظرتَ إلى بني إسرائيل من اليهود (٩) وغيِّ بني من مضي من القبط - تعتبرُ ذلك وتعرفُ

(١) ب ، م : « بأنك » .

(٢) انظر ما سبق في ص ٢٥٠ .

(٣) ب ، م : « وكثرتها » .

(٤) ط : « ونقص » .

(٥) رجحان ، ساقطة من ب ، م .

(٦) ب ، م : « وأحكام كنانة » .

(٧) ط : « فانظر » .

(٨) ب : « بينهم » ، صوابه في م ، ط .

(٩) ب ، م : « من اليهود عليهم لعنة الله تعالى وعز وبن من مضي من القبط » .

ما أقول . ثم انظر في أشعار العرب الصحيحة ^(١) ، والخُطْبُ المعروفة ، والأمثال المضروبة ، والألفاظ المشهورة ، والمعاني المذكورة ، مما نقلته الجماعات عن الجماعات ، وكلام العرب ومعانيهم في الجاهلية . ثم تفقد ، وسلّ أهل العلم والخبرة عن بني إسرائيل ، فإن وجدت لهم مثلاً سائراً كما تسمع للقبط والفرس ، فضلاً عن العرب فقد أبطلنا فيما قلنا .

وقد كان الرّجلُ من العرب يقف المواقف ، ويسيرُ عدّة أمثال ^(٢) ، كل واحدٍ منها ركنٌ يُبنى عليه ، وأصلٌ يتفرّع منه ^(٣) .

أو هل تسمع لهم ^(٤) بكلامٍ شريفٍ ، أو معنىً يستحسنه أهل التجربة ، وأصحابُ التدبير والسياسة ، أو حكم ^(٥) أو حكمة ، أو حذقٍ في صناعة ، مع ترادف الملُك فيهم ، وتظاهر الرّسالة في رجالهم . وكيف لا تقضى عليهم بالغيّ والجهل ، ولم تسمع لهم بكلمةٍ فاخرة ، أو معنىً نبيه ^(٦) ، لا يَمُنُّ كان في المبدى ، ولا يَمُنُّ كان في المحضّر ^(٧) ، ولا من قاطنى السّواد ^(٨) ، ولا من نازلى الشّام ؟

ثم انظر إلى أولادهم مع طول لبثهم فينا ، وكونهم معنا ، هل غير

-
- (١) هذا ما في م . وفي ب ، ط : « في الأشعار الصحيحة » .
 (٢) ب ، م : « ويسير عدة أميال » ط : « وينشئ عدة أمثال » ، وأثبت الصواب من بينهما .
 (٣) ب ، م : « ركن يبنى وأصل لفرع منه » ، صوابه في ط .
 (٤) ب ، م : « أهم » ، صوابه في ط .
 (٥) ب ، م : « أو حكم » .
 (٦) النبيه : الجليل المشهور . ب فقط : « بيته » ، تحريف .
 (٧) المبدى : مكان خروجهم في البداية ، خلاف المحضّر في الحاضرة . ب : « المبدأ » م ، ط : « المبدأ » ، صوابهما ما أثبت .
 (٨) ب فقط : « قاطن السواد » .

ذلك من أخلاقهم وشمائلهم ، وعقولهم ، وأحلامهم ، وآدابهم ، وفطنتهم ؟
فقد صلح بنا كثيرٌ من أمور النصارى وغيرهم .

وليس النصارى كاليهود ، لأنَّ اليهود كلَّهم من بنى إسرائيل إلا القليل .

وبعدُ ، فلم يضرب فيهم غيرهم ، لأنَّ مناكحهم مقصورةٌ فيهم ،
ومحبوسةٌ عليهم ، فصور أولهم مؤداةً إلى آخرهم ^(١) ، وعقول أسلافهم
مردودةٌ على أخلافهم ^(٢) ، ثم اعتبر بقولهم لنبيهم عليه السلام : ﴿ اجعلْ
لنا إلهًا كما لهم آلهةٌ ﴾ ^(٣) حين مروا على قومٍ يعكفون على أصنامٍ
لم يعبدها . وكقولهم : ﴿ أرنا الله جهرةً ﴾ ^(٤) ، وكعكوفهم على عجلٍ
صنيع من حليهم ، يعبدونه من دون الله ، بعد أن أراهم من الآيات ما أراهم .
وكقولهم : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلَا إنا ها هنا قاعدون ﴾ ^(٥) ، فكان
الذى جاء به موسى عليه السلام ، مع نقص بنى إسرائيل والقبط ، مثل
الذى جاء به محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، مع رجحانٍ قرشٍ والعرب .

وكذلك وعدٌ محمدٍ عليه السلام بنار الأبد ، كوعيد موسى بنى
إسرائيل بإلقاء الهلّاس على زروعهم ^(٦) ، والهَمُّ على أفئدتهم ، وتسليط
الموتان على ماشيتهم ^(٧) ، وبإخراجهم من ديارهم ، وأنَّ يظفر بهم

(١) في جميع النسخ : « قصوراً ولهم مؤداةً إلى آخره » ، وأرى الوجه فيما أثبت .
(٢) الأخلاف : جمع خلف ، بالتحريك ، وهو الولد صالحاً كان أو طالحاً . ب ، م ،
« أخلاقهم » ، صوابه في ط .
(٣) من الآية ١٣٨ من الأعراف .
(٤) من الآية ١٥٣ من النساء .
(٥) من الآية ٢٤ من المائدة .
(٦) الهلّاس ، بالضم : شبه النمل من الهزال . وفي سفر اللاويين ٢٦ : ١٦ : « أسلط عليكم
ربعاً وسلاحاً تفتى العينين ، وتلف النفس ، وتزرعون باطلا زرعكم فيأكله أعداؤكم » .
(٧) انظر سفر اللاويين ٢٦ : ٢٢ . والموتان ، بالضم ويفتح : موت يقع في الماشية .

عدوهم . فكان تعجيل العذاب الأذنى^(١) في استدعائهم واستئالتهم ،
 وَرَدَّعَهُمْ عَمَّا يَرِيدُ بِهِمْ ، وتعديل طبائعهم ، كتأخير العذاب الشديد
 على غيرهم ، لِأَنَّ الشَّدِيدَ^(٢) الْمُؤَخَّرَ لَا يَزْجُرُ إِلَّا أَصْحَابَ النَّظَرِ فِي
 العواقب ، وَأَصْحَابَ الْعُقُولِ الَّتِي تَذْهَبُ فِي الْمَذَاهِبِ^(٣) .

فسبحانَ من خالَفَ بين طبائعهم وشرائعهم ليتَّفَقُوا على مصالحهم
 في دُنْيَاهُمْ ، وَمَرَاتِدِهِمْ فِي دِينِهِمْ ، مع أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 مخصوصٌ بعلامة لها في العقل موقع ، كموقع فُلُقِّ البحر من العَيْنِ ،
 وذلك قوله لقريشٍ خاصَّةً ، وللعرب عامةً ، مَعَ ما فيهما من الشُّعراءِ
 والخُطباءِ والبُلغاءِ ، والدُّهاةِ والحُلَماءِ^(٤) ، وَأَصْحَابِ الرَّأْيِ والمَكيدةِ ،
 والتَّجَارِبِ والنَّظَرِ فِي العاقبة : إِنَّ عارضتموني بسورةٍ واحدةٍ فقد
 كذبتُ في دعوايَ ، وصدَّقتم في تكذبي .

ولا يجوز أن يكون مثلُ العربِ في كثرة عددهم واختلافِ علمهم ،
 والكلامُ كلامهم ، وهو سيِّدُ عملهم ، فقد فاض بيانهم ، وجاشت به
 صدورهم ، وغلبتهم قُوَّتُهُمْ عليه عند أنفسهم ، حتَّى قالوا في الحياتِ
 والعقاربِ ، والذُّبابِ والكلابِ ، والخنافسِ والجِعلانِ ، والحميرِ
 والحمامِ ، وكلُّ ما دبَّ ودرَج ، ولاح لعينٍ ، وخطر على قلب . ولم
 بعدُ أصنافُ النِّظَمِ ، وضرُوبُ التَّأليفِ ، كالقصيدِ^(٥) ، والرَّجَزِ ،
 والمزدوجِ ، والمُجانَسِ^(٦) ، والأشجاعِ^(٧) والمنثورِ .

(١) ب ، م : « الدون » .

(٢) ب فقط : « لأن العذاب » .

(٣) ب فقط : « بالمذاهب » .

(٤) العلماء : ذوو الألباب والعقول . م فقط : « والحكماء » .

(٥) ب فقط : « كالقصة » .

(٦) هو ما عرف بعد بالجناس في اصطلاح البلاغيين .

(٧) ب ، م : « الأشجاع » ، ط : « الأسماع » ، صوابها ما أثبت .

وبعد ، فقد هَجَّوهُ من كلِّ جانب ، وهاجَى أصحابه شعراءهم ^(١) ،
ونازعوا خطباءهم ، وحاجَّوه في المواقف ، وخاصَّموه في المواسم ، وبادَّوه
العداوة ^(٢) ، وناصَبوه الحرب ، فقتَل منهم ، وقتَلوا منه ، وهم أثبتُّ
النَّاسِ حِقْداً ، وأبعدهم مطلباً ، وأذكَّروهم لخير أو لشرٍّ ، وأنفاهم له ،
وأهجاهم بالعجز ، وأمَدحهم بالقوَّة ، ثمَّ لا يُعارضه معارضٌ ، ولم
يتكلَّف ذلك خطيبٌ ولا شاعر .

ومحالٌ في التعارف ، ومستنكرٌ في التصادق ، أن يكون الكلامُ
أخَصَرَ عندهم ^(٣) ، وأيسَّرَ مَثُونَةً عليهم ، وهو أبلغ في تكذيبهم
وأنقَضُ ^(٤) لقوله ، وأجدر أن يعرف ذلك أصحابه ^(٥) فيجتمعوا على
ترك استعماله ، والاستغناء به ، وهم يبذلون مُهْجَهُم ^(٦) وأموالهم ،
ويخرجون من ديارهم في إطفاء أمره ، وفي توهين ما جاء به ، ولا
يقولون ، بل لا يقول واحدٌ من جماعتهم : لِمَ تقتلون أنفسكم ^(٧) ،
وتستهلكون أموالكم ، وتخرجون من دياركم ، والحيلةُ في أمره يسيرة ،
والمأخذ في أمره قريب ؟ ! ليؤلَّفَ واحدٌ من شعرائكم وخطباءكم كلاماً
في نظم كلامه ، كأقصر سورة يُخذلُكم بها ، وكأصغر آيةٍ دعاكم إلى
معارضتها . بل لو نسُوا ، ما تركهم حتَّى يذكَّروهم ، ولو تغافلوا ما ترك
أن ينبِّههم ، بل لم يرض بالتَّنبيه دون التوقيف .

(١) ب : « وهجى أصحابه شعراؤهم » .

(٢) يقال باداه بالعداوة : جاهره بها . وبادره إلى الشيء : عاجله وسابقه . ووردت
« العداوة » هنا متدياً إليها الفعل بغير الحرف . وفي ط : « وبادروه العداوة » .

(٣) من الاختصار . وفي اللسان : « الاختصار في الكلام أن تدع الفضول وتستوجز
الذي يأتي على المعنى » .

(٤) ب ، م : « وأنقص » بالصاد المهملة .

(٥) ذلك ، من ط فقط .

(٦) ب ، م : « ويبذلون » ب فقط : « مهجهم » ، صوابه في م ، ط .

(٧) ب ، م : « ولم تقتلون أنفسكم » .

فدلَّ ذلك العاقلَ على أنَّ أمرهم في ذلك لا يخلو من أحد أمرين :
 إمَّا أن يكونوا عَرَفُوا عجزهم ، وأنَّ مثلَ ذلك لا يتبيهُ لهم ، فرأوا
 أن الإضرابَ عن ذكره ، والتغافلَ عنه في هذا الباب وإن قرَّعهم به ،
 أمثل لهم في التدبير ، وأجدر^(١) أن لا يتكشَّف أمرهم للجاهل والضعيف ،
 وأجدر أن يجدوا إلى الدعوى سبيلاً ، وإلى اختداع الأنبياء سبباً ، فقد
 ادَّعوا القدرةَ بعد المعرفة بعجزهم عنه ، وهو قوله عزَّ ذكره : ﴿ وَإِذَا
 تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾^(٢) .

وهل يُذعنُ الأعرابُ وأصحابُ الجاهليةَ للتفريع بالعجز^(٣) ،
 والتوقيف على النقص ، ثم لا يبذلون مجهودهم ، ولا يخرجون مكنونهم^(٤)
 وهم^(٥) أشدُّ خلق الله عز وجل أنفةً ، وأفرطُ حميةً ، وأطلبهُ بطانلةً ،
 وقد سمعوه^(٦) في كل منهلٍ وموقفٍ . والناسُ مُوكِّلون بالخطابات ،
 مُولعون بالبلابغات . فمن كان شاهداً فقد سمعه ، ومن كان غائباً فقد
 أتاه به من لم يُزوده^(٧) .

وإمَّا أن يكونَ غيرُ ذلك .

ولا يجوز أن يُطيقوا^(٨) على ترك المعارضةِ وهم يقدرون عليها ،

(١) ب ، م : « وأحذر » ، تحريف مافي ط .

(٢) الآية ٣١ من سورة الأنفال .

(٣) ب ، م : « والأعراب وأصحاب الجاهلية التفريع بالعجز » . وصواب النص وتامه

في ط .

(٤) ب ، م : « ثم لا يبذل مجهودها ويخرج مكنونها » ، صوابه في ط .

(٥) ب ، م : « وهو » .

(٦) ب ، م : « وقد سمعته » .

(٧) نظر إلى قول طرفة في مملقته :

ستبدى لك الأيام ماكنت جاهلاً ويأتيسك بالأعبار من لم تزود

ب ، م : « يزوده » ، صوابه في ط .

(٨) ب ، م : « أن يطيقوا » ، تحريف مافي ط .

لأنه لا يجوز على العدد الكثير من العقلاء والدهاة والحلماء^(١) ، مع اختلاف عيّنهم ، وبعدهم همهم ، وشدة عداوتهم الإطباق على بذل الكثير ، وصون اليسير .

وهذا من ظاهر التدبير ، ومن جليل الأمور التي لا تخفى على الجهال فكيف على العقلاء ، وأهل المعارف^(٢) فكيف على الأعداء ، لأنّ تحبير الكلام أهون من القتال ، ومن إخراج المال .

ولم يُقل^(٣) : إنّ القوم قد تركوا مسألتهم^(٤) في القرآن والطعن فيه ، بعد أن كثرت خصومتهم في غيره .

ويدلّك على ذلك قوله عزّ وجلّ^(٥) : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل علينا القرآن جملته واحدة^(٦) ﴾ وقوله عز ذكره : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدلّه^(٧) ﴾ ، وقوله تعالى جل ذكره : ﴿ وقال الذين كفروا إنّ هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون^(٨) ﴾ .

ويدلّك كثرة هذه المراجعة ، وطول هذه المناقلة ، على أنّ التفريع^(٩) لهم بالعجز كان فاشياً ، وأنّ عجزهم كان ظاهراً .

(١) ط فقط : « والحكاه » بالكاف . وانظر ما سبق في ٢٧٥ .

(٢) ب ، م : « وعلى المعارف » ، تحريف ماق ط .

(٣) م ، ب : « ولم تقل » ، وأثبت ماق ط .

(٤) م : « مسألتهم » ، وهي لغة جائزة فيها .

(٥) ذلك ، ساقطة من ب . وفي ب ، م : « عز ذكره » .

(٦) الآية ٣٢ من الفرقان . وفي م : « أنزل عليه » تحريف .

(٧) الآية ١٥ من يونس .

(٨) الآية ٤ من الفرقان .

(٩) م ، ط : « التفريع » ، صوابه في ب .



ولو لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم تحداً لهم بالنظر والتأليف^(١) ،
ولو لم يكن أيضاً أزاح علتهم ، حتى قال تعالى : ﴿ قُلْ فَاتُوا بَعْشَرَ سُوْرٍ
مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾^(٢) وعارضوني بالكذب ، لقد كان في تفصيله له
وتركيبه ، وتقديمه له واحتجاجه ، ما يدعو إلى معارضته ومغالته وطلب
مساويه .

ولو لم يكن تحداً لهم من كل ما قلنا ، وقرعهم بالعجز عما وصفنا -
وهل هذا^(٣) إلاً بمديحه له ، وإكثاره فيه - لكان ذلك سبباً موجباً
لمعارضته ومغالته وطلب تكذيبه ، إذ كان كلامهم هو سيد عملهم ،
والمثونة فيه أخف عليهم ، وقد بذلوا النفوس والأموال . وكيف ضاع
منهم ، وسقط على جماعتهم نيفاً وعشرين سنة ، مع كثرة عددهم ،
وشدة عقولهم ، واجتماع كلمتهم !؟
وهذا أمرٌ جليلُ الرأى ، ظاهرُ التدبير^(٤) .

٤٠ - فصل منه في ذكر امتناعهم من معارضة القرآن

لعلمهم بعجزهم عنها^(٥)

والذي منعه من ذلك هو الذي منع ابن أبي العوجاء^(٦) ، وإسحاق بن

(١) ب ، م : « والتأليف » .

(٢) الآية ١٣ من سورة هود . وبهذا لها ب ، م : « فهاتوا مفتريات » ، ويصح هذا
الكلام لو لم يكن مسبوفاً بكلمة « تعالى » .

(٣) ب ، م : « قل هذا » .

(٤) بعده في ب : « لا يعمل من ابتداء القول فيه وساربه » ، وفي م : « لحمل من ابتداء
القول فيه وساربه » ، وهاتان العبارتان لم تردا في ط .

(٥) ط : « في كراهة امتناعهم عن معارضة القرآن لعجزهم عنها » ، صوابه في ب ، م

(٦) هو عبد الكريم بن أبي العوجاء ، من بني عمرو بن ثعلبة بن عامر بن ذهل بن ثعلبة بن
عكاية ، وكان أحد الزنادقة ، صلبه محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بالبصرة .
جمهرة ابن حزم ٣١٦ . وكان خال من بن زائدة ، وجمع بين أربعة أنواع من الضلالة : كان يرى
في السردين المانوية من الشنوية ، وكان يقول بالتناسخ ، وكان يميل إلى رأى الرافضة في الإمامة ،
والرابع قوله بالقدر في أبواب التعديل والتجوير . الفرق بين الفرق ٢٥٥ - ٢٥٦ .

طالوت^(١)، والنعمان بن المنذر، وأشباههم من الأرجاس، الذين استبدلوا بالعزُّ ذلاً، وبالإيمان كُفراً، والسعادة شِقْوة^(٢)، وبالحجة شُبْهة.

بل لا شُبْهة في الزندقة خاصة. فقد كانوا يصنعون الآثار، ويولّدون الأخبار، ويبثونها في الأمصار، ويطنعون في القرآن، ويسألون عن مُشابهه، وعن خاصه وعامه^(٣)، ويضعون الكتب على أهله. وليس شئٌ مما ذكرنا يستطيع دفعه جاهلٌ غبي^(٤)، ولا معاندٌ ذكي.

٤١ - فصل منه

ولمّا كان أعجبُ الأمور عند قومِ فرعونَ السّحرَ، ولم يكن أصحابه قطُّ في زمانٍ أشدَّ استحكاماً فيه منهم في زمانه، بعث الله موسى عليه السلام على إبطاله وتوهمينه، وكشفِ ضغفه وإظهاره، ونقض أصله^(٥) لردع الأغبياء من القوم^(٦)، ولمن نشأ على ذلك من السفلة والطغام. لأنّه لو كان أتاهاهم بكلّ شئٍ، ولم يأتهم بمعارضة السّحر حتّى يفصل بين الحجة والحيلة، لكانت نفوسهم إلى ذلك متطلّعة، ولاعتلّ به أصحاب الأشعاب^(٧)، ولشغلوا به بال الضعيف^(٨)، ولكن الله تعالى جدّه، أراد حسم الداء، وقطع المادة، وأن لا يجد المبتطلون متعلّقاً،

(١) يبدو أنه أحد الزنادقة، ولم أجد له خبراً.

(٢) ب، م: «شقاوة»، وهما بمعنى ما يقابل السعادة. وفي التنزيل العزيز: «ربنا غلبت علينا شقوتنا»، وقرأ ابن مسعود: «شقوتنا».

(٣) ب: «وعن خاصة وعامة»، صوابه في م، ط.

(٤) ب: «عي م: غي»، صوابها في ط.

(٥) ب فقط: «ونقض أصله»، تحريف.

(٦) يدل هذا كله في ب: «لأغبياء القوم» وفي م: «الأغنياء القوم»

(٧) الأشعاب: جمع شعب، بالتحريك، وهي لغة ضعيفة في الشب، بالفتح، وهو

تبيح الشر. وفي ب: «الأشعاب» وفي ط: «الأشغال»، وأثبت ما في م.

(٨) ب فقط: «باب الضعيف».



ولا إلى اختداع الضعفاء سبيلاً^(١) ، مع ما أعطى الله موسى عليه السلام من سائر البرهانات ، وضروب العلامات .

وكذلك زمنُ عيسى عليه السلام كان الأغلبُ على أهله ، وعلى خاصة علمائِه الطَّبِّ ، وكانت عوامُهم تعظَّمُ على ذلك خواصِّهم ، فأرسله الله عزَّ وجلَّ بإحياء الموتى ، إذ كانت^(٢) غايتهم علاجَ المرضى . وأبرأ لهم الأكمه^(٣) إذ كانت غايتهم علاجَ الرَّمَدِ^(٤) ، مع ما أعطاه الله عزَّ وجلَّ من سائر العلامات ، وضروب الآيات ؛ لأنَّ الخاصَّةَ إذا بَحَّعَتْ بالطَّاعة^(٥) ، وقهرتها الحجَّةُ ، وعَرَفَتْ موضعَ العجز والقُوَّةَ ، وقُضِلَ ما بين الآيَةِ والحيلة ، كان أنجعَ للعامةِ ، وأجدر^(٦) أن لا يبقى في أنفسهم بقيةٌ .

وكذلك ذَهَرُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، كان أغلبُ الأمور عليهم ، وأحسُّها عندهم ، وأجلُّها في صدورهم ، حُسْنَ البيانِ ، ونظَمَ ضروب الكلام ، مع علمهم له ، وانفرادهم به . فحين استحكمت لفهمهم^(٧) وشاعت البلاغةُ فيهم ، وكثُر شعراؤهم ، وفاق النَّاسَ خطباؤهم ، بعثه الله عزَّ وجلَّ ، فتحداهم بما كانوا لا يشكُّون أنَّهم يقدرون على أكثر منه .

(١) ب ، م : « للضعفا سبيلا » .

(٢) ب فقط : « إذا كانت »

(٣) ب : « وإبرأهم الأكمه » تحريف . وفي ط : « وإبراء الأكمه » ، وأثبت ما في م .

والأكمه : الذي يولد أعمى .

(٤) الرمد : وجع العين وانتفاخها ، وهو أرمد ورمد ، والأثني رمداء . ب ، م :

« الرمدى » ، صوابه في ط .

(٥) بَحَّعَتْ : خضعت وأقرت . وفي ط فقط : « بَحَّعَتْ » تحريف وانظر ما مضى في ص

(٦) ب فقط : « وأحدر » ، تحريف .

(٧) لفهمهم ، ساقطة من ب .

فلم يزل يقرعهم بعجزهم ، وينتقصهم على نقصهم ^(١) ، حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم ، كما تبين لأقويائهم وخواصهم . وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قط ^(٢) ، مع سائر ما جاء به من الآيات ، ومن ضروب البرهانات .

ولكلُّ شيء بابٌ ومأتى ، واختصارٌ وتقريب . فمن أحكم الحكمة إرسال كل نبي بما يفهم أعجب الأمور عندهم ^(٣) ، ويُبطل أقوى الأشياء في ظنهم .

٤٢ - فصل في ذكر أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

وآية أخرى لا يعرفها إلا الخاصة ، ومتى ذكرت الخاصة فالعامة في ذلك مثل الخاصة . وهي الأخلاق والأفعال التي لم تجتمع لبشر قط قبله ^(٤) ، ولا تجتمع لبشر بعده .

وذلك أننا لم نر ولم نسمع لأحد قط كصبره ، ولا كحلمه ، ولا كوفائه ، ولا كزهده ، ولا كجوده ، ولا كنجده ، ولا كصدق لهجته ، وكرم عشرته ^(٥) ، ولا كتواضعه ، ولا كعلمه ، ولا كحفظه ، ولا كصمته إذا صمت ، ولا كقوله إذا قال ، ولا كعجيب منشئه ^(٦) ، ولا كقلته

(١) انتقصه واستنقصه : نسب إليه النقصان . ب ، م : « يتفهم » ، ط : « ينقصهم » ، والوجه ما أثبت .

(٢) لفظ الجلالة ثابت في ط فقط .

(٣) أصل الإنعام الإسكات عن الجواب ، والمراد الفوق والغلبة . ب ، م : « يفهم »

سوايه في ط .

(٤) ب ، م : « لبشرى » في هذا الموضع وتاليه . وأثبت ما في ط . والبشر : الإنسان ، يطلق على الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث . وقد يجمع على أبقار ، ويثنى كما في قوله تعالى : « أنؤمن لبشرين مثلنا » .

(٥) العشرة : المحاللة والمصاحبة . وفي جمع النفع : « عشيرته » ، سوايه ما أثبت . وأما عشيرة الرجل فهم بنو أبيه الأقربون وقبيلته .

(٦) ب ، م : « منشاء » .



تلونهُ ، ولا كَعْفُوهُ ، ولا كدوام طريقته ، وقلة امتنانه .
 ولم نجد^(١) شجاعاً قطُّ إلا وقد جال جولةً ، وفرَّ فرّةً ، وانحاز مرّةً ،
 من معدودى شُجعان الإسلام ، ومشهورى فرسان الجاهليّة ؛ كفلان
 وفلان .

وبعدُ ، فقد نصرَ النبيّ صلى الله عليه وسلم وهاجرَ معه قومٌ ، ولم نر
 كنجدهم نجدةً ، ولا كصبرهم صبراً . وقد كانت لهم الجولةُ والفرّةُ^(٢) ،
 كما قد بلغك عن يوم أحد ، وعن يوم حُنين ، وغير ذلك من الوقائع
 والأيام .

فلا يستطيع منافقٌ ولا زنديقٌ ولا دُهرىٌ ، أن يحدث أن
 محمداً عليه السلام جال جولةً قطُّ^(٣) ، ولا فرَّ فرّةً قطُّ ، ولا خام
 عن غزوةٍ ، ولا هاب^(٤) حرباً من كائره .

(١) ب ، م : « ولم نجد » بالناء .

(٢) ب ، م : « والغزة » ، وليست مرادة هنا .

(٣) ب ، م : « فقط » في هذا الموضع وتاليه ، والصواب في ط .

(٤) ب ، م : « وهاب » .

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
A 1977
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT
Est. 2012 CE





۹

من كتابه في

خَلْقُ الْقُرْآنِ

وقف أمير غازي للفكر القرآني
A 1977
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT
Est. 2012 CE



١ - فصل من صدر كتابه في خلق القرآن (١)

ثَبَّتَكَ اللهُ بِالْحِجَّةِ ، وَحَصَّنَ دِينَكَ مِنْ كُلِّ شُبُهَةٍ ، وَتَوَفَّاكَ مُسْلِمًا ،
وجعلك من الشاكرين .

وقد أعجبنى (٢) ، حَفِظَكَ اللهُ ، اسْتَهْدَأُوكَ الْعِلْمَ وَفَهَمَكَ لَهُ ،
وَشَفَعْتُكَ بِالْإِنصَافِ وَمِثْلِكَ إِلَيْهِ ، وَتَعْظِيمِكَ الْحَقِّ وَمُؤَالَاتِكَ فِيهِ ،
وَرَغْبَتِكَ عَنِ التَّقْلِيدِ وَزِرَايَتِكَ عَلَيْهِ (٣) ، وَمُؤَاتِرَةَ كُتُبِكَ عَلَى بُعْدِ
دَارِكَ ، وَتَقَطُّعِ أَسْبَابِكَ ، وَصَبْرُكَ إِلَى أَوَانِ الْإِمْكَانِ ، وَاتِّسَاعُكَ عِنْدَ
تَضَايِقِ الْعُدْرِ .

وفهمتُ ، حَفِظَكَ اللهُ ، كِتَابَكَ الْأَوَّلَ ، وَمَا حَثَّتَ عَلَيْهِ مِنْ تَبَاذُلِ
الْعِلْمِ (٤) ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبَحْثِ ، وَالتَّحَابِّ فِي الدِّينِ ، وَالتَّصْبِيحَةِ لِجَمِيعِ
المُسْلِمِينَ .

وقلتَ : اَكْتُبْ إِلَيَّ كِتَابًا تَقْصِدُ فِيهِ إِلَى حَاجَاتِ النُّفُوسِ ، وَإِلَى
صَلَاحِ الْقُلُوبِ ، وَإِلَى مُعْتَلِجَاتِ الشُّكُوكِ ، وَخَوَاطِرِ الشُّبُهَاتِ ، دُونَ الَّذِي
عَلَيْهِ أَكْثَرُ الْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ التَّطْوِيلِ ، وَمِنَ التَّعَمُّقِ وَالتَّعْقِيدِ ، وَمَنْ تَكَلَّفَ
مَا لَا يَجِبُ ، وَإِضَاعَةَ مَا يَجِبُ .

وقلتَ : كُنْ كَالْمُعَلِّمِ الرَّفِيقِ ، وَالمَعَالِجِ الشَّفِيقِ ، الَّذِي يَعْرِفُ الدَّاءَ
وَسَبَبَهُ ، وَالدَّوَاءَ وَمَوْقِعَهُ ، وَيَصْبِرُ عَلَى طُولِ العِلَاجِ ، وَلَا يَسْأَمُ كَثْرَةَ
التَّرْدَادِ .

(١) هذا العنوان ساقط من ط ، والكلام فيها متصل بما سبق . ومثل ذلك فيما نشره
السننوي في رسائل الجاحظ ١٤٧ وهو مظنة النقل من ط .

(٢) ط : « قد أعجبنى » يطرح الواو .

(٣) ط فقط : « ودرایتك عليه » .

(٤) ب ، م : « وما حثيت عليه من تبازل العلم » .

وقلت : اجعل تجارتك التي إياها تؤمل ، وصناعتك التي إياها تعتمد - إصلاح الفاسد ، ورد الشارد .

وقلت : ولا بد من استجماع الأصول ، ومن استيفاء الفروع ، ومن حسم كل خاطر ، وقمع كل ناجم ، وصرف كل هاجس ، ودفع كل شاغل ، حتى تتمكن من الحجّة (١) ، وتنهأ بالنعمة (٢) ، وتجد راحة الكفاية ، وتتلج ببرد اليقين ، وتفضي إلى حقيقة الأمر . إن كان لا بد من عوارض العجز ، ولواحق التقصير ، فالبر لها أجمل (٣) ، والضرر علينا في ذلك أيسر .

وقلت : ابدأ بالأقرب فالأقرب (٤) ، وبكل ما كان أنتق في السمع ، وأحلي في الصدر ، وبالباب الذي منه يؤتى الرئىء المتكلف (٥) ، والجسور المتعرج ، وبكل ما كان أكثر علماً ، وأنفذ كيداً .

وسألتني بتقبيح الاستبداد (٦) ، والعجلة إلى الاعتقاد ، وصفة الأناة ومقدارها ، ومقدمات العلوم ومنتهاها . وزعمت أن من اللفظ ما لا يفهم معناه دون الإشارة ، ودون معرفة السبب والهيئة ، ودون إعادته وكرهه (٧) وتحريره واختياره (٨) .

(١) ب ، م : « حتى يتمكن من الحجّة »

(٢) ب : « ويهأ بالنعمة » ، م : « ويهأ بالنعمة » ، صوابهما في ط .

(٣) ب ، م : « فالفروع لها أجل » ، صوابه في ط .

(٤) في الأصول : « بالأخوف فالأخوف » ، صوابه ما أثبت . وانظر ما سيأتي في

٢٩٣ س ١٠ .

(٥) أصله من الرئىء من الدواب ، وهو الذي لم يقبل الرياضة ولم يهر المشية ولم يذل لراكبه ، فالمراد الذي يعسر التفاهم معه . ب ، ط : « المريء » م : « الرئىء » بالباء ، صوابهما ما أثبت .

(٦) ب ، م : « بتفتيح الاستناد » ، ط : « بتفتيح الاستناد » ، والوجه ما أثبت .

(٧) ب ، م : « دون إعارته وكسوه » ط : « دون إعارته وركته » وبسقوط الواو منبها ،

صوابهما ما أثبت . والكر : الإعادة ، يقال كر عليه الحديث : أعاده .

(٨) في جميع النسخ : « وتحديده واحتيازه » ، تحريف ما أثبت .

وقلت : فإن أنت لم تصور ذلك كله صورة تُغني عن المشافهة ، وتكتفي بظواهرها عن المراسلة ^(١) - أحوجتنا إلى لقاءك ، على بُعد دارك ^(٢) ، وكثرة أشغالك ، وعلى ما تخاف من الضيعة وفساد المعيشة .

فكتبت لك كتاباً ، أجهدتُ فيه نفسي ^(٣) ، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن ، والرّدّ على كل طعان . فلم أدعُ فيه مسألة لرافضيّ ، ولا لحديثي ، ولا لحشويّ ، ولا لكافرٍ مُبادٍ ، ولا لمنافقٍ مقموع ، ولا لأصحاب النّظام ، ولمن نجّم بعد النّظام ، ممن يزعم أنّ القرآن خلق ^(٤) ، وليس تأليفه بحجّة ، وأنّه تنزيلٌ وليس ببُرهان ولا دلالة .

فلما ظننت ^(٥) أنّي قد بلغت أقصى محبتك ، وأتيتُ على معنى صفتك ، أتاني كتابك تذكر أنّك لم تُرد الاحتجاج لنظم القرآن ، وإنّما أردت الاحتجاج لخلق القرآن . وكانت مسألتك مبهمّة ، ولم أك أن أحدث لك فيها تأليفاً ^(٦) ، فكتبت لك أشقّ الكتابين وأثقلهما ، وأغمضهما معنى وأطولهما .

ولولا ما اعتللت به من اعتراض الرافضة ، واحتجاج القوم علينا بمذهب مُعمر ^(٧) ، وأبي كلدة ^(٨) ، وعبد الحميد ، وثمامة ^(٩) ، وكل من

(١) ط فقط : « المرسله » .

(٢) م فقط : « يد دارك » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « أجهدتُ فيه نفسي » ، صوابه في ط .

(٤) خلق ، أي مخلوق . وفي جميع النسخ : « حق » .

(٥) ب فقط : « فما ظننت » .

(٦) في جميع النسخ : « تأليفه » ، والوجه ما أثبت .

(٧) معمر بن عباد السلمي ، صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة . الملل ١ : ٨٣ / ٢ : ١٦

والمواقف ٦٢٣ والفرق بين الفرق ١٣٦ . وهو بتشديد الميم كما في لسان الميزان ٦ : ٧١ .

(٨) أبو كلدة : ذكر الجاحظ بعض آرائه في الحيوان ١ : ٢٣٤ / ٣ : ٣٩٥ / ٤ : ٣٣٢ .

(٩) ثمامة بن أشرس : أحد المعتزلة البصريين . ورد بغداد واتصل بهارون وغيره من

الخلفاء . وله أخبار ونوادير يحكيها عنه أبو عثمان الجاحظ وغير واحد . تاريخ بغداد ٧ : ١٤٥ =

زعم أن أفعال الطبيعة مخلوقة على المجاز دون الحقيقة ، وأن متكلمي الحشوية^(١) والناطقة قد صار لهم بمناظرة أصحابنا ، وبقرأة كتبنا بعض الفطنة - لما كتبتُ لك ، رغبةً بك عن أقدارهم ، وحبنا^(٢) بالحكمة عن إغثارهم^(٣) ، وإنما يكتب على الخصوم والأكفاء^(٤) ، وللأولياء على الأعداء ، ولمن يرى^(٥) للنظر حقاً ، وللعلم قدراً ، وله في الإنصاف مذهبٌ ، وإلى المعرفة سبب .

وزعمت أنك لم تر في كتب أصحابنا إلا كتاباً لا تفهمه ، أو كتاباً وجدت الحجة على واضع الكتاب فيه أثبت .

وقلت : وإياك أن تتكلم على مقدار ما عندهم ، دون أن تعتصر^(٦) قوَى باطلهم ، وتوفّيهم جميع حقوقهم ، وإذا تقلدت الإخبار عن خصمك فحطه كحياطتك لنفسك ، فإن ذلك أبلغ في التعليم ، وآيس^(٧) للخصوم .

= وانظر البيان : ١٠٥ وعيون الأخبار : ٣ : ٣٧ وتأويل مختلف الحديث : ٦٠ والفرق : ١٥٩ ولسان الميزان : ٢ : ٨٤ .

(١) الحشوية : بفتح الشين وسكونها ، فبالسكون نسبة إلى الحشو ، وبالفتح نسبة إلى الحشا ، لأن الحسن البصري أمر بردهم إلى حشا الحلقة ، أي جانبها ، وهم طائفة اختلف العلماء في تعريفها . فابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ يذكر في تأويل مختلف الحديث ص ٩٦ أنها من الألقاب التي كان أهل الحديث يلقبون بها . قال : « وقد لقبوهم بالحشوية والناطقة والمجبرة » . وقال النوبختي في كتاب فرق الشيعة ص ٧ : « والبيترية أصحاب الحديث منهم سفيان بن سعيد الثوري ، وشريك بن عبد الله ، وابن أبي ليلى ، ومحمد بن إدريس الشافعي ، ومالك بن أنس ، ونظرأؤهم من أهل الحشو والجمهور العظيم . وقد سماوا الحشوية . ويطلقون هذا اللفظ أيضاً على « المشبهة » الذين يشبهون الله بخلقه وكذا على الهجسة . انظر شفاء الغليل ٧١ . وفي ب ، م : « الحشوة » ، صوابه في ط .

(٢) ب ، م : « وغلنا » ، صوابه في ط .

(٣) أعثره على الأمر : أطلمه عليه . وفي التزويل العزيز : « وكذلك أعثرنا عليهم » ،

أي أطلمنا .

(٤) ب فقط : « عن الخصوم والأكفاء » .

(٥) ب ، م : « لمن يرى » بسقوط الواو .

(٦) ب ، م : « تقتصر » ، صوابه في ط .

(٧) ب ، م : « وآيس » .

وقلت : وزعموا أنه يلزمك أن تزعم أن القرآن ليس بمخلوق إلا على المجاز ، كما ألزم ذلك نفسه (١) معمر وأبو كلدة وعبد الحميد وثمامة ، وكل من ذهب مذهبه ، وقاس قياسهم .

فتفهّم - فهّمك الله - ما أنا واصفه لك ، ومورّده عليك (٢) :

اعلم أن القوم يلزمهم ما ألزموه أنفسهم ، وليس ذلك إلا لعجزهم عن التخلّص بحقّهم ، وإلا لذاهبهم عن قواعد قولهم (٣) ، وفروع أصولهم ، فليس لك أن تضيف العجز الذي كان منهم إلى أصل مقالاتهم ، وتحمل ذلك الخطأ على غيرهم (٤) . فلربّ قولٍ شريفٍ الحسب ، جيّد المركّب ، وافرٍ العرض ، برى من العيوب ، سليم من الأفن ، قد ضيعه أهله ، وهجنه المفترون عليه ، فالزموه مالا يلزمه ، وأضافوا إليه مالا يجوز عليه .

ولو زعم القوم على أصل مقالاتهم أن القرآن هو الجسم دون الصّوت والتقطيع ، والنّظم والتأليف ، وأنه ليس بصوتٍ ولا تقطيع ولا تأليف ، إذ كان الصوت عندهم لا يُخترع كاختراع الأجسام المصوّرة (٥) ، ولا يحتمل التقطيع كاحتمال الأجرام المتجسّدة ، والصّوت عرّض ، لا يحدث من جوهرٍ إلا بدخولٍ جوهرٍ آخر عليه ، ومحال أن يحدث إلا وهناك جسمان قد صكّ أحدهما صاحبه ، ولا بد من مكانين : مكانٍ زال عنه ، ومكانٍ آل إليه . ولا بد من هواٍ بين المصططكين . والجسم قد يحدث وحده ولا شيء غيره ، والصّوت على خلاف ذلك .

(١) ط فقط : « لنفسه » .

(٢) ط فقط : « ومورد عليك » .

(٣) ب ، م : « عواقب قولهم » .

(٤) ب ، م : « والحمل » تحريف . وفي م أيضاً : « الخطأ » تحريف .

(٥) ب ، م : « المصوّبة » ، صوابه في ط .

والعرض لا يَقُوم بنفسه ، ولا بدَّ من أن يَقُومَ بغيره ، والأعراض من أعمال الأجسام ، لا تكون إلا منها ، ولا تُوجد إلا بها وفيها (١) .
والجسم (٢) لا يكون إلا من جسم ، ولا يكون إلا من مخترع الأجسام .
وليست لكون الجسم من الله علةً توجهه ، ولا يحدث إذا حدث إلا اختياراً ، وإلا ابتداءً واختراعاً . والصوت لا يكون إلا عن علةٍ موجبة ، ولا يكون إلا تولدًا ونتيجةً ، ولا يحدث إلا من جرّمين ، كاصطلاك الحجرين ، وكفزع اللسان باطن الأسنان ، وإلا من هواءٍ يتضاغط (٣) ، وريح تختنق (٤) ، ونارٍ تلهب . والريح عندهم هواءٌ تحرك ، والنار عندهم ریحٌ حارة . هكذا الأمر عندهم .

فلو قالوا : لا يكون الشيء مخلوقاً في الحقيقة ، دون المجاز وعلى مجازي اللغة ، إلا وقد بان الله عز وجل باختراعه ، وتولاه بابتداعه ، وكان منه على اختيار ، والابتداع (٥) : الذي يمكن تركه وإنشاء عقبيه بدلاً منه ، على ما كان يوكدّه (٦) ، ونتيجته من أجسامٍ يستحيل أن يُخلق من أفعالها ، ويجلبها الله تعالى منها (٧) .

والقرآن على غير ذلك ، جسمٌ وصوت ، وذو تأليفٍ وذو نظم ، وتوقيعٍ وتقطيع ، وخلقٌ قائمٌ بنفسه ، مستغنٌ عن غيره ، ومسموعٌ في الهواء (٨) ، ومرئىٌ في الورق ، ومفصلٌ وموصلٌ ، واجتماعٌ وافتراق ،

(١) ب : م : « لا يكون » و « ولا يوجد » بآيه فيها ، والصواب من ط .

(٢) ب فقط ؛ « من الجسم » ولا وجه له .

(٣) ب : م : « والأمر هواء يتضاغط » ، تحريف .

(٤) ب : « تحيق » ، م « تحيق » محرف .

(٥) ب : « والابتدا » ، صوابه في م ، ط .

(٦) ب : « بولده » م : « تولده » ، وأثبت ما في ط .

(٧) م : « ويجلبها » ط : « ويجلبها » ، وأثبت ما في ب .

(٨) ب : ط : « في الهوى » ، صوابه في م .

ويحتمل الزيادة والنقصان ، والفناء والبقاء ، وكل ما احتملته الأجسام ،
ووصفت به الأجرام . وكل ما كان (١) كذلك فمخلوق في الحقيقة دون
المجاز وتوسع أهل اللغة .

فلو كانوا قالوا ذلك لكانوا أصابوا في القياس ، ووافقوا أهل
الحق ، وكانوا مع الجماعة ، ولم يضأها أهل الخلاف والفرقة ، ولم
يصموا أنفسهم (٢) بقول المشبهة ، إذ كان ظاهر قولهم على التشبيه
أدل ، وبه أشبه .

ولا يجوز أن أذكر موافقتي لهم ، ومخالفتي عليهم في صدر هذا
الكتاب ، لأن التدبير في وضع الكتاب ، والسياسة في تعليم الجهال أن
يبدأ بالأوضح فالأوضح ، والأقرب فالأقرب ، وبالأصول قبل الفروع ،
حتى يكون آخر الكتاب لآخر القياس .

وآخر الكلام لا يفهم - أرشدك الله - ولا يتوهم إلا على ترتيب
الأمر ، وتقديم الأصول . فإذا رتبنا الأمور ، وقدمنا الأصول صارت
أواخر المعاني في الفهم كأوائلها ، ودقيقها كجليها (٣) .

٢ - فصل منه

وقد علمنا أن بعض ما فيه الاختلاف بين من ينتحل الإسلام
أعظم فرية (٤) ، وأشد بلية ، وأشنع كفراً ، وأكبر إثماً من كثير مما
أجمعوا على أنه كفر .

(١) ب ، م : « وكلما كان » خطأ كتابي . وفي ط : « كل ما » بدون واو .

(٢) في جميع النسخ : « ولم يفهموا أنفسهم » .

(٣) ط فقط : « ورقيقها كجليها » ، تحريف .

(٤) الفرية ، بكسر الفاء : الاسم من الافتراء ، وهو الاختلاق والكذب . ب فقط :

« فرية » محرف .

وبعدُ، فنحن لم نكفرُ إلا مَنْ أوسعناه حجةً، ولم نمنحنُ إلا أهلَ
 التُّهمةَ، وليس كشف المتهم من التجسس^(١)، ولا امتحان الظنن من
 هتك الأستار. ولو كان كلُّ كشفٍ هتكاً، وكلُّ امتحانٍ تجسساً^(٢)،
 لكان القاضي أهلك الناسِ لسترٍ، وأشدُّ الناسِ كشفاً لعورة.

والذين خالفوا في العرشِ إنما أرادوا نفيَ التشبيهِ فغلطوا، والذين
 أنكروا أمر الميزان^(٣) إنما كرهوا أن تكون الأعمال أجساماً وأجراماً
 غلاظاً. فإن كانوا قد أصابوا فلا سبيلَ عليهم، وإن كان قد أخطئوا
 فإنَّ خطأهم لا يتجاوزُ بهم إلى الكفر. وقولهم وخلافهم بعدَ ظهورِ
 الحجَّةِ تشبيهٌ للخالقِ بال مخلوق^(٤)، فبين المذهبيينِ أبينَ الفرقَ^(٥).
 وقد قال صاحبكم للخليفة المتعمم، يومَ جمَعَ الفقهاءَ والمتكلمينِ
 والقضاةَ والمخلصين، إغذاراً وإنذاراً: امتحنتني وأنت تعرف ما في
 المحنة، وما فيها من الفتنة، ثم امتحنتني من بين جميعِ هذه الأمة! قال
 المتعمم: أخطأت، بل كذبت، وجدتُ الخليفةَ قبلي قد حبَّسك
 وقيدك، ولو لم يكن حبَّسك على تُّهمةٍ لأمضى الحكمُ فيك، ولو لم
 يخفك على الإسلام ما عرض لك، فسؤالي إياك عن نفسك ليس من
 المحنة، ولا من طريق الاعتساف^(٦)، ولا من طريق كشف العورة،
 إذ كانت حالك هذه الحال، وسبيلك هذه السبيل.

وقيل للمتعمم في ذلك المجلس: ألا تبعث إلى أصحابه حتى
 يشهدوا إقراره، ويُعاینوا انقطاعه، فينقض ذلك استبصارهم، فلا يمكنه

(١) م: «من التجسس»، وهما بمعنى، وبه فسر قوله تعالى: «ولا تجسسوا».

(٢) م: «تجسسا». وانظر الحاشية السابقة.

(٣) ب: م: «والذين أنكروا معناكم في الميزان»، والوجه ما أثبت من ط.

(٤) ب: م: «فخلق بالخلق»، والصواب من ط.

(٥) ب: «المفرق»، تحريف ما أثبت من م، ط.

(٦) ولا من طريق الاعتساف، ساقط من م.



جَحَدُ مَا أَقْرَبَ بِهِ عِنْدَهُمْ ^(١)؟ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ ذَلِكَ ، وَأَنْكَرَهُ عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ :
لَا أُرِيدُ أَنْ أُوتَى بِقَوْمٍ إِنْ أَتَهُمْ مُبَيَّنَّتْ فِيهِمْ بَسِيرَتِي فِيهِمْ ^(٢) ، وَإِنْ
بَانَ لِي أَمْرُهُمْ أَنْفَذْتُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ ، وَهُمْ مَا لَمْ أُوتَ بِهِمْ ^(٣) كَسَائِرِ
الرَّعِيَّةِ ، وَكَغَيْرِهِمْ مِنْ عَوَامِ الْأُمَّةِ ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ ^(٤) أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ السُّتْرِ :
وَلَا شَيْءٍ أَوْلَى بِي مِنَ الْأَنَاةِ وَالرَّفْقِ .

وما زال به رفيقاً ، وعليه رقيقاً ، ويقول : لَأَنَّ أَسْتَحْيِيكَ بِحَقِّ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتَلَكَ بِحَقِّ ! حَتَّى رَأَاهُ يُعَانِدُ الْحِجَّةَ ، وَيَكْذِبُ صُرَاحاً
عِنْدَ الْجَوَابِ . وَكَانَ آخِرَ مَا عَانَدَ فِيهِ ، وَأَنْكَرَ الْحَقَّ وَهُوَ يَرَاهُ ، أَنَّ
أَحْمَدَ بْنَ أَبِي دُوَادٍ ^(٥) قَالَ لَهُ : أَلَيْسَ لَا شَيْءَ إِلَّا قَدِيمٌ أَوْ حَدِيثٌ ؟
قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : أَوْ لَيْسَ الْقُرْآنُ شَيْئاً ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : أَوْ لَيْسَ
لَا قَدِيمٌ ^(٦) إِلَّا اللَّهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَالْقُرْآنُ إِذَا حَدِيثٌ ؟ قَالَ :
لَيْسَ أَنَا مِتْكُمْ ^(٧) .

وكذلك كان يصنع في جميع مسأله ، حتى كان يجيبه في كل
ما سأل عنه ، حتى إذا بلغ المَخْتَقَّ ^(٨) ، والموضع الذي إن قال فيه
كلمة واحدة برى منه أصحابه قال : ليس أنا متكم !

(١) ب ، م : « جعلها أقرب به عندهم » ، صوابه في ط .

(٢) ب ، م : « فيه » .

(٣) ب ، م : « ما لم أوتى بهم » ، صوابه في ط .

(٤) م ، ط : « وما شئ » .

(٥) في جميع النسخ : « أبي داود » ، تحريف .

(٦) ب : « أوليس ألا قديم » .

(٧) كذا في جميع الأصول ، في هذا الموضع وتاليه في آخر هذه الصفحة .

(٨) في اللسان : « يقال بلغ منه المختق ، وأخذت بمخنته ، أي موضع الخناق . وأنشد ابن بري

لأبي النجم :

• والنفس قد طارت إلى المختق • .

وفي م ، ط : « المختق » ، تحريف .

فلا هو قال في أول الأمر : لا علم لي بالكلام ، ولا هو حين تكلم فبلغ موضع ظهور الحجّة (١) ، خضع للحق . فمقتة الخليفة ، وقال عند ذلك : أف لهذا الجاهل مرّة ، والمُعانيد مرّة .

وأما الموضوع الذي واجه فيه الخليفة بالكذب ، والجماعة بالقيحة (٢) ، وقلة الاكثراث وشدة التصميم ، فهو حين قال له أحمد بن أبي دُواد (٣) : تزعم أنّ الله ربُّ القرآن ؟ قال : لو سمعتُ أحداً يقول ذلك لقلت . قال : أفما سمعتَ ذلك قطُّ من حالفٍ (٤) ولا سائل ، ولا من قاصِّ ، ولا في شعر ، ولا في حديث ؟ !

قال : فعرف الخليفة كذبه عند المسألة ، كما عرف عُنوده (٥) عند الحجّة .

وأحمد بن أبي دُواد (٦) - حفظك الله - أعلم بهذا الكلام ، وبغيره من أجناس العلم ، من أن يجعل هذا الاستفهام مسألة ، ويعتمد عليها في مثل تلك الجماعة . ولكنه أراد أن يكشف لهم جرّأته (٧) على الكذب ، كما كشف لهم جرّأته (٨) في المعاندة . فعند ذلك ضرب به الخليفة .

وأية حجّة لكم في امتحاننا إياكم ، وفي إكفارنا لكم .

وزعم يومئذ أنّ حكم كلام الله كحكم علمه ، فكما لا يجوز أن

- (١) ب ، م : « ظهور الحجّة والحجة » .
- (٢) القحة : الوقاحة . ب فقط : « بالحلقة » ، تحريف .
- (٣) في جميع النسخ : « داود » ، تحريف .
- (٤) ط ، م : « خالف » بالهاء المعجمة .
- (٥) العنود والعتاد : الميل عن الحق . ط فقط : « عناده » .
- (٦) في جميع النسخ : « داود » .
- (٧) ب : « جرأته » ، وأثبت ما في م ، ط .
- (٨) ب ، م : « جرأته » ، وأثبت ما في ط .

يكون علمه محدثاً ومخلوقاً ، فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً محدثاً . فقال له : أليس قد كان الله يقدر أن يبدل آيةً مكان آية ، وينسخ آيةً بآية ، وأن يذهب بهذا القرآن ، ويأتى بغيره ، وكل ذلك في الكتاب مسطور ؟ قال : نعم . قال : فهل كان يجوز هذا في العلم ، وهل كان جائزاً أن يبدل الله علمه ، ويذهب به ، ويأتى بغيره ؟ قال : ليس (١) .

وقال له : رَوَيْنَا فِي تَثْبِيتِ مَا نَقُولُ (٢) الْآثَارَ ، وَتَلَوْنَا عَلَيْكَ الْآيَةَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَأَرَيْنَاكَ الشَّاهِدَ مِنَ النُّقُولِ (٣) الَّتِي بِهَا لَزِمَ النَّاسَ الْفِرَاطُ ، وَبِهَا يَفْصَلُونَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، فَعَارِضُنَا أَنْتَ الْآنَ بِوَاحِدَةٍ مِنَ الثَّلَاثِ . فَلِمَ يَكُنْ ذَلِكَ عِنْدَهُ ، وَلَا اسْتَحْزَى مِنَ الْكُذْبِ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَجْلِسِ (٤) ، لِأَنَّ عِدَّةَ مَنْ حَضَرَهُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُطْمَعِ أَحَدًا أَنْ يَكُونَ الْكُذْبُ يَجُوزُ عَلَيْهِ . وَقَدْ كَانَ صَاحِبِكُمْ هَذَا يَقُولُ : لَا تَقِيَةَ إِلَّا فِي دَارِ الشَّرْكِ . فَلَوْ كَانَ مَا أَقْرَبَهُ مِنْ خَلْقِ الْقُرْآنِ كَانَ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ التَّقِيَةِ فَقَدْ أَجْمَلَ التَّقِيَةَ (٥) فِي دَارِ الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ أَكْذَبَ نَفْسَهُ . وَإِنْ كَانَ مَا أَقْرَبَهُ عَلَى الصَّحَّةِ وَالْحَقِيقَةِ فَلَسَمَ مِنْهُ ، وَلَيْسَ مِنْكُمْ . عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَرِ سَيْفًا مَشْهُورًا ، وَلَا ضُرْبَ ضَرْبًا كَثِيرًا ، وَلَا ضَرْبَ إِلَّا ثَلَاثِينَ سَوْطًا مَقْطُوعَةَ الثَّمَارِ (٦) ، مَشْعُتَةَ الْأَطْرَافِ (٧) ، حَتَّى أَفْصَحَ بِالْإِقْرَارِ مَرَارًا . وَلَا كَانَ فِي مَجْلِسِ

(١) ط : « قال : لا » .

(٢) ط فقط : « تقول » بالباء ، محرف .

(٣) في جميع النسخ : « العقول » .

(٤) ب ، م : « ولا استخرنا الكذب عليه » ، صوابه في ط . وفي ط : « في هذا المجلس » ،

صوابه في ب ، م .

(٥) ط فقط : « فقد أعملها » .

(٦) ثمرة السوط : عقدة طرفه . وفي حديث الحد : « فأتى بسوط لم تقطع ثمرته » .

(٧) ط : « مشعبة الأطراف » . وتشعيت الشيء : تفريقه .

ضيقٌ ، ولا كانت حاله حال مؤبسة ، ولا كان مُثَقلاً بالحديد ، ولا خُليع قلبه بِشدة الوعيد . ولقد كان يُنَازِعُ بِأَيِّنِ الكلام ، وَيُجِيبُ بِأَغْلَظِ الجواب ، وَيَرزُنُون وَيَخْفُ ، وَيَحْمَلُونَ وَيَطِيشُ (١) .

وعيم علينا إكفارنا إياكم ، واحتجاجنا عليكم بالقرآن والحديث . وقلتم : تُكْفِرُوننا على إنكار شيءٍ يحتمله التأويل (٢) ، ويثبت بالأحاديث ، فقد ينبغي لكم أن لا تحتجوا في شيءٍ من القدر والتوحيد . بشيءٍ من القرآن ، وأن لا تُكْفِرُوا أحداً خالفكم في شيءٍ وأنتم أسرعُ الناسِ إلى إكفارنا ، وإلى (٣) عداوتنا والنَّصَبِ لنا .

٣ - فصل منه

وأصحابنا - حفظك الله - إذا قاسوا خطاهم ، ومروا على غلظهم فإنما ينقضون به شيئاً من العَرَضِ والجوهر ، وشيئاً من قولهم في المعلوم والمجهول فقط . وهم قومٌ يكفيهم من التنبيه (٤) أقله ، ومن القول بأسره . وخطأُ النَّابِئَةِ وقولُ الرَّافِضَةِ تشبيهه مصرح ، وكُفْرُ مُجْلِح (٥) ، فليس هذا الجنس من ذلك الجنس . والحمد لله .

وأما إخبارهم عن عيبنا إياهم حين لم يقولوا : إنَّ الله تعالى ربُّ القرآن ، وفينا من يقول : إنَّ الله تبارك وتعالى ربُّ الكفرِ والإيمان ،

(١) ب فقط : « ويحملون » ، صوابه في م ، ط .

(٢) ط : « يحتمل التأويل » .

(٣) ب فقط : « أو إلى » .

(٤) في جميع النسخ : « التنبيه » ، والوجه ما أثبت .

(٥) يقال صرح الشيء ، إذا كشف عنه وأظهره ، وصرح هو إذا انكشف ، ومنه قول

شهل بن شيبان في الحماسة ٣٤ :

فلما صرح الشر فأمسى وهو عسريان

والجملح ، بالبناء للفاعل أيضاً : الجريء ، وهو من التجليح ، وهو الإقدام على الشر وتكثيف العداوة وتصريحها ، كما في أساس البلاغة .

فإنَّا لم نسألهم^(١) عن ذلك من جهة ما يتوهمون ، وإنما سألناهم عنه بجددهم ما يروون بأبصارهم ، ويسمعون بأذانهم ، في الأشعار المعروفة ، وفي الخطب المشهورة ، وفي الابتهاال^(٢) عند الدعاء ، وعلى ألسنة العوام والدهماء^(٣) ، وعند اليهود والأيمان ، وعند تعظيم القرآن ، وبما يسمعون من السُّؤال في الطُّرقات ، ومن القصاص في المساجد ، لا يروون عائياً^(٤) ، ولا يسمعون زارياً^(٥) . وليس أننا جعلنا هذا مسألة على من أنكر خلق القرآن ، ولكننا أردنا أن نبين للضعفاء معاندتهم ، وفرارهم من البهت ، ومكابرتهم إذا سمعوا أنهم لم يسمعوا الناس يقولون : وربُّ القرآن ، وربُّ ياسين ، وربُّ طه ، وأشياء ذلك .

ولعمري أن لو سمعوا الناس يقولون عند إيمانهم وابتهاالهم إلى ربهم ، على غير قصدٍ إلى خلافٍ ولا وفاقٍ : وربُّ الزنى والسرق^(٦) ، وربُّ الكفر والكذب ، كما سمعواهم يقولون^(٧) : وربُّ القرآن ، وربُّ يس ، وربُّ طه ! ثم ألزمتهم خلق القرآن بمثل ما لهم علينا في خلق الزنى - لقد كان ذلك معارضةً صحيحةً^(٨) ، وموازنةً معروفةً .

وأما قولهم : إنَّ معنا العامَّة ، والعباد ، والفقهاء ، وأصحاب الحديث ، وليس معهم إلا أصحاب الأهواء ، ومن يأخذ دينه من أول

(١) ب : « نسأل » ، صوابه في ب ، ط .

(٢) ب ، م : « وفي ابتهاال » .

(٣) والدهماء ، ساقطة من ط .

(٤) م ، ط : « غائباً » بالعين المعجمة ، صوابه في ب .

(٥) زرى عليه وأزرى : عاب . وفي ب : « زاوياً » صوابه في م ، ط .

(٦) السرق ، بالتحريك ، وككتف : السرقه . وفي ط : « والسرقه » وفي ب :

« ورب السرقه » .

(٧) ب ، م : « كما سمعوا وهم يقولون » ، وأثبت ما في ط .

(٨) ب : « معاوضة صحيحة » .

الرجال^(١) ، فأى صاحب هو - يرحمك الله - أبعد من الجماعة من الرافضة ، وهم في هذا المعنى أشقاؤهم^(٢) وأولياؤهم ، لأن ما خالفهم فيه صغير في جنب ما وافقهم عليه ، والذين سموهم أصحاب أهواء هم المتكلمون ، والمصلحون والمستصلحون ، والمميزون^(٣) . وأصحاب الحديث العوام هم الذين يقلدون ولا يحصلون ، ولا يتخيرون ، والتقليد مرغوب عنه^(٤) في حجة العقل ، منهي عنه في القرآن^(٥) ، قد عكسوا الأمور كما ترى ، ونقضوا العادات . وذلك أننا لا نشك أن من نظر وبحث ، وقابل ووازن^(٦) ، أحق بالتبين ، وأولى بالحجة .

وأما قولهم : منّا النسك والعباد ، فعباد الخوارج وحدهم أكثر عدداً من عبادهم ، على قلة عدد الخوارج في جنب عددهم ، على أنهم أصحاب نية^(٧) ، وأطيب طعمة^(٨) ، وأبعد من التكسب ، وأصدق ورعاً ، وأقل رياء^(٩) ، وأدوم طريقة ، وأبذل للمهجة ، وأقل جمعاً ومنعاً ، وأظهر زهداً وجهداً . ولعلّ عبادة عمرو بن عبديّة تفي بعبادة عامة عبادهم . وأما قولهم : إن للقرآن قلباً وسنماً ولساناً وشفقتين ، وأنه مقدس ويشفع ويمحّل^(١٠) ، فإن هذا كله قد يجوز أن يكون مثلاً ، ويجوز أن

(١) ب ، م : « من أدل الرجال » .

(٢) في جميع الأصول : « أشقاؤهم » ، والوجه ما أثبت .

(٣) والمميزون ، ساقط من ط .

(٤) ب ، م : « عليه » ، صوابه في ط .

(٥) ط فقط : « في القراب » ، تحريف .

(٦) ط : « ووزن » ، تحريف .

(٧) ب : « بنة » ، تحريف .

(٨) الطعمة ، بالضم : وجه المكتسب . وبالكسر : السيرة في الأكل .

(٩) هذا ما في ب . وفي م : « رأياً » ، وفي ط : « زياً » .

(١٠) التقديس : التطهير والتبريك . ومنه الأرض المقدسة . ويمحّل ، أى يحل بصاحبه ،

إذا لم يتبع ما فيه وإذا هو ضيعه ، أى يمرضه للهلكة . وفي الحديث عن ابن مسعود : « إن هذا القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق » . وانظر اللسان (محل ١٤١) .

يجعله الله كذلك إذا كان جسماً ، والله على ذلك قادر ، وهو له غير مُعجَز ، ومنه غير مستحيل . وكلُّ فعل لا يكون عيباً ، ولا ظلماً ولا بخلاً ولا كذباً ، ولا خطأً^(١) في التدبير ، فهو جائز ، والتعجب منه غير جائز .

٤ - فصل منه

وما أكثرَ من يُجيب في المسائل ، ويؤلف الكتب على قدر ما يسنح له في وهمه ، وعلى قدر ما يتصور له في حاله تلك ، لا يعمل على أصل^(٢) ، أو لا يشعر^(٣) بالذي انبنى عليه ذلك الأصل^(٤) ، وإن كان ممن يعمل على أصل .

وإنما صار علماؤنا إلى ما صاروا إليه لأنهم لا يقفون من القول في خلق القرآن على جواب مهذب ، ومذهب مصفى ، وعلى قول مفروغ منه ، وعلى جوابات بأعيانها . فقد ردّوا فيها النظر ، وامتحنوها بأغظ المحن ، وقلبوها أكثر التقلب^(٥) ، وتبطنوا معانيها بأبلغ التفكير ، وتعرفوا كل ما فيها ، واعتصروا جميع قواها ، وسهلوا سبلها ، ودلّلوا العبارة عنها^(٦) ، احتقاراً منهم لمن خالفهم ، واتكالا على طول السلامة منهم ، وثقة بطول الظفر بهم .

ومن تمام أمر صاحب الحق أن لا يتكل على عجز الخصم ، وأن لا يُعجبَ بظهوره^(٧) على من لاحظ له في العلم .

(١) الخلاء ، كسحاب : الخطأ . ط فقط : « خطأ » .

(٢) ط : « على أصله » .

(٣) في الأصول : « ولا يشعر » ، وجه ما أثبت .

(٤) ب ، م : « في الذي عليه ذلك الأصل » ، صوابه في ط .

(٥) ط : « وقلبوها » فقط .

(٦) ط : « وذبوا العناد عنها » ب : « ودلّلوا العبادة عنها » ، صوابه في م .

(٧) ظهر عليه : غلبه . ب ، م : « يظهور » ، وأثبت ما في ط .

وعلى العلماء أن يخافوا دَوْلَ الْعِلْمِ (١) ، كما يخافُ الملوكُ دولَ الْمُلْكِ . وقد رأيتُ الْبَكْرِيَّةَ (٢) ، وَالْجَعْرِيَّةَ ، وَالْفَضْلِيَّةَ (٣) ، وَالشَّمْرِيَّةَ (٤) وَإِنَّهُمْ لِأَحْقَرُ عِنْدَ الْمُعْتَزَلَةِ مِنْ جُعَلٍ (٥) مَا زَالُوا يَسْتَقُونَ (٦) مِنْ عُلَمَائِهِمْ ، وَيَسْتَمِدُّونَ مِنْ كِبَرَانِهِمْ ، وَيَدْرُسُونَ كِتَابَهُمْ ، وَيَأْخُذُونَ أَلْفَاظَهُمْ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ ، حَتَّى رَأَيْتُ شَبِيحَتَهُمْ وَنَابَتَتَهُمْ (٧) ، يَدْعُونَ أَنَّهُمْ أَكْفَاءُ ، وَيَجْمَعُ بَيْنَهُمْ فِي الْبَلَاءِ . وَالتَّأْبِتَةُ الْيَوْمَ فِي التَّشْبِيهِ (٨) مَعَ الرَّافِضَةِ ، وَهِيَ دَائِبُونَ (٩) فِي التَّأْلَمِ مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ . غَدَرَهُمْ كَثِيرٌ (١٠) ، وَنَصَبُهُمْ شَدِيدٌ ، وَالْعَوَامُّ مَعَهُمْ ، وَالْحَشْوُ يُطِيعُهُمْ (١١) .

الآن (١٢) معك أمران: السُّلْطَانُ وَمِثْلُهُمْ إِلَيْهِ ، وَخَوْفُهُمْ مِنْهُ .
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

- (١) الدول : جمع دولة ، وهي الانتقال من حال إلى حال .
(٢) البكرية : أتباع بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد . وقد ذكرهم البغدادي في الفرق في فصل مع الجهمية والشرارية . الفرق ١٩٩ والفصل ٤ : ١٩١
(٣) الفضلية الذين يعنيتهم الجاحظ ، هم أتباع الفضل بن عيسى الرقاشي البصري . وهم طائفة من المعتزلة . وهناك فضلية الخوارج ، ينتسبون إلى الفضل بن عبد الله . انظر مفاتيح العلوم ١٩ والبيان ١ : ٣٠٦ .
(٤) الشمرية ، بالشين المعجمة المكسورة والميم المشددة المفتوحة ، كما في السمعاني ٣٣٨ . قال : « والمشهور بهذه النسبة عمرو بن أبي عثمان الشمري ، رأس المعتزلة » .
(٥) الجعل : دويبة شبيهة بالخنفساء ، يضرب بها المثل في الحقارة والهوان ، وفي اللصوق بالإنسان يتبعه إلى الغائط ، إذ قالوا : « ألصق من جعل » . حياة الحيوان للدميري . و « من جعل » من ط فقط .
(٦) ب ، م : « يسبقون » ، صوابه في ط .
(٧) ب : « شيتهم ونابيتهم » م : « شيتهم ونابيتهم » ط : « شيههم ونابيتهم » ، والوجه ما أثبت .
(٨) في جميع النسخ : « في التشبيه به » ، وكلمة « به » مقحمة .
(٩) ب : « دايئون » ، صوابه في م ، ط .
(١٠) ط : « عددهم كثير » .
(١١) ب ، م : « يطيعهم » .
(١٢) ب ، م : « إلا أن » .



١٠

من كتابه في
الرد على النصارى

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
A 1977
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT
Est. 2012 CE





الحمد لله الذي مَنَّ علينا بتوحيده ، وجعلنا ممن ينفي شبهة خلقه (٢) وسياسة عباده (٣) ، وجعلنا لا نفرق بين أحدٍ من رُسُلِه ، ولا نَجسد كتاباً أوجب علينا الإقرار به ، ولا نُضيف إليه ما ليس منه ، إنه حميدٌ مجيدٌ ، فعَالٌ لما يريد :

أما بعدُ فقد قرأتُ كتابكم ، وفهمت ما ذكرتم فيه (٤) من مسائل النصارى قبلكم ، وما دخلَ على قلوب أحدائكم وُضعفائكم من اللبس ، والذي خفصتموه على جواباتهم من العجز ، وما سألتُم من إقرارهم بالمسائل ، ومن حُسنِ معونتهم بالجواب .

وذكرتم أنهم قالوا : إنَّ الدليل على أنَّ كتابنا باطلٌ ، وأمرنا فاسدٌ ، أننا ندعى عليهم ما لا يعرفونه فيما بينهم ، ولا يعرفونه من أسلافهم ، لأننا نزعُم أنَّ الله جلَّ وعزَّ قال في كتابه على لسانِ نبيِّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ (٥) ﴾ ، وأنهم زعموا أنهم لم يدينوا قطُّ بأنَّ

(١) نشر هذا الاختبار من قبل ، بعد ظهوره على هامش الكامل ، في مجموعة يوشع فنكل ، وعنوانها (ثلاث رسائل لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) وطبعت في المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ . وجعلت هذه المجموعة هدية من مجلة الزهراء التي كان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب ، إلى قرائها في السنة الثانية . والرسالة التي تليها هي (ذم أخلاق الكتاب) ، ثم (رسالة البيان) . وقد قت بنشرها تين الأخيرتين في الجزء الثاني من الرسائل في الصفحات ١٣٩ - ٢٠٩ .

(٢) يعني كونه مخلوقاً .

(٣) إشارة إلى ما يرى المعتزلة من أنه غير خالق لأفعال العباد ، فهم يخلقون أفعالهم ويريدونها ، فيحاسبون على ما فعلوا .

(٤) ب : « من ما ذكرتم » .

(٥) الآية ١١٦ من سورة المائدة .

مريم إله في سِرِّهم ، ولا ادَّعَوْا ذلك قطُّ في علانيتِهِمْ . وأنَّهُمْ زعموا أَنَّا ادَّعينا عليهم ما لا يعرفون ، كما ادَّعينا على اليهود ما لا يعرفون ، حين نطقَ كتابنا ، وشهدَ نبينا : أَنَّ اليهود قالوا : إِنَّ عزيراً ابن الله ^(١) ، وَإِنَّ يَدَ الله مغلولةٌ ^(٢) ، وَإِنَّ الله فقيرٌ وهم أغنياءُ ^(٣) . وهذا ما لا يتكلَّم به إنسان ، ولا يُعرَف في شيءٍ من الأديان .

ولو كانوا يقولون في عزيرٍ ^(٤) ما نَحَلْتُمون وادَّعيتُموه ، لَمَا جَحَدوه من دينهم ، ولَمَا أنكروا أَن يكونَ من قولهم ، ولما كانوا بإنكارِ بُنوةِ عزيرٍ أحقَّ منَّا بإنكارِ بنوةِ المسيح ، ولَمَا كان علينا منكم بأسٌ بعد عقيدِ الذمَّة ، وأخذِ الجزية .

وذكرتم أَنَّهُم قالوا : ومَّا يدلُّ على غلطكم في الأخبار ، وأخذكم العلم عن غير الثقات ^(٥) ، أَنَّ كتابكم ينطق : أَنَّ فرعون قال لِهَامانَ : ﴿ ابنِ لي صرحاً ^(٦) ﴾ . وهامانُ لم يكن إلَّا في زمنِ الفُرسِ ، وبعد زمنِ فرعونٍ بدهرٍ طويل ، وَإِنَّ ذلك معروفٌ عند أصحابِ الكُتُبِ ، مشهورٌ عند أهلِ العلم . وَإِنَّمَا اتَّخَذَ صرحاً ليكونَ إذا عَلَاهُ أشرفَ على الله . وفرعونٌ لا يخلو من أَن يكونَ جاحداً لله تعالى ، أو مقرباً به . فإن كان دينُهُ عند نفسه وأهلِ مملكته نفىَ الله وجَحَدَه ، فما وجهُ اتِّخَاذِ الصَّرحِ وطَلَبِ الإشرافِ ، وليس هناك شيءٌ ولا إله ؟

(١) ب : « عزير ابن الله » .

(٢) إشارة إلى الآية ٦٤ من المائدة .

(٣) إشارة إلى الآية ١٨١ من آل عمران .

(٤) ب فقط : « يقولون في شيءٍ في عزير » .

(٥) في جميع النسخ : « الثقات » ، وهو خطأ فادح في الرسم الذي يوجب رسم تاء جمع المؤنث السالم مبسوطة .

(٦) من الآية ٣٦ في غافر .

(٧) م فقط : « لم يكن في زمن الفرس » ، تحريف .

وإن كان مُتَمَرِّبًا بالله عارفاً به ، فلا يخلو من أن يكون مشبهاً أو نافياً
للتشبيه . فإن كان ممن يَنْفِي الطُول والعَرْض والعُمُق والحدود والجهات ،
فما وَجْه طلبه له في مكانٍ بعينه ، وهو عنده بكلِّ مكان ؟ وإن كان
مشبهاً فقد عَلِمَ أَنَّهُ ليس في طاقَةِ بنى آدم أن يَبْنُوا بُنْيَاناً ، أو يرفعوا
صَرحاً يخرِقُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ بَأَعْمَاقِهِنَّ ، والأجزاء التي يَبْنِيهِنَّ ، حتَّى يحاذي^(١)
العَرشَ ثم يعلِّوه .

وفرعونُ وإن كان كافراً فلم يكن مجنوناً ، ولا كان إلى نَقْصِ
العقلِ من بين الملوكِ منسوباً . على أنَّ الحُكْمَ قد يقوم^(٢) بعقول الملوكِ
بالفضيلة على عُقُول الرعية .

وذكرتم أَنَّهُمْ قالوا : تَزَعُمُونَ أَنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ يحيى بنَ زكريا
يُخَبِّرُ أَنَّهُ ﴿ لم يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾^(٣) ، وَأَنَّهُمْ يجدلون في كتبهم
وفيما لا يختلف فيه خاصَّتُهُمْ وعامَّتُهُمْ أَنَّهُ كان من قبل يحيى بن زكريا
غيرُ واحدٍ يقال له يحيى ، منهم : يُوْحَنَّا بن فرح^(٤) .

وزعمتم أَنَّهُمْ قالوا لكم^(٥) : إِنَّكُمْ ذَكَرْتُمْ أَنَّ اللهَ قال في كتابه
لنَبِيِّكُمْ : ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾^(٦) ، فاسألُوا أَهْلَ
الدُّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ^(٧) ، وَإِنَّمَا عَنِ بقوله : ﴿ أَهْلَ الدُّكْرِ ﴾ :

(١) ب : « يحازى » ، تحريف .

(٢) ب : « قد يقدم » . (٣) من الآية ٧ في سورة مريم .

(٤) لم أجده ذكره في كتب الجاحظ ، كما لم أجده له خبراً إلا في سفر إرميا ٤٠ : ٨
و٤١ : ١١ و٤٣ : ٦ . واسمه في هذا السفر : يوحانان بن قاريح .

(٥) ب فقط : « لك » صوابه في م ، ط .

(٦) كذا القراءة في الآية ٤٣ من سورة النحل . أما في الآية ٧ من سورة الأنبياء فقراءة
الجمهور فيها : « يوحى إليهم » ، كما ورد في نسخة ب . وقرأها حفص فقط : « نوحى إليهم »
انظر إتحاف فضلاء البشر ٣٠٩ .

(٧) هي الآية ٤٣ من سورة النحل ، ونصها هو نص الآية ٧ من سورة الأنبياء .

(٢٠ - رسائل الجاحظ)

أهل التوراة ، وأصحاب الكتب يقولون : إنَّ الله قد بعثَ من النساء نبيَّاتٍ ، منهم مريم بنت عمران ^(١) ، وبعثَ منهنَّ حنَّةَ ^(٢) ، وسارَى ^(٣) ، ورفقَى ^(٤) .

وذكرتهم أنهم قالوا : زَعَمْتُمْ أَنَّ عيسى تكلمَ في المهْد ، ونحن على تقديمنا له ، وتقريبنا لأمره ، وإفراطنا بزعمكم فيه ، على كثرة عددنا ، وتفاوت بلادنا ، واختلافنا فيما بيننا ، لا نعرف ذلك ولا ندعيه ^(٥) ، وكيف ندعيه ولم نسمعه عن سلفٍ ، ولا ادعاه منا مدعٍ .

ثم هذه اليهودُ لا تعرف ذلك ، وتزعم أنها لم تسمع به إلا منكم ، ولا تعرفه المجوسُ ، ولا الصابئون ، ولا عبَاد البِدَّة ^(٦) من الهند وغيرهم ،

(١) انظر بقية نسبا في الطبري ١ : ٥٨٦ .

(٢) هي حنة بنت فنوثيل ، من سبط أشير . إنجيل لوقا ٢ : ٣٦

(٣) سميت في العهد القديم « ساراي » تكونين ١١ : ٢٩ ، ٣٠ / ١٢ : ٥ ، ١١ ، ١٧ / ١٦ : ١ - ٩ وجاء في سفر التكوين ١٧ : ٥ في مخاطبة إبراهيم عليه السلام : « فلا يدعى اسمك بعد إبراهيم ، بل يكون اسمك إبراهيم » وفي الفقرة الخامسة عشرة منه : « وقال الله لإبراهيم : ساراي امرأتك لاتدعو اسمها ساراي ، بل اسمها سارا » . وفي حواشي سفر التكوين أن « سارة » بمعنى رئيسة . وسارة هذه هي بنت هاران الأكبر عم إبراهيم ، كما في الطبري ١ : ٢٤٤ ، وفيها الآية الكريمة : « وامراته قائمة فضحكتم فيشرهاها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » . وسارة تضبط بتخفيف الراء ، ويخطئ من يشدها ، وإن كانت قد ضبطت بذلك في اللسان (هجر ١١٨ ورقم ١٨٠) وشرح القسطلاني ٤ : ١٠٢ . ومما يعين ضبطها بتخفيف الراء قول جرير في ديوانه ٥٤٣ :

فيجمعنا والرز أولاد سارة أب لايبالي بعده من تمدرا

(٤) ورسمت في الطبري : « رفقا » ، وهو الوجه ، لأن جميع المنتهى بالألف اللينة من الأسماء الأعجمية حقه أن يكتب بالألف ، ماعدا الأسماء الخمسة : موسى ، عيسى ، كسرى ، بخارى ، مبي . وهي رفقا ابنة بتويل بن ناحور بن تارخ ، وهي امرأة إسحاق ، كما في الطبري ١ : ٣١٣ . وتسمى أيضاً « رفقة » في التكوين ٢٤ : ١٥ ، ٢٩ / ٢٥ : ٢٠ .

(٥) ب ، م : « لا يعرف ذلك ولا يدعيه » ، صوابه في ط .

(٦) اليد ، بالضم : الضم الذي يعيد ، وهو إعراب بت ، بالفارسية بضم الباء أيضاً . والجمع البددة . ب : « البدرة » ط : « المدرة » ، صوابهما في م . وانظر ما سبق في حواشي

ولا التُّرك والخزر^(١) ، ولا بلغنا ذلك عن أحدٍ من الأمم السالفة ، والقرون الماضية ، ولا في الإنجيل ، ولا في ذِكر صفاتِ المسيح في الكتب والبشاراتِ به على ألسنة الرُّسل .

ومِثْلُ هذا لا يجوز أن يجهله الوثى والعدو ، وغير الوثى وغير العدو ، ولا يضرَبَ به مثل ، ولا يروِّحَ به النَّاسُ ، ثم يُجمع النِّصارى على رده ، مع جُبْهِم لتقوية أمره . ولم يكونوا ليضادوكم^(٢) فيما يرجع عليهم نفعه . وكيف لم يكذبوكم في إحيائه الموتى ، ومشيئه على الماء ، وإبراء الأكمه والأبرص ؟! بل لم يكونوا ليتفقوا على إظهار خلاف دينهم ، وإنكار أعظم حجة كانت لصاحبهم ، ومِثْلُ هذا لا ينكتم ولا ينفكُ ممن يخالف وينم^(٣) .

والكلام في المهد أعجبُ من كلِّ عجب ، وأغربُ من كلِّ غريب ، وأبدعُ من كلِّ بديع ؛ لأنَّ إحياء الموتى والمشي على الماء ، وإقامة المُقعد ، وإبراء الأعمى ، وإبراء الأكمه^(٤) قد أدت به الأنبياء ، وعرفه الرُّسل ، ودار في أسماعهم . ولم يتكلَّم صبيُّ قطُّ ، ولا مولودٌ في المهد .

وكيف ضاعت هذه الآية ، وسقطت حجة هذه العلامة من بين كلِّ

علامة ؟ !

وبعد ، فكلُّ أعجوبة يأتى بها الرجال^(٥) ، والمعروفون بالبيان ،

(١) م : « والخزر » ، تحريف . والخزر : جيل من التُّرك كان مقر حكمهم في سهوب القوقاز الشمالية . وانظر مادق (بلغار) و (الخزر) في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) ب ، م : « ولم يكن ليضادوهم » .

(٣) ب فقط : « وينم » بالياء .

(٤) الأكمه : الذى يولد أعمى ، ومصدره الكمه ، بالتحريك . وربما جاء الكمه في

الشعر للمعى العارض ، كما جاء في قول سويد بن أبي كاهل اليشكرى في المفضليات ٢٠٠ :

كهمت عيناه لما ابيضتا فهو يلحى نفسه لما نزع

(٥) ب ، م : « الرجل » ، وأثبت ما في ط .

والمنسوبيون إلى صوابِ الرأي ، تكون (١) الحيلة في الظنِّ إليها أقرب ،
 وخوفُ الخُدعةِ عليها أغلب . والصبيُّ المولودُ عاجزٌ في الفطرة ، ممتنعٌ من
 كلِّ حيلة ، لا يُحتاج فيه إلى نظر ، ولا يشبَّهه من شاهده بدخَل (٢) .

٢ - فصل منه

وستقول في جميع ما وردَ علينا من مسائلكم ، وفيما لا يقع إليكم من
 مسائلهم ، بالشواهد الظاهرة ، والحُجج القويّة ، والأدلة الاضطرارية ،
 ثم نسألهم بعد جوابنا إياهم عن وجوه يعرفون بها انتقاص قولهم ، وانتشار
 مذهبهم (٣) ، وتهاقت دينهم .

ونحن نعوذ بالله من التكلف وانتحالِ مالا نُحسِن ، ونسأله القصدَ
 في القول والعمل ، وأن يكون ذلك لوجهه ، ولتصرة دينه ، إنّه قريبٌ
 مجيب .

فأنا مبتدئٌ في ذكر الأسباب التي لها (٤) صارت النصرارى أحبَّ
 إلى العوامِّ من المجوس ، وأسلمَ صُدوراً عندهم من اليهود ، وأقربَ
 مودةً ، وأقلَّ غائلةً ، وأصغرَ كُفراً ، وأهونَ عذاباً .

ولذلك أسبابٌ كثيرة ، ووجودٌ واضحة ، يعرفها من نظر ، ويجعلها
 من لم ينظر .

(١) ب ، م : « فكون » ، صوابه في ط .

(٢) ط فقط : « ولا يشبهه » . والدخل ، بالتحريك وبالفتح أيضاً : الريبة والنش .
 قال الله تعالى : « تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم » . وفي كلام ابنة الحسن :
 ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل

(٣) انتشار مذهبهم : تفرقه وعدم ترابطه . ويقولون : ضم الله شرك ، بالتحريك ، أى
 لم شملك .

(٤) ب : « التي بها » .

أَوَّلُ ذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا جِيرَانِ الْمُسْلِمِينَ بِيَثْرَبَ وَغَيْرِهَا ، وَعِدَاوَةٌ الْجِيرَانِ شَبِيهَةٌ بِعِدَاوَةِ الْأَقْرَابِ فِي شِدَّةِ التَّمَكُّنِ وَثَبَاتِ الْحَقْدِ ، وَإِنَّمَا يُعَادِي الْإِنْسَانَ مَنْ يَعْرِفُ ، وَيَمِيلُ عَلَى مَنْ يَرَى ، وَنِيَاقِضُ مِنْ يُشَاكِلُ ، وَيَبْدُو لَهُ عَيْبٌ مِنْ يُخَالِطُ . وَعَلَى قَدْرِ الْحَبِّ وَالْقُرْبِ يَكُونُ الْبُغْضُ وَالْبُعْدُ ، وَلِذَلِكَ كَانَتْ حُرُوبُ الْجِيرَانِ وَبَنِي الْأَعْمَامِ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ وَسَائِرِ الْعَرَبِ أَطْوَلَ ، وَعِدَاوَتُهُمْ أَشَدَّ .

فَلَمَّا صَارَ الْمُهَاجِرُونَ لِلْيَهُودِ جِيرَانًا ، وَقَدْ كَانَتْ الْأَنْصَارُ مُتَقَدِّمَةً الْجَوَارِ ، مَشَارِكَةً فِي الدَّارِ ، حَسَدَتْهُمُ الْيَهُودُ عَلَى النِّعْمَةِ ^(١) فِي الدِّينِ ، وَالْاجْتِمَاعِ بَعْدَ الْإِفْتِرَاقِ ، وَالتَّوَاضُّلِ بَعْدَ التَّقَاتُوعِ ، وَشَبَّهُوا عَلَى الْعَوَامِ ^(٢) ، وَاسْتَمَلُّوا الضَّعْفَةَ ، وَمَالَتْهُوا ^(٣) الْأَعْدَاءَ وَالْحَسَدَةَ ، ثُمَّ جَاوَزُوا الطَّعْنَ وَإِدْخَالَ الشُّبْهَةِ ، إِلَى الْمَنَاجِزَةِ وَالْمُنَابَذَةِ بِالْعِدَاوَةِ ، فَجَمَعُوا كَيْدَهُمْ ، وَبَدَلُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي قِتَالِهِمْ ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَطَالَ ذَلِكَ وَاسْتَفْضَأَ فِيهِمْ ^(٤) وَظَهَرَ ، وَتَرَادَفَ لِذَلِكَ الْغَيْظُ ، وَتَضَاعَفَ الْبُغْضُ ، وَتَمَكَّنَ الْحَقْدُ .

وَكَانَتْ النَّصَارَى لِبُعْدِ دِيَارِهِمْ ^(٥) ، مِنْ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُهَاجِرِهِ ، لَا يَتَكَلَّفُونَ طَعْنًا ^(٦) ، وَلَا يُثِيرُونَ كَيْدًا ^(٧) ،

(١) ب ، م : « حسدتهم اليهود النعمة » ، وهي صحيحة أيضاً ، يقال حسده على الشيء ، وحسده إياه ، كما في قول شمر بن الحارث الضبِّي :

فقلت إلى الطعام فقال منهم زعيم نخسد الإنس الطعاما

(٢) ط فقط : « القوام » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « ومالوا » ، صوابه في ط . والمالأة : المساعدة ، والمشايمة .

(٤) ب ، م : « واستقاص فيهم » ، صوابه في ط .

(٥) ب ، م : « ديارها » .

(٦) ب ، م : « لا يتكلف ظمناً » ، صوابه في ط .

(٧) ب ، م : « ولا يستر كيداً » ، والوجه في ط .

ولا يجمعون على حرب^(١). فكان هذا أول أسباب ما غلظت القلوب على اليهود، وليئها على النصارى.

ثم كان من أمر المهاجرين إلى الحبشة، واعتمادهم على تلك الجنبية^(٢) ما حببهم^(٣) إلى عوام المسلمين. وكلما لانت القلوب لقوم غلظت على أعدائهم، وبقدر ما نقص من بغض النصارى زاد في بغض اليهود. ومن شأن الناس حب من اصطنع إليهم خيراً أو جرى على يديه^(٤)، أراد الله بذلك أو لم يرده، ويقصد^(٥) كان أم باتفاق.

وأمر آخر، وهو من أمتن أسبابهم وأقوى أمورهم، وهو تأويل آية غلظت فيها العامة حتى نازعت الخاصة، وحفظتها النصارى واحتجبت، واستالت قلوب الرعاع والسفلة، وهو قول الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾^(٦). إلى قوله: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٧). وفي نفس الآية أعظم الدليل على أن الله تعالى لم يعن هؤلاء النصارى ولا أشباههم: الملكانية^(٨) واليعقوبية^(٩)، وإنما عنى

(١) ب، م: «ولا يجمع على حرب»، تحريف.

(٢) الجنبية: الجانب. وفي ط فقط: «الجهة».

(٣) ب فقط: «ماجهم»، صوابه في م، ط.

(٤) الكلام بعده إلى كلمة «باتفاق» ساقط من ط.

(٥) في الأصل، وهو هنا ب، م: «وبعد»، والوجه ما أثبت.

(٦) الآية ٨٢ من سورة المائدة.

(٧) يعنى الآيات ٨٢ - ٨٥ من سورة المائدة.

(٨) ب فقط: «الملكانية»، صوابه في م، ط. ويقال ملكانية وملكائبة أيضاً بالهمز،

كما في مفاتيح العلوم ٢٣. ويقال أيضاً الملكية، كما في التنبيه والإشراف للمسعودي ١٢٣،

١٢٤، ١٣٠، ١٣٢، ١٣١. وجاء في مفاتيح العلوم ٢٣: «وهم منسوبون إلى ملكاء، وهم

أقدمهم»، أي أقدم النصارى. وفي الملل والنحل ٢: ٦٢: «الملكائبة أصحاب ملكا الذي ظهر

بالروم واستولى عليها». والحق أن الملكانيين منسوبون إلى «ملكاء» ومعناه الملك بالسرمانية.

والمراد بهم أتباع مذهب قياسرة الروم الذي يسمى أيضاً المذهب الخلقيدوني، الذي أقره الجمع

المعقود في خلقيدونية سنة ٤٥١م. وفي مفاتيح العلوم: «وأهل الروم كلهم ملكائبة». وانظر

تاريخ الأمة القبطية (الحلقة الثانية ص ٩١ - ٩٣).

(٩) اليعقوبية، أو اليعاقبة: ثلاثة فرق قدماء النصارى، وهم الملكانية، والنسطورية، =

ضَرْبٌ بَحِيرًا^(١) ، وَضَرْبُ الرَّهْبَانِ الَّذِينَ كَانَ يَخْدُمُهُمْ سَلْمَانُ^(٢) .
 وبين حَمَلٍ قَوْلِهِ^(٣) : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ﴾ على الغَلَطِ منهم
 في الأَسْمَاءِ ، وبين أَن نَجْزِمَ عَلَيْهِمْ^(٤) لَأَنَّهُمْ نَصَارَى - فرق .

كما ذكر اليهودُ أَنَّهُ جَاءَ الإِسْلَامُ وَمَلُوكُ الْعَرَبِ رِجْلَانِ : غَسَّانِيٌّ
 وَلَحْمِيٌّ ، وهما نَصْرَانِيَّانِ ، وقد كانت الْعَرَبُ تَدِينُ لهُمَا ، وتوَدُّ
 الإِتَاوَةَ إِلَيْهِمَا ، فكان تعظيمُ قلوبهم لهما راجعاً^(٥) إلى تعظيمِ دينهما .
 وكانت تِهَامَةٌ ، وإن كانت لِقَاحاً^(٦) لا تدين الدين^(٧) ، ولا توَدُّ

= واليعقوبية . وهم ينسبون إلى مار يعقوب . قال الخوارزمي في مفاتيح العلوم : « وهم قليل » .
 وفي الفصل لابن حزم ١ : ٤٩ : « ينسبون إلى يعقوب البرذعاني ، وكان راهباً بالقسطنطينية » .
 وانظر الملل والنحل ٢ : ٦٦ .

(١) بجيرا الراهب ، بفتح الباء ، كما في القاموس ، وقد رسم بالياء في آخره في القاموس
 وشرحه ، والوجه كتابته بالألف كما في الإصابة ٥٩٥ . وهو الذي لقي الرسول صلى الله عليه وسلم
 قبل البعثة في ركب قريش حين نزلوا بصرى من أرض الشام ، فاستضافهم جميعاً ، وعرف رسول
 الله بما كان يعرف من صفته من قبل . السيرة ١١٥ - ١١٧ .

(٢) سلمان الفارسي : صحابي جليل ، أصله من رام هرمز ، وقيل من أصبهان ، وكان قد
 سمع بأن النبي صلى الله عليه وسلم سيبعث ، فخرج في طلب ذلك ، وأسلم ، وشهد بدرأ ،
 وأخى النبي بينه وبين أبي الدرداء . الإصابة ٣٣٥٠ . والسيرة ١٣٦ ، ٣٤٥ ، ٦٦٣ ، ٦٧٧ .
 ب : « نجد منهم سلمان » م : « يجذبهم سلمان » وفي ط : « يجذبهم سلمان » ، والصواب ما أثبت .
 وقد وجدت نصاً صريحاً في سيرة ابن هشام ١٣٨ يقول فيه سلمان لأستغفرك في الشام قبل
 إسلامه : « إنني قد رغبت في هذا الدين فأحببت أن أكون معك وأخضع لك في كنيستك » . ثم تروى
 السيرة تنقله في كنائس الموصل ، ونصيبين ، وعمورية ، ومن عمورية انتقل إلى أرض العرب
 حتى كان بالمدينة ولقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل في الإسلام .

(٣) ب ، م : « وبين قوله » بسقوط كلمة « حمل » .

(٤) ب : « نجزم » ط : « نجري » . وأثبت ما في م .

(٥) ب ، م : « راجعة » ط : « راجع » ، صوابها ما أثبت .

(٦) يقال حى لقاح ، كسحاب : لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم سبباً في
 الجاهلية . قال ثعلب : مشتق من لقاح الناقة ، لأن الناقة إذا لقت لم تطاوع الفحل .

(٧) « الدين » ساقطة من ط . وفي ب ، م : « لا يدين » . صوابها في ط .

الإتاوة ، ولا تدين للملوك ، فإنَّها ^(١) كانت لا تمنع من تعظيم ما عظم الناس ، وتصغير ما صغروا .

ونصرانية النعمان وملوك عَسَانَ مشهورة في العرب ، معروفة عند أهل النَّسَب ، ولولا ذلك لدلَّتُ عليها ^(٢) بالأشعار المعروفة ، والأخبار الصحيحة .

وقد كانت تتجر إلى الشَّام ، وينفذ ^(٣) رجالها إلى ملوك الروم ، ولها رحلة في الشتاء والصَّيف ، في تجارة مرَّة إلى الحبشة ، ومرَّة قبِلَ الشام ، ومرَّة بيشرب ^(٤) ، ومصيفها بالطائف ، ومرَّة منيحين مستأنفاً بحمده ^(٥) ، فكانوا أصحاب نعمة ، وذلك مشهورٌ مذكورٌ في القرآن ، وعند أهل المعرفة .

وقد كانت تهاجر إلى الحبشة ^(٦) ، وتأتي باب النَّجاشي وافدةً ، فيحبُّوهم بالجزيل ^(٧) ، ويعرفن لهم الأقدار ، ولم تكن تعرف كسرى ^(٨) ، ولا تأنس بهم . وقيصرُ والنَّجاشيُّ نصرانيان ، فكان ذلك أيضاً للنَّصارى ، دون اليهود .

والآخر من النَّاس تبعٌ للأوَّل في تعظيم من عظم ، وتصغير من صغَّر .

(١) ب ، م : « وبأنها » ط : « لأنها » ، والوجه ما أثبت

(٢) ب فقط : « عليه » تحريف . (٣) ط فقط : « وتنفذ » .

(٤) ومرَّة بيشرب ، ساقطة من ط .

(٥) وكذا وردت هذه العبارة في ب . م مع سقوطها من ط . لكن في م : « بجده » . ولعلها

« ومرَّة ميمينين » من أيمن ويمين تيميناً ، إذا أتى اليمن .

(٦) ب ، م : « تهاجر الحبشة » ، صوابها في ط .

(٧) يحبُّوهم ، من الحياء ، وهو العطاء بلا من ولا جزاء . ب ، م : « فيحبُّوهم » ط :

« فيحبُّوهم » ، صوابها ما أثبت .

(٨) ط : « ولم يكن يعرف ذلك كسرى » .

وأخرى^(١) : أن العرب كانت النصرانية فيها فاشية ، وعليها غالبية ،
 إلا مُضَر ، فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية ، ولم تَفْشُ فيها النصرانية ،
 إلا ما^(٢) كان من قومٍ منهم نزلوا الحيرة^(٣) يسمون : العباد ، فإنهم
 كانوا نصارى ، وهم مغمورون مع نَبْدٍ يسير^(٤) في بعض القبائل .
 ولم تعرف مُضَرُ إلا دينَ العرب ، ثم الإسلام .

وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها : على لخم ، وغسان ،
 والحارث بن كعب بنجران ، وقضاة ، وطى ، في قبائل كثيرة ،
 وأحياء معروفة . ثم ظهرت في ربيعة فغلبت على تغلب وعبد القيس
 وأفناء بكر^(٥) ، ثم في آل ذى الجدين خاصة .

وجاء الإسلام وليست اليهودية^(٦) بغالبة على قبيلة ، إلا ما كان
 من ناسٍ من اليمانية ، ونَبْدٍ يسير^(٧) من جميع إيادٍ وربيعة . ومعظم
 اليهودية إنما كانت ببشرَبَ وحِميرَ وتيآة ووادى القري ، في ولد هارون ،
 دون العرب .

فعطفت قلوبَ دهماء العرب على النصارى المُلْكُ الذى كان فيهم ،
 والقراية التى كانت لهم . ثم رأت عوامنا أن فيها مُلكاً قائماً ، وأن
 فيهم عرباً كثيرة^(٨) ، وأن بناتِ الروم وكلدن الملوك الإسلام ، وأن في

(١) ط : « وأخرى ، وهى » .

(٢) في الأصول : « إلا من كان » ، ووجه ما أثبت .

(٣) نزلوا الحيرة ، ساقط من ب .

(٤) النبذ ، بالفتح : الشيء القليل . ب فقط : « معمورون مع نبذ يسيرة » ،

صوابه في ط .

(٥) الأقيام : الأخطاط النزاع من هاهنا وهاهنا ، الواحد فتو ، بالكسر .

(٦) ب ، م : « لليهودية » ، صوابه في ط .

(٧) ب : « ونبذ يسيرة » تحريف . وانظر ما مضى قريباً .

(٨) ب ، م : « غرباً كثيرة » صوابه بالعين المهملة كما في ط .

النصارى متكلمين وأطباءً ومنجمين ، فصاروا بذلك عندهم عقلاء وفلاسفةً حكماء ، ولم يروا ذلك في اليهود .

وإنما اختلفت ^(١) أحوال اليهود والنصارى في ذلك لأن اليهود ترى أن النظر في الفلسفة ^(٢) كفر ، والكلام في الدين بدعة ، وأنه مجلبة لكل شبهة ، وأنه لا علم إلا ما كان في التوراة وكتب الأنبياء ، وأن الإيمان بالطب ، وتصديق المنجمين من أسباب الزندقة والخروج إلى الدهرية ، والخلاف على الأسلاف وأهل القدوة ، حتى إنهم ليبهرجون المشهور بذلك ، ويحرمون كلام من سلك ^(٣) سبيل أولئك .

ولو علمت العوام أن النصارى والرؤم ليست لهم حكمة ولا بيان ، ولا بعد روية ^(٤) ، إلا حكمة الكف ، من الخرط والنجر والتصوير ، وحياسة البيزون ^(٥) لأخرجتهم من حدود الأدباء ، ولمحتهم من ديوان الفلاسفة والحكماء ؛ لأن كتاب المنطق والكون والفساد ، وكتاب العلوى ^(٦) ، وغير ذلك ، لأرسطاطليس ^(٧) ، وليس بروي ولا نصراني . وكتاب المجسطي لبطليموس ^(٨) ، وليس بروي ولا نصراني . وكتاب إقليدس لإقليدس ، وليس بروي ولا نصراني .

(١) ب ، م : « اختلف » .

(٢) ب فقط : « في الفلسفة » .

(٣) ط : « كلام سالك » .

(٤) ب ، م : « روية » .

(٥) البيزون : السندس . قال ابن بري : هو رقيق الديباج . وضبطه صاحب القاموس

كجردحل وعصفور ، وصاحب اللسان بالضم فقط . ط : « البيزون » تحريف . وانظر اللسان والقاموس (بزن) .

(٦) ذكره في الحيوان ٦ : ٢٨٠ باسم « الآثار العلوية » . ط فقط : « العلوى » تحريف .

(٧) ب ، م : « لأرسطاطليس » ، وأثبت مافي ط والحيوان .

(٨) انظر حواشي الحيوان ١ : ٨٠ .



وكتاب الطبِّ لجالينوس ، ولم يكن رومياً ولا نصرانياً .

وكذلك كتب ديمقراط وبقراط وأفلاطون ، وفلان وفلان .

وهؤلاء ناسٌ ^(١) من أمةٍ قد بادوا وبقيت آثارُ عقولهم ، وهم اليونانيون ، ودينهم غير دينهم ، وأدبهم غير أدبهم ، أولئك علماء ، وهؤلاء صنَّاعٌ أخذوا كتبهم ^(٢) لقرب الجوار ، وتدانى الدار ، فمنها ما أضافوه إلى أنفسهم ، ومنها ما حولوه إلى ملَّتهم . إلا ما كان من مشهورِ كتبهم ، ومَعروفِ حكيمهم ، فإنهم حين لم يَقْدِرُوا على تغيير أسماؤها زَعَمُوا أَنَّ اليونانيين قبيلٌ من قبائل الروم ، ففجروا ^(٣) بأديانهم على اليهود ، واستطالوا بها على العرب ، وبَدِخُوا بها على الهند ^(٤) ، حتَّى زعموا أَنَّ حكماءنا أتباعُ حكمائهم ، وَأَنَّ فلاسفتنا اقتدوا على مثالمهم ^(٥) ، فهذا هذا .

ودينهم ^(٦) يرحمك الله - يضاهي الزندقة ، ويناسبُ في بعض وجوهه قولَ الدهرية ، وهم من أسبابِ كلِّ حيرةٍ وشبهة .

والدليل على ذلك أننا لم نرَ أهلَ ملةٍ ^(٧) قطُّ أكثرَ زندقةً من النصارى ، ولا أكثرَ متحيراً أو مترنحاً منهم ^(٨) .

وكذلك شأنُ كلِّ من نظر في الأمور الغامضة بالعقول الضعيفة :
ألا ترى أَنَّ أكثرَ من قُتِلَ في الزندقة ممن كان ينتحل الإسلامَ ويُظهره ،

(١) ط فقط : « أناس » .

(٢) ب : « أخذ وكتبهم » ، وهو تحريف كتابي .

(٣) ب ، م : « فجروا » ، صوابه في ط .

(٤) البذخ والبذوخ : تطاول الرجل بكلامه وافتخاره ، وفعله كفرح يفرح ، وقعد يقعد .

(٥) ب : « اقتدروا » ، تحريف . ط : « احتنوا » ، وأثبت ما في م .

(٦) ط : « فهذا هو دينهم » ، وإخاله تصرفاً من الناشر . وما أثبتته م ب ، م هو لغة الجاحظ .

(٧) ط : « أهل مكة » ، صوابه في ب ، م .

(٨) الترنيح : التمايل والاضطراب . وفي جميع الأصول : « متحيزاً » بالزاي ، صوابه ما أثبت .



هم^(١) الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى .
على أنك لو عدتَ اليومَ أهلَ الظَّنَّةِ ومواضعِ التُّهْمَةِ لم تجدَ أكثرَهم
إِلَّا كذلك .

ومَّا عَظَّمهم في قلوبِ العوامِّ ، وحَبَّبهم إلى الطَّعامِ ، أنَّ منهم كُتَّابُ
السُّلَاطِينِ ، وقَرَّاشِي الملوِكِ^(٢) ، وأطباءُ الأشرافِ ، والعطَّارينَ والصَّيارِفَةَ .
ولا تجدُ اليهوديَّ إِلَّا صَبَّاغًا ، أو دَبَّاغًا ، أو حَجَّامًا ، أو قَصَّابًا ، أو
شَعَّابًا .

فلَمَّا رأتِ العوامُّ اليهودَ والنَّصارى توهَّمتُ أنَّ دينَ اليهودِ في الأديانِ
كصناعتهم في الصَّناعاتِ ، وأنَّ كُفْرهم أَقْدَرُ الكُفْرِ، إذ كانوا هم أَقْدَرُ الأُمَمِ .
وإنَّمَا صارتِ النَّصارى أَقْلًا مَسَاخَةً من اليهودِ^(٣) ، على شِدَّةِ مَسَاخَةِ
النَّصارى ، لأنَّ الإِسْرَائِيلِيَّ لا يَزُوجُ إِلَّا الإِسْرَائِيلِيَّ، وكلَّ مَنَّا كَجِهَمِ مردودَةٌ
فيهم^(٤) ، ومَقْصُورَةٌ عليهم ، وكانتِ الغرائبُ لا تُشَوِّبهم ، وفحولةُ
الأجْناسِ لا تُضْرِبُ ولا تُضْرَبُ فيهم ، لم يُنْجَبُوا في عَقْلٍ ولا أَسْرٍ
ولا مِلْجٍ^(٥) . وإنَّكَ لتعرفُ ذلكَ في الخيلِ والإِبِلِ ، والحميرِ والحمامِ .
ونحنُ - رحمك اللهُ - لم نُخالفِ العوامِّ في كَثْرَةِ أموالِ النَّصارى ،
وأنَّ فيهم مُمْلَكًا قائمًا ، وأنَّ ثيابهم أنظفُ^(٦) ، وأنَّ صناعتهم أحسنُ .

(١) ب : « وهم » ، والواو مقحمة .

(٢) يراد بالفراش من يتعهد فراش البيت وأثاثه . وانظر ما كتبت في ذلك في (حول
ديوان البحرى) ٣٩ - ٤٠ والحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٣) المسيح من الناس : الذى الذى لا ملاحه له . وقد مسخ مساخة .

(٤) ب : « وكل منّا كجهم مردون فيهم » ط : م : « وكل منّا كجهم مردودة فيهم » ،
صوابهما ما أثبت .

(٥) الأسر : شدة الخلق . وفي التنزيل العزيز : « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم » . والملح ،
بالكسر : الرضاع واللبن .

(٦) ب : « وأن ماهم م » : « ماهم م » ط : « ماهم م » ، والوجه ما أثبت . وانظر
ما سياتى في ٣٢٥ من قوله : « والنصراني وإن كان أنظف ثوباً » .

وإنما خالفنا في فرق ما بين الكُفْرين والفرقتين ، في شدة المعاندة واللَّجاجة ، والإِرصادِ لأهلِ الإسلامِ بكلِّ مَكيدة ، مع لُؤمِ الأُصول ، وخبثِ الأعراف .

فأما المُلْكُ والصُّنعةُ والهيئةُ ، فقد علمنا أَنَّهُم اتَّخذوا البراذين الشهريَّة^(١) ، والخيَلَ العِتاقَ ، واتَّخذوا الجَوَقاتِ^(٢) ، وضَرَبوا بالصَّوالِجةَ ، وتحذَفُوا المِدينيَّ^(٣) ، وليسوا المُلحَمَ والمطبَّقةَ^(٤) ، واتَّخذوا الشاكريَّةَ^(٥) ، وتسمَّوا بالحسن والحُسَيْنَ ، والعبَّاسَ والفضلَ وعليَّ ، واكْتَنَوْا بذلك أَجمع ، ولم يبقَ إلَّا أَنْ يتسمَّوا بِمحمَّد ، ويكْتَنُوا بِأبي القاسم . فرغب إليهم المسلمون ، وترك كثيرٌ منهم عقَدَ الزَّنانيِر ، وعَقَدَها آخرونَ^(٦) دونِ ثِيابهم ، وامتنع كثيرٌ من كُبرائهم من إعطاءِ الجزية ، وأنفوا مع أَقدارهم من دفعها^(٧) وسَبُّوا مَنْ سَبَّهم ، وضربوا من ضَرَبَهم .

(١) الشهريَّة ، سبق تفسيرها في ١٢٨ . وكلمة « اتَّخذوا » ساقطة من ب ، م .
 (٢) الجوقة : جماعة من الناس ، معربة كما في شفاء الغليل . والمراد فرق الفروسيَّة ونحوها .
 (٣) تحذيف الشعر : تطريزه وتسويته . وفي اللسان : « قال النضر : التحذيف في الطرة أن تجعل سكينية كما تفعل النصارى » . فقد وضع التحذف هنا موضع التحذيف . وفي الأُصول هنا : « وتحذقوا » ، ولا وجه له .

(٤) في اللسان : « الملحم : جنس من الثياب » . وفي القاموس : « وككرم : جنس من الثياب » . وألم الناسج الثوب . وفي المثل : « ألحم ما أسديت » أي تم ما ابتدأته من الإحسان . واللمعة ، بالضم : غيوط النسج العرضية يلحم بها السدى ، كما في المعجم الوسيط . وفيه أيضاً : « الملحم جنس من الثياب يختلف نوع سداه ونوع لحمته ، كالصوف والقطن ، أو الحرير والقطن » ، أي لا يكونان من نوع واحد . أما المطبقة ، فهي من قولهم : طابق بين قيصين : لبس أحدهما على الآخر . فالمراد الثياب المزوجة المتطابقة .

(٥) الشاكريَّة ، يراد بهم الجند المستأجرون ؛ لأن الشاكري معناه كما في القاموس : الأجير المستخدم ، معرب جاكرك . وانظر حواشي الحيوان ٢ : ١٣٠ ورسائل الجاحظ ١ : ٣٠

(٦) ب ، م : « وعقدوها آخرون » ، وأثبت ما في ط .

(٧) ب ، م : « وأنف مع أَقدارهم من دفع » ، صوابه في ط .

وما لم لا يفعلون ذلك وأكثر منه ، وقضاتنا أو عامتهم^(١) يرون أن دم الجائليق^(٢) والمطران والأسقف وفاة بدم جعفر وعلى والعياس وحمزة .

ويرون أن النصراني إذا قذف أم النبي صلى الله عليه وسلم بالغواية^(٣) أنه ليس عليه إلا التعزير والتأديب^(٤) ، ثم يحتجون أنهم إنما قالوا ذلك لأن أم النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن مسلمة . فسبحان الله العظيم ! ما أعجب هذا القول^(٥) وأبين انتشاره^(٦) !

ومن حُكم النبي صلى الله عليه وسلم : أن لا يسأونا في المجلس ، ومن قوله : « وإن سبوكم فاضربوهم ، وإن ضربوكم فاقتلوهم » .

وهم إذا قذفوا أم النبي عليه السلام بالفاحشة لم يكن له عند أمته إلا التعزير والتأديب . وزعموا أن افتراءهم على النبي ليس بنكث للعهد ، ولا بنقض للعقد .

وقد أمر النبي عليه السلام أن يُعطونا الضريبة عن يد منّا عالية^(٧) في قبولنا منهم^(٨) ، وعقدنا لذمتهم ، دون إراقة دمهم^(٩) . وقد حكم الله تعالى عليهم^(١٠) بالذلة والمسكنة .

(١) ط فقط : « وعامتهم » .

(٢) الجائليق ، بفتح الشاء : رئيس من رؤساء النصارى ، يكون تحته المطران ، ثم الأسقف ثم القسيس ، ثم الشماس .

(٣) الغواية ، بالفتح : الضلال . ب ، م : « بالغوية » ، صوابه في ط .

(٤) التعزير : التأديب والعقاب .

(٥) ب ، م : « القوم » ، تحريف ماق ط .

(٦) انتشار الأمر : عدم إحكامه . ط فقط : « انتشاره » .

(٧) ب ، م : « عليه » ، وتصح إذا قرئت « عليه » .

(٨) ب ، م : « منه » .

(٩) ب ، م : « وعقدنا له ذمته دون إراقة دمه » .

(١٠) ب ، م : « عليه » .

أَوْ مَا يَنْبَغِي^(١) لِلْجَاهِلِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْأَيْمَةَ الرَّاشِدِينَ ، وَالسَّلَفَ الْمُتَقَدِّمِينَ لَمْ يَشْتَرُطُوا عِنْدَ أَخْذِ الْجِزْيَةِ ، وَعَقَدَ الذِّمَّةَ عَدَمَ الْاِفْتِرَاءِ^(٢) عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتِهِ ، إِلَّا^(٣) لِأَنَّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ أَعْظَمُ فِي الْعْيُونِ ، وَأَجَلٌ فِي الصُّدُورِ مِنْ أَنْ يَحْتَاجُوا إِلَى تَخْلِيدِهِ فِي الْكُتُبِ ، وَإِلَى إِظْهَارِ ذِكْرِهِ بِالشَّرْطِ ، وَإِلَى تَثْبِيثِهِ بِالْبَيِّنَاتِ^(٤) ، بَلْ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَكَانَ فِيهِ الْوَهْنُ عَلَيْهِمْ ، وَالْمَطْمَعَةُ فِيهِمْ ، وَلِظَنُّوا أَنَّهُمْ فِي الْقَدْرِ الَّذِي يُحْتَاجُ فِيهِ^(٥) إِلَى هَذَا وَشَبِيهِهِ .

وإنما يتواتقُ النَّاسُ فِي شُرُوطِهِمْ ، وَيُفَسِّرُونَ فِي عُهُودِهِمْ مَا يُمَكِّنُ فِيهِ الشُّبُهَةَ ، أَوْ يَقَعُ فِيهِ الْغَلَطُ ، أَوْ يَغَيَّبِي عَنْهُ الْحَاكِمُ^(٦) ، وَيُنْسَاهُ الشَّاهِدَ ، وَيَتَعَلَّقُ بِهِ الْخَضَمُ ، فَأَمَّا الْوَاضِحُ الْعَجَلِيُّ^(٧) ، وَالظَّاهِرُ الَّذِي لَا يُخَيَّلُ^(٨) فَمَا وَجِهَ اشْتِرَاطَهُ ، وَالتَّشَاغُلِ بِذِكْرِهِ .

وَأَمَّا مَا احْتَجَّاجُوا إِلَى ذِكْرِهِ فِي الشَّرُوطِ ، وَكَانَ مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يَظْهَرَ فِي الْعَهْدِ فَقَدْ فَعَلُوهُ ، وَهُوَ كَالذَّلَّةِ وَالصَّغَارَةِ^(٩) ، وَإِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ ، وَمُقَامَةِ الْكِنَائِسِ ، وَأَنْ لَا يُعِينُوا بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى بَعْضٍ ، وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ . فَأَمَّا

(١) ط فقط : « وما ينبغي » .

(٢) كلمة « عدم » من ط .

(٣) إلا ، ساقطة من ب .

(٤) ط : « وتثبितه بالبينات » .

(٥) ب ، م : « فيهم » .

(٦) غيبي عنه غياه وغبوة : لم يفعل له . ب ، م : « يغيب » بالنون . ط : « يعيا » ،

صوابهما ما أثبت .

(٧) الجلي : الظاهر . ب ، م : « الجليل » .

(٨) لا يخيل على أحد : لا يشكل . ط : « لا يخيل غيره » ، تحريف .

(٩) الصغارة ، كسحابة : صغر القدر . وفي اللسان : « ابن سيده : الصغر والصغارة :

خلاف العظم . وقيل الصغر في الجرم والصغارة في القدر » . ب ، م : « والصغيرة » ط :

« الصغارة » بالفاء ، ووجهها ما أثبت .

أن يقولوا لمن هو أذلُّ من الدَّلِيلِ ، وأقلُّ من القليلِ ، وهو الطالبُ الراغبُ في أخذِ فديته ، والإنعامِ عليه بقبضِ جزيته وحسنِ دمه : نُعاهدك على أن لا تفتري^(١) على أمة^(٢) رسولِ ربِّ العالمين ، وخاتمِ النبيين ، وسيدِّ الأولين والآخِرِينَ^(٣) فهذا ما لا يجوز^(٤) في تدبيرِ أوساطِ الناسِ ، فكيف بالجِلَّةِ والعِليَّةِ ، وأئمةِ الخليقةِ ، ومصابيحِ الدُّجى ، ومَنَارِ الهُدَى ، مع أنفَةِ العربِ ، وبأوِّ السُلطانِ^(٥) ، وغَلَبَةِ الدولةِ ، وعزِّ الإسلامِ ، وظهورِ الحجَّةِ ، والوعْدِ بالنُّصرةِ .

على أنَّ هذه الأُمَّةَ لم تُبتَلْ باليهودِ ، ولا المجوسِ ، ولا الصابئين كما ابتليتْ بالنصارى^(٦) . وذلك أَنَّهُم يَتَّبِعُونَ المتناقض من أحاديثنا ، والضعيفِ بالأَسنادِ من روايتنا ، والمتشابهِ من آيِ كتابنا ، ثم يَخْلُونَ بضعفائنا ، ويسألونَ عنها عوامنًا ، مع ما قد يعلمون من مسائلِ المُلحدِينَ ، والزنادقةِ الملاعينِ ، وحتىَّ مع ذلك ربَّما تبرَّءوا^(٧) إلى علمائنا ، وأهلِ الأقدارِ مِنَّا ، وَيَشْغَبُونَ على القويِّ^(٨) ، وَيُلْبَسُونَ على الضَّعيفِ .

ومن البلاءِ أَنَّ كلَّ إنسانٍ من المسلمين يرى أَنَّهُ متكلمٌ ، وَأَنَّهُ ليس أحدٌ أَحَقُّ بِمَحَاجَّةِ الملحدِينَ من أحدٍ .

وبعدُ ، فلولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى

(١) ب ، م : « يعاهدك أن لا يفتري » ، ومع سقوط « على » ، وصوابه في ط .

(٢) ب ، م : « على أم » .

(٣) ب ، م : « وغير سيد الأولين والآخِرِينَ » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « فهذا ما يجوز » ، تحريف .

(٥) البأر : الكبر والفخر والعظمة . ب : « وبأوو » ط : « وشأو » ، صوابها في ب .

(٦) ط : « كما ابتلت بالنصارى » ، صوابه في ب ، م .

(٧) ب : « تبرءوا » .

(٨) ب ، م : « على القوم » ، صوابه في ط .

أَغْبِيَانَا^(١) وظرفائنا ، ومُجَانِنَا وأَحْدَاثُنَا^(٢) شَيْءٌ مِنْ كِتَابِ الْمَنَائِيَةِ^(٣) ،
وَالدِّيَصَانِيَةِ^(٤) ، وَالْمَرْقُونِيَةِ^(٥) ، وَالْفَلَانِيَةِ^(٦) ، وَلَمَّا عَرَفُوا غَيْرَ كِتَابِ
اللَّهِ تَعَالَى ، وَسَنَّةَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَكَانَتْ تِلْكَ الْكُتُبُ مُسْتَوْرَةً
عِنْدَ^(٧) أَهْلِهَا ، وَمُخَلَّاةً^(٨) فِي أَيْدِي وَرَثَتِهَا . فَكُلُّ سُخْنَةٍ عَيْنِ^(٩)
رَأَيْنَاهَا فِي أَحْدَاثِنَا وَأَغْبِيَانِنَا فَمِنْ قِبَالِهِمْ كَانَ أَوْلَاهَا .

وَأَنْتِ إِذَا سَمِعْتِ كَلَامَهُمْ فِي الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ ، وَذَكَرَهُمُ لِلسِّيَاحَةِ ،
وَزَارِيَتِهِمْ عَلَى كُلِّ مَنْ أَكَلَ اللَّحْمَانَ^(١٠) ، وَرَغَبَتَهُمْ فِي أَكْلِ الْحُبُوبِ ،
وَتَرَكِ الْحَيَوَانَ ، وَتَزْهِيدَهُمْ فِي النِّكَاحِ ، وَتَرَكَهُمْ لَطْلُبِ الْوَلَدِ ، وَمَدِيرِحِهِمْ
لِلجَائِلِيْقِ وَالْمَطْرَانَ وَالْأُسْقِفَتِ وَالرُّهْبَانَ ، بِتَرَكِ النِّكَاحِ وَطَلْبِ النَّسْلِ ،
وَتَعْظِيمِهِمُ الرُّؤْسَاءَ - عَلِمْتَ أَنَّ بَيْنَ دِينِهِمْ وَبَيْنَ الزَّنَدَقَةِ نَسْبًا ، وَأَنَّهِمْ
يُحْتَوُونَ إِلَى ذَلِكَ الْمَذْهَبِ .

(١) م : « أغناتنا » ب ، ط : « أغنيانا » ، صوابها ما أثبت . وانظر ما سيأتي في
السطر الخامس .

(٢) الحجان : جمع ماجن . ب ، م ، « وتحجانا » ، صوابه في ط . والأحداث : جمع حدث .
وفي ب ، م : « وأخذاننا » ط : « وأخذاننا » ، صوابها ما أثبت .

(٣) المنائية : أتباع ماني . وانظر ما سبق في ٢٥٤ .

(٤) الديصانية : فرقة من المجوس . قال ابن النديم : « إنما سمى صاحبهم بديصان باسم
نهر ولد عليه . هو قبل ماني . والمذهبان قريب بعضهما من بعض ، وإنما بينهما خلف في
اختلاط النور بالظلمة » . وانظر الملل ٢ : ٨٨ والفهرست ٤٧٤ والحجوان ٥ : ٤٦ .

(٥) المرقونية : فرقة من المجوس ، أتباع مرقون . أثبت قديمين أصليين متضادين أحدهما
النور والآخر الظلمة ، وأثبتوا أصلاً ثالثاً هو المدلل الجامع . وفي مفاتيح العلوم ٢٥ :
« المرقونية » . وهي في جميع الأصول : « المرقونية » ، تحريف . وانظر الملل والتحل ٢ : ٨٩
ومعجم استنجاس . ١٢١٨ .

(٦) لعله كناية عن أي فرقة كانت .

(٧) ب فقط : « مسطورة » .

(٨) مخللة : متروكة . وفي جميع الأصول : « مخللة » بالخاء المهملة .

(٩) سخنة العين : نقبض قرتها ، وذلك من حرارة الخزن . وفي ب فقط : « سخنة »

بالمهملة ، تحريف .

(١٠) الزرارية : العيب والإنكار . ب : « وذرياتهم » ، صوابه في م ، ط
(٢١ - رسائل الجاحظ)

والعجبُ أنَّ كلَّ جائليقٍ لا ينكح ، ولا يطلبُ الولد . وكذلك كلُّ مطرانٍ (١) ، وكلُّ أسقفٍ . وكذلك كلُّ أصحاب الصَّوامع من اليعقوبية ، والمقيمين في الديارات (٢) والبيوت من النسطورية . وكلُّ راهبٍ في الأرض وراهبةٍ ، مع كثرة الرهبان والرواهب ، ومع تشبه أكثر القسيسين بهم في ذلك (٣) ، ومع ما فيهم (٤) من كثرة الغزاة ، وما يكون فيهم مما يكون في الناس ، من المرأة العاقر ، والرجل العقيم .

على أنَّ من تزوج منهم امرأة لم يقدر على الاستبدال بها ، ولا على أن يتزوج أخرى معها (٥) ، ولا على التسرّي عليها . وهم مع هذا قد طبقوا الأرض ، وملئوا الآفاق ، وغلبوا الأمم بالعدد ، وبكثرة الولد . وذلك ممَّا زاد في مصائبنا ، وعظمت به محتنتنا .

ومما زاد فيهم ، وأنى عددهم ، أنهم يأخذون من سائر الأمم ، ولا يعطونهم ، لأنَّ كلَّ دين جاء بعد دين ، أخذ منه الكثير ، وأعطاه القليل .

٣ - فصل منه

ومما يدلُّ على قلة رحمتهم ، وفساد قلوبهم أنهم أصحاب الخِصاء من بين جميع الأمم ، والخِصاء أشدُّ المثلثة ، وأعظم ما ركب به إنسان (٦) ثم يفعلون ذلك بأطفالٍ لا ذنب لهم ، ولا دفع عندهم .

(١) المطران ، يفتح الميم وكسرهما ، كما في القاموس .

(٢) ط : « النديورات » تحريف . ويراد بالديارات أديار النصارى . والديارات معروفة في جموع الدار إذ هو جمع جمع لها ، فهي جمع للديار . وانظر مقدمة كتاب « الديارات » للشابستى . وأما الجمع المعروف للدير ، بالفتح ، فهو الأديار والأديرة .

(٣) ب ، م : « في زلل » ، صوابه في ط .

(٤) ب ، م : « وقع مع ما فيهم » ، صوابه في ط .

(٥) عل ، ساقطة من ب . وفي ب ، م : « يزوج » .

(٦) ط . فقط : « ركب به إنسان » .

وَلَا تَعْرِفُ قَوْمًا يُعْرِفُونَ بَخِصَاءَ النَّاسِ حَيْثُ مَا كَانُوا إِلَّا بَبِلَادِ
الرُّومِ وَالْحَبَشَةِ ، وَهُمْ فِي غَيْرِهِمَا قَلِيلٌ ، وَأَقْلُّ قَلِيلٍ ^(١) .

على أَنَّهُمْ لَمْ يَتَعَلَّمُوا إِلَّا مِنْهُمْ ، وَلَا كَانَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ غَيْرَهُمْ ،
ثُمَّ خَصَّوْا أَبْنَاءَهُمْ وَأَسْلَمُوهُمْ فِي بَيْعِهِمْ . وَلَيْسَ الْخِصَاءُ إِلَّا فِي دِينِ
الصَّابِئِينَ ، فَإِنَّ الْعَابِدَ رَبِّمَا خَصَّى نَفْسَهُ ^(٢) ، وَلَا يَسْتَحِلُّ خِصَاءَ
ابْنِهِ ^(٣) . فَلَوْ تَمَّتْ إِرَادَتُهُمْ فِي خِصَاءِ أَوْلَادِهِمْ فِي تَرْكِ النِّكَاحِ وَطَلَبِ
النَّسْلِ كَمَا حَكَيْتُ لَكَ قَبْلَ هَذَا - لِانْقِطَعِ النَّسْلُ ، وَذَهَبَ الدِّينُ ،
وُفَّتِنِ الْخَلْقُ .

وَالنَّصْرَانِيُّ وَإِنْ كَانَ أَنْظَفَ ثَوْبًا ، وَأَحْسَنَ صِنَاعَةً ، وَأَقْلَّ مَسَاخَةً ^(٤) ،
فَإِنَّ بَاطِنَهُ أَلْأَمُّ وَأَقْدَرُ وَأَسْمَجُ ، لِأَنَّهُ أَقْلَفٌ ، وَلَا يَغْتَسِلُ مِنَ الْجَنَابَةِ ،
وَيَأْكُلُ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ ، وَامْرَأَتُهُ جُنُبٌ لَا تَطْهَرُ مِنَ الْحَيْضِ ، وَلَا مِنَ
النَّفَاسِ ، وَيَعْتَشَاهَا فِي الطَّمْثِ ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ مَخْتُونَةٍ .

وَهُمْ مَعَ شَرَارَةِ طِبَائِعِهِمْ ^(٥) ، وَغَلَبَةِ شَهَوَاتِهِمْ لَيْسَ فِي دِينِهِمْ مَزَاجِرٌ
كَتَارِ الْأَبْدِ فِي الْآخِرَةِ ، وَكَالْحُدُودِ وَالْقَوَدِ وَالْقَصَاصِ فِي الدُّنْيَا ، فَكَيْفَ
يُجَانِبُ مَا يَفْسُدُهُ ، وَيُؤَثِّرُ مَا يَصْلِحُهُ مِنْ كَانَتْ حَالُهُ كَذَلِكَ . وَهَلْ
يُصْلِحُ الدُّنْيَا مَنْ هُوَ كَمَا قُلْنَا ^(٦) ؟ وَهَلْ يَهَيِّجُ عَلَى الْفَسَادِ إِلَّا مَنْ وَصَفْنَا ^(٧) ؟

(١) انظر الحيوان ١ : ١١٩ ، ١٢٤ .

(٢) انظر الحيوان ١ : ١٢٥ .

(٣) ب ، م : « خِصَاءُ نَفْسِهِ » ، صوابه في ط .

(٤) انظر ما مضى في ص ٣١٨

(٥) يقال : شر يشر ويشر شرأ ، وشرارة ، فهو شرير كأمير ، وشرير كسكيت .
وفي جميع الأصول : « شرار » ، والوجه ما أثبت . وانظر الحيوان ٤ : ٦/٢٩٧ ، ٤٦٠ .
وأما الشرار ، بالكسر وكجبل ، فهو ما يبتاطر من النار ، واحدهما بهاء .

(٦) ب ، م : « يجانب ما يفسده » ، صوابه في ط .

(٧) ب ، م : « وهل يصلح الدنيا كذا قالوا » ، صوابه في ط .

(٨) ب ، م : « وهل يهيج على الفساد إلا كما وصفوا » ، صوابه في ط .

ولو جَهِدْتَ بكلِّ جَهْدِكَ ، وجمعت كلَّ عقلِكَ أَنْ تفهم قولهم في المسيح ، لما قدرتَ عليه ، حتَّى تعرف به حدَّ التصرانية ، وخاصَّةً قولهم في الإلهية .

وكيف تقدر ^(١) على ذلك وأنت لو خلوتَ ونصرائيَّ نِسْطوريَّ فسألته عن قولهم في المسيح لقال قولاً ، ثم إنَّ خلوتَ بأخيه لأمه وأبيه وهو نِسْطوريَّ مثله فسألته عن قولهم في المسيح لأتاك بخلاف أخيه وصنوه . وكذلك جميع المُكنايية واليعقوبية ^(٢) . ولذلك صرنا لا نعقل حقيقة التصرانية ، كما نعرف ^(٣) جميع الأديان .

على أنَّهم يزعمون أنَّ الدين لا يخرُج في القياس ، ولا يقوم على المسائل ^(٤) ، ولا يثبت في الامتحان ، وإنَّما هو بالتسليم لما في الكتب ، والتقليد للأسلاف . ولعمري ، إنَّ ^(٥) من كان دينه دينهم ليحبَّ عليه أن يعتذر بمثل عُذرهم .

وزعموا أنَّ كلَّ من اعتقدَ خلاف التصرانية من المجوس والصابئين والزنادقة فهو معذور ، ما لم يتعمد الباطل ، ويُعانِد الحقَّ . فإذا صاروا إلى اليهود قسوا عليهم بالمعاندة ، وأخرجوهم من طريق الغلط والشبهة .

٤ - فصل منه

فأمَّا مسألتهم في كلام عيسى في المهد : أنَّ النصرارى مع حبهم لتقوية أمره لا يثبتونه ، وقولهم : إننا تقولناه ورويناه عن غير الثقات ^(٦) ،

(١) ب ، م : « يقدر » .
 (٢) انظر مامنى في ص ٣١٢ .
 (٣) م فقط : « يعرف » .
 (٤) في جميع الأصول : « السائل » ، والوجه ما أثبت .
 (٥) إن ، ساقطة من ط .
 (٦) في جميع النسخ : « الثقات » ، وهو خطأ في الرسم ، لأنه جمع ثقة .

وَأَنَّ الدليل على أَنَّ عيسى لم يتكلم في المهد أَنَّ اليهود لا يعرفونه ، وكذلك المجوس ، وكذلك الهند والخزر والديلم . فنقول في جواب مسألتهم عند إنكارهم كلام المسيح في المهد مولوداً .

يقال لهم : إنكم حين سويتم المسألة وموهتموها ، ونظمت ألفاظها ، ظننتم أنكم قد أنجحتكم ^(١) ، وبلغتم غايتكم . ولعمري لئن حسن ظاهرها ، وراع الأسماع مخرجها ^(٢) ، إنها لقبسحة المفتش ، سيئة المعرى .

ولعمري أَنَّ لو كانت اليهود تقرُّ لكم بإحياء الأربعة الذين تزعمون ^(٣) ، وإقامة المقعد الذي تدعون ، وإطعام الجمع الكثير من الأرغفة اليسيرة ، وتصيير الماء جمداً ^(٤) ، والمشى على الماء ، ثم أنكرت الكلام في المهد من بين جميع آياته وبراهينه ^(٥) لكان لكم في ذلك مقال ، وإلى الطعن سبيل . فأما وهم يجحدون ذلك أجمع ، فمرة يضحكون ، ومرة يغتاظون ويقولون : إنه صاحب زنى ونيرجات ^(٦) ، ومداوى ^(٧) (١) أنجح : صار ذا نجح وظفر . ويقال أيضاً نجح ، إذا أصاب طلبته . ط فقط : « نجحتم » وأثبت ما في ب ، م .

(٢) ب فقط : « لخرجها » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « يزعمون » . وهؤلاء الأربعة فيما يذكر المفسرون هم : « عازر » ، وكان صديقاً له ، أحياء بعد ثلاثة أيام فقام من قبره يتطر ودكه وبق إلى أن ولد له . والثاني : ابن العجوز أحياء وهو على سرير الموت ، فنزل عن أعناق الرجال وحمل سريره ، وبق إلى أن ولد له . والثالث : بنت العشار ، وقد تمتع بولدها بعد ما حييت . والرابع : سام بن نوح عليه السلام . سألوه أن يبيحه ليخبرهم عن حال السفينة . فخرج من قبره . هذا ما ذكره أبو حيان في تفسيره ٢ : ٤٦٧ .

(٤) الجمد ، بالتحريك ، وكذا بالفتح : الماء الجامد . وقيل : هو بالتحريك يكون جمماً جامداً ، مثل خادم وخدم . ب فقط : « جامداً » .

(٥) ب ، م : « وبرهانه » ، صوابه في ط .

(٦) كذا في ب والحويان ٤ : ٣٧٠ . في م ، ط : « نيرجات » ، وهما لنتان في التعريب قال صاحب القاموس : « والنيرنج ، بالكسر : أخذ كالسحر وليس به . وعقب عليه الزبيدي بقوله : « هكذا في سائر النسخ . والمنقول عن نص كلام الليث : النيرج ، بإسقاط النون الثانية . وجاء في كتاب المعارف لابن قتيبة ١٧٨ : « وكان صاحب نيرجات » . وأقول : هو بالفارسية « نيرنك » .

مجانين ، ومتطبيب ، وصاحب جيل وتربص خدع ^(١) ، وقراءة كتب ، وكان لسناً مسكيناً ^(٢) ، ومقتولاً مرحوماً ، ولقد كان قبل ذلك صياداً سمكاً ، وصاحباً شبك ، وكذلك أصحابه . وأنه خرج على مواطأة منهم له ، وأنه لم يكن لرشدة ^(٣) .

وأحسنهم قولاً ، وأليئهم مذهباً من زعم أنه ابن يوسف النجار ^(٤) . وأنه قد كان واطأً ذلك المقعد قبل إقامته بسنين ، حتى إذا شهّره بالقعدة ^(٥) ، وعرف موضعه في الزماني ، مرّ به في جمعٍ من الناس كأنه لا يريد ، فشكا إليه الزمانه وقلة الحيلة ، وشدة الحاجة ، فقال : ناوئني يدك . فناوله يده ، فاجتذبه فأقامه ، فكان تجمع ^(٦) لطول القعود ، حتى استمر بعد ذلك .

وأنه لم يُحَيِّ مَيَّتاً قط ، وإنما كان داوى رجلاً يقال له « لا عازر ^(٨) » إذ ^(٩) أغمى عليه يوماً وليلة ، وكانت أمه ^(١٠) ضعيفة العقل ، قليلة المعرفة ، فمرّ بها ^(١١) ، فإذا هي تصرّخ وتبكي ، فدخل إليها

(١) التربص : المكث والانتظار . ب ، م : « وترمض » . وفي ط : « وصاحب » وأرى الوجه فيما أثبت .

(٢) ب ، م : « سكيناً » ، وأثبت ما في ط .

(٣) يقال هو لرشدة بالكسر وقد يفتح : نقيض قولهم : لزنية أو لغير رشدة . والرشدة : النكاح الصحيح . ط : « لم يكن له شدة » ، تحريف .

(٤) ط : « وأحسنهم قولاً والأهمهم مذهباً » ، تحريف .

(٥) القعدة ، بالكسر : ضرب من القعود .

(٦) ط فقط : « تجمد » .

(٧) ب ، م : « لم يحيي » ، تحريف .

(٨) في جميع الأصول : « لا عازر » ، وإنما هو « لعازر » المذكور في إنجيل يوحنا ١١ : ٤٣ .

(٩) ب فقط : « إذا » .

(١٠) في إنجيل يوحنا ١١ : ٥ : « أنها أخته وأسمها « مرثا » . وفيه أيضاً أن يسوع كان يحب مرثا وأختها ولعازر . ويفهم من هذا أيضاً أن له أختين .

(١١) ط فقط : « بهما » .

لِيُسَكِّنَهَا وَيُعَزِّيَهَا ، وَجَسَّ عِرْقَهُ فَرَأَى فِيهِ عِلَامَةَ الْحَيَاةِ ، فِدَاوَاهُ حَتَّى أَقَامَهُ ، فَكَانَتْ لِقَلَّةَ مَعْرِفَتِهَا ^(١) لَا تَشْكُ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ ، وَلَفْرَحِهَا بِحَيَاتِهِ تُثْنِي عَلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَتَتَحَدَّثُ بِهِ .

فكيف تستشهدون قوماً هذا قولهم في صاحبكم ، حين قالوا : كيف يجوز أن يتكلم صبي في المهد مولوداً ^(٢) ، فيجهله ^(٣) الأولياء والأعداء . ولو كانت المجوس تقر لعيسى بعلامة واحدة ، وبأدنى أعجوبة ، لكان لكم أن تنكروا علينا بهم ^(٤) ، وتستعينوا بإنكارهم . فأما وحال عيسى في جميع أمره عند المجوس كحال زرادشت في جميع أمره عند النصارى فما اعتلأهم بهم ، وتعلقهم في إنكارهم ؟

وأما قولكم : وكيف لم تعرف الهند والخزر والترك ذلك ؟ فمتى أقرت الهند لموسى بأعجوبة واحدة ، فضلاً عن عيسى ؟ ومتى أقرت لنبي بآية ، أو روت له سيرة ، حتى تستشهدوا ^(٥) الهند على كلام عيسى في المهد ؟ ومتى كانت الترك والديلم والخزر والببر ^(٦) والطيلسان ^(٧) مذكورة في شيء من هذا الجنس ، محتجاً بها على هذا الضرب ؟

(١) ب ، م : « بقلة معرفتها » .

(٢) ب ، م : « مولود » .

(٣) ب فقط : « فيجهله » .

(٤) ب ، م : « تنكروا علينا بهم » .

(٥) ب ، م : « حتى يستشهدوا » .

(٦) الببر ، بباين : أمة قديمة يبدو أنها من أم الترك ، وتقرن بالطيلسان ، كما في البيان ١٣٧ : ١ . وجاء في الطبرى ٤ : ٢٤٦ : « فبعث عبد الله بن شيبيل بن عوف الأحسى في أربعة آلاف ، فأغار على أهل موغان والببر والطيلسان » ، ب : « والسرو » م « والسر » ط : « والتتر » ، صوابهما جميعاً ما أثبت . ولم ترد « التتر » في أثر من آثار الجاحظ ، كما أن معرفة العرب بالتتر جاءت متأخرة ، إذ لم يرد ذكرهم في الكامل لابن الأثير قبل سنة ٣٤٥ .

(٧) الطيلسان : إقليم واسع كثير البلدان والسكان من نواحي الديلم والخزر ، افتتحه الوليد بن عقبة في سنة ٣٤٤ . معجم البلدان . وانظر الحاشية السابقة .

فإن سألونا عن أنفسهم فقالوا : ما لنا لا نعرف ذلك ولم يبلغنا عن أحدٍ بثة ؟ أجبناهم بعد إسقاط تكبيرهم ^(١) وتشنيعهم ، وتزوير شهودهم .

وجوابنا ^(٢) : أنهم إنما قبلوا دينهم ^(٣) عن أربعة أنفس : اثنان منهم من الحواريين بزعمهم ^(٤) : يوحنا ، ومثى . واثنان من المستجيبة ^(٥) وهما : مارقس ولوقس ^(٦) ، وهؤلاء الأربعة لا يؤمن عليهم الغلط ولا النسيان ، ولا تعمد الكذب ، ولا التواطؤ ^(٧) على الأمور ، والاصطلاح على اقتسام الرياسة ^(٨) ، وتسليم كل واحدٍ منهم لصاحبه حصته التي شرطها له .

فإن قالوا : إنهم كانوا أفضل من أن يتعمدوا كذباً ، وأحفظ من أن ينسوا شيئاً ، وأعلى ^(٩) من أن يغلطوا في دين الله تعالى ، أو يضيعوا عهداً .

قلنا : إن اختلاف رواياتهم في الإنجيل ، وتضادها في كتبهم ^(١٠) ، واختلافهم في نفس المسيح ، مع اختلاف شرائعهم ، دليل على صحة قولنا فيهم ^(١١) ، وغفلتكم عنهم .

(١) في الأصول : « تكبيرهم » .

(٢) ط فقط : « فجوابنا » .

(٣) قبلوا دينهم : أخذوه وتلقوه ، كما يقبل الرجل الدلو من المستقى والقابلة الولد من الوالدة .

(٤) ب فقط : « بزعمهم » ، تحريف .

(٥) ب فقط : « من المسيحية » ، تحريف .

(٦) هما مرقس ولوقا .

(٧) ب ، م : « ولا التواطىء » ، صوابها في ط .

(٨) ب ، م : « والاصلاح على أقسام الرياسة » ، صوابه في ط .

(٩) ب ، م : « وأعلى » ، تحريف ماني ط .

(١٠) ب ، م : « وتضاد معاني كتبهم » .

(١١) الكلام بعده إلى نهاية هذه الرسالة بجميع فصولها ، ساقط من ط .

وما يُنكّر من مثل لوقس أن يقول باطلاً ، وليس من الحواريين ، وقد كان يهودياً قبل ذلك بأيّامٍ يسيرة ، ومن هو عندكم من الحواريين خيراً من لوقس عند المسيح في ظاهر الحكم بالطّهارة ، والطباع الشريفة ، وبراعة السّاحة .

٥ - فصل منه (١)

وسألتم عن قولهم : إذا كان تعالى قد اتّخذ عبداً من عباده خليلاً ، فهل يجوز أن يتّخذ عبداً من عباده ولداً ، يريد بذلك إظهار رحمته له ، ومحبّته إياه ، وحسن تربيته وتأديبه له ، ولطيف منزلته منه ، كما سمى عبداً من عباده خليلاً ، وهو يريد تشریفه وتعظيمه ، والدلالة على خاصّ حاله عنده .

وقد رأيت من المتكلمين من يُجيز ذلك ولا يُنكره ، إذا كان ذلك على التبنّي والتربية والإبانة له بلطف المنزلة ، والاختصاص له بالرحمة والمحبة ، لا على جهة الولادة ، واتّخاذ الصاحبة . ويقول (٢) : ليس في القياس فرق بين اتّخاذ الولد على التبنّي والتربية وبين اتّخاذ الخليل على الولاية والمحبة .

وزعم أن الله تعالى يحكم في الأسماء بما أحبّ ، كما أن له أن يحكم في المعاني بما أحبّ .

وكان يجوزُ دعوى أهل الكتاب على التّوراة والإنجيل والزبور ، وكتب الأنبياء صلواتُ الله عليهم في قولهم : إنّ الله قال : « إسرائيل

(١) هذا الفصل وما يليه من الفصول إلى نهاية هذه الرسالة ساقط من ط ك سابق التنبيه .

(٢) ب : « ونقول م : « ونقول » صوابهما ما أثبت .

بِكْرَى^(١) « أى هو أَوَّل من تَبَيَّنَتْ من خَلْقى . وَأَنَّهُ قال : « إِسْرَائِيل بَكْرى ، وبنوه أولادى » . وَأَنَّهُ قال لداود : « سيولد لك غلام ، ويُسَمَّى لى ابناً ، وأُسَمَّى له أبا^(٢) » . وَأَنَّ المسيح قال فى الإنجيل : « أنا أذهب إلى أبى وأبيكم ، وإلِهى وإلهكم^(٣) » ، وَأَنَّ المسيح أمر الحواريين أَنْ يقولوا فى صلواتهم : « يا أبانا فى السماء ، تَقَدَّس اسمُك^(٤) » . فى أمورٍ عجيبَةٍ ، ومذاهبَ شنيعة^(٥) ، يدلُّ على سوء عبادة اليهود^(٦) ، وسوء تأويل أصحاب الكتب ، وجهلهم مجازاتِ الكلام ، وتصاريف اللغات ، ونقل لغة إلى لغة ، وما يجوز على الله ، ومالا يجوز . وسببُ هذا التأويل كَلَهُ العَى والتقليد ، واعتقادُ التشبيه .

وكان يقول : إِنَّمَا وُضِعَت الأسماء على أقدار المصلحة ، وعلى قدر ما يقابل من طبائع الأمم . فربَّما كان أصلح الأمور وأمنَّها^(٧) أَنْ يتبناه الله أو يتخذَه خليلاً ، أو يُخاطبه بلا ترجمان ، أو يخلقه من غير ذَكَر ، أو يُخْرِجَه من بين عاقر وعقيم . وربَّما كانت المصلحة غير ذلك

(١) فى سفر الخروج ٤ : ٢٢ : « فتقول لفرعون : هكذا يقول الرب ، إِسْرَائِيل ابْنى البكر » . وفى سفر هوشع ١١ : ١ : « لما كان إِسْرَائِيل غلاماً أحببته ومن مصر دعوت ابْنى » . وفى رسالة بولس إلى أهل رومية ٩ : ٤ : « الذين هم إِسْرَائِيليون ، ولهم التبنى والمجد » .

(٢) فى صموئيل الثانى ٧ : ١٢ - ١٤ : « متى كملت أيامك واضطجعت مع آياتك أقيم بعدك نسلك الذى يخرج من أحشائك وأثبت ملكه . هو يبنى بيتاً لاسمى وأنا أثبت كرسي ملكته إلى الأبد . أنا أكون له أباً وهو يكون لى ابناً » .

(٣) جاء فى إنجيل يوحنا ٢٠ : ١٧ فى مخاطبة عيسى عليه السلام لمريم المجدلية : « قال لها يسوع : لاتلمسين لأنى لم اصعد بعد إلى أبى . ولكن اذهبي إلى إخوتى وقولى لهم : إنى اصعد إلى أبى وأبيكم وإلِهى وإلهكم » .

(٤) فى إنجيل متى ٦ : ٩ : « فصلوا أنتم هكذا : أبانا الذى فى السموات ليتقدس اسمك » . وانظر أيضاً إنجيل لوقا ١١ : ٢

(٥) ب : « شيعه » م : « شعة » ، والوجه ما أثبت ، وإن كانت « شعة » صحيحة أيضاً .

(٦) ب : « عبارة » ، وأثبت ما فى م .

(٧) ب : « وأمنه » م : « وأمنه » ، ولعل وجهه ما أثبت .

كله . وكما تعبّدنا أن نسميه جواداً . ونهانا أن نسميه سخياً أو سرياً^(١) .
وأمرنا أن نسميه مؤمناً . ونهانا أن نسميه مسلماً ، وأمرنا أن نسميه
رحيماً ونهانا أن نسميه رقيقاً .

وقياس هذا كله واحد ، وإنما يتسع ويسهل على قدر العادة وكثرتها .
ولعل ذلك كله قد كان شائعاً في دين هودٍ وصالحٍ وشعيبٍ وإسماعيلٍ ،
إذا كان^(٢) شائعاً في كلام العرب في إثبات ذلك وإنكاره .

وأما نحن - رحمك الله - فإننا لا نُجيزُ أن يكونَ اللهُ ولد ، لا من
جهة الولادة ، ولا من جهة التَّبَيُّ ، ونرى أنَّ تجويز ذلك جهلٌ عظيمٌ ،
وإثمٌ كبيرٌ ؛ لأنَّه لو جاز أن يكونَ أباً ليعقوب لجاز أن يكونَ جدًّا
ليوسف ، ولو جاز أن يكونَ جدًّا وأباً ، وكان ذلك لا يُوجبُ نسباً ،
ولا يُوهِمُ مُشاكلةً في بعض الوجوه ، ولا ينقصُ من عِظَمِ ، ولا يحطُّ من
بَهَاءِ ، لجاز أيضاً أن يكونَ عمًّا وخالاً ؛ لأنَّه إن جاز أن يسميه^(٣)
من أجل الرحمة والمحبة والتأديب - أباً ، جاز أن يسميه آخر من جهة
التعظيم والتفضيل والتسويد أخاً^(٤) ، ولجاز أن يجد له صاحباً
وصديقاً ، وهذا ما لا يجوزه إلا من لا يعرف عظمة الله ، وصغر قدر
الإنسان .

وليس بحكيمٍ من ابتدَل نفسه في توقير عبده ، ووضع من قدره في
التوقير على غيره . وليس من الحكمة أن تُحسِنَ إلى عبدك بأن تسميَّ إلى

(١) في النسختين : « سرنا » ، والصواب ما أثبت . والسرى : وصف من سروكشرف
ودعا ورضى ، سراوة وسرواً وسراً وسراء ، وهي المروءة في شرف .

(٢) م : « إذا كان » .

(٣) الكلام بعده إلى « يسميه » التالية ساقط من م .

(٤) في النسختين : « والتفضيل أخا والتسويد أخا » ، و« أخا » الأولى مقحمة .

نفسك ، وتأتى من الفضل ما لا يجب بتضييع ما يجب . وكثيرُ الحمد لا يقوم بقليلِ الذمِّ ^(١) ، ولم يحمدِ الله ولم يعرفِ إِمِيَّتَهُ من جَوَزٍ عليه صفاتِ البشر ، ومُناسبةِ الخَلْقِ ، ومُقارِبَةِ العِبَادِ .

وبعدُ ، فلا يخلو المولى في رفع عبده وإكرامه من أحد أمرين :
إمّا أن يكون لا يقدر على كرامته إلا بهوانِ نفسه ، ويكون على ذلك قادراً ، مع وفارةِ العظمة ، وتمامِ البهاء .

وإن كان لا يقدر على رفع قدرٍ غيره إلا بأن ينقص ^(٢) من قدر نفسه فهذا هو العجز ، وضيقِ الذرع ^(٣) .

وإن كان على ذلك قادراً فأثر ابتذالِ نفسه والحطِّ من شرفه فهذا هو الجهلُ الذى لا يحتمل ^(٤) .

والوجهان عن الله جلّ جلاله منفيان .

ووجهٌ آخر يعرفون به صحّة قولى ، وصوابِ مذهبي ، وذلك أنّ الله تبارك وتعالى لو علم أنّه قد كان فيما أنزل من كتبه على بنى إسرائيل :
إِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ بَكْرِيًّ وَأَبْنِي ، وَإِنَّكُمْ أَبْنَاءُ بَكْرِيٍّ - لما كان تغضّب عليهم ^(٥) إذ قالوا : نحن أبناءُ الله ، فكيف لا يكون ابنُ ابنِ الله ابنه ^(٦) ،

(١) في النسختين : « ما لا يقول بقليلِ الذم » ، والصواب حذف « ما » . لا يقوم به : لا يعادله .

(٢) ب : « ينقص » ، صوابه في م .

(٣) الذرع : الطاقة ، وهو أيضاً : بسط اليد . والمراد ضيق الخلق ، على المثل . م :

« الزرع » ، تحريف .

(٤) في النسختين : « لا يحتمل » ، والوجه ما أثبت .

(٥) التغضّب : الغضب ، واستعمار الراعى التغضّب لشدة غليان القدر في قوله :

إذا أحشوها بالوقود تغضبت على اللحم حتى ترك اللحم باديا

وفي النسختين : « تعصب » بالعين المهملة ، صوابه ما أثبت . وانظر الآية ١٨ من سورة المائدة .

(٦) ب : « لا يكون ابن ابنه » م : « لا يكون ابن الله ابنه » . والصواب ما أثبت .



وهذا من تمام الإكرام ، وكمال المحبة ، ولا سيما إن كان قال في التوراة : بنو إسرائيل أبناء بكرى .

وأنت تعلم أن العرب حين زعمت أن الملائكة بنات الله كيف استعظم الله تعالى ذلك وأكبره ، وغضب على أهله ، وإن كان يعلم أن العرب لم تجعل الملائكة بناته على الولادة واتخاذ الصاحبة ، فكيف يجوز مع ذلك أن يكون الله قد كان يُخبر عباده قبل ذلك بأن يعقوب ابنه ، وأن سليمان ابنه ، وأن عزيراً ابنه ، وأن عيسى ابنه (١) ؟ .

فالله تعالى أعظم من أن يكون له أبوة من صفاته ، والإنسان أحقر من أن يكون بنوة الله من أنسابه .

والقول بأن الله يكون أباً وجداً (٢) وأخاً وعمّاً ، للنصارى ألزم ، وإن كان للأخريين لازماً ، لأن النصارى تزعم أن الله هو المسيح بن مريم ، وأن المسيح قال للحواريين : «إخوتي» . فلو كان للحواريين أولاد لجاز أن يكون الله عمهم !

بل قد يزعمون أن مرقس هو ابن شمعون الصفا (٣) ، وأن زوزرى ابنته ، وأن النصارى تقر أن في إنجيل مرقس (٤) : « ما زاد (٥) أمك وإخوتك على الباب » وتفسيرها : ما زاد (٦) : معلم . فهم لا يمتنعون من أن يكون الله تبارك وتعالى أباً وجداً وعمّاً .

(١) وأن عزيراً ابنه ، ساقط من ب .

(٢) ب : « أباً واحداً » ، صوابه في م .

(٣) في الفصل لابن حزم ٢ : ٢ أن ماركس هو تلميذ شمعون الصفا بن توما .

(٤) في النسختين : « في الإنجيل مرقس » صوابه ما أثبت . وانظر إنجيل مرقس ٣ : ٣٢ .

(٥) ب : « ماذا » بذالين معجمتين . والذي في الإنجيل : « هو ذا » .

(٦) ب : « ماذا » بذالين معجمتين .

ولولا^(١) أَنَّ اللهَ قد حَكى عن اليهود أَنَّهُم قالوا : إِنَّ «عزيراً ابنُ الله^(٢)» ، ﴿وَيَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾^(٣) ، و﴿إِنَّ اللهَ فقيرٌ وَنَحْنُ أغنياءُ﴾^(٤) وْحكى عن النَّصارى أَنَّهُم قالوا : «المسيحُ ابنُ الله» وقال : ﴿قالت النَّصارى المسيحُ ابنُ الله﴾^(٥) . وقال : ﴿لقد كَفَرَ الذين قالوا إِنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ﴾^(٦) - لكننتُ لأنَّ أحرَّ من السماء أحبُّ إلى من أَن أَلْفِظَ بحرفٍ ممَّا يقولون . ولكننى لا أَصلُ إلى إظهار جميعِ مخازيمهم ، وما يُسرون من فضائحهم ، إلَّا بالإخبار عنهم ، والحكاية منهم .

فإن قالوا : خبرونا عن الله ، وعن التوراة ، أليست حقاً^(٧) ؟ قلنا : نعم . قالوا : فإنَّ فيها «إسرائيلُ بكرى^(٨)» وجميعُ ما ذكرتم عنا معروفٌ في الكُتب .

قلنا : إنَّ القومَ إنَّما أتوا من قلةِ المعرفة بوجوه الكلام ، ومن سوءِ الترجمة ، مع الحكم بما يسبقُ إلى القلوب . ولعمري أن لو كانت لهم عقولُ المسلمينَ ومعرفتهم بما يجوز في كلام العرب ، وما يجوز على الله ، مع فصاحتهم بالعبرانية ، لوجدوا لذلك الكلام تأويلاً حسناً ، ومخرجاً سهلاً ، ووجهاً قريباً . ولو كانوا أيضاً لم يُعطلوا في سائر ما ترجموا لكان لقائلٍ مقالٌ ، ولطاعنٍ مدخلٌ ، ولكنَّهُم يخبرون أنَّ

(١) ب : «ولو» .

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة : «وقالت اليهود عزير ابن الله» ، وهي الآية ٣٠ من التوبة .

(٣) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٤) الآية ١٨١ من سورة آل عمران .

(٥) الآية ٣٠ من سورة التوبة . والافتباس هنا بطرح الواو ، فإن نص الآية : «وقالت

النصارى» . وهو أمر جائز كما أشرت إلى ذلك في كتابي تحقيق النصوص ص ٥١ .

(٦) الآية ٧٣ من سورة المائدة .

(٧) في النسختين : «حق» ، صوابه ما أثبت .

(٨) انظر ما مضى في حواشي ص ٣٣٢ .

الله تبارك وتعالى قال في العَشْرِ الآيات (١) التي كتبها أصابعُ الله :
« إِنِّي أَنَا اللهُ الشَّدِيدُ ، وَإِنِّي أَنَا اللهُ الثَّقَفُ (٢) ، وَأَنَا النَّارُ الَّتِي تَأْكُلُ
النِّيرانَ (٣) ، آخِذُ الْأَبْنَاءِ بِحَوْبِ آبَائِهِمْ ، الْقُرُونِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي وَالثَّلَاثِ
إِلَى السَّابِعِ (٤) » . وَأَنَّ دَاوُدَ قَالَ فِي الزُّبُورِ : « وَافْتَحْ عَيْنَكَ يَا رَبُّ »
و « قُمْ يَا رَبُّ » ، وَ « أَصْغِرْ إِلَيَّ سَمْعَكَ يَا رَبُّ (٥) » . وَأَنَّ دَاوُدَ خَبَّرَ أَيْضاً
فِي مَكَانٍ آخَرَ عَنِ اللهِ تَعَالَى : « وَانْتَبَهَ اللهُ كَمَا يَنْتَبِهُ السُّكْرَانُ الَّذِي قَدْ
شَرِبَ الْخَمْرَ (٦) » . وَأَنَّ مُوسَى قَالَ فِي التَّوْرَةِ : « خَلَقَ اللهُ الْأَشْيَاءَ
بِكَلِمَتِهِ ، وَبِرُوحِ نَفْسِهِ » . وَأَنَّ اللهُ قَالَ فِي التَّوْرَةِ لِابْنِي إِسْرَائِيلَ :
« بِذَرَاعِي الشَّدِيدَةِ أَخْرَجْتُكُمْ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ (٧) » . وَأَنَّهُ قَالَ فِي كِتَابِ
إِسْمَاعِيَاءَ : « أَحْمَدُ اللهُ حَمْدًا جَدِيدًا ، أَحْمَدُهُ فِي أَقْصَى الْأَرْضِ ، يَمَلَأُ الْجَزَائِرَ
وَسُكَّانَهَا ، وَالْبُحُورَ وَالْقَفَارَ وَمَا فِيهَا ، وَيَكُونُ بَنُو قَيْدَارَ فِي الْقُصُورِ ،
وَسُكَّانُ الْجِبَالِ (٨) - يَعْنِي قَيْدَارَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ - لِيَصِيحُوا وَيُصَيِّرُوا اللهُ
الْفَخْرَ وَالكَرَامَةَ ، وَيَسْبُحُوا بِحَمْدِ اللهِ فِي الْجَزَائِرِ (٩) » .

(١) في النسختين : « في العشر آيات » ، والوجه ما أثبت .

(٢) الثقف : الفطن الذكي .

(٣) في النسختين : « أكل النيران » .

(٤) في سفر الخروج ٣٤ : ٧ : « مفتقد إثم الآباء في الأبناء وفي أبناء الأبناء في الجيل الثالث

والرابع » .

(٥) انظر المزامير ١٧ : ١ و ٢٨ و ٢٤ و ٦١ : ١

(٦) في المزامير ٧٨ : ٦٥ : « فاستيقظ الرب كجبار معيط من الخمر » . عيط الشارب :

قال عيط عيط ، بكسر العين ، وقد عيط تمييطا .

(٧) انظر الخروج ١٣ : ٣ والتثنية ٤ : ٣٤ : ٥ : ١٥ والمزامير ١٣٦ : ١١ - ١٢ .

(٨) في سفر إشعياء ٤٢ : ١٠ ، ١١ : « غنوا للرب أغنية جديدة بتسبيحه من أقصى

الأرض ، أيها المنحدرون في البحر وملؤه ، والجزائر وسكانها . لترفع البرية ومدنها صوتها
الديار التي سكنها قيدار . لتترنم سكان سابع من رموس الجبال » .

(٩) في سفر إشعياء ٤٢ : ١١ - ١٢ : « ليتفوا . ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه

في الجزائر » . وفي الأصل هنا : « يصيحوا ويصيروا لله الفخر والكرامة ، ويلبسون بحمد الله

في الجزائر » . وقد أصلحت العبارة في ضوء ما في السفر .

وَأَنَّهُ قَالَ عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ : « وَيُخْرِجُ الرَّبُّ ^(١) كَالجِبَّارِ ، وَكَالرَّجْلِ الشُّجَاعِ الْمَجْرَبِ ^(٢) ، وَيَزْجُرُ وَيَصْرُخُ ، وَيَهَيِّجُ الْحَرْبَ وَالْحَمِيَّةَ ، وَيَقْتُلُ أَعْدَاءَهُ ^(٣) ، يُنْصَرِحُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ » .

وَأَنَّ اللَّهَ قَالَ أَيْضاً فِي كِتَابِ إِسْعِيَاءَ : « سَكَتٌ . قَالَ : هُوَ مَتَى أَسْكَتَ ، مِثْلَ الْمَرْأَةِ الَّتِي قَدْ أَخَذَهَا الطَّلُقُ لِلْوَلَادَةِ أَتْلَهَفُ ^(٤) ، وَإِنْ تَرَانِي أُرِيدُ أَحْرَثَ الْجِبَالَ وَالشُّعْبَ ^(٥) ، وَأَخْذُ بِالْعَرَبِ فِي طَرِيقٍ لَا يَعْرِفُونَهُ ^(٦) » .
وَكُلُّهُمْ عَلَى هَذَا اللَّفْظِ الْعَرَبِيِّ مُجْمِعٌ . وَمَعْنَى هَذَا لَا يَجُوزُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَمِثْلَ هَذَا كَثِيرٌ تَرَكْتُهُ لِمَعْرِفَتِكُمْ بِهِ .

وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْيَهُودَ لَوْ أَخَذُوا الْقُرْآنَ فَتَرَجَمُوهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ لَأَخْرَجُوهُ مِنْ مَعَانِيهِ ، وَلِحَوْلُوهُ عَنِّ وَجْهِهِ ، وَمَا ظَنَنْكَ بِهِمْ إِذَا تَرَجَمُوا : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ^(٧) ﴾ ، وَ ﴿ لَتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي ^(٨) ﴾ ، وَ ﴿ السَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ^(٩) ﴾ ، وَ ﴿ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ^(١٠) ﴾ ، وَ ﴿ نَاصِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَازِرَةٌ ^(١١) ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ^(١٢) ﴾ ،

(١) فِي النَّسَخَتَيْنِ : « وَيُجِئُ الرَّبُّ » وَفِي سَفَرِ إِسْعِيَاءَ : « الرَّبُّ كَالجِبَّارِ يُخْرِجُ » .

(٢) فِي سَفَرِ إِسْعِيَاءَ : « كَرَجَلٍ حُرُوبٍ يَنْهَضُ غَيْرَتَهُ »

(٣) فِي سَفَرِ إِسْعِيَاءَ : « يَهْتَفُ وَيَصْرُخُ وَيَقْوَى عَلَى أَعْدَائِهِ » .

(٤) لَارِيْبُ أَنْ فِي الْعِبَارَةِ تَحْرِيْقًا . وَالَّذِي فِي سَفَرِ إِسْعِيَاءَ ٤٢ : ١٤ : « قَدْ صَمِتَ مِنْذُ

الدَّهْرِ ، سَكَتَ تَجَلَّدَتْ . كَالْوَالِدَةِ أَصْبَحَ أَنْفَخَ وَأَخْفَرَ مَعًا » . سَكَتَ وَتَجَلَّدَتْ بِنَاءِ الْمُتَكَلِّمِ فِيهَا .

(٥) فِي سَفَرِ إِسْعِيَاءَ : « أَخْرَبَ الْجِبَالَ وَالْأَكَامَ وَأَجْفَفَ كُلَّ عَشْبَةٍ وَأَجْعَلَ الْأَنْهَارَ

يَبْسًا وَأَنْشَفَ الْأَجَامَ » .

(٦) كَذَا . وَالَّذِي فِي السَّفَرِ : « وَأَسِيرُ الْعَمَى فِي طَرِيقٍ لَمْ يَعْرِفُهَا » . أَسِيرٌ مِنَ التَّسْيِيرِ ،

وَالْعَمَى : جَمْعُ أَعْمَى

(٧) الْآيَةُ ٥٥ مِنْ سُورَةِ الزُّخْرُفِ . (٨) الْآيَةُ ٣٩ مِنْ سُورَةِ طه .

(٩) الْآيَةُ ٦٧ مِنْ سُورَةِ الزُّمَرِ .

(١٠) الْآيَةُ ٥ مِنْ سُورَةِ طه .

(١١) الْآيَةُ ٢٢ ، ٢٣ مِنْ سُورَةِ الْقِيَامَةِ .

(١٢) الْآيَةُ ١٤٣ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ .

﴿ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾^(١) ، و ﴿ جَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾^(٢) .
 وقد يُعلم أنّ مفسري كتابنا وأصحاب التأويل منا أحسن معرفة ،
 وأعلم بوجوه الكلام من اليهود ، ومتأولي الكتب ، ونحن قد نجد في
 تفسيرهم ما لا يجوز على الله في صفته ، ولا عند المتكلمين في مقاييسهم^(٣) ،
 ولا عند النحويين في عربيتهم . فما ظنك باليهود مع غباوتهم وغيبهم ،
 وقلّة نظريهم وتقليدهم ؟

وهذا بابٌ قد غلّطت فيه العرب أنفسها ، وفصحاء أهل اللغة إذا
 غلّطت قلوبها ، وأخطأت عقولها ، فكيف بغيرهم ممن لا يعلم كعلمها ؟
 سمع بعض العرب قول جميع العرب : « القلوب بيد الله » ، وقولهم
 في الدعاء : « نواصينا بيد الله » وقوله جل ذكره : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾^(٤) ،
 وقولهم : « هذا من أيادي الله ونعمه عندنا » وقد كان من لغتهم أنّ الكفّ
 أيضاً يد^(٥) ، كما أنّ النعمة يد ، والقُدرة يد ، فغلط الشاعر^(٦) فقال :
 هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنَّ الْأُمُورَ بِكَفِّ الْإِلَهِ مَقَادِيرُهَا^(٧)

(١) الآية ١٦٤ من سورة النساء .

(٢) الآية ٢٢ من سورة الفجر .

(٣) في النسختين : « مقاييسهم » .

(٤) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٥) في النسختين : « الكفر أيضاً يد » ، والوجه ما أثبت . وهو تمهيد للاستهزاء
 بالبيت الثال ، الذي أثبت للإله كفاً ، وذلك من سوء أدب الشاعر ، وإنما يعبر باليد في ذات
 الله لمعنى النعمة والقُدرة .

(٦) هو محمد بن حازم الباهل كما في العقد ٣ : ٢٠٦ . وسماه « ابن أبي حازم » ، تحريف .
 وهو محمد بن حازم بن عمرو الباهل . كان من ساكني بغداد ، ومولده ومنتشؤه بالبصرة . وهو
 من شعراء الدولة العباسية . شاعر مطبوع ، إلا أنه كان كثير الهجاء للناس . ولم يمدح من الخلفاء
 إلا المأمون . كان يقول المقطعات الصغيرة فيحسن . وهو صاحب البيت المشهور :

يا راقد الليل مسروراً بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسجارا

وقد عاتبه يحيى بن أكرم على اختصاره الشعر ، فأجابه بأشعار حسان .

انظر الأغاني ١٢ : ١٥١ - ١٦٠ والمرزباني ٤٢٩ وتاريخ بغداد ٧٨١ .

(٧) في العقد : • فلا تحرصن فإن الأمور •

وقد كان إبراهيمُ بن سيَّارِ النَّظَّامِ يجيبُ بجوابٍ ، وأنا ذاكرُهُ إن شاء الله . وعليه كانت علماء المعتزلة ، ولا أراه مقنعاً ولا شافياً .

وذلك أنَّه كان يجعل الخليلَ مثل الحبيب ، مثل الولى ، وكان يقول : خليلُ الرحمن مثل حبيبه ووليه وناصره . وكانت الخلة والولاية والمحبة سواءً .

قالوا : ولما كانت كلُّها عنده سواءً جاز أن يسمَّى عبداً له ولداً ، لمكان التربية التى ليست بحصانة ، ولمكان الرحمة التى لا تُشْتَقُّ من الرحم^(١) ، لأنَّ إنساناً لو رحم جرَّو كلبَ قريباً لم يَجْزُ أن يسمِّيه ولداً ويسمَّى نفسه أباً . ولو التقط صبياً قريباً جاز أن يسمِّيه ولداً ويسمَّى نفسه له أباً ، لأنَّه شبيهُ ولده ، وقد يُولد لثله مثله . وليس بين الكلاب والبشر أرحام ، فإذا كان شبه^(٢) الإنسان أبعد من الله تعالى من شبه الجرَّو بالإنسان ، كان الله أحقَّ بالأبِّ يجعله ولده ، وينسبه إلى نفسه .

قلنا لإبراهيم النَّظَّامِ عند جوابه هذا وقياسه^(٣) الذى قاس عليه ، فى المعارضة والموازنة بين قياسنا وقياسه : أرأيت كلباً أليفَ كلابه^(٤) ، وحامى وأحمى دونه ، هل يجوز أن يتَّخذه بذلك كلُّه خليلاً ، مع بُعد التشابه والتناسب ؟

فإذا قال : لا . قلنا : فالعبدُ الصالح أبعدُ شبيهاً من الله من ذلك الكلبِ المحسنِ إلى كلابه ، فكيف جازَ فى قياسك أن يكون الله خليلَ

(١) فى النسختين : « لايشق » ، تحريف .

(٢) ب : « شبيهه » .

(٣) ب : « وإن قياسه » .

(٤) الكلاب : صاحب الكلاب ، كما أن المكلب صاحبها الذى يعلمها أخذ الصيد ويصطاد

بها . ب : « أرأيت كلاباً » ، صوابه فى م .

من لا يشاكله لمكان إحسانه ، ولا يجوز للكلاب أن يسمّى كلبه خليلاً أو ولداً لمكان حُسن تربيته له ، وتأديبه إيّاه ، ولمكان حُسن الكلب وكسبه عليه ، وقيامه مقام الولد الكاسب والأخ ، والبار .

والعبد الصّالح لا يُشبه الله في وجه من الوجوه ، والكلب قد يشبه كلابه لوجوه كثيرة ، بل ما أشبهه به ممّا خالفه فيه ، وإن كانت العلة التي منعت من تسمية الكلب خليلاً وولداً بعد شبهه من الإنسان .

فلو قلتم ^(١) : فما الجواب الذي أجبت فيه ، والوجه الذي أرتضيتَه ؟ قلنا : إن إبراهيم صلوات الله عليه ، وإن كان خليلاً ، فلم يكن خليلاً بعلة كانت بينه وبين الله تعالى ، لأنّ الخلّة والإخاء والصداقة والتّصافي والخلطة وأشباه ذلك منفيّة عن الله تعالى عزّ ذكره ، فيما بينه وبين عباده ، على أنّ الإخاء والصداقة داخلتان في الخلّة ، والخلّة أعمّ الاسمين ، وأخصّ الحالين . ويجوز أن يكون إبراهيم خليلاً بالخلّة ^(٢) التي أدخلها الله على نفسه وماله ، وبين أن يكون خليلاً [بالخلّة وأن يكون خليلاً ^(٣)] بعلة بينه وبين ربّه - فرق ظاهر ، وبون واضح . وذلك أنّ إبراهيم عليه السلام اختلّ في الله تعالى اختلالاً لم يختلّه أحد قبله . لقد فهم إيّاه في النار ، وذبحه ابنه ، وحمله على ماله في الصّيافة والمواساة والأثرة ، وبعداوة قومه ، والبراءة من أبويه في حياتهما ، وبعد موتهما ، وترك وطنه ، والهجرة إلى غير داره ومسقط رأسه . فصار لهذه الشدائد مختلاً في الله ، وخليلاً في الله . والخليل والمختل ^(٤) سواء في كلام

(١) في النسختين : فلم قلتم « ، والوجه ما أثبت .

(٢) الخلّة ، بالفتح : الحاجة والفقر .

(٣) تكلّمه يفتقر إليها الكلام .

(٤) في النسختين : « مخلول » ، تعريف . وفي اللسان : « ورجل مخل ومختل وخليل وأخل :

معدوم فقير » .

العرب . والدليل على أَنَّ يكون الخليل من الخلَّة كما يكون من الخلَّة قولُ زهيرِ بنِ أبي سُلمَى ، وهو يمدح هَرَمًا :

وإنَّ أتاهُ خليلٌ يومَ مَسْغَبَةٍ يقبولُ لا عاجزٌ مالى ولا حَرِمٌ^(١)

وقال آخر :

وإنَّي إلى أنْ تَسْعَفاني بِحاجةٍ إلى آلِ ليلي مرَّةً لخليلٍ
وهو لا يمدحه بأنَّ خليله وصديقَه يكون فقيرًا سائلًا ، يأتي يوم
المسألة ويبسط يده للصدقة والعطية ، وإنَّما الخليل في هذا الموضع من
الخلَّة والاختلال ، لا من الخلَّة والخلال .

وكأنَّ إبراهيمَ عليه السلام حين صار في الله مختللاً أضافه الله إلى نفسه ، وأبانهُ بذلك عن سائر أوليائه ، فسمَّاه خليلَ الله من بين الأنبياء ، كما سمَّى الكعبة : بيتَ الله من بين جميع البيوت ، وأهل مكَّة : أهلَ الله من بين جميع البلدان . وسمَّى ناقةَ صالح عليه السلام : ناقةَ الله من بين جميع النوق . وهكذا كلُّ شيءٍ عَظَّمه الله تعالى ، من خيرٍ وشر ، وثوابٍ وعقاب . كما قالوا : دَعَه في لعنة الله ، وفي نار الله وفي حرِّه . وكما قال للقرآن : كتاب الله ، وللمحرَّم : شهر الله . و [على هذا المثال قيل لحمزة رحمة الله ورضوانه عزَّ ذكره عليه : أسدُ الله ، و^(٢)] لخالد رحمةُ الله عليه : سيف الله تعالى .

وفي قياسنا هذا لا يجوز : أَنَّ الله خليل إبراهيم ، كما يقال : إن إبراهيم خليل الله .

(١) ديوان زهير ١٥٣ والمبني ٤ : ٤٢٩ .

(٢) هذه التكملة من م وإن كانت عبارة الدعاء هذه ليست من أسلوب الجاسط .

فإن قال قائل: فكيف لم يقدموه على جميع الأنبياء، إذ كان الله قدّمه بهذا الاسم الذى ليس لأحدٍ مثله؟

قلنا: إنَّ هذا الاسم اشتقَّ له من عمله وحاله وصفته، وقد قيل لموسى عليه السلام: كليم الله، وقيل لعيسى: روح الله، ولم يُقَلَّ ذلك لإبراهيم، ولا لمحمد صلوات الله عليهما، وإنَّ كان محمد صلى الله عليه وسلم أرفعَ درجةً منهم، لأنَّ الله تعالى كلَّم الأنبياء عليهم السلام على ألسنة الملائكة، وكلَّم موسى كما كلَّم الملائكة، فلهذه العلة قيل: كليم الله. وخلق في نُطف الرجال أنَّ قدَفَهَا^(١) في أرحام النساء على ما أجرى عليه تركيب العالم، وطباع الدنيا، وخلق في رحم مريم روحاً وجسداً، على غير مجرى العادة، وما عليه المناكحة. فلهذه الخاصة قيل له: روح الله.

وقد يجوز أن يكون في نبيٍّ من الأنبياء خصلة شريفة، ولا تكون تلك الخصلة بعينها في نبيٍّ أرفعَ درجة منه، ويكون في ذلك النبي خصال شريفة ليست في الآخر. وكذلك جميع الناس، كالرجل يكون له أبوان، فيُحسن برهما وتعاهدهما، والصبر عليهما، وهو أعرج لا يقدر على الجهاد، وفقير لا يقدر على الإنفاق. ويكون آخر لأب له ولا أم له، وهو ذو مالٍ كثير، وخلقٍ سوى، وجلدٍ طاهر، فأطاع هذا بالجهاد والإنفاق، وأطاع ذلك ببرٍّ والديه والصبر عليهما.

والكلام إذا حرك تشعب، وإذا ثبت أصله كثرت فنونه، واتسعت طرقه. ولولا ملالة القارئ، ومداراة المستمع لكان بسط القول في جميع ما يعرض أتمَّ للدليل، وأجمع للكتاب، ولكننا إنَّما ابتدأنا الكتاب لنقتصر به على كسر النصرانية فقط.

(١) في النسختين: «إذ قدفها»، ووجهت العبارة بما ترى.

٦ - فصل منه

قلنا في جواب آخر : إن كان المسيح إنما صار ابنَ الله لأنَّ الله خلقه من غير ذكر ، فأدم وحواء^(١) إذ كانا^(٢) من غير ذكر وأنثى أحقُّ بذلك ، إن كانت العلة في اتخاذه ولداً أنه خلقه من غير ذكر . وإن كان ذلك لمكان التربية فهل رباهُ إلا كما ربَّى موسى^(٣) ، وداود ، وجميع الأنبياء . وهل تأويل : « رباهُ » إلا غداه ، ورزقه ، وأطعمه ، وسقاه ، فقد فعل ذلك^(٤) بجميع الناس . ولم سمِّم سقيهم وإطعامهم إياهم تربية ؟ ولم رباهُ وأنتم لا تريدون إلا غداه ورزقه ، وهو لم يخضنه ، ولم يباشر تربيته ، ولم يتول بنفسه سقيهم وإطعامهم ، فيكون ذلك سبباً له دون غيره ، وإنما سقاه لبن أمه في صغره ، وغداه بالحبوب والماء في كبره .

٧ - فصل منه

والأعجوبة في آدم عليه السلام أبدع ، وتربيته أكرم ، ومُقلِّبه أعلى وأشرف ، إذ كانت السماء داره ، والجنة منزله ، والملائكة خدامه . بل هو المقدم بالسُّجود ، والسُّجود أشدُّ الخضوع . وإن كان يحسن التعليم والتثقيف^(٥) ، فمن كان الله تعالى يخاطبه ، ويتولى مناجاته دون أن يُرسل إليه ملائكته ويبعث إليه رسلاً ، أقرب منزلةً ، وأشرف مرتبةً ، وأحقُّ بشرف التَّأديب وفضيلة التعليم .

(١) رسمت في النسختين : « حوى » .

(٢) ب : « إذا كان » م : « إذا كان » ، والوجه ما أثبت .

(٣) في النسختين « لإمام بن موسى » ، صوابه ما أثبت ، وهو من دقيق التحريف ، حرفت « كما » إلى « حماد » و « ربى » إلى « د بن » .

(٤) ب : « فهل فعل ذلك » ، صوابه في م .

(٥) أى « وإن كان تقديمه بحسن التعليم » ، وكلمة « التثقيف » ساقطة من م . وفي النسختين :

« وإن كان يحسن التعليم » ، والوجه ما أثبت .

وكان الله تعالى يكلم آدم كما كان يكلم ملائكته ، ثم علمه الأسماء كلها ؛ ولم يكن ليعلمه الأسماء كلها إلا بالمعاني كلها ، فإذا [كان ^(١)] ذلك كذلك فقد علمه ^(٢) جميع مصالحه ومصالح ولده ، وتلك نهاية طباع الآدميين ، ومبلغ قوى المخلوقين .

٨ - فصل منه

فأما قولهم 'إنا نقول على الناس ما لا يعرفونه' ^(٣) ، ولا يجوز أن يدينوا به ، وهو قولنا إن اليهود قالت : إن الله تعالى فقير ونحن أغنياء . وأنها قالت : إن يد الله مغلولة ، وإنها قالت : إن عزيزاً ابن الله ، وهم مع اختلافهم وكثرة عددهم ، ينكرون ذلك ويأبونه أشد الإباء .

قلنا لهم : إن اليهود لعنهم الله تعالى كانت تطعن على القرآن ، وتلمس نقضه ، وتطلب عيبه ، وتخطئ فيه صاحبه ، وتأتيه من كل وجه ، وترصده بكل حيلة ، ليلتبس على الضعفاء ، وتستميل قلوب الأغنياء ^(٤) .

فلما سمعت قول الله تعالى لعباده الذين أعطاهم ، قرصاً ، وسأهم قرصاً على التضعيف ، فقال عز من قائل : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْصًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ^(٥) ﴾ . قالت اليهود ^(٦) على وجه الطعن والعيب والتخطفة والتعنّت : تزعم أن الله يستقرض منا ، وما استقرض منا

(١) تكلمة يفنقر إليها الكلام .

(٢) ب : فهل علمه ، صوابه في م .

(٣) سقطت كلمة « لا » من النسختين ، ولا يستقيم الكلام بدونها .

(٤) ب : « الأغنياء » ، صوابه في م . وفي النسختين : « ويستميل » ، تحريف .

(٥) الآية ٢٤٤ من سورة البقرة . وقراءة نصب « فيضاعف » هي لعاصم وابن عامر ويعقوب .

وقراءة الجمهور « فيضاعفه » بالرفع على الاستثناف . إتحاف فضلاء البشر ١٥٩ .

(٦) ب : « قالت » فقط .

إِلَّا لفقره وغيانا ! فكفرت بذلك القول إذ كان^(١) على وجه التَكْذِيب والتَّخْطئة ، لا على وجه أَنَّ دينها كان في الأصل أَنَّ الله فقيرٌ ، وأنَّ عباده أغنياء . وكيف يعتقد إنسان أنَّ الله عاجزٌ عما يَقْدِر عليه ، مع إقراره^(٢) بأنَّه الذي خلقه ورزقه ، وإن شاء حرّمه ، وإن شاء عذّبه ، وإن شاء عفا عنه . وقدرته على جميع ذلك كقدرته على واحد .

ومجاز الآية في اللغة واضح ، وتأويلها بين ؟ وذلك أنَّ الرجل منهم كان يُقرض صاحبه لإرفاقه^(٣) ، ليعود إليه مع أصل ماله اليسير من ربحه ، ثم هو مخاطبٌ به إلى أن يعود في ملكه . فقال لهم - بحسن عادته ومِنته : أسوأ فقراءكم^(٤) ، وأعطوا في الحق أقرباءكم ، من المال الذي أعطيتكم ، والنعمّة التي خولتكم ، بأمرى إياكم وضمانى لكم ، فأعتده منكم قرضاً وإن كنت أولى به منكم ، فأنّا مؤفوكم حقوقكم إلى ما لا ترتقى إليه همة ولا تبلُغه أمنيّة . على أنكم قد أمّنتم من الخطار ، وسلمتم من التَّغْيِير .

والرَّجُل يقول لعبده^(٥) : أسلّفتي درهماً ، عند الحاجة تعرّض له^(٦) ، وهو يعلم أنَّ عبده وماله له . وإنّما هذا كلامٌ وقَعَالٌ يدلُّ على حُسن الملكة ، والتفَضُّل على العبد والأمة ، وإخبارٌ منه لعبده أنّه سيُعِيد عليه ما كانت سخّت به نفسه .

(١) ب : « إذا كان » ، صوابه في م .

(٢) في النسختين : « مع قراره » .

(٣) الإرفاق : النفع . وفي م : « لإرفاقه » .

(٤) المؤاساة : مصدر آسأه بماله : أناله منه وجعله فيه أسوة ، فهي المشاركة . وفي الحديث « ما أحد عندي أعظم يداً من أبي بكر ، آسأني بنفسه وماله » . وفي ب : « واسوا » على التخفيف ، وإن ذكر صاحب اللسان أنها لغة ضعيفة ، في حديث الحديبية : « إن المشركين واسونا للصالح » .

(٥) ب : « لعبد » ، صوابه في م .

(٦) في النسختين : « تقرض له » ، تحريف ما أثبت .

وهذا ليس بغلطٍ في الكلام ولا يضيِّق فيه ^(١) ولكن المتعنّت يتعلّق بكلِّ سبب ، ويتشبّه بكلِّ ما وجد .

وأما إخباره عن اليهود أنّها قالت : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ^(٢) ، فلم يذهب إلى أنّ اليهود ترى أنّ ^(٣) ساعده مشدودة إلى عنقه بغلّ . وكيف يذهب إلى هذا ذاهبٌ ، ويدينُ به دائنٌ ؟ ! لأنه لا بدّ أن يكون يذهب إلى أنّه غلّ نفسه أو غلّه غيره . وأيُّهما كان ، فإنّه منقُى عن وهمِ كلِّ بالغٍ يحتمل التكليف ، وعاقليّ يحتمل التثقيف ، ولكنّ اليهود قَوْمٌ جَبْرِيَّةٌ ، والجبريَّة ^(٤) تُبْحَلُ اللهُ مرّةً ، وتظلمه مرّةً ^(٥) ، وإن لم تُقرَّ بلسانها ، وتُشهد على إقرارها ، بقولهم : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ يَعْنُونَ بِرِّهٖ وإِحْسَانِهِ ^(٦) . وقولهم : مَغْلُولَةٌ ، لا [يعني] ^(٧) أَنْ غَيْرَهُ حَبَسَهُ وَمَنَعَهُ ، ولكن إذا كان عندهم أنّه الذي منع أياديّه ، وَحَبَسَ نِعَمَهُ ؛ فهي مَحْبُوسَةٌ بحَبْسِهِ ، ومُمنوعةٌ بمنعه .

والذي يدلُّ على أنّهم أرادوا باليدينِ النعمة والإفضال ، دون

(١) في الأصلين : « وهذا ليس بغلط في الكلام ولا يضيِّق فيه » .
 (٢) الآية ٦٤ من سورة المائدة . (٣) في النسختين : « بأنّ » تحريف .
 (٤) في اللسان : « الجبرية : الذي يقولون : أجبر الله العباد على الذنوب ، أي أكرههم عليه » . والمعروف عند المتكلمين أن الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد ، وإضافته إلى الرب تعالى . . والجبرية أصناف . فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل أصلا . والجبرية المتوسطة التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة . فأما ما أثبت للقدرة الحادثة أثرًا ما في الفعل وسعى ذلك كسبًا فليس يجزى . والمعترلة يسمعون من لم يثبت للقدرة الحادثة في الإبداع والإحداث استقلا - جبرياً . الملل والنحل ١ : ١٠٨ .
 (٥) في اللسان (ظلم ٢٦٧) : « وظلمه (بالتشديد) : أنباه أنه ظالم ، أو نسبه إلى الظلم » وأنشد :

أمتت تظالمني ولست بظالم وتنبهني نهباً ولست بنام

وفي ب : « وتظلمه » ، صوابه ما أثبت من م .

(٦) يره ، ساقطة من ب . وهي في م : « يده » ، ووجه هذه ما أثبت .

(٧) تكلمة يفتقر إلى مثلها الكلام .

السَّاعِدِ وَالذَّرَاعِ ، جَوَابُ كَلَامِهِمْ حِينَ قَالَ : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ^(١) 》 . دليلاً على ما قلنا ، وشاهداً على ما وصَّفنا .

فإن قالوا : فكيف لم نقل إن اليهود بَخَلَّتْ اللهُ وَجَحَدَتْ إِحْسَانَهُ ، دون أن يقال إن يد الله مغلولة ؟

قلنا : إن أراد الله الإخبارَ عن كُفْرِ قَوْمٍ ^(٢) وَسَخَطِ عَلَيْهِمْ ، فَلَيْسَ لَهُمْ عَلَيْهِ أَنْ يَعْبُرَ عَنْ دِينِهِمْ وَعَيْبِهِمْ بِأَحْسَنِ الْمَخَارِجِ ، وَيَجْلِيهَا ^(٣) بِأَحْسَنِ الْأَلْفَاظِ . وكيف وهو يريد التَّنْفِيرَ عَنْ قَوْلِهِمْ ، وَأَنْ يَبْغِضَهُمْ إِلَى مَنْ سَمِعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ .

ولو أراد الله تعالى تليينَ الأَمْرِ وَتَصْغِيرَهُ وَتَسْهِيلَهُ ، لَقَالَ قَوْلًا غَيْرَ هَذَا . وكلُّ ^(٤) صَدَقٌ جَائِزٌ فِي الْكَلَامِ . فَهَذَا مَجَازٌ مَسْأَلْتُهُمْ فِي اللَّغَةِ ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَهْلِ الْبَيَانِ وَالْفَصَاحَةِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : إِنَّ الْيَهُودَ لَا تَقُولُ إِنَّ عَزِيرًا ابْنُ اللَّهِ . فَإِنَّ الْيَهُودَ فِي ذَلِكَ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا خَاصٌّ ، وَالْآخَرُ عَامٌّ فِي جَمَاعَتِهِمْ .

فَأَمَّا الْخَاصُّ ، فَإِنَّ نَاسًا مِنْهُمْ لَمَّا رَأَوْا عَزِيرًا أَعَادَ عَلَيْهِمُ التَّوْرَةَ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ ، بَعْدَ دُرُوسِهَا وَشَتَاتِ أَمْرِهَا غَلَوُوا فِيهِ ، وَقَالُوا ذَلِكَ ، وَهُوَ مَشْهُورٌ ^(٥) مِنْ أَمْرِهِمْ . وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْ بَقَايَاهُمْ لِبَالِيَمِينَ وَالشَّامِ وَدَاخِلِ بِلَادِ الرُّومِ . وَهَؤُلَاءِ بِأَعْيَانِهِمْ يَقُولُونَ : إِنَّ إِسْرَائِيلَ اللَّهُ ابْنُهُ ^(٦) ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ عَلَى خِلَافِ تَنَاسُبِ النَّاسِ ، وَصَارَ ^(٧) ذَلِكَ الْاسْمَ لِعَزِيرِ

(١) من الآية ٦٤ في سورة المائدة .

(٢) ب : « على كفر قوم » ، صوابه في م .

(٣) م : « ويجليها » .

(٤) في النسختين : « وحل » ، ووجهه ما أثبت . (٥) ب : « مشهود » .

(٦) انظر ماسبق في ص ٣٣١ - ٣٣٢ . وهو ترجمة لكلمتي « إسرا » و « إيل » . وفي

تفسير أبي حيان ١ : ١٧١ أن « إسرا » بمعنى العبد ، في العبرانية .

(٧) ب : « وسار » بالسين .



بالطاعة والعلامة ، والمرتبة لأنه (١) من ولد إسرائيل .
 والقول الذي هو عامٌ فيهم ، أن كلَّ يهوديٍّ (٢) ولدهُ إسرائيل ،
 فهو ابنُ الله ، إذ لم يجدوا ابنَ ابنٍ قطُّ إلا وهو ابن .

٩ - فصل منه

فإن قالوا : ليس المسيحُ روحَ الله وكلمته ، كما قال عزّ ذكره :
 ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منه ﴾ (٣) أو ليس قد أخبر عن نفسه
 حين ذكر أمه أنه نفخ فيها من رُوحه ؟ أو ليس مع ذلك قد أخبر
 عن حصانة فرجها وطهارتها (٤) ؟ أو ليس مع ذلك قد أخبر أنه لا أبَ
 له ، وأنه (٥) كان خالقاً ، إذ كان يخلُق من الطين كهيئة الطير ، فيكون
 حياً طائراً ؟ فأى شيءٍ بقي (٦) من الدلالات على مخالفته لمشكلة (٧)
 جميع الخلق ، ومباينة جميع البشر ؟

قلنا لهم : إنكم إنما سألتمونا عن كتابنا ، وما يجوزُ في لغتنا
 وكلامنا ، ولم تسألونا عما يجوزُ في لغتكم وكلامكم . ولو أننا جَوَزنا
 ما في لغتنا مالا يجوز ، وقلنا على الله تعالى مالا نعرف ، كنّا بذلك عند
 الله والسامعين في حدِّ المكائرين ، وأسوأ حالاً من المنقطعين ، وكنا قد
 أعطيناكم أكثرَ مما سألتم ، وجزنا بكم فوق أمنيَّتكم .

-
- (١) ب : « لا لأنه » . و « لا » مقحمة تفسد الكلام .
 (٢) في النسختين : « أن يكون يهودي » .
 (٣) الآية ١٧١ من سورة النساء .
 (٤) في الأصل : « أو ليس مع ذلك قد أخبر عن حصانة فرجها وطهارتها ، أخبر أنه نفخ فيها
 من رُوحه » وفي هذا تكرار لاوجه له .
 (٥) ب : « وأن » ، صوابه في م .
 (٦) في النسختين : « فني » ، تحريف .
 (٧) في النسختين : « بمشكلة » . والمقصود نفي المشاكلة .

ولو كننا إذا قلنا: عيسى رُوح الله وكلمته ، وجب علينا (١) في لغتنا أن يجعله الله ولداً ، ونَجْعَلَهُ (٢) مع الله تعالى إلهاً ، ونقول (٣) : إنَّ روحاً كانت في الله فانفصلت منه إلى بدنِ عيسى وبطنِ مريم . فكنا إذا قلنا : إنَّ الله سمى جبريلَ رُوحَ الله ورُوحَ القدس ، وجب علينا أن نقول فيه ما يقولون في عيسى . وقد علمت أن ذلك ليس من ديننا ، ولا يجوز ذلك بوجهٍ من الوجوه عندنا ، فكيف نُظهِر للناس قولاً لا نقولُه ، وديناً لا نرتضيه .

ولو كان قوله جلَّ ذكره (٤) : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ (٥) يُوجبُ نفخاً كنفخ الزُّقِّ ، أو كنفخ الصَّانِعِ في المِنْفَاخِ ، وأنَّ بعضَ الرُّوحِ التي كانت فيه انفصلت فاصلةً إلى بطنه وبطن أمه (٦) ، لكان قوله في آدم يوجب له ذلك ؛ لأنه قال : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ (٧) . . إلى قوله : ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ (٨) وكذلك قوله : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٩) .

والنفخ يكون من وجوه ، والرُّوح يكون من وجوه :

فمنها ما أضافه إلى نفسه ، ومنها ما لم يُضِفْهُ إلى نفسه . وإنما

(١) ب : « وجب علينا » ، تحريف ، ما في م .

(٢) في النسختين : « ويجعله » ، محرف .

(٣) في النسختين : « ويقول » .

(٤) في النسختين : « ولو قال جل ذكره » . فينقطع الكلام عما بعده .

(٥) من الآية ٩١ من الأنبياء و ١٢ من التحريم .

(٦) في النسختين : « بعض روح » .

(٧) في النسختين : « بطنها وبطن أمها » .

(٨) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة السجدة .

(٩) الآية ٩ من سورة السجدة .

(١٠) الآية ٢٩ من الحجر و ٧٢ من ص .



يكون ذلك على قدر ما عظم من الأمور ، فمما سمى روحاً وأصافه إلى نفسه ، جبريل الروح الأمين ، وعيسى بن مريم . والتوفيق كقول موسى حين قال : إن بني فلان أجابوا فلاناً النبي ولم يُجيبوك . فقال له ^(١) : « إن روح الله مع كل أحد » ^(٢) .

وأما القرآن فإن الله سمّاه روحاً ، وجعله يُقيم للناس مصالحهم في دنياهم وأبدانهم ، فلما اشتبها من هذا الوجه أزمهما اسمهما فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ ﴾ ^(٤) .

١٠ - فصل منه

قد جعلنا في جواباتهم وقدمنا مسائلهم ^(٥) ، بما لم يكونوا ليلغوه لأنفسهم ، ليكون الدليل تاماً ، والجواب جامعاً ، وليعلم من قرأ هذا الكتاب ، وتدبر هذا الجواب ، أننا لم نعتنم عجزهم ، ولم ننتهز غررتهم ، وأن الإدلال بالحجة ، والثقة بالفلج والنصرة ، هو الذي دعانا إلى أن نُخبر عنهم بما ليس عندهم ، وألاً نقول في مسألتهم بمعنى لم ينتبه له مُنتبه ، أو يُشير إليه مشير ^(٦) ، وألاً يُوردوا فيما يستقبلون ، على

(١) ب : « فقالوا له » ، تحريف .

(٢) إشارة إلى ماجاء في سفر العدد ١١ : ٢٧ - ٢٩ : « فركض غلام وأخبر موسى وقال : ألداد ومياد يتبان في المحلة . فأجاب يشوع بن نون خادم موسى من حدائته وقال : ياسيدي موسى ، اردعهما . فقال له موسى : هل تغار أنت في ، ياليت كل شعب الرب كانوا أنبياء إذا جعل الرب روحه عليهم » .

(٣) الآية ٥٣ من الشورى .

(٤) الآية ٤ من المارج .

(٥) م : « وقومنا مسائلهم » .

(٦) في النسختين : « أو يشير » ، وإنما هو عطف على : « لم ينتبه » .

ضُعْفَانِيْنَا وَمَنْ قَصُرَ نَظْرُهُ مِنَّا ، شَيْئاً إِلَّا وَالْجَوَابُ قَدْ سَلَفَ فِيهِ ،
وَأَلَسْتَهُمْ قَدْ مَدَلْتُ بِهِ ^(١) .

ونسألهم إن شاء الله ، ونجيب عنهم ، ونستقصى لهم في جواباتهم ،
كما سألناهم أنفسنا ^(٢) ، واستقصينا لهم في مسائلهم
فيقال لهم : هل يخلو المسيح أن يكون إنساناً بلا إله ، أو إلهاً بلا
إنسان ؟ أو أن يكون إلهاً وإنساناً ؟

فإن زعموا أنه كان إلهاً بلا إنسان ، قلنا لهم : فهو الذي كان
صغيراً فشبَّ والتحقى ^(٣) ، والذي كان يأكل ويشرب ، وينجو
ويبول ، وقُتِلَ بزعمكم وصُلب ، وولدتَه مريمُ وأرضعته ، أم غيره هو
الذي كان يأكلُ ويشرب على ما وصفنا ؟ فأى شيء معنى الإنسانِ
إلا ما وصفنا وعددنا ؟

وكيف يكون إلهاً بلا إنسان ، وهو الموصوفُ بجميع صفات
الإنسان . وليس القولُ في غيره ممن صفته كصفته إلا كالقول فيه
كاشتمالها على غيره ؟

وإن زعموا أنه لم ينقلب عن الإنسانية ولم يتحول عن جوهر
البشرية ، ولكن لما كان اللاهوت فيه ، صار خالقاً وسمى إلهاً . قلنا
لهم : خبرونا عن اللاهوت . أكان فيه وفي غيره ^(٤) ، أم كان فيه دون
غيره ؟

(١) مدلت به : أذاعته وأفضته ، وأصل المذل إشاعة السر . قال قيس بن الخطين :

فلا تمذل بسرك كل سر إذا ما جاوز الاثنيْن فاشي

ب : « قد دلت به » م : « قد زلت به » ، والوجه ما أثبت .

(٢) ب : « كما سألناهم أنفسنا » ، صوابه في م .

(٣) التحى : ظهرت لحية . ب : « والتحقى » بالجيم ، تحريف .

(٤) ب : « أكان فيه وفي غيره » فقط ، وبقية العبارة من م مع سقوط كلمة « فيه »

الثانية ، وقد أثبتنا تكلمة للقول .

فإن زعموا أنه كان فيه وفي غيره ، فليس هو أولى بأن يكون خالقاً ويتسمى إلهاً من غيره . وإن كان فيه دون غيره ، فقد صار اللاهوتُ جسماً .

وسنقول في الكسر عليهم إذا صرنا إلى القول في التشبيه ، وهو قولُ معظمهم ^(١) ، والذي كان عليه جماعتهم ، إلا من خالفهم من متكلميهم ومتفلسفيهم ، فإنهم يقولون بالتشبيه ^(٢) والتجسيم ، فراراً من كثرة الشناعة ، وعجزاً عن الجواب . وكفى بالتشبيه قبحاً ، وهو قولُ يعمُّ اليهودَ وإخوانهم من الرافضة ، وشياطينهم من المشبهة والحشوية ^(٣) والناطقة ^(٤) ، وهو بعد متفرقٌ في الناس . والله تعالى المستعان .

(١) ب : « قول منع لهم » م : « متعلم » ، وأثبت ما رأيتُه الصواب .

(٢) في النسختين : « في التشبيه » .

(٣) انظر ما سبق من الكلام على الحشوية في ص ٢٨٨

(٤) في النسختين : « النابتة » ، وأثبت واوَّ قبلها لأن هؤلاء غير هؤلاء . وانظر للناطقة

رسائل الجاحظ ٢ : ٥ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ .



فهرس الكتب والرسائل

	صفحة
الحاسد والمحسود .	٣
المعلمين .	٢٥
التربيع والتدوير .	٥٣
في مدح النبيذ وصفة أصحابه .	١١١
طبقات المغنين .	١٢٩
النساء .	١٣٧
مناقب الترك .	١٦١
حجج النبوة .	٢٢١
خلق القرآن .	٢٨٣
الرد على النصارى .	٣٠١